طبعة خاصة بمصر

إيزابيل الليندي

ما وراء الشتاء

ترجمة: صالح علماني



دار الآداب



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

ما وراء الشتاء

إيزابيل ألليندي

ما وراء الشتاء

ترجمة: صالح علماني

رواية

دار الآداب ـ بيروت

ما وراء الشتاء

إيزابيل ألليندي / كاتبة من التشيلي

الطبعة الأولى عام 2018

ISBN 978-9953-559-8

Más Allá Del Invierno



دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com







إلى روجر كوكراس، من أجل الحبّ غير المتوقَّع

ووسط الشتاء، أدركتُ أخيراً

أنّ في داخلي صيفاً في حالة سُبات شتويّ.

ألبير كامو، «العودة إلى تيبازا»

لوثيا

بروكلين

كان الشتاء لا يزال قيد الانتظار، في أواخر شهر كانون الأوّل/ ديسمبر ٢٠١٥. جاء عيد الميلاد بإزعاج نواقيسه، بينما الناس لا يزالون بأكمام قصيرة وينتعلون صنادل مفتوحة، بعضهم يحتفي بسهوِ الفصول ذاك، والبعض يخشى الاحتباس الحراريّ، بينما تُطلّ من خلال النوافذ أشجارٌ اصطناعيَّة ملطَّخة بصقيع فضّيّ، مولِّدةً بذلك بلبلة للسناجب والعصافير. استيقظت الطبيعة فجأة نافضة عنها السباتَ الخريفيّ، بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على عيد رأس السنة الجديدة، حين لم يعد هُناك من يفكّر في تأخُّر مواعيد رزنامة الفصول، وانهالت بأسوأ عاصفة ثلجيَّة عرفتها الذاكرة الجماعيَّة.

هنالك جُحر صغير من إسمنت وآجرّ، في قبو في منطقة بروسبكت هايز، تراكمت عند مدخله تلَّةٌ من الثلج، حيث كانت لوثيا ماراث تلعن البرد. إنَّ لها طبعَ أهل بلادها الرواقيّ: فهي معتادة على الزلازل والفيضانات؛ على التسوناميَّات والكوارث السياسيَّة. وإذا ما مضت فترة من الزمن من دون وقوع نكبة، فإنَّها تشعر بالقلق. ومع ذلك، لم

تكن مهيَّأة، في أيِّ حال، لهذا الشتاء السيبيريِّ الآتي إلى بروكلين عن طريق الخطأ. تقتصر العواصف التشيليَّة على سلسلة جبال الأنديز والجنوب القصيّ، في أرض النار، حيث تنفرط القارَّة جُزُرًا صغيرة مجرَّحة بضربات سكاكين ريح الجنوب. هناك ينخر الثلج العظام وتكون الحياة قاسية. لكنَّ لوثيا من مدينة سنتياغو، ذات السمعة غير المستحقَّة بطيب مناخها الحميد، وحيث الشتاء رطب وبارد والصيف جافٌّ وقائظ. المدينة محصورة ما بين جبال بنفسجيَّة، يطلع عليها الصباح أحيانًا وقد غطَّاها الثلج؛ وينعكس عندئذ أشدّ ضياء نقيّ في العالم على تلك القمم ذات البياض المبهر. يسقط على المدينة نفسها غبارٌ ثلجيٌّ دقيق، وكئيبٌ وشاحبٌ، في مناسبات نادرة جدًّا، كأنَّه الرماد، لا يتوصَّل إلى تبييض المشهد المدينيّ قبل أن يتحلَّل متحوّلًا إلى طين متَّسخ. ولا يظهر الثلج صافيًا ونقيًّا إلَّا من بعيد على الدوام.

كان الثلج يشكِّل كابوسًا، في غرفتها الضيِّقة في بروكلين، على عمق متر تحت مستوى الشارع، وبتدفئة سيِّئة. ويَحُول الزجاج المغطَّى بالصقيع دون دخول الضوء من النوافذ الضيِّقة، وتسود في الداخل عتمة خفيفة لا تكاد تخفِّف منها المصابيح العارية المتدلِّية من السقف. لم يكن هنالك في الحجرة إلّا ما هو أساسيّ: خليطٌ من قطع أثاث مخلَّعة تداولتها يد أكثر من مستخدم، وبعضُ أواني المطبخ. أمَّا المالك، ريتشارد باوماستير، فلم يكن يهتمّ بمسألة الديكور أو وسائل الراحة.

أعلنت العاصفة عن نفسها يوم الجمعة بهطول ثلج كثيف، ترافقه رياح عاصفة كنست، بضربات سياطها، الشوارعَ شبه المهجورة. كانت الأشجار تنحني أمام الرياح، وقتلت العاصفة الطيور التي نسيت أن تهاجر أو تحتمي، مخدوعة بالدفء غير المعهود في الشهر السابق.

وحملت شاحنات القمامة أكياسًا من عصافير الدوريّ المتجمِّدة، عندما بدأت عمليَّات إصلاح الأضرار. أمَّا ببغاوات مقبرة بروكلين الغامضة، فقد نجت من هوج العاصفة، مثلما تأكَّد بعد ثلاثة أيَّام، عندما عادت إلى الظهور سليمة، تنبش بمناقيرها بين القبور. أقدم مراسلو محطَّات التلفزة، منذ يوم الخميس، بملامحهم المأتميَّة ونبرات أصواتهم المنفعلة بصرامة عند تقديمهم أخبارًا عن الإرهاب في بلدان نائية، على التنبُّؤ باستمرار العاصفة في اليوم التالي، وبحدوث كوارث خلال نهاية الأسبوع. وأعلنت مدينة نيويورك في حالة طوارئ. وامتثالًا من عميد الكلِّيَّة التي تعمل فيها لوثيا للتحذير، أصدر أمرًا بعدم الذهاب لإعطاء الدروس. وكان يمكن للوصول إلى منهاتن، في أيّ حال، أن يكون مغامرة بالنسبة إليها.

* * *

انتهزت فرصة هذه الحرِّيَّة غير المتوقَّعة في ذلك اليوم، فعمدت إلى طبخ قِدْر «كاثويلا إنعاش الموتى»؛ ذلك الحساء التشيليّ الذي يُعيد الحماسة في النكبات ويُعافي البدن من الأمراض. لقد أمضت لوثيا أكثر من أربعة شهور في الولايات المتَّحدة. كانت تأكل خلالها في كافيتريا الجامعة، ولا تجد الحماسة للطبخ، باستثناء مناسبتين اثنتين فعلت فيهما ذلك بدافع الحنين أو بنيَّة الاحتفال بصداقة. ومن أجل هذه «الكاثويلا» الحقيقيَّة، أعدَّت مَرَقًا مغذِّيًا جيِّد التتبيل والبهار، إذ بدأت بقلي البصل واللحم، ثم سلق خضار متنوِّعة وبطاطا وقرع، وأضافت أخيرًا الأرزّ. استخدمت القدور كلّها، وبدا المطبخ البدائيّ في القبو كما لو أنَّه قد تعرَّض لقصف، ولكنَّ النتيجة كانت تستحقّ ذلك العناء، وبدَّدت الإحساس بالوحدة الذي استولى عليها عند بدء

العاصفة؛ تلك الوحدة التي كانت تأتي من قبل بلا إعلان مسبق. كزائر مخاتل، ظلّت مبعدة في أقصى ركن من وعيها.

أحسّت برعب الطفولة الأحشائيّ، في تلك الليلة. بينما الريح تزمجر في الخارج، حاملةً معها دوّامات ثلج ومتسرّبة بغطرسة عبر الشقوق. كانت تعرف أنّها آمنة في كهفها. خوفها من عناصر الطبيعة كان سخيفًا، لا وجود لما يستدعي إزعاج ريتشارد، اللّهم إلّا كونه الشخص الوحيد الذي يُمكنها اللجوء إليه في مثل هذه الظروف. ذلك بأنّه يعيش في الطابق الذي فوقها. واستسلمت في الساعة التاسعة ليلًا لضرورة سماع صوت بشريّ، واتّصلت به.

«ماذا تفعل؟» سألته محاولة مداراة جزعها.

ـ أعزف البيانو. أيزعجكِ الضجيج؟

ـ لا أسمع البيانو، الشيء الوحيد المسموع هنا تحت هو عاصفة نهاية العالم. هل هذا طبيعيٌّ هنا، في بروكلين؟

ـ يحدث بين حين وآخر أن يسوء الجوّ في الشتاء، يا لوثيا.

ـ إنّني خائفة.

ـ ممَّ؟

ـ خوف وحسب، لا شيء محدَّدًا. أعتقد أنّه سيكون من الرائع أن أطلب منك المجيء لمرافقتي بعض الوقت. لقد أعددت كاثويلا. إنّه حساء تشيليّ.

ـ أهو وجبة نباتيّة؟

ـ لا. حسنًا... لا بأس يا ريتشارد، ليلة سعيدة.

ـ ليلة سعيدة.

تناولت جرعة من شراب البيسكو ودسَّت رأسها تحت الوسادة. نامت بصورة سيِّئة، فكانت تستيقظ كلّ نصف ساعة بالحلم المجزَّأ نفسه الذي ترى فيه أنَّها تغرق في سائل كثيف وحامض كاللبن.

* * *

واصلت العاصفة، في يوم السبت، طريقها الهائج في اتِّجاه الأطلسيّ، لكن سوء الطقس تواصل في بروكلين. برد وثلج، فلم تشأ لوثيا الخروج، لأنَّ شوارع كثيرة كانت لا تزال مغلقة، على الرَّغم من أنَّ أعمال فتحها وتنظيفها قد بدأت منذ الفجر. ستكون لديها ساعات كثيرة للقراءة وتحضير دروسها للأسبوع القادم. شاهدت، في نشرة الأخبار، أنَّ العاصفة ما زالت تزرع الدمار أينما مرَّت. لقد كانت سعيدة بتوقُّع الهدوء: قراءة رواية جيِّدة واستراحة. سوف تتوصَّل في لحظة ما إلى أن يأتي أحدهم ليزيح الثلج من أمام بابها. لن تكون ثمَّة مشكلة، إذ بدأ صِبْيَة الحيّ بعرض تقديم خدماتهم ليحصلوا على بضعة دولارات. حمدت حُسْنَ حظِّها، فقد أدركت أنَّها تشعر بالراحة لكونها تعيش في جحر بروسبكت هايز الموحش، والذي تبيَّن لها أنَّه ليس شديد السوء في نهاية المطاف.

في المساء، وقد أضجرها الحبس بعض الشيء، تقاسمت الحساء مع مارثيلو، كلبها من فصيلة الشيهواهوا، وناما بعد ذلك معًا في سرير، فوق فرشة متحوِّلة بما فيها إلى فُتات متكلِّس، وتحت كومة بطَّانيَّات، لمشاهدة عدَّة حلقات من مسلسل عمليَّات اغتيال. كانت الشقَّة متجمِّدة، وكان على لوثيا أن تضع طاقيَّة صوفيَّة وترتدي قفازين.

في الأسابيع الأولى، عندما أثقل عليها قرار مغادرتها تشيلي، حيث يمكن لها هناك أن تضحك بالإسپانيَّة على الأقلّ، كانت تواسي نفسها، بيقين، بأنَّ كلَّ شيء يمكن أن يتبدَّل، وأيّ تعاسة تلقاها في أحد الأيَّام، ستتحوَّل إلى قصَّة قديمة في اليوم التالي. هذا صحيح، فشكوكها لم تستمرّ إلَّا قليلًا جدًّا: إنَّها تستمتع في عملها. هنالك ماركوس، وقد صارا صديقين في الجامعة وفي الحيّ، والناس لطفاء في كلِّ مكان، ويكفي الذهاب ثلاث مرَّات إلى الكافتيريا نفسها حتى يستقبلوها كفرد من الأسرة. الفكرة التشيليّة عن أنَّ اليانكيين أناس فاترون ما هي إلَّا خُرافة. الشخص الفاتر الوحيد، إلى هذا الحدِّ أو ذاك، والذي كان من «نصيبها»، هو ريتشارد بوماستير، صاحب المسكن الذي تستأجره. حسنًا، فليذهبْ إلى الشيطان.

كان ريتشارد قد دفع ثمنًا بخسًا في مقابل هذا البيت الكبير القديم، المشيَّد بآجرّ بُنّيّ في بروكلين، مثل مئات الأبنية الأخرى في الحيّ، لأنَّه اشتراه من صديقه المفضَّل، وهو أرجنتينيّ ورث بصورة مفاجئة ثروة كبيرة، وذهب إلى بلاده كي يُدير تلك الثروة. وبعد بضع سنوات من ذلك، صار البيت نفسه، وقد أصبح متداعيًا أكثر، يساوي ما يزيد على ثلاثة ملايين دولار. لقد اشتراه قبل قليل من مجيء شبَّان منهاتن المحترفين، في هجمة جماعيّة، لشراء البيوت السكنيَّة الطريفة وإعادة تصميمها، رافعين بذلك الأسعار إلى مستويات فضائحيَّة. كان الحيّ قبل ذلك ميدانَ إجرام ومخدَّرات وعصابات؛ لا أحد يجرؤ على التجوُّل فيه ليلًا، ولكنْ في الفترة التي جاء فيها ريتشارد، تحوَّل إلى واحدةٍ من أكثر المناطق المرغوبة في البلاد، على الرَّغم من دلاء القمامة، والأشجار الهزيلة الجرداء، وخردة الحدائد في الأفنية. لقد

نصحت لوثيا ريتشارد، ممازحة، بأن يبيع تلك اللقية الثمينة ذات الأدراج العرجاء الملتوية والأبواب المخلّعة، ويذهب إلى إحدى جزر الكاريبي ليهرم هناك بطريقة ملوكيّة، لكنَّ ريتشارد كان رجلًا ذا مزاج مكفهرّ، تشاؤمه الطبيعيّ يتغذّى على مجازفات وعراقيل بيت من خمس غرف فسيحة فارغة، وثلاثة حمّامات لا تُستخدم، وعليّة مغلقة وطابق أوّل بسقف عالٍ جدًّا إلى حدّ يحتاج معه إلى سُلّم تلسكوبيّ من أجل استبدال مصابيح الثريّا المعلّقة.

كان ريتشارد بوماستير هو رئيس لوثيا في جامعة نيويورك، حيث لديها عقد أستاذة زائرة لستّة شهور. تبدّت لها الحياة بالأبيض، في نهاية الشهور الستّة. كانت في حاجة إلى عمل آخر ومكان آخر تعيش فيه، ريثما يتحدّد مستقبلها في المدى الطويل. فعاجلًا أو آجلًا ستعود إلى تشيلي لتمضي فيها ما تبقّى من أيّام حياتها، ولكن ما زال هنالك وقت طويل لذلك، ولاسيّما أنّه لم يعد ثمّة سبب يدعوها إلى العودة إلى بلادها منذ أن استقرّت ابنتها دانييلًا في ميامي، حيث تعمل في مجال البيولوجيا البحريّة، وربّما تكون عاشقةً ولديها خططٌ للبقاء، فلا شيء يدعوها إلى الذهاب إلى بلادها. تفكّر في أن تستغلّ جيّدًا سنوات عافيتها المتبقّية لها قبل أن تهزمها الشيخوخة. تريد العيش في الغربة، حيث تحدّيات الحياة اليوميّة تُبقي ذهنها مشغولًا وقلبَها في هدوء نسبيّ، أمّا في تشيلي، فسيسحقُها ثِقل ما هو معروف، والروتين والمحدوديّة. هناك تشعر بأنّه محكوم عليها بأن تكون عجوزًا وحيدة ومحاصَرة بذكريات سيّئة غير مجدية، بينما تتوافر في الخارج إمكانيّة وجود مفاجآت وفرص.

* * *

لقد وافقت على العمل في مركز دراسات أميركا اللاتينيَّة والكاريبي كي تبتعد عن بلادها بعض الوقت، وتكون أقرب إلى ابنتها دانييلا. عليها أن تُقرّ أيضًا بأنَّها وافقت على العمل لأنَّ ريتشارد يجتذب اهتمامها. فهي خارجة من خيبة أمل غراميَّة، وقد فكَّرت في أنَّه يُمكن لريتشارد أن يكون علاجًا، ووسيلة لتنسى بصورة نهائيَّة خوليان، حُبَّها الأخير، والوحيد الذي خلَّف فيها أثرًا معيَّنًا بعد طلاقهما في ٢٠١٠. أدركت لوثيا كم يكون قليلًا عددُ العاشقين لامرأة في مثل عمرها، خلال السنوات التي انقضت منذ ذلك الحين. لقد حصلت على بعض المغامرات التي لا تستحقّ مجرَّد ذكرها، إلى أن ظهر ريتشارد. إنَّها تعرفه منذ أكثر من عشر سنوات، حين كانت لا تزال متزوِّجة، وقد أحسَّت بالانجذاب نحوه مُنذ ذلك الحين، وإن لم تستطع أن تحدِّد السبب. فهو ذو طبع مناقض لطبعها. وعلى هامش الشؤون الأكاديميّة، كانت قليلةً الأشياءُ المشتركة بينهما. لقد التقيا بصورة عَرضيَّة في مؤتمرات، وأمضيا ساعات من المحادثات بشأن عملهما، وحافظا على مراسلات منتظمة، من دون أن يكون قد أبدى أدنى قَدْر من الاهتمام الغراميّ. لقد ألمحت إليه لوثيا، في إحدى المناسبات، وهو أمر غير مألوف لديها، لأنَّها تفتقد جرأة النساء المتغنِّجات. طبعُ ريتشارد الساهم وخجلُه كانا طُعمين قويّين للذهاب إلى نيويورك. كانت تتصوّر أنّ رجلًا في هذه الحال لا بدّ من أن يكون عميقًا وجدِّيًّا، ونبيلَ الروح، وجائزةً لمن تتمكّن من تجاوز العقبات التي يزرعها في الطريق إلى أيِّ نوع من العلاقة الحميمة.

كانت لولثيا في الثانية والستّين من عمرها، ولا تزال ترعى تخيُّلات فتاة شابَّة. كان العمر واقعًا لا سبيل إلى تجنُّبه. فعُنُقها

مجعَّد، وبشرتها جافَّة، وذراعاها رضوان، وركبتاها مثقلتان. وقد أذعنت لرؤية كيف كان خصرها آخذًا في الانمحاء، لأنَّها تفتقر إلى التقييد بنظام صارم لمكافحة الانحدار في نادٍ رياضيّ. كان ثدياها لا يزالان فتيين، ولكن ليس لها. فهي تتجنَّب رؤية نفسها عارية، وتشعر بأنّها أفضل حالًا بكثير وهي في ملابسها. كانت تعرف ما هي الألوان والطُّرز التي تناسبها وتجعلها تبدو في صورة أفضل، فتلتزم بها بصرامة. يمكن لها أن تشتري خزانة ملابس كاملة في عشرين دقيقة، من دون أن تسهو عن ذلك ولو بدافع الفضول. المرآة، كما الصور، عدوٌّ لا يرحم، لأنَّها تعرضها ثابتة بنقائصها وبلا تلطيف. كانت ترى أنَّ جاذبيَّتها، في حال وجودها، هي في الحركة. إذ إنَّها مَرِنَة ولديها شيء من اللطافة غير المستحقَّة، لأنَّها لم ترعَها مطلقًا، فهي شَرِهة وكسولة، مثل محظيَّة شرقيَّة. وإذا كانت هنالك عدالة في العالم، فسوف تُعتبر بدينة. إنَّها حفيدة أسلاف فلَّاحين فقراء من كرواتيا؛ أُناسٍ شجعان وربَّما جوعى، أورثوها ميتابوليزمًا محظوظًا. وجهها في صورة جواز السفر، جِدِّيٌّ وبنظرة موجَّهة إلى الأمام، يبدو كوجه سجّانة سوفياتيّة، مثلما اعتادت أن تقول لها ابنتها دانييلًا ممازحة. ولكن لا أحد يراها على هذا النحو: فلديها وجه معبِّر وهي تُحسن استخدام المكياج.

كانت راضية عن مظهرها، باختصار، ومستسلمةً لتردِّي التقدُّم في العمر الذي لا يُهزَم. كان جسدها يهرم، أمَّا في أعماقها فما زالت المراهقة التي كانتها سليمة لم تتأثَّر. ومع ذلك، فإنَّها لا تستطيع أن تتخيَّل العجوز التي ستصير إليها. رغبتها في استخراج عصارة الحياة كانت تتَّسع كُلَّما أحسَّت بأنَّ مستقبلها يتقلَّص وينكمش، وكان جزءً من

هذه الحماسة وهمَها المبهَمَ الذي يصطدم بواقع انعدام الفرص في الحصول على حبيب. كانت تشتاق إلى ممارسة الجنس والرومانسيَّة والحُبّ. الأولى تحصل عليها بين حين وآخر، والثانية كانت مسألة حظّ، أمَّا الحُبّ فجائزة من السماء لن تكون من نصيبها بكلِّ تأكيد، مثلما قالت أكثر من مرَّة لابنتها.

* * *

تحسَّرت لوثيا لأنَّها أنهت غراميَّاتها مع خوليان، ولكنَّها لم تندم قطّ. كانت ترغب في الاستقرار، أمَّا هو، في سنوات عمره الستِّين، فكان لا يزال في مرحلة القفز من علاقة إلى أخرى، مثل عصفور طنّان. وعلى الرَّغم من نصائح ابنتها التي تدعو إلى منافع الحبِّ الحُرّ، فإنَّ العلاقة الحميمة كانت مستحيلة مع شخص ساهٍ، وذهنُه مشغولٌ بنساء أخريات. «ما الذي تريدينه يا أمَّاه؟ أتريدين الزواج؟»، قالت لها دانييلًا ساخرة حين علمت بأنَّها قطعت علاقتها بخوليان. لا، لكنَّها تريد ممارسة الحبّ بحبٍّ، من أجل متعة الجسد وطمأنينة الروح. تريد ممارسة الحبِّ مع شخص يشعر مثلها. تريد أن تكون مقبولة من دون إخفاء شيء وبلا تصنُّع، وأن تعرف الآخر بعمق وتتقبَّله بالطريقة نفسها. تريد شخصًا تمضي معه صباح يوم الأحد في السرير وهما يقرآن الصُّحف؛ شخصًا تمسك يده في السينما، وتضحك معه لبلاهات، وتناقش معه أفكارًا. فقد تجاوزت الحماسة للمغامرات المتصنِّعة.

لقد اعتادت على حيِّزها ومكانها، وعلى صمتها ووحدتها، وتوصَّلت إلى أنَّها تجد صعوبة كبيرة في تقاسم فراشها، وحمَّامها،

وخزانة ملابسها، مع شخص آخر، وأنَّه لا وجود لرجل قادر على إرضاء كلّ ضروريَّاتها. كانت تعتقد، في أيَّام شبابها، أنَّها تُعاني نقصًا إذا كانت بلا حبيب، وتفتقد شيئًا أساسيًّا وجوهريًّا. وفي سنّ النضج، كانت تحمد غنى قرن الوفرة في حياتها. ومع ذلك، وبدافع الفضول فقط، فكَّرتْ، بصورة مبهمة، في اللجوء إلى موقع خدمة مواعيد عبر الإنترنت. لكنَّها تراجعت عن تلك الفكرة فورًا، لأنَّ دانييلًا ستكشفها من ميامي. أضف إلى ذلك أنَّها لا تعرف كيف تصف نفسها كي تبدو جذَّابة إلى حدّ ما من دون أن تكذب. وتوقَّعت أنَّ الشيء نفسه يحدث للآخرين، وأنَّ الجميع يكذبون.

الرجال الذين يناسبونها في العمر يرغبون في نساء أصغر منهم بعشرين أو ثلاثين سنة. إنَّه أمر يُمكن تفهُّمه، فهي أيْضًا لا تروق لها علاقة مع عجوز متوعِّك، وتفضِّل شخصًا قويًّا ويحافظ على شيء من الشباب. وبحسب رأي دانييلًا، فإنَّ كونها تميل إلى الجنس الآخر فقط يشكِّل خسارة عظيمة، لأنَّ هناك فائضًا من النساء الرائعات الوحيدات، بحياة داخليَّة متكتِّمة، وبحالة جسديَّة وانفعاليَّة جيِّدة، وأشدّ جاذبيَّة من معظم الرجال المترمِّلين أو المطلَّقين، والذين في السِّتِّين أو السبعين من العمر، ممَّن يمضون مفلتين خارجًا. كانت لوثيا توافق على محدوديَّتها في هذا الشأن، ولكنَّها ترى أنَّ وقت التغيير قد فاتها. فبعد طلاقها كانت تتوصَّل إلى لقاءات حميمة قصيرة مع صديق ما، بعد تناول عدَّة كؤوس في صالة رقص، أو مع مجهولين في إحدى الرحلات أو في احتفالات... أشياء لا تستحقّ الذكر، ولكنَّها ساعدتها على تجاوز حياء خلع ملابسها أمام شاهد ذَكَر. قروح الصدر كانت ظاهرة للعيان، ولكنّ نهديها العذراوين كنهَدي عروس من ناميبيا

يبدوان منفصلين عن بقيّة جسدها، وكانا أشبه بسخرية لبقيّة تشريحها البدنيّ.

توحّمها على إغواء ريتشارد الذي كان مستثارًا جدًّا حين تلقّت عرضه للعمل في الجامعة، تلاشى بعد أسبوع من سكنها في القبو. وبدلًا من أن يُقرِّب بينهما ذلك التمايشُ المشترك نسبيًّا، والذي يجبرهما على اللقاء في كلّ وقت، في ميدان العمل، وفي الشارع، وفي المترو، وعند مدخل البيت، فقد باعد بينهما. فرفاقيّة الاجتماعات الدوليّة والتواصل الإلكترونيّ الذي كان دافئًا جدًّا من قبل، تجمّد عند خضوعه لتجربة التقارب. لا، لا وجود لأيّ قصّة حبٍّ مع ريتشارد بوماستير، بصورة حماسة، وهذا مؤسف، لأنّه نموذج الرجل الهادئ والجدير بالثقة، والذي لن يهمّها الضجر معه. لقد كانت لوثيا أكبر منه بسنة واحدة وثمانية شهور فقط. فارق ليس مهمًّا، إذا توافرت الفرصة كما كانت تقول. ولكنّها تتقبّل في سرِّها، عند المقارنة، أنّها في وضع خاسر. تشعر بأنّها ثقيلة وتعاني تشنجًا في العمود الفقري، ولم تعد قادرة على لبس أحذية ذات كعوب عالية جدًّا من دون أن تقع على وجهها. العالم بأسره من حولها ينمو وينمو. طُلّابها يبدون في كلّ يوم أكثر طولًا، وممشوقي القامة، وغيرَ مبالين، كالزرافات. لقد ملّتْ النظر من أسفل إلى الشعر في أنوف بقيّة بني البشر. أمّا ريتشارد، في المقابل، فيحمل سنوات عمره بفتنة بروفيسور خالية من الأناقة؛ بروفيسور مستغرق في هواجس الدراسة.

كان ريتشارد بوماستير، مثلما وصفته لوثيا لدانييلا، متوسّط طول القامة، لديه ما يكفي من الشعر، وأسنانٌ سليمة، وعينان رماديّتان أو خضراوان، بحسب انعكاس الضوء على نظّارته وحالة قرحته المعويّة.

نادرًا ما يبتسم من دون سبب مهمّ، ولكن غمّازتيه الدائمتين وشعره المهمَل يمنحانه مظهرًا شبابيًا، على الرّغم من أنّه يمشي وهو ينظر إلى الأرض، محمّلًا كتبًا، ومنحنيًا بسبب ثقل همومه. لم تكن لوثيا قادرة على تصوُّر ما هي فحوى تلك الهموم، لأنّه كان يبدو سليمًا معافًى، وقد بلغ ذروة مسيرته الأكاديميّة، وعندما يتقاعد سيكون لديه ما يكفي من الوسائل ليعيش شيخوخة مريحة. المسؤوليّة الماديّة الوحيدة لديه تتمثّل في أبيه، جوزيف بوماستير، الذي يعيش في دار للمسنّين على بُعد خمس عشرة دقيقة، ويقوم ريتشارد بالاتّصال به هاتفيًا كلّ يوم، ويزوره مرّتين في الأسبوع. لقد أكمل الرجل ستّة وتسعين عامًا وهو يستخدم كرسيًا بعجلات، لكنّ لديه نارًا متأجّجة في قلبه، وصفاءً في ذهنه أكثر من أيّ شخص آخر. وهو يمضي الوقت في كتابة رسائل إلى باراك أوباما مقدّمًا إليه النصائح.

تُخامِر لوثيا الشكوكُ في أنّ مظهر صمت ريتشارد يُخفي احتياطيًا من التهذيب ورغبة مستترة في المساعدة بلا ضجيج، ابتداءً من التطوُّع سرًّا للخدمة في مطعم إحسان، وحتى الإشراف كمتطوّع على ببغاوات المقبرة. ما لا شكَّ فيه أنّ ريتشارد يدين بهذا المظهر من شخصيّته للنموذج العنيد الذي يشكّله أبوه؛ فجوزيف لن يسمح لابنه بأن يمرَّ في الحياة من دون أن يتبنّى قضيّة عادلة. في البدء، راحت لوثيا تحلّل شخصيّة ريتشارد بحثًا عن فجوات كي تقتحم صداقته، ولأنّها لا تمتلك الحماسة للعمل متطوّعة في مطعم الإحسان، ولا للاهتمام بأيّ نوع من الببغاوات، فإنّ المشترك الوحيد الذي يجمع بينهما يقتصر على العمل، ولم تستطع اكتشاف طريقة للتسلُّل إلى حياة هذا الرجل. لم تكن لامبالاة ريتشارد تُغضبها، لأنّه لا يولي اهتمامًا لما تُبديه بقيّة الزميلات

أو زمر الفتيات في الجامعة من اهتمام به. حياته كناسك كانت أحجية. رُبَّما هي أحجية سرٌ يخفيه، وكيف استطاع أن يعيش ستَّة عقود من دون أيّ تحدٍّ بارز، محتميًا بقوقعته التي تبدو كدرع الأرماديّو.

أمَّا هي، في المقابل، فكانت فخورة بمآسي ماضيها، وترغب في حياة ذات أهمِّيَّة من أجل المستقبل. ولديها، من حيث المبدأ، ريبة في السعادة، فهي تعتبرها ابتذالًا؛ ويكفيها أن تكون راضية إلى هذا الحدّ أو ذاك. كان ريتشارد قد أمضى فترة لا بأس بها في البرازيل، وكان متزوِّجًا هناك من شابَّة شهوانيَّة محبَّة للملذّات، وهو ما يتبدّى من خلال صورة لها كانت لوثيا قد رأتها، ولكن لم تنتقل إليه، ظاهريًّا، عدوى أيّ شيء من شطط تلك البلاد أو تلك المرأة. وعلى الرَّغم من غرابة أطواره، فإنه كان في حالة جيِّدة تقريبًا، كما قالت في الوصف الذي أرسلته إلى ابنتها، إذ وصفته لوثيا بأنَّه خفيف الدم، مثلما يُقال في تشيلي لمن يكون محبوبًا من دون أن يسعى إلى ذلك وبلا سبب ظاهر. وأضافت: أنه شخص غريب الأطوار يا دانييلَّا، تصوَّري أنَّه يعيش وحيدًا مع أربع قطط. ما زال لا يعرف أمرًا، ولكن سيكون عليه، عندما أغادر، أن يتولَّى مسؤوليَّة مارثيلو. لقد فكَّرتُ في الأمر جيِّدًا. سيكون حلًّا محزنًا، ولكنَّني لا أستطيع أن أحمل معي عبر العالم كلب شيهواهوا عجوزًا.

ريتشارد

بروكلين

يصل ريتشارد بوماستير إلى بيته في كل مساء، على الدرَّاجة إذا كان الطقس يسمح بذلك، وإلَّا بالمترو، فينشغل أوَّلًا بالقطط الأربع، وهي حيوانات قليلة المودَّة، وقد تبنَّاها في جمعيَّة حماية الحيوان من أجل القضاء على الفئران. لقد اتَّخذ هذه الخطوة كإجراء منطقيّ، من دون أيّ نوع من المشاعر، لكن تلك السنُّوريَّات تحوَّلت إلى «رفاقه الذين لا يُمكن تجنُّبهم». سلَّموه القطط معقَّمة، ملقَّحة، وبشريحة إلكترونيَّة مُدسوسة تحت الجلد تحمل اسم كلّ هرّ منها للتعرُّف إليه إذا ما ضاع. لكنَّه، من أجل التبسيط، أطلق على القطط تسمية أرقام بالبرتغاليَّة: أوم، دويس، تريس، كواترو. وكان ريتشارد يتولَّى تقديم الطعام إليها وتنظيف صندوق الرمل الخاصّ بها، ثم يستمع بعد ذلك إلى نشرة الأخبار، بينما هو يُعدّ عشاءه على المنضدة الواسعة متعدِّدة الاستخدامات في المطبخ. وبعد تناوله الطعام يعزف على البيانو لبعض الوقت، من أجل المتعة في بعض الأحيان، وكانضباط إلزاميّ في أحيان أُخرى.

كان في بيته، نظريًا، مكانٌ لكلّ شيء، وكلّ شيء في مكانه. أمّا عمليًّا، فكانت الأوراق والمجلّات والكتب تتكاثر كتكاثر ذبابيّات كابوس. ففي الصباح يكون هنالك منها على الدوام أكثر ممّا كانت عليه في الليلة السابقة، وفي بعض الأحيان تظهر مطبوعات أو أوراق مفلَتة لم يكن قد رآها قطّ من قبل ولا يدري كيف وصلت إلى بيته. بعد تناوله الطعام، يقرأ، ويحضّر دروسًا، ويصحّح اختبارات، ويكتب مقالات سياسيَّة. إنّه مَدين بمسيرته الأكاديميَّة في البحث والنشر، وبقدرٍ أقلّ، لميله إلى التدريس. ولهذا ليس هنالك من تفسير للولاء الذي يُبديه له طلّابه، حتى بعد تخرُّجهم. حاسوبه موجود في المطبخ والطابعة في الطابق الثالث، في غرفة لا تُستخدم، حيث قطعة الأثاث الوحيدة منضدةٌ من أجل الآلة. لحسن الحظّ أنَّه يعيش وحيدًا وهو غير مضطرّ إلى تقديم تفسيرات لذلك التوزيع المثير للفضول لأجهزة مكتبه، لأنَّ قليلين من الناس يمكنهم فهم تصميمه على القيام بتمرين صعود السلّم شبه العموديّ. أضف إلى ذلك أنَّه يضطرّ، في هذه الحالة، إلى التفكير مرَّتين قبل أن يطبع أيّ بلاهة، احترامًا للأشجار التي يُضحَى بها من أجل صنع الورق.

أحيانًا، في ليالي أرقه، عندما لا يتمكَّن من غواية البيانو، وتأخذ مفاتيحه بعزف ما يخطر لها، يتحوَّل إلى رذيلته السرِّيَّة باستظهار أشعار أو نظمها. وفي هذا الأمر، ينفق القليل من الورق، فهو يكتب الشعر يدويًا على دفاتر مدرسيّة ذات مربَّعات. لديه عدد منها ممتلئ بأشعار غير ناجزة، ودفتران فاخران بأغلفة جلديَّة يستنسخ فيهما أفضل أشعاره، مع التفكير في صقلها وتشذيبها في المستقبل. لكن ذلك المستقبل لا يصل أبدًا. ففكرة إعادة قراءتها تسبِّب له تشنُّجات في

المعدة. كان قد درس اللغة اليابانيَّة من أجل أن يستمتع بقصائد الهايكو بشكلها الأصليّ، وصار قادرًا على قراءة اللغة وفهمها، لكن محاولة التكلُّم بها ستكون ضربًا من التبجُّح. وهو يتشرَّف بكونه متعدِّد اللغات. لقد تعلَّم البرتغاليَّة، وهو طفل، من أسرته لأمّه وأنقنها مع آنيتا. اكتسب شيئًا من الفرنسيَّة لأسباب رومانسيَّة، وقَدْرًا مماثلاً من اللغة الإسپانيَّة لحاجته المهنيَّة إليها. حُبّه الأوَّل، وهو في التاسعة عشرة، كانت فرنسيَّةً تكبره بثمانية أعوام، تعرَّف إليها في بار في نيويورك، ولحق بها إلى پاريس. وما لبثت العاطفة بينهما أن بردت بسرعة كبيرة، ولكن من أجل المساكنة عاشا معًا في بيت على سطح، في الحيّ اللاتيني، لوقت كان كافيًا ليكتسب ما هو أساسيّ من المعارف الجسديَّة واللغويَّة، وكان يتكلَّم الفرنسيَّة بلكنة بربريَّة. أمَّا إسپانيَّته فتعلَّمها من الكتاب والشارع؛ فهنالك لاتينيُّون في كلّ أنحاء نيويورك، لكن أولئك المهاجرين نادرًا ما كانوا يفهمون أساليب نطق «معهد بيرلتز» التي تعلَّمها. وهو أيضًا لم يكن يفهم أكثر ممَّا يحتاج إليه من أجل طلب طعام في مطعم، لأنَّ جميع أصحاب النُّزل والمطاعم في البلاد، كما يبدو، هم من الناطقين بالإسپانيَّة.

* * *

كانت العاصفة قد انتهت، عند فجر يوم السبت. استيقظ ريتشارد بشعور سيِّئ لإحساسه بأنَّه قد أغضب لوثيا في اليوم السابق حين استبعد مخاوفها بكلّ برود. كان يطيب له أن يكون معها، بينما الرياح، في الخارج، تعصف بالبيت. لماذا قطع الاتِّصال معها بجفاء؟ إنَّه يخشى الوقوع في فخّ الحبّ، وهو فخٌّ تجنَّبه طوال خمس وعشرين سنة. لم يكن يتساءل عن سبب تهرُّبه من الحبّ، لأنَّ الجواب يبدو له

بيّنًا: إنّها كفّارة لا يُمكن تجنُّبها. وقد تآلف مع مرور الزمن مع عاداته كراهب، ومع هذا الصمت الداخليّ الخاصّ بمن يعيشون وينامون وحيدين. بعد أن أغلق الهاتف مع لوثيا، أحسَّ بدافع يحثّه على الذهاب إلى باب القبو حاملًا حافظة شاي، من أجل مرافقتها. يفتنه ذلك الخوف الطفوليّ في امرأة واجهت مآسي كثيرة في حياتها وتبدو عصيَّة على التأثُّر. كان يمكن له أن يرغب في استكشاف هذه الثغرة في حضن لوثيا، لكن هاجسًا بالخطر كبحه، كما لو أنّه إذا ما استجاب لهذا الدافع سيطأ رمالًا متحرِّكة. الإحساس بالخطر ما زال ماثلًا. لا شيء جديدًا. فبين فترة وأخرى، يستولي عليه جزع غير مفهوم؛ ولهذا يعتمد على أقراص دوائه الخضراء. يشعر، في هذه المناسبات، كما لو أنّه يهوي بطريقة لا مفرَّ منها في ظلمة أعماق بحر جليديّة، ولا يكون هناك أحد قريب يمدّ إليه يدًا ويسحبه إلى السطح. لقد بدأت هواجسه القدريَّة هذه في البرازيل، بعدوى من آنيتا التي كانت تعيش متعلِّقة بإشارات غيبيَّة. كانت الهواجس تُداهمه بكثرة، فيما مضى، لكنّه تعلَّم التحكُّم فيها، لأنّها نادرًا ما تتحقَّق.

التعليمات التي يوجِّهونها عبر الإذاعة والتلفزيون تدعو إلى البقاء في البيوت إلى أن تتمّ إزالة الأنقاض من الشوارع. وقد كانت منطقة مانهاتن لا تزال شبه مشلولة. متاجرها مُغلقة، ولكنَّ المترو والحافلات بدأت تعمل فيها. كانت بعض الولايات الأخرى في ظروف أسوأ من نيويورك، فهناك مساكن مدمَّرة، وأشجار مُقتلَعة، وأحياء معزولة، وبعضها بلا غاز وبلا كهرباء. تراجع قاطنوها إلى ما قبل قرنين من الزمان خلال ساعات قليلة. وبالمقارنة معهم، كان مَن هم في بروكلين محظوظين. خرج ريتشارد ليُزيل الثلج عن سيَّارته المتوقِّفة أمام البيت،

قبل أن يتحوَّل إلى جليد ويضطرّ إلى كشطه. وضع بعد ذلك الطعام للقطط، وتناول فطوره المعتاد، الشوفان مع حليب اللوز والفاكهة، ثم جلس ليعمل على مقالته عن الأزمنين الاقتصاديَّة والسياسيَّة في البرازيل، التي وضعتها الألعاب الأولمبيَّة الوشيكة أمام أنظار العالم بصورة واضحة. وكان عليه أن يُراجع أطروحة أحد الطلّاب، ولكنَّه سيفعل ذلك فيما بعد. فما زال أمامه اليوم كلّه.

عند الساعة الثالثة تقريبًا، لاحظ ريتشارد غياب واحدة من القطط. ففي أثناء وجوده في البيت، تدبَّر تلك الحيوانات الأمر للبقاء قريبة منه. وكانت علاقته بها تقوم على عدم مبالاة متبادلة، باستثناء «دويس»، وهي الأنثى الوحيدة، إذ إنَّها تنتهز أدنى فرصة لتقفز عليه وتستقرّ قُربه براحة ليداعبها. أمَّا الذُّكور الثلاثة فكانت مستقلَّة، وقد أدركت منذ البداية أنَّها ليست حيوانات زينة، وأنَّ واجبها هو اصطياد الفئران. انتبه ريتشارد إلى أنَّ الهرَّين «أوم» و«كواترو» يتمشَّيان قلقَيْن في المطبخ، وأن لا أثر لـ «تريس». أمَّا الهرَّة «دويس» فكانت مستلقيَة فوق المنضدة، إلى جانب الكمبيوتر، وهو أحد أمكنتها المفضَّلة.

خرج إلى البحث عن الغائب في أنحاء البيت، يستدعيه بصفير تعرفه الحيوانات. وقد وجده في الطابق الثاني مطروحًا على الأرض وعلى بُوزه زَبَدٌ ورديّ اللون. «هيّا يا تريس، انهض. ماذا جرى لك يا صغيري». تمكَّن من جعله ينهض، وخطا القطّ بضع خطوات مترنِّحًا كمخمور قبل أن يسقط من جديد. كانت هناك آثار قيء في كلّ مكان، وهو ما يحدث عادة، لأنَّ القطط لا تهضم جيّدًا عظام القوارض أحيانًا. حمل القطّ بين ذراعيه إلى المطبخ وحاول، من دون جدوى، أن يجعله يشرب ماء. وبينما هو يحاول ذلك، تصلَّبت قوائم «تريس»

الأربعة وراح يختلج. أدرك ريتشارد عندئذ أنّها أعراض تسمُّم. استعرضَ بأقصى سرعة المواد السامّة الموجودة في بيته، جميعها محفوظة جيّدًا. تأخّر عدّة دقائق في العثور على السبب تحت مجلى الأطباق في المطبخ. لقد انسكب سائل مانع التجمُّد، ولا شكّ في أنّ «تريس» قد لعقه، لأنّ هُناك آثار قوائم على الأرض. كان ريتشارد متأكّدًا من أنّه قد أحكم إغلاق العلبة وكذلك باب الخزانة، ولم يفهم كيف وقع الحادث، لكن تحرّي ذلك سيأتي فيما بعد. أمّا الأمر المستعجل حاليًا فهو علاج القطّ؛ لأنّ مانع التجمُّد سمٌّ قاتل.

كانت هناك اختناقات في حركة المرور، باستثناء الممرّ المخصّص للطوارئ، وقد كانت هذه هي حالته بالضبط. رأى على الإنترنت عنوان أقرب عيادة بيطريّة مفتوحة، فتبيّن له أنّها عيادة يعرفها من قبل. لفّ الحيوان ببطّانيّة ووضعه في السيّارة. هنّأ نفسه لأنّه كان قد أزال الثلج عنها في الصباح، وإلّا لكان سيتأخّر، وحمد حظّه لأنّ تلك المصيبة لم تحدث في اليوم السابق وسط العاصفة، لأنّه ما كان ليتمكّن من مغادرة البيت، إذ كانت بروكلين قد تحوّلت إلى مدينة شماليّة، بياض فوق بياض، حيث منعطفاتٌ خفّف الثلج من حدّتها، وشوارعُ خاوية يسودها سلام غريب، كما لو أنّ الطبيعة تتثاءب. «لا يخطرنَ لك أن تموت يا «تريس»، أرجوك. أنت قطّ بروليتاريّ، لك أحشاء فولاذيّة. قليل من مانع التجمُّد ليس شيئًا مهمًّا، تشجّع». كان ريتشارد يشجّعه وهو يقود السيّارة ببطء رهيب وسط الثلج، مفكّرًا في أنّ كلّ دقيقة يضيّعها في الطريق هي دقيقة حياة بالنسبة إلى الحيوان. «اهدأ يا صديقي، تحمّلْ. لا أستطيع أن أُسرع، لأنّنا إذا انزلقنا فسوف نضيع، لقد أوشكنا على الوصول. لا يُمكنني أن أنطلق بسرعة أكبر، متأسّف...».

الطريق الذي يستغرق عشرين دقيقة في الظروف العاديَّة، احتاج إلى ضعف المدّة، وعندما وصل أخيرًا إلى العيادة، كان الثلج قد عاد إلى الهطول، وكان «تريس» مهتاجًا باختلاجات وتسيل من فمه ريالة مع مزيد من الزَّبَد الورديّ. استقبلتهما دكتورة نشطة وقليلة الإيماءات والكلمات. لم تُبدِ تفاؤلًا بشأن القطّ ولا تعاطفًا مع صاحبه، لأنَّ إهماله هو الذي تسبَّب بالحادث، كما قالت لمساعدتها بصوت خافت، لكنَّه لم يكن خافتًا جدًّا بحيث تمكَّن ريتشارد من سماعه. لو أنَّ الظروف مختلفة لكان أبدى ردَّة فعل على ذلك التعليق خبيث النيَّة، لكنَّ موجة من الذكريات السيِّئة جعلته ينكفئ. ظلَّ صامتًا، مُهانًا. لم تكن المرَّة الأولى التي يؤدِّي فيها إهماله إلى نتيجة وخيمة. منذ ذلك الحين، صار شديد الحذر ويتّخذ الكثير من الاحتياطات، حتى إنَّه كثيرًا ما يشعر بأنَّه كمن يمشي على بَيض في طريق الحياة. أخبرته البيطريَّة بأنَّ ما تستطيع عمله قليل جدًّا. تحليل الدم وتحليل البول سيحدِّدان إذا كانت الكليتان قد أُصيبتا بضرر لا يمكن علاجه، وفي هذه الحالة سوف يُعاني الحيوان كثيرًا، وسيكون من الأفضل وضع حدّ وقور لحياته. يجب إبقاء القطّ المُصاب في العيادة، وخلال يومين سيتوصَّلون إلى تشخيص نهائيّ، لكن من المناسب أن يتهيَّأ للأسوأ. هزَّ ريتشارد رأسه موافقًا، وقد أوشك على البكاء. ودَّع «تريس» وقلبه في يده، وهو يشعر بنظرات الدكتورة القاسية في مؤخّرة رأسه؛ نظراتِ اتّهام وإدانة.

موظَّفة الاستقبال، وهي شابَّة ذات شعر بلون الجزر، تُعلِّق خاتمًا في أنفها، أشفقت عليه حين رأت كيف كان يرتجف وهو يقدِّم إليها بطاقة الاعتماد من أجل إيداع مبلغ الكفالة الأوَّلي. أكَّدت له أنَّ

حيوانه الصغير سيكون في رعاية جيِّدة، وأشارت له إلى آلة صنع القهوة. حركة اللُّطف الضئيلة تلك، هزَّت في أعماق ريتشارد مشاعرَ امتنان طاغية، فأفلتت منه إجهاشة صدرت من أعمق أعماقه. لو أنَّهم سألوه عمَّا يشعر به تجاه حيواناته الأربعة الأليفة، لأجاب بأنَّه يقوم بواجب إطعامها وتنظيف صندوق الرمل؛ وأنَّ علاقته بها وقورة، باستثناء العلاقة مع «دويس» التي تطالب بأن تُدلَّل. هذا هو كلّ شيء. لم يتصوَّر قطّ أنَّ الأمر سيصل به إلى تقدير تلك السنُّوريَّات المتراخية، كما لو أنَّها أفراد من عائلته التي لم يؤسِّسها. جلس على كرسيٍّ في صالة الانتظار، وتحت نظره موظَّفةُ الاستقبال المتفهِّمة، ليتناول فنجان قهوة مائيًا جدًّا ومُرًّا، مع قرصين من أقراصه الخضراء والمخصصة للأعصاب، وحبَّة أخرى ورديَّة من أجل الحموضة، إلى أن استعاد السيطرة على نفسه. عليه أن يرجع إلى البيت.

* * *

تكشف أضواء السيَّارة مشهدًا محزنًا لشوارع بلا حياة. كان ريتشارد يتقدَّم ببطء، مراقبًا الطريق بصعوبة من خلال نصف دائرة الزجاج الأمامي النظيف من الصقيع. تنتمي هذه الشوارع إلى مدينة مجهولة، وقد ظنَّ في إحدى اللحظات أنَّه قد ضاع، على الرَّغم من أنَّه قطع هذا الطريق نفسه سابقًا، فما بين الزمن الثابت، وأزيز جهاز التدفئة وتكتكة مساحات الزجاج المتسرِّعة، تشكَّل لديه انطباعٌ بأنَّ السيَّارة تطفو في جوٍّ قطنيّ، وبلبله الإحساس بأنَّه الشخص الوحيد الحاضر في عالم مهجور. كان يتكلَّم وحيدًا، برأس ممتلئ بضجيج وأفكار مشؤومة عما لا يُمكن تجنُّبه من فظاعات العالم ومن رعب حياته الخاصَّة. كم سيعيش أكثر، وفي أيِّ ظروف؟ إذا عاش المرء

كفايته من السنوات فسوف يُصاب بسرطان البروستات، وإذا عاش أكثر فسوف يتفسَّخ دماغه. لقد بلغ سنَّ الخوف. لم تعد الرحلات تجتذبه. كان مقيَّدًا إلى راحة بيته، لا يريد مفاجآت غير متوقَّعة، ويخشى أن يضيع أو يمرض أو يموت من دون أن يكتشف أحد جثَّته إلَّا بعد مرور أسبوعين، بعد أن تكون القطط قد التهمت جزءًا لا بأس به من وجهه. تخيفه جدًّا إمكانيَّة أن يُعثَر عليه وسط مستنقع أحشاء متعفِّنة، حتىٰ إنَّه اتَّفق مع جارته، وهي أرملة ناضجة، ذاتُ طبع حديديّ وقلب عاطفيّ، على أن يُرسل إليها رسالة خطِّيَّة قصيرة كلّ ليلة. فإذا ما تخلَّف يومين متتاليين عن إرسالها، تأتي لتُلقي نظرة؛ وقد أعطاها لهذا السبب نسخةً من مفتاح بيته. وتتضمن الرسالة القصيرة كلمتين فقط: «ما زلتُ حيًّا». وهي ليست مضطرَّة إلى الردّ، لكنَّها كانت تُعاني المخاوف نفسها، فتردّ عليه دومًا بثلاث كلمات: «اللعنة، وأنا أيضًا». أكثر ما يُخيف في الموت هو فكرة الأبديَّة. موت إلى الأبد، يا للرعب..

خشي ريتشارد أن تبدأ بالتشكُّل غمامةُ القلق التي تكتنفه عادة. يجسّ نبضه، في هذه الحالات، فلا يشعر به، أو يشعر به متسرّعًا. لقد عانى نوبتي هلع في السابق، شبيهتين بنوبة قلبيَّة، أدخلتاه المستشفى، لكنَّهما لم تتكرَّرا في السنوات الأخيرة، بفضل أقراص الدواء الخضراء، ولأنَّه تعلّم السيطرة على مثل تلك النوبات. كان يركِّز في أن يرى تراكم سُحب سوداء فوق رأسه مُختَرَقة بأشعَّة نورانيَّة قويَّة، كما في الصور الدينيَّة. بهذه الصورة، وبعض تمارين التنفُّس، يتمكَّن من تبديد الغمامة، لكنَّه لم يكن مضطرًّا، في هذه المرَّة، إلى أن يلجأ إلى تلك الحيلة، لأنَّه استسلم سريعًا لمظهر الموقف المستجدّ، إذ إنَّه رأى نفسه من بعيد، كما في فيلم ليس هو بطله، وإنَّما مشاهد له.

منذ زمن طويل وهو يعيش في أجواء مُتحَكَّم فيها بصورة تامَّة، بلا مفاجآت أو اضطرابات، ولكنَّه لم ينسَ تمامًا فتنة مغامرات شبابه القليلة، مثل حُبّه المجنون لآنيتا. ابتسم حيال توجُسه، لأنَّ قيادة السيَّارة في بضعة شوارع في أجواء سيِّئة في بروكلين، ليست مغامرة بالضبط. توصل في هذه اللحظة إلى وعي واضح لضآلة ما صارت إليه حياته ومحدوديتها، فأحسَّ عندئذ بخوف حقيقيّ؛ خوف من كونه أضاع سنوات كثيرة منغلقًا على نفسه؛ خوف من السرعة التي يمضي بها الزمن، بينما الشيخوخة تقترب، وكذلك الموت. تضمَّخت عيناه بالعرق أو الدموع؛ فمسحهما بحركة من يده وحاول تنظيفهما بكُمِّه. كان الظلام آخذًا بالانتشار والرؤية سيِّئة جدًّا. وبينما هو متشبِّث بيده اليسرى بالمقود، حاول أن يضع النظَّارة بيده اليمنى، لكنَّ القفاز أربكه فأفلتت النظَّارة من يده وتدحرجت ما بين الدوَّاسات، فأُفلتت كلمة بذيئة خارجة من عمق أحشائه.

فرملت سيَّارة بيضاء أمامه عند مقاطع مع شارع آخر جانبي، في تلك اللحظة، حين سها هنيهة متلمِّسًا الأرضيَّة بحثًا عن النظَّارة، لونها الأبيض مختلط ببياض الثلج. فصدمها ريتشارد من الخلف. كانت صدمة غير متوقَّعة لكنَّها مؤكَّدة، ففقد الوعي خلال جزء من الثانية، لكنَّه استعاده على الفور، بالإحساس السابق نفسه؛ الإحساس بأنَّه موجود خارج جسده، وبقلب منطلق، وأنَّه مبلَّل بالعرق، وببشرة ساخنة وقميص ملتصق بظهره. كان يشعر بقلق وضيق بدنيّ، لكن ذهنه كان في مستوى آخر، منفصلًا عن هذا الواقع. فقد كان رجل الفيلم يواصل إطلاق كلمات بذيئة داخل السيَّارة، بينما هو، كمشاهد، في بُعد آخر، كان آمنًا. السيَّارتان، كلتاهما، كانتا تسيران ببطء شديد. عليه أن

يستعيد نظّارته، وأن يترجّل ويواجه السائق الآخر بصورة متحضّرة. فلسبب ما وُجدت شركات التأمين.

انزلق على الرصيف المتجمّد، لدى نزوله من السيّارة، وكاد يقع على ظهره لو لم يتشبّث بالباب، فأدرك أنّه كان سيصطدم بتلك السيّارة حتى لو استخدم الفرامل، لأنّ سيّارته كانت ستنزلق مترين أو ثلاثة أمتار قبل أن تتوقّف. السيّارة الأخرى، وهي من نوع «الكزس. أس. سي»، تلقّت الصدمة من الخلف، وقد دفعتها قوّة الصدمة إلى الأمام. فجرّ ريتشارد قدميه، وسط ريح معاكسة، وقطع المسافة التي تفصله عن السائق الآخر، والذي كان قد ترجّل من السيّارة أيضًا. كان انطباعه الأوّل أنّ الآخر فتيٌ جدًّا بحيث لا يُمكن أن تكون لديه رخصة سياقة سيّارة، ولكنّه عندما اقترب أكثر تبيّن له أنّها فتاة ضئيلة الحجم. ترتدي بنطالًا، وتنتعل جزمة مطّاطيّة سوداء، وتلبس معطفًا أوسع كثيرًا من مقاسها، وتضع قلنسوة تغطّي رأسها.

«لقد كان خطئي. اعذريني، لم أرَكِ. تأميني سيدفع الأضرار»، قال لها.

وجّهت الفتاة نظرة سريعة إلى المصباح المكسور والصندوق الخلفي المعوجّ والمفتوح قليلًا. حاولت إغلاقه من دون جدوى، بينما كان ريتشارد يكرّر ما قاله عن التأمين.

ـ إذا كنت ترغبين، يُمكننا استدعاء الشرطة، ولكن لا حاجة إلى ذلك. خذي بطاقتي، من السهل تحديد مكان وجودي.

بدت كمن لم تسمعه. لقد كانت مضطربة بصورة ظاهرة، واصلت ضرب غطاء الصندوق الخلفيّ بقبضتها إلى أن اقتنعت بأنّها لن تتمكّن

من إغلاقه جيِّدًا. توجَّهت، عندئذ إلى مقعدها بأسرع ما يمكن لهبَّات الريح القويَّة أن تسمح به، يتبعها ريتشارد الذي يصرّ على إعطائها بياناته الشخصيّة. استقلّت سيَّارة اللكزس من دون أن توجِّه إليه نظرة واحدة، لكنَّه ألقى ببطاقته إلى حضنها في الوقت الذي ضغطت فيه على المُسرع، قبل أن تُغلق الباب، فاصطدم بريتشارد وأوقعه على الشارع. انعطفت السيَّارة عند التقاطع واختفت. نهض ريتشارد بمشقَّة، وفرك ذراعه التي صدمها باب السيَّارة، وأدرك أنَّ هذا اليوم هو يوم نحس ومصائب، ولم يعد ينقصه إلَّا أن يموت الهرّ.

لوثيا، ريتشارد، إيفلين

بروكلين

يكون ريتشارد بوماستير، في مثل هذه الساعة من الليل، قد أوى إلى فراشه بعدُ خرافًا، لأنَّه يستيقظ في الخامسة صباحًا كي يذهب إلى النادي الرياضي، وتكون «دويس» مستلقية إلى جانبه تخرخر، ولكن أحداث اليوم المؤسفة خلَّفته في حالة من تعكُّر المزاج، لا بُدَّ له معها من أن يتهيَّأ لعذاب الأرق وهو يشاهد إحدى بلاهات التلفزيون. وهذا أمر يُصفِّي ذهنه. كان البرنامج في اللحظة الإجباريَّة للمشهد الجنسيّ، وكان يرى كيف يتفاعل المخرج بيأس شديد، والسيناريو في يده، مع كيفيَّة صراع الممثِّلين في الفراش من أجل استثارة الجمهور بإيروتيكيَّة متكلِّفة لا تضيف شيئًا سوى قطع إيقاع الفيلم. «هيَّا، تابعوا سياق القصَّة، يا للعنة!»، صرخ بالشاشة، في حنين إلى الأزمنة التي كانت السينما تُلمِّح فيها إلى الجماع، بباب يجري إغلاقه بتكتُّم، أو مصباح ينطفئ، أو سيجارة مشتعلة تُستنفَد في منفضة مهجورة. فاجأه رنين الجرس، في هذه الأثناء. نظر ريتشارد إلى الساعة، كانت تشير إلى العاشرة إلَّا عشرين دقيقة ليلًا. لا يُمكن حتى لشهرد بهوه، الذين

يجوبون الحيّ منذ نحو أسبوعين باحثين عن متحوّلين، أن يتجرّأوا على الوعظ في هذا الوقت المتأخّر. استغرب الأمر. توجّه نحو الباب، من دون أن يُشعل ضوء المدخل، وراقب من خلال الزجاج، لكنّه ميّز كُتلة في الظلام. وكان يريد التراجع عندما أفزعه رنين الجرس ثانية. وبحركة واحدة، أشعل النور وفتح الباب.

كانت فتاة المعطف فقدمت تقضا، مؤطّرة بضوء المدخل الخافت، وبالليل القاتم من ورائها. تعرّف إليها ريتشارد فورًا. كانت منكمشة على نفسها، رأسها غاطس بين كتفيها ووجهها مغطّى ببطاقيّة المعطف، وتبدو أضأل ممّا كانت عليه قبل ساعات في الشارع. تلعثم ريتشارد بكلمة «نعم؟» استفساريّة، وعلى سبيل الردّ، فقدّمت الفتاة إليه البطاقة التي كان قد ألقى بها داخل سيّارتها، حيث يوجد اسمه، ووظيفته في الجامعة، وعنوانا المكتب والبيت. وقف والبطاقة في يده، من دون أن يدري ماذا يفعل للحظة بدت أبديّة. وأخيرًا، حين أحسّ بدخول الريح والثلج من خلال الباب، تحرّك وانتقل خطوة جانبًا، وأومأ إلى الفتاة داعيًا إيّاها إلى الدخول. أغلق الباب وراءها وأصابه الذهول مجدّدًا وهو يتأمّلها.

«لم يكن عليكِ المجيء إلى هُنا، يا آنسة. عليك الاتّصال مباشرة بالتأمين...»، تلعثم.

لم تُجبه الفتاة، وظلّت واقفة عند المدخل من دون أن توليه وجهها. كانت تبدو كما لو أنّها زائرة لجوجة ممّا وراء الموت. ألحّ ريتشارد على مسألة التأمين من دون أن تُبدي من جانبها أيّ ردّ فعل.

«هل تتكلّمين الإنكليزيّة؟» سألها أخيرًا.

ساد الصمتُ عدَّةَ ثوانٍ أُخرى. كرّر ريتشارد السؤال نفسه بالإسبانيَّة، لأنَّ حجم الزائرة أوحى إليه بأنَّها من أميركا الوسطى بكلِّ تأكيد، مع أنَّها يمكن أن تكون كذلك من جنوبي شرق آسيا. ردَّت عليه بهمهمة غير مفهومة، لها وقع تنقيط ماء رتيب. وحين رأى أنَّ الوضع أخذ يطول كثيرًا، اختار ريتشارد دعوتها إلى الدخول إلى المطبخ، حيث الإضاءة أفضل وربّما يستطيعان هناك التواصل. لحقتْ به وهي تنظر إلى الأرض وتخطو بوضع قدمها في الموضع الذي يرفع هو منه قدمه، كما لو أنَّها تتوازن على حبل متهدِّل. وفي المطبخ، أزاح ريتشارد جانبًا الأوراق عن المنضدة وقدَّم إليها مجلسًا على كرسيٍّ صغير بلا مسند.

«يؤسفني كثيرًا أنَّني قد صدمتك. وآمل ألَّا أكون قد تسبَّبتُ لك بأذى»، قال لها.

ترجم ما قاله إلى إسبانيَّته المختلَّة، نظرًا إلى انعدام أيِّ ردّ فعل، فهزَّت هي رأسها بحركة نفي. واصل ريتشارد، من دون جدوى، بذل الجهد للتواصل معها كي يعرف لماذا هي في بيته في مثل هذا الوقت. ولأنَّ الحادث البسيط لا يسوِّغ حالة الرُّعب التي تبدو على الفتاة، فكَّر في أنَّها رُبَّما تكون هاربة من أحد أو من شيء ما.

«ما اسمك؟» سألها.

تمكَّنت من تقديم اسمها؛ إيفلين أورتيغا، بصعوبة، وتلعثم في كلِّ حرف. أحسَّ ريتشارد بأنَّ الأمر يتجاوز حدوده، وأنَّه في حاجة إلى مساعدة مستعجلة كي يتخلَّص من هذه الزيارة غير المناسبة. وبعد ساعات من ذلك، عندما تمكَّن من تحليل ما حدث، سوف يُفاجَأ بأنَّ

الشيء الوحيد الذي خطر له أن يفعله هو الاتّصال بالتشيليَّة التي تُقيم بالقبو. فخلال الزمن الذي مضى على تعارفهما، أبدت تلك المرأة أدلَّة على أنَّها مهنيَّة قديرة، ولكن لم تكن ثمَّة أسباب تدعو إلى افتراض أن تكون مؤهَّلة لحلِّ مشكلة غير مألوفة كهذه التي هو فيها.

* * *

أفزع رنين الهاتف لوثيا مارات، في الساعة العاشرة ليلًا. فالمكالمة الوحيدة التي يُمكن لها أن تتوقَّعها في مثل تلك الساعة هي من ابنتها دانييلًا، لكن تبيَّن أنَّ المتَّصل هو ريتشارد، ليطلب منها أن تصعد إلى بيته بصورة مستعجلة. أخيرًا، بعد أن أمضت اليوم ترتجف من البرد، كانت لوثيا قد بدأت تشعر بالدفء في الفراش ولا تفكِّر في ترك عشّها الدافئ لتستجيب لاتّصال جازم من الرجل الذي حكم عليها بأن تعيش في بيت ثلجيٍّ، وكان في الليلة السابقة قد ازدرى حاجتها إلى من يرافقها. لم يكن هناك ممرٌّ مباشر من القبو إلى بقيَّة البناء، لذا، سيكون عليها أن تستبدل ملابسها، وتشقَّ طريقًا في الثلج، وتصعدَ اثنتي عشرة درجة زلقة حتى بيته؛ وريتشارد لا يستحقّ أن تبذل هذا الجهد كلّه من أجله.

كانت قد تواجهت معه، قبل أسبوع، لأنَّها وجدت الماء في طبق الكلب قد تجمَّد في الصباح، ولكنَّها لم تستطع، على الرَّغم من هذا الدليل القاطع، أن تجعله يرفع درجة التدفئة. واكتفى ريتشارد بأن أعارها غطاءً كهربائيًا مرَّت عليه عقود من دون استخدام، ما إن وصلته بالكهرباء حتى أطلق سحابة دخان وتسبَّب بقطع التيَّار الكهربائيّ. كان البرد هو أحدث شكاوى لوثيا. ومن قبل، كانت هنالك شكاوى

أخرى. ففي الليل يُسمع كورال فئران ما بين الجدران، ولكن هذا الأمر مستحيل، بحسب رأي مؤجِّرها، لأنَّ قططه تلاحق القوارض. وتأتي تلك الضجَّة من تمديدات المجارير الصدئة ومن الخشب القديم الناشف.

«اعذريني لإزعاجك في مثل هذا الوقت المتأخِّر يا لوثيا، لكنَّني في حاجة إلى مجيئك. لديّ مشكلة جدِّيَّة»، أخبرها ريتشارد بالهاتف.

«أيّ نوع من المشاكل هي؟ ما لم تكن تنزف، عليك أن تنتظر حتى الغد»، ردَّت عليه.

ـ هُنالك شخص أميركي لاتيني هستيري اقتحم بيتي، ولا أفهم أيّ شيء منه تقريبًا.

«حسنًا، تناولْ رفشًا وتعالَ لإخراجي من قبر الثلج هذا»، وافقت على الذهاب بدافع الفضول.

قام ريتشارد، بعد قليل، وهو متدثِّر كواحد من الأسكيمو، بإنقاذ المستأجرة لديه، واقتادها ومعها كلبُها مارسيلو إلى بيته الذي يكاد يكون بمثل برودة قبوها. وبينما هي تغمغم بسبب بخله في مسألة التدفئة، لحقت به لوثيا إلى المطبخ، حيث كانت قد جاءت عدَّة مرَّات بصورة عابرة. فعندما كانت حديثة السكن في بروكلين، زارته بذريعة أنَّها تريد أن تُعدّ له عشاء نباتيًا، مفكِّرة في أن تعمِّق بهذه الطريقة علاقتهما المشتركة. ولكن ريتشارد تكشَّفَ عن كونه قطعة عظْم قاسية لا يُمكن قضمها. لقد كانت تعتبر النزعة النباتيَّة حالة شذوذ لدى أُناس لم يعرفوا الجوع قطّ، ولكنّها عملت باهتمام في الطبخ له. وقد أكل ريتشارد طبقين من دون تعليق، وشكرها من دون مبالغة، ولم يكافئها

على ذلك قطّ. وفي تلك المناسبة، تمكّنت لوثيا من التأكُّد من مدى تقشُّف أسلوب مؤجّرها في الحياة. فبين قطع أثاث قليلة، وفي حالة مشكوك فيها، يبرز رسوخ بيانو كبير لامع. في مساء يومي الثلاثاء والسبت من كلّ أسبوع، تصل إلى جُحر لوثيا نغمات كونشيرتات ريتشارد وثلاثة موسيقيّين آخرين يلتقون كي يعزفوا معًا. وقد كانوا، بحسب رأيها، يفعلون ذلك بصورة جيّدة جدًا، لكنّها كانت مستمعة سيّئة وثقافتها الموسيقيّة ضئيلة جدًّا. لقد انتظرت طوال شهور أن يدعوها ريتشارد إلى واحدة من تلك الأمسيات للاستماع إلى الرُّباعي، ولكن تلك الدعوة لم تأتِ أبدًا.

كان ريتشارد يشغل أصغر غرفة نوم في البيت، أربعة جدران مع نافذة سجن صغيرة، وصالة الطابق الأوّل متحوّلة إلى مستودع ورق مطبوع. والمطبخ أيْضًا ممتلئ بأكداس من الكُتب، ويُعرَف أنّه مطبخ من المجلى، وفيه مدفأة غاز غريبة الأطوار، اعتادت أن تشتعل من تلقاء نفسها، من دون تدخُّل بشريّ، ومن المستحيل إصلاحها، لأنّه لم تعد توجد قطع غيار لها.

الشخص الذي تكلّم عليه ريتشارد هو فتاة قزمة. كانت تجلس قُبالة المنضدة الخشبيّة الخشنة التي تُستخدم طاولةَ مكتب ومائدةً للطعام في الوقت نفسه. كانت قدماها معلّقتين، تتدلّيان من الكرسيّ الذي بلا مسند، وهي محشورة في المعطف الأصفر الصارخ وقلنسوته تغطّي رأسها، بينما تنتعل حذاء رجل مطافئ. لم تكن تبدو عليها مظاهر الهستيريا، بل على العكس تمامًا، بدت كأنّها جزعة. لم تعبأ بمجيء لوثيا، لكن هذه تقدّمت منها ومدّت إليها يدها، من دون أن تُفلت مارسيلو، أو تسهو عن مراقبة القطط التي كانت ترصدها عن مسافة

قريبة، ووبرُ ظهورها منتصب.

قدَّمت نفسها:

ـ لوثيا مارات، تشيليَّة. أنا مستأجرة القبو.

ظهرت من المعطف الأصفر يدٌ صغيرة مرتجفة، كَبَدِ طفل، وصافحت بليونة يدَ لوثيا.

«اسمها إيڤلين أورتيغا»، تدخَّل ريتشارد، لأنَّ المعنيَّة ظلَّت صامتة.

«تشرَّفت»، قالت لوثيا.

ساد صمت لعدَّة ثوانٍ، إلى أن تدخَّل ريتشارد من جديد، وهو يهرش بعصبيَّة:

ـ لقد صَدَمتُ سيَّارتَها من الخلف في أثناء عودتي من العيادة البيطريَّة. فقد تسمَّم أحد الهررة بمحلول مانع التجمُّد. يبدو لي أنَّها مذعورة جدًّا. أيُمكنك التحدُّث إليها؟ من المؤكَّد أنَّك ستتفاهمين معها.

ـ لماذا؟

ـ أنت امرأة، أليس كذلك؟ وتتكلَّمين لغتها أفضل منِّي.

توجَّهت لوثيا بالإسبانيَّة إلى الزائرة كي تستفسر من أين هي وما الذي جرى لها. استيقظت الأخرى من حالة الشلل الذهنيّ التي بدا أنَّها تعانيها وأزاحت القلنسوة عن رأسها، لكنَّها أبقت عينيها مصوَّبتين إلى الأرض. لم تكن قزمة وإنَّما، شابَّة قصيرة جدًّا ونحيلة، لها وجه حسَّاس جدًّا مثل يديها، وبشرةٌ بلون الخشب الفاتح، وشعرٌ أسود

معقود وراء عنقها. افترضت لوثيا أنَّها هنديَّة أميركيَّة، رُبَّما من المايا، وإن لم تكن واضحةً جدًّا لديها الملامحُ المميَّزة لتلك الجماعة البشريَّة: الأنفُ الصقريّ المعقوف، والوجنتان الضيِّقتان والعينان اللوزيَّتان. أشار ريتشارد إلى الفتاة بصوت عالٍ بأنَّه يُمكنها الثقة بلوثيا، منطلقًا من قاعدة أنَّه يُمكن للأجانب أن يفهموا الإنكليزيَّة إذا ما تكلَّم إليهم بصوت صارخ. وقد كان ذلك نافعًا في هذه الحالة، لأنَّ الفتاة نطقت، بصوت كَناريّ، لتوضح أنَّها من غواتيمالا. كانت تتلعثم بمشقَّة بالغة، بحيث تصعب متابعة كلماتها. وحين تُنهي الجملة، لا يكون هناك من يتذكَّر بدايتها.

تمكَّنت لوثيا من استنتاج أنَّ إيفيلين أخذت سيَّارة ربَّة عملها، وتُدعى شيريل ليروي، من دون أن تخبرها، لأنَّها كانت تنام القيلولة. وأضافت، بصورة متعثِّرة، أنَّها، بعد أن صدمها ريتشارد، تخلَّت عن العودة إلى البيت وعن إخبار مخدومَيْها بما فعلته. لم تكن تخشى السيِّدة، بل السيِّد ليرُوي، ربَّ عملها، لأنَّه ذو طبع سيِّئ جدًّا، وهو شخص خطير. وقفلُ إغلاق صندوق السيَّارة الخلفيّ لم يعد يغلق تمامًا، وقد أفلت مرَّتين واضطرَّت إلى التوقُّف وارتجال ربطه وتثبيته بحزام معطفها. وأمضت بقيَّة المساء وشطرًا من الليل في التوقُّف في نقاط مختلفة من المدينة، ولكنَّها لم تكن تبقى إلَّا وقتًا قصيرًا خشية أن تلفت الانتباه أو ينتهي الأمر بأن يغطِّيها الثلج. وفي أحد توقُّفاتها تلك، رأت البطاقة التي كان ريتشارد قد أعطاها إيَّاها بعد حادث التصادم. وكوسيلة أخيرة ويائسة توجَّهت إلى بيته.

* * *

ظلَّت إيڤيلين على الكرسيِّ الصغير في المطبخ، بينما أخذ ريتشارد لوثيا جانبًا ليهمس إليها بأن الزائرة تُعاني مشاكل ذهنيَّة، أو أنَّها تعاطت مخدّرًا.

«لماذا تظنّ هذا؟» سألته بصوت هامس أيضًا.

ـ إنَّها غير قادرة حتى على الكلام يا لوثيا.

ـ أوَلمْ تلاحظ أنَّها تُعاني التلعثم؟

ـ أأنت متأكِّدة؟

ـ طبعًا يا رجل! أضف إلى ذلك أنَّها مرعوبة، يا للفتاة المسكينة.

«كيف يمكنُنا مساعدتها؟» سأل ريتشارد.

ـ لقد فات الأوان. لم يعد في الإمكان عمل شيء الآن. ما رأيك في بقائها هُنا اليوم، وغدًا نرافقها إلى حيث ربَّا عملها، ونوضح لهما مسألة الصدمة؟ تأمينك سيدفع الأضرار. ولن يكون لديهما سبب للتذمُّر.

ـ باستثناء أنَّها أخذت السيَّارة من دون إذن. وبكلِّ تأكيد سوف يطردونها.

«سنرى ذلك غدًا. حاليًّا يجب طمأنتها»، قرَّرت لوثيا.

أوضح الاستجواب الذي أُخضعت له الفتاة بعضَ مظاهر تعايشها مع مشغِّليها، الزوجين ليرُوي. لم يكن لإيڤيلين مواعيد عمل ثابتة في ذلك البيت، فهي تعمل، نظريًّا، من التاسعة حتى الخامسة، ولكنَّها عمليًّا تمضي اليوم كله مع الطفل الذي ترعاه وتنام معه لخدمته والعناية به كُلَّما دعت الحاجة. هذا يعني أنَّها تقوم مقام ثلاث ورديَّات عمل

عاديَّة. يدفعون لها نقدًا أقلّ كثيرًا ممَّا يتوجَّب دفعه، وفق حسابات أجراها كلّ من لوثيا وريتشارد؛ الأمر يبدو كما لو أنَّها تعمل أعمالًا شاقَّة، أو بطريقة غير شرعيَّة من العبوديَّة، ولكن ذلك لم يكن مُهمًا بالنسبة إلى إيفيلين، إذ لديها مكان تعيش فيه وأمان، وهذا هو المهمّ، كما قالت لهما. تعاملها السيِّدة ليرُوي معاملة جيِّدة جدًّا، ويوجّه السيِّد ليرُوي إليها الأوامر بين الحين والآخر. أمَّا في بقيَّة الوقت، فلا يلتفت إليها. والسيِّد ليرُوي يتعامل بالازدراء نفسه مع زوجته وابنه. إنَّه رجل عنيف، والجميع في البيت، وخصوصًا امرأته، يرتجفون في حضوره. وإذا ما علم بأنَّها قد أخذت السيَّارة. . .

ـ «اهدئي أيَّتها الصغيرة، لن يحدث لك أيّ شيء»، قالت لها لوثيا.

«يُمكنك البقاء للنوم هُنا. ما جرى ليس خطيرًا مثلما تظنّين. سوف نساعدك»، أضاف ريتشارد.

«ما نحتاج إليه حاليًا هو جرعة شراب. هل لديك شيء يمكن تناوله يا ريتشارد؟ بيرة مثلًا؟»، سألته لوثيا.

ـ أنت تعرفين أنَّني لا أشرب.

ـ أظنّ أنَّ لديك حشيشًا. تكاد إيفيلين تموت من التعب والبرد.

قرَّر ريتشارد أنَّ الوقت ليس مُناسبًا للتظاهر وأخرج من الثلَّاجة عُلبة صفيح فيها قطع بسكويت بالشوكولاتة. فبسبب القرحة وآلام الرأس، حصل منذ سنتين تقريبًا على بطاقة تُتيح له شراء الماريجوانا. قطعوا واحدة من القطع ثلاثةَ أجزاء، اثنان لهما وآخر لرفع معنويَّات إيفيلين أورتيغا. وقد بدا للوثيا أنَّه من غير المناسب أن يشرحا للفتاة

خصائص ذلك البسكويت، لكنّها أكلت القطعة بثقة، من دون توجيه أيّ أسئلة.

«لا بُدّ من أنّك جائعة يا إيفيلين. فمع كلّ هذه المشكلة، لا بدّ من أنك لم تتناولي عشاءً. إنّنا في حاجة إلى شيء ساخن»، قرّرت لوثيا وهي تفتح الثلّاجة، ثم قالت: «لا يوجد شيء هُنا يا ريتشارد!»

ـ أقوم بمشترياتي في أيّام السبت لكلّ الأسبوع، لكنّني لم أستطع عمل ذلك اليوم بسبب الثلج وتسمُّم القطّ.

فتذكّرتْ هي عندئذ حساء الكاثويلا، وأنّ بقاياه ما زالت في بيتها، لكنّها لم تجد الشجاعة للخروج مجدّدًا، والنزول إلى السرداب والرجوع محافظةً على توازنها وهي تحمل قِدْرًا كبيرة على الدرج الزلق. استولت على القليل الذي وجدته في مطبخ ريتشارد، فحمّصت قطعًا من الخبز الخالي من الغلوتين، وقدّمتها مع فناجين كبيرة من القهوة بالحليب الخالي من اللكتوز، بينما كان ريتشارد يتمشّى على طول المطبخ وعرضه مدمدمًا وإيفيلين تداعب ظهر مارسيلو بولاء قسريّ.

كان ثلاثتهم، بعد ثلاثة أرباع الساعة من ذلك، يستريحون طافين في ضباب لطيف إلى جانب المدفأة المشتعلة. استقرّ ريتشارد على الأرض وظهره مستند إلى الجدار، وتمدّدتْ لوثيا على الأرض فوق بطّانيّة ورأسها على ساقيه. لم تحدث مثل هذه الألفة قطّ في الأوقات العاديّة؛ فريتشارد لا يتسامح مع أيّ ملامسة جسديّة، وبصورة خاصّة مع فخذيه. أمّا بالنسبة إلى لوثيا، فقد كانت تلك هي المناسبة الأولى، منذ عدّة شهور، التي تشعر فيها برائحة رَجل ودفئه، وبالنسيج الخشن

لبنطال كاوبوي على خدّها، وبنعومة صديريّ قديم من الكشمير في متناول يدها. كانت تفضّل أن تكون معه في سرير، لكنّها أزاحت هذه الصورة بتنهيدة، قانعة بتذوّقه وهو في ملابسه، بينما هي تتخيّل الاحتمال البعيد جدًا بالتقدّم معه عبر دروب الحسّيّة الملتوية. وقرّرت: اشعر بقليل من الدوار، لا بُد من أنّ السبب هو البسكويت. وكانت إيفيلين قد جلست على الوسادة الوحيدة في البيت، مختزلة إلى حجم فارس خيل ضئيل، ومارسيلو في حضنها. لقد كان لقطعتها من قرص البسكويت تأثير معاكس لتأثيرها في ريتشارد ولوثيا. فبينما كانا يسترخيان بعيون نصف مغمضة، لكنّهما يُصارعان للبقاء مستيقظين، كانت إيفيلين المنتشية تروي لهما، متلعثمة ومتسرّعة، مسيرة حياتها المأساويّة. تبيّن أنّها تتكلّم الإنكليزيّة أكثر ممّا أظهرته في البدء، لكنّها تفقدها حين تكون في حالة شديدة العصبيّة. ويمكنها الإفهام ببلاغة غير متوقّعة *بالإسبانكلش*، ذلك الخليط من الإسبانيّة والإنكليزيّة الذي يُشكّل اللغة الرسميّة لكثيرين من اللاتينيّين في الولايات المتّحدة.

كان الثلج، في الخارج، يُغطّي بنعومة سيّارة اللكزس البيضاء. وخلال الأيّام الثلاثة التالية، بينما كانت العاصفة آخذة بالتعب من معاقبة الأرض والتحلّل في الأطلسي، كانت حيوات لوثيا ماراث وريتشارد بوماستير وإيفيلين أورتيغا قد تشابكت بطريقة لا يمكن الرجوع عنها.

إيفيلين

غواتيمالا

أخضرُ، عالمٌ أخضر؛ أزيزُ بعوض؛ زعيق ببّغاوات؛ هسيسُ قصب مع هبَّات النسيم؛ شذَى دَبِقٌ يفوح من ثمار ناضجة، من دخان حطب وقهوة محمَّصة؛ رطوبةٌ ساخنة يُشعَر بها على البشرة وفي الأحلام، هكذا تتذكَّر إيفيلين أورتيغا قريتها الصغيرة: مونخا بلانكا دِل بايي. ألوان متأجِّجة على الجدران المطليَّة؛ أنوالُ معشرها؛ مملكةُ الأزهار وتنوُّع الطيور؛ ألوانٌ ومزيد من الألوان؛ قوسُ قزح كامل وأكثر. وفي كلِّ الأنحاء، في كلِّ لحظة، جدَّتُها كلِّيَّةُ الحضور؛ كونثيبثيون مونتويا، الأكثرُ احترامًا وتفانيًا وتديُّنًا كاثوليكيًّا بين جميع النساء، على حدِّ قول الكاهن الأب بينيتو الذي يعرف كلَّ شيء، لأنَّه جيزويتيّ وباسكيّ بكلِّ شرف، مثلما كان يقول بتلك المراوغة الخاصَّة ببلاده، والتي لا يُقدِّرها أحد في هذه الأنحاء. لقد جاب الأب بينيتو أنحاء كثيرة من العالم، وغواتيمالا كُلَّها، وهو يعرف حياة الفلَّاحين، لأنَّه كان مغروسًا بعمق بينهم. وما كان ليبدِّل تلك الحياة بأيِّ شيء في الدنيا. كان يحبّ طائفته، قبيلته الكبرى مثلما كان يدعوها. ويقول إنَّ

غواتيمالا هي أجمل بلاد العالم، إنّها جنّة عدن التي يدنّسها الربّ ويُسيء إليها بنو البشر، ويضيف أنّ القرية المفضّلة لديه هي مونخا بلانكا دل بايي، التي جاء اسمها من اسم الزهرة الوطنيّة، أجملِ زنابق الأوركيدا البيضاء وأشدّها نقاءً.

كان الكاهن شاهدًا على مذبحة السكّان الأصليّين في سنوات الثمانينيّات، وعلى التعذيب المنهجيّ، والقبور الجماعيّة، والقرى المتحوّلة إلى رماد، حيث لم تنجُ حتى الحيواناتُ الداجنة، وشاهد كيف كان الجنود، بوجوههم المطليّة بالسِّناج كيلا يتعرّف إليهم أحد، يقمعون أيّ محاولة للتمرّد وكلّ بارقة أمل يقوم بها أُناس آخرون، فقراء مثلهم، بهدف الحفاظ على بقاء الأمور مثلما كانت على الدوام. وبدلًا من أن يُحوّله ذلك إلى القسوة، كان يُليِّن قلبه. وبدلاً من صور فظائع ذلك الماضي، كان يُغلِّبُ إبراز المنظر الفاتن لِلبلد الذي يحبّه، للتشكيلة غير المتناهية من الزهور والطيور، ومناظر البحيرات والغابات والجبال، والسماوات النقيّة. وكان الناس يتقبّلونه كواحد منهم، لأنّه كان كذلك في الحقيقة. يقولون إنّه ظلّ حيًّا بفضل السيِّدة عذراء الصعود، شفيعة البلاد، ولا مجال لأيّ تفسير آخر، لأنّ هناك إشاعات عن أنّه يخبّئ رجال حرب العصابات، وقد سُمع وهو يأتي على ذكر الإصلاح الزراعيّ من فوق المنبر. ومن أجل أمور أقلّ كثيراً من هذه، جرت معاقبة آخرين بفصّ ألسنتهم وسَمْل عيونهم. أمّا سيّئو الظنّ وعديمو الثقة، فكانوا يتشدّقون بأن لا علاقة للعذراء بأيّ شيء من ذلك، وأنّ الكاهن لا بُدّ من أن يكون مرتبطًا بالمخابرات المركزيّة الأميركيّة، وأنّه يتمتّع بحماية تجّار المخدّرات، أو أنّه عميل للعسكريّين، ولكنّهم لا يتجرأون على شتيمته حيث يُمكِنُه سماعهم،

لأنَّ الباسكيّ، بجسده العظميّ الذي يشبه جسد فقير هنديّ، لن يتورّع عن تحطيم أنف أيّ واحد مُهمّ بصفعة من يده. لم يكن هناك من يتمتّع بسلطة أخلاقيَّة أكثر من ذلك الكاهن ذي اللكنة القاسية؛ لَكنة مكان آخر. وإذا كان يحترم كونثيبثون مونتويا كقدِّيسة، فإنَّ ثمَّة سببًا لذلك، هذا ما كانت تفكِّر فيه إيفيلين، ولكنَّها لكثرة ما عاشت، وعملت، ونامت مع جدَّتها تلك، كانت تبدو كائنًا من البشر أكثر ممَّا هي إلٰهيَّة.

بعد أن ذهبت مريام، أُمّ إيفيلين إلى الشمال، تولَّت تلك الجدّة التي لا تُقهَر مسؤوليَّة إيفيلين وأخويها الكبيرين. كانت إيفيلين قد وُلدت للتوّ عندما هاجر أبوها بحثًا عن عمل. لم يكن يُعْرَف أيُّ شيء مؤكَّد عنه خلال عدَّة سنوات، إلى أن وصلتهم شائعات تُفيد بأنَّه قد استقرَّ في كاليفورنيا، حيث توجد له أسرة أخرى، لكن أحدًا لم يستطع تأكيد ذلك. وكانت إيفيلين قد بلغت السادسة من العمر حين اختفت أُمّها بدورها بلا وداع. لقد هربت مريام فجرًا، لأنَّ تصميمها على الرحيل لم يسمح لها بمعانقة أبنائها عناقًا أخيرًا. خشيت أن تخونها قواها. هذا ما كانت توضحه الجدَّة للصغار كلَّما سألوها، وتُضيف قائلة إنَّهم، بفضل تضحية أُمّهم، يستطيعون تناول الطعام كلَّ يوم، والذهاب إلى المدرسة، وتلقِّي طرود بريديَّة فيها لُعَب وأحذية «نايك» رياضيَّة وحلويّات من شيكاغو.

كان اليومُ الذي غادرت فيه مريام مؤشَّرًا عليه في تقويم كوكاكولا لعام ١٩٩٨، وقد بهتت ألوانه بمرور الزمن، وما زال معلَّقًا على الجدار في كوخ الجدَّة كونثيبثيون. أمَّا الابنان الكبيران غريغوريو، وكان في العاشرة، وأندريس الذي في كان الثامنة، فقد تعبا من انتظار عودة مريام، وقنعا بالبطاقات البريديَّة وسماع صوتها متقطِّعًا عبر هاتف

مكتب البريد في يوم عيد الميلاد، أو يومي عيدَي ميلاديهما، وتعتذر لأنّها أخلفت مرّة أخرى بوعدها بالذهاب لزيارتهم. لقد ظلّت إيڤيلين تؤمن على الدوام بأنّ أمّها ستعود ذات يوم ومعها نقود لتبني بيتًا محترمًا للجدّة. رسم الأطفال الثلاثة صورة مثاليّة للأمّ، ولكن ليس بالقدر الذي بلغته إيڤيلين التي لم تكن تتذكّر جيّدًا مظهر أمّها أو صوتها، ولكنّها تتخيّلهما. كانت مريام ترسل إليهما صورًا، ولكنّها تغيّرت كثيرًا خلال السنين. صارت سمينة، تصبغ شعرها بخطوط صفراء، حلقت حاجبيها وصارت ترسم بدلًا منهما حاجبين آخرين في منتصف الجبهة، على نحو يضفي عليها مظهرًا دائمًا من المفاجأة والذعر.

لم يكن أبناء آل أورتيغا وحدَهم الذين بلا أمّ وبلا أب، فثلاثة أرباع أطفال المدرسة في الوضع نفسه. كان الرجال في السابق وحدهم من يهاجرون بحثًا عن عمل، ولكنّ النساء أيضًا صرن يذهبن مؤخّرًا. وبحسب قول الأب بينيتو، فإنّ المهاجرين يرسلون عدّة آلاف من ملايين الدولارات سنويًا لإعالة أُسرهم، مساهمين بذلك في استقرار الحكومة وفي عدم مبالاة الأثرياء. قلّة هم الذين يُنهون المدرسة، فالأطفال يذهبون للبحث عن عمل، أو ينتهي بهم المطاف إلى المخدّرات والعصابات، بينما الصغيرات يحبلن ويخرجن للعمل، ويجري تجنيد بعضهنّ في الدعارة. كانت موارد المدرسة محدودة جدًّا، ولولا البعثات التبشيريّة الأخرى التي تُنافس بصورة مخادعة جهودَ الأب بينيتو، لأنّها تتلقّى أموالًا من الخارج، لافتقرت المدرسة حتى إلى الدفاتر وأقلام الرصاص.

كان من عادة الأب بينيتو أن يجلس في البار الوحيد في القرية

وأمامه زجاجةُ بيرة تدوم الليل كلّه، يتحدَّث مع الزبائن الآخرين عن القمع القاسي ضدَّ السكّان الأصليّين، والذي استمرَّ ثلاثين عامًا ومهَّد الأرض للكارثة. «يجب رشوة الجميع، ابتداءً من أعلى السياسيِّين مقامًا حتى آخر شرطيّ في الحرس الأهليّ، ولا جدوى من الكلام على الإجرام والجرائم»، كان يشكو مع ميل إلى المبالغة. ويكون هناك دائمًا من يُلمح له إلى سبب عدم عودته إلى بلاده إذا كانت غواتيمالا لا تروق له، فيجب «وما هذا الذي تقوله أيُها التَّعِس، أوَلَمْ أقل ألف مرّة إنّ هذه هي بلادي؟».

غادر غريغوريو أورتيغا، شقيق إيڤيلين الأكبر، في الرابعة عشرة من عمره المدرسة بصورة نهائيّة. ولم يعد يعمل أيّ شيء سوى التسكُّع في الشوارع مع صِبْية آخرين. بعينين شبه زجاجيَّتين وعقل يلفُّه ضباب تنشُّق الكاوتشوك، أو البنزين، أو مذيبات الدهان، أو ما يمكنه الحصول عليه. كان يسرق، ويتشاجر، ويُضايق البنات. وعندما يشعر بالضجر يذهب إلى الطريق العامّ ويطلب من سائق شاحنة أن يُقلّه معه، وهكذا يصل إلى قرية أُخرى، حيث لا يعرفه أحد. وحين يرجع تكون معه نقود حصل عليها بطريقة خبيثة وغير مشروعة. فإذا استطاعت جدَّته كونثيبثيون مونتويا الإمساك به فإنَّها تضربه بشدَّة، ويتقبَّل حفيدها الضرب لأنّه ما زال يعتمد عليها في طعامه. وتقبض عليه الشرطة، في بعض الأحيان عند مداهمتها صِبْيَةً يتعاطون المخدّرات، فيضربه الشرطيّون ضربًا مُبرِّحًا ويحبسونه على الخبز والماء، إلى أن يمرّ من هناك الأب بينيتو ويُنقذه. لقد كان الكاهن متفائلًا لا يعرف الندم، وفي مواجهة أيّ مخالفة واضحة، يحافظ على إيمانه بالقدرة البشريَّة على التجدُّد والصلاح. وكان الشرطيُّون يسلِّمون إليه الفتى مع ركلة أخيرة

على مؤخّرته، ويكون مذعورًا تغطّي جسمَه الكدماتُ والقمل. يحشره الكاهن الباسكيّ في شاحنته الصغيرة وهو يلعنه ويأخذه ليُطعمه، بعد جوع، في محلّ بيع الشطائر الوحيد في القرية، بينما هو يتنبّأ له، بقسوته ككاهن جزويتيّ، بحياة مُرعبة ومِيتة مبكّرة إذا ما ظلّ على مسيرته الخبيثة.

ضربُ الجدّة، والسجنُ، وتأنيبُ الكاهن، لم تنفع في أن تكون عبرة لغريغوريو، فواصل مسيرته على غير هُدى. الجيران الذين يعرفونه منذ طفولته صاروا يتجنّبونه. وإذا لم تكن معه بضعة كيتزالات[1]، يذهب إلى حيث جدّتُه، خافضًا رأسه، متظاهرًا بالمسكنة، ليأكل طعام كلّ يوم نفسه في ذلك البيت: فاصولياء وفلفلاً حارًّا وذرة. لقد كانت الجدّة كونثيبثيون تتمتّع بحسٍّ سليم أكثر من الأب بينيتو، وسرعان ما تخلّت عن محاولة وعظ حفيدها بفضائل ليست في متناول وعيه؛ فالصبيُّ ليس لديه رأس للدراسة ولا رغبة في تعلُّم مهنة؛ ولم يكن هنالك عمل شريف في أيّ مكان لمن هم على شاكلته، فكان عليها أن تُخبر مريام بأنّ ابنها قد ترك المدرسة، لكنّها تجنّبت جَرحها بالحقيقة الكاملة، لأنّ الأمّ ليست قادرة على فعل الكثير من بعيد. فكانت الجدّة تُصلّي وهي جاثية في الليل، مع حفيديها الآخرين، أندريس وإيڤيلين، متضرّعة بأن يظلّ غريغوريو حيًّا حتى بلوغه الثامنة عشرة من العمر، وأن يذهب عندئذ إلى الخدمة العسكريّة الإجباريّة. لقد كانت الجدّة تحتقر من أعماق روحها القوّات المسلّحة، ولكن رُبّما ينفع الانضمام إلى الجيش في تقويم ذلك الحفيد الضالّ.

---

(١) الكيتزال، وحدة النقد الأساسيّة في غواتيمالا.

لم يتوصل غريغوريو أورتيغا إلى تلقّي منافع دعوات جدّته وصلواتها أو الشموع التي أشعلتها في الكنيسة باسمه. فعندما لم تعد أمامه سوى شهور قليلة لاستدعائه إلى الخدمة العسكريّة، توصّل إلى أنّ منظّمة «م. أس ـ ١٣»، المعروفة أكثر باسم «مارا سلفاتروتشا»، أشدّ العصابات قسوة، ستقبله في صفوفها. وكان عليه تقديم قَسَم الدم: الوفاء لرفاقه قبل أيّ شيء آخر، قبل الأسرة والنساء، وقبل المخدِّرات والمال. اجتاز الاختبار الصارم للمتطلّعين إلى الانضمام. ضربٌ مهول تلقّاه من عدد من أعضاء عصابة «مارا» كي يُثبت صلابته. خلّفته طقوس القبول أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، فقد كُسر عدد من أسنانه وعانى التبوُّل دمًا مدّة أسبوعين، ولكنّه ما إن استعاد عافيته حتى حصل على الحقّ في الوشم الأوّل التقليديّ في «عصابة م. أس ـ ١٣». ومع الزمن، كلّما راكم المزيد من الجرائم وكسب مزيدًا من الاحترام، كان يتطلّع إلى أن يكون مثل الأعضاء الأشدّ تعصُّبًا، وأن يكون جسده كلُّه ووجهه مُغطَّيين بالوُشوم. وكان قد سمع أنّ هُنالك في سجن بيليكان باي في كاليفورنيا، رجلاً سلفادوريًّا أعمى، لأنّه رسم وشمًا في بياض عينيه.

خلال ثلاثين عامًا من عمرها، كانت عصابة «مارا» التي تأسّست في لوس أنجلوس، قد مدّت أذرعها في بقيّة أنحاء الولايات المتّحدة والمكسيك وأميركا الوسطى، وصار لديها أكثر من ستّين ألف عضو يمتهنون القتل والابتزاز والخطف، والإتجار بالسلاح والمخدِّرات والبشر، وشهرةٌ واسعة بالقسوة، حتى شاع استخدام عناصرها من قبل عصابات أُخرى للقيام بأشدّ الأعمال قذارة. ففي أميركا الوسطى، حيثُ يتمتّعون بقدرة على الإفلات من العقاب أكثر ممّا هو متاح لهم

في الولايات المتّحدة أو المكسيك، كان أعضاء هذه العصابة يحلّون ميدانهم تاركين بعد مرورهم أجسادًا لا يُمكن التعرُّف إلى أصحابها. لم يكن هُناك من يتجرّأ عليهم، سواء من الشرطة أو العسكريِّين. كان الجيران في الحيّ يعرفون أنَّ حفيد كونثيبثيون مونتويا الأكبر قد انضمَّ إلى «أم. أس ـ ١٣»، لكنَّهم يعلّقون على ذلك همسًا ووراء أبواب مغلقة كيلا يُعرِّضوا أنفسهم لعمل انتقامي. في البدء، عزلوا الجدّة عائلة الحظّ والحفيدين الآخرين، لأنَّ أحدًا لا يريد الوقوع في مشاكل. فقد كان الجميع معتادين على الخوف منذ أزمنة القمع، ولا يستطيعون أن يتخيَّلوا أن في الإمكان العيشَ بطريقة أُخرى؛ فقد كانت عصابة «أم. أس ـ ١٣» آفة أُخرى، عقابًا لهم على خطيئة أنَّهم موجودون، وهذا سبب آخر للتحرُّك بحذر واحتراس. واجهت كونثيبثيون الازدراء برأس مرفوع، من دون أن تُبدي اهتمامًا بالصمت الذي يُحيط بها في الشارع أو السوق، حيثُ تذهب أيَّام السبت لتبيع شطائر التامال والملابس المستعملة التي تُرسلها مريام من شيكاغو. وسرعان ما غادر غريغوريو المنطقة، ولم يعد هناك من يراه لبعض الوقت، وعندئذ بدأ يخفّ الخوف الذي كان يوحي به في القرية، فضلًا عن أنَّه كانت هُناك مشاكل ملحَّة أخرى. لقد منعت كونثيبثيون الأخَوَين الصغيرين من ذكر اسم أخيهما الكبير. يجب عدم استدعاء النكبة، هكذا حذَّرتهما.

بعد سنة من ذلك، حين رجع غريغوريو أوَّل مرَّة، جاء بسنَّين ذهبيَّين، وبرأس حليق، وبوشم سلك شائك على الرقبة، وبوشوم أرقام وحروف وجماجم على فقرات أصابعه. بدا كما لو أنَّ طوله قد ازداد بضعة سنتمترات، وحيث كانت توجد عظام وجلد صبيٍّ صغير في

السابق، صارت توجد الآن عضلات وندوب جروح جروح عضو عصابة. هل وجد أُسرة وهويَّة له في عصابة سالڤاتروتشا. لم يعد مضطرًا إلى التجوُّل متسوّلًا، صار في إمكانه أخذ ما يشاء: نقود، مخدِّرات، كحول، أسلحة، نساء. صار كلّ شيء في متناول يده. ولا يكاد يتذكَّر أزمنة المذلَّة. دخل بيت جدَّته بخطوات ثابتة، معلنًا عن نفسه بصوت عالٍ. وجدها تفرط ذُرة مع إيڤيلين، بينما كان أندريس، الذي كبُر قليلًا جدًّا وبحجم لا يتطابق مع سنوات عمره، يكتب واجباته المدرسيَّة في الجانب الآخر من المنضدة الوحيدة في البيت.

نهض أندريس واقفًا بقفزة واحدة، فاغرًا فمه خوفًا وتقديرًا لأخيه الكبير. حيَّاه غريغوريو بدفعة محبَّة وحشره في الزاوية بمراوغة ملاكم، متباهيًا بوشوم يديه المطبقتين كقبضتين. اقترب بعد ذلك من إيڤيلين بنيَّة معانقتها، لكنَّه توقَّف قبل أن يلمسها. فقد تشرَّب في العصابة تعاليمَ عدم الثقة بالنساء عُمومًا وازدرائهنَّ، لكن أُخته كانت استثناءً. فهي طيِّبة ونقيَّة، خلافًا لجميع الإناث، وطفلةً لم تتطوَّر بعد. فكَّر في المخاطر التي تترصَّدها لمجرَّد أنَّها وُلدت امرأةً، وهنَّأ نفسه للحماية التي يمكنه توفيرها لها. لن يجرؤ أحد على إلحاق الأذى بها، لأنَّ مَن يفعل ذلك عليه أن يواجه عصابة «مارا»، ويواجهه شخصيًّا.

تمكَّنت الجدَّة من إخراج صوتها لتسأله عن سبب مجيئه. تفحَّصها غريغوريو بنظرة مزدرية، وأجابها، بعد وقفة صمت طويلة، بأنَّه جاء ليطلب مباركتها. «فليباركه لي الرَّب»، تلعثمت المرأة، مثلما تقول كلّ ليلة لأحفادها قبل ذهابهم إلى النوم، وأضافت بتمتمة: «وليغفر له الرَّب».

أخرج الفتى حزمة أوراق نقديّة من جيب بنطاله الكاوبوي الواسع والمثبّت بصورة غير محكمة عند مستوى العانة، وقدّمها باعتزاز إلى جدّته. إنّها مساهمته الأولى في الميزانيّة العائليّة، لكن كونثيبثيون مونتويا رفضت تلقّي النقود وطلبت منه ألّا يعود، لأنه مثال سيّئ لأخويه. «عجوز براز جاحدة!» صاح غريغوريو وهو يلقي النقود على الأرض. ومضى مطلقًا التهديدات. وسوف تمرّ عدّة شهور قبل أن يرجع ليرى أسرته. وفي المناسبات النادرة التي مرّ بها في القرية، كان ينتظر أخويه متواريًا في أحد الأركان كيلا يتعرّف إليه أحد، وأسير انعدام الثقة نفسه الذي كان صليبه في الطفولة. لقد تعلّم كيف يخفي انعدام الثقة ذاك؛ فكلّ شيء في «مارا» تظاهرٌ ومباهاة بالفحولة. كان يعترض طريق أندريس وإيفيلين في زحمة الصغار لدى الخروج من المدرسة، يمسك بهما متأبّطًا ذراعيهما، ويجرّهما إلى زقاق مظلم ليعطيهما نُقودًا ويتحرّى منهما إذا عرفا شيئًا عن أمّهما. كان الشعار في العصابة هو التخلُّص من العواطف، وقطع المشاعر بضربة فأس واحدة. فالأُسرة عقبة، وعبء. لا شيء من الذكريات أو الحنين. يجب التحوُّل إلى رجل، والرجال لا يبكون. الرجال لا يشكون. الرجال لا يُحبُّون. الرجال يتدبّرون أمورهم بأنفسهم. الشيء الوحيد النافع هو الشجاعة. الشرف يُدافع عنه بالدم. الاحترام يُكتسب بالدم. لكن غريغوريو، على الرّغم منه، كان متّحدًا مع أخويه بذكرى السنوات التي تقاسموها معًا. لقد وعد إيفيلين بحفلة عند بلوغها الخامسة عشرة من دون أيّ اعتبار للنفقات، وقدّم درّاجة إلى أندريس، خبّأها الصبيّ عن جدّته طوال أسابيع، إلى أن وصلت إليها الإشاعات، وأجبرته على الاعتراف بالحقيقة. وقد وجّهت إليه كونثيبثيون عددًا من الصفعات لأنّه

تقبَّل هديَّة من عضو في عصابة، حتى لو كان أخاه، وباعت الدراجة في اليوم التالي في السوق.

* * *

مزيج الهلع والتوقير الذي كان يشعر به أندريس وإيفيلين تجاه غريغوريو، صار يتحوَّل إلى حياء كالشلل في حضوره. فالسلاسل ذات الصلبان المعلَّقة برقبته، ونظّارةُ الطيّار الخضراء، والأحذيةُ الأميركيَّة، والوشومُ التي تتكاثر كالوباء على بشرته، وشهرتُه كقاتل، وحياتُه المجنونة، وعدمُ مبالاته بالألم والموت، وأسرارُه وجرائمه، كلُّ شيء كان يفتنهما. فكانا يتكلَّمان على أخيهما المخيف بهمس محظور، بعيدًا عن مسمع الجدَّة.

كانت كونثيبثيون تخشى أن يمضي أندريس على خُطى أخيه، لكنَّ الصغير كان يفتقر إلى طبع أفراد العصابات، فهو شديد الذكاء، وحذر، وغير مُحبّ للصخب؛ يحلم بالذهاب إلى الشمال والازدهار. كانت خطَّته تتلخَّص في كسب نقود في الولايات المتَّحدة والعيش حياةَ متسوِّل، من أجل الادِّخار لإحضار إيفيلين وجدَّته، وأن يوفِّر لهما حياة لائقة هُناك. وسوف تسافران من خلال وسيط يتحمَّل المسؤوليَّة، يحصل لهما على جوازَي سفر مع التأشيرات ووثائق التلقيح ضدَّ التهاب الكبد والتيفوس، والتي يطالب بها الغرينغيُّون أحيانًا. وسوف يعيشون مع أمّهم في بيت من الإسمنت فيه ماء وكهرباء. المهمّ هو الهجرة. الرحلة عبر المكسيك، مشيًا على الأقدام أو على سطوح قطارات الشحن، هي تجربة حاسمة. سيواجه قطَّاع طرق مسلَّحين بمناجل ماتشيتي، ورجال شرطة معهم كلاب. والسقوط عن القطار

يعني فقدان الساقين أو فقدان الحياة. ومن يجتَزِ الحدود يُمكنْ له أن يموت عطشًا في صحراء الولايات المتَّحدة، أو ضربًا بعصيّ أصحاب المزارع الذين يخرجون لاصطياد مهاجرين كما لو أنَّهم يصطادون أرانب بريَّة. هذا ما يرويه الفتيان الذين قاموا بالرحلة وعادوا مبعَدين في «حافلة الدموع»، متضوِّرين جوعًا، وبملابس ممزَّقة ومنهَكين، ولكنَّهم غير مهزومين. يستردُّون عافيتهم خلال أيَّام قليلة ويعاودون الكرّة. يعرف أندريس شخصًا حاول ذلك ثماني مرَّات، وهو يستعدّ للذهاب من جديد. أمَّا هو، فتنقصه الشجاعة للقيام بكلّ ذلك. إنَّه مستعدّ للانتظار، لأنَّ أمّه وعدته بأنَّها ستجد له وسيطًا بعد أن ينتهي من المدرسة، وقبل أن يُستدعى إلى التجنيد.

كانت الجدَّة متعبَة من سماع الحديث عن خطَّة أندريس. أمَّا إيفيلين، فكانت تستمتع بأدقّ التفاصيل، مع أنَّها لا ترغب في العيش في أيّ مكان آخر. إنَّها لا تعرف سوى قريتها وبيت جدَّتها. ذكرى أمّها ما زالت سليمة، لكنَّها لم تعد تعيش معلَّقة بالبطاقات البريديَّة أو مكالمات أُمّها الهاتفيَّة المتباعدة. ليس لديها وقت للأحلام. فهي تستيقظ عند الفجر لتساعد الجدّة. تذهب إلى البئر كي تجلب الماء، وتبلِّل الأرضيَّة الترابيَّة المتماسكة لتَحُول دون تصاعد الغُبار المتفلِّت، وتضع حطبًا في موقد الطبخ، وتُسخِّن الفاصولياء السوداء إذا كان ثمَّة بقايا من اليوم السابق، وتصنع أقراص عجَّة الذرة، وتقلي شرائح الموز الذي تقطفه من الفناء، وتُصفِّي القهوة المُحلَّاة بالسكَّر للجدَّة ولأندريس. ولا بُدَّ أيضًا من إطعام الدجاجات والخنزير، وتعليق الملابس المنقوعة في الماء منذ الليلة السابقة. لا يُساهم أندريس في هذه الأعمال، إنَّها من أمور النساء؛ أمَّا هو فيذهب إلى المدرسة قبل

أخته ليلعب كرة القدم مع صِبْيَة آخرين.

كانت إيڤيلين تتفاهم مع جدَّتها بلا كلمات، برقصة إيماءات مكرورة ومهمَّات منزليَّة منهجيَّة. تبدأ كلتاهما، في أيَّام الجمعة، العملَ مُنذ الساعة الثالثة فجرًا، من أجل تحضير حشوة التامال. وتلفّان، في يوم السبت، العجين بأوراق موز، وتطهوانه وتحملانه لبيعه في السوق. ومثل أيّ صاحب تجارة، مهما يكن فقيرًا، كانت الجدَّة تدفع رسوم حماية إلى رجال العصابات والمجرمين الذين يعملون بلا عقاب في المنطقة، وتدفع أحيانًا إلى شرطيّي الحرس الأهلي. إنَّه مبلغ ضئيل، بما يتناسب مع دخلها البائس، لكنَّهم يتقاضونه بالتهديد، وإذا لم يُدفع إليهم يُلقون بشطائر التامال في الساقية، ويوجِّهون إليها بضع صفعات. وما بين ثمن مكوّنات التامال والمبلغ الذي تدفعه، لا يبقى لها سوى أرباح قليلة لا تكاد تكفي لإطعام حفيديها. ولولا ما ترسله مريام لكانوا مَعوزين. وفي أيّام الآحاد والمناسبات الدينيَّة، إذا ما حالفهما الحظّ بالاعتماد على الأب بينيتو، فإنَّ الجدّة والحفيدة تذهبان لكَنْس الكنيسة وترتيب زهور القدّاس. وعندئذ، تُهدي راهبات القرية إيڤيلين بعض الحلوى. وكنّ يقلن للجدّة: «كم صارت إيڤيلين جميلة. خبِّئيها يا دونيا كونثيبثيون كيلا يأتي رجل بلا قلب ويضيّعها».

* * *

طلع الصباح، في يوم الجمعة الثاني من شهر شباط/فبراير، على جسد غريغوريو أورتيغا معلَّقًا على جسر النهر، يغطِّيه دم جاف وبراز، مع قطعة كرتون معلَّقة بعنقه تحمل الحرفين الأوَّلين الرهيبين: «أم. أس»، واللذين يعرفهما الجميع. كان الذباب الأزرق قد بدأ مأدبته

القذرة قبل وقت طويل من وصول أوّل الفضوليّين وثلاثة ممّن يرتدون زيّ الشرطة الوطنيّة الأهليّة. بدأ الجسد يتعفّن في الساعات التالية، وأخذ الناس عند منتصف النهار تقريبًا ينسحبون هاربين من الحرّ والنتانة والخوف. لم يبق قرب النهر سوى رجال الشرطة في انتظار الأوامر، ومصوّرٍ ضَجِر مُرسَل من قرية أخرى لتغطية «الحدث الدامي» مثلما سمّاه، مع أنَّ الحدث لم يكن يمثّل أيّ جديد، وكونثيبثيون مونتويا مع حفيديها، أندريس وإيفيلين، وكانوا ثلاثتهم يقفون صامتين بلا حراك.

«خذي الصغيرين من هُنا أيّتها الجدّة، فهذا ليس بالمشهد المناسب لهما»، أمرها مَن بدا أنّه أكثر الشرطيين الثلاثة سلطة.

لكنَّ كونثيبثيون كانت ثابتة كثبات شجرة قديمة في الأرض. لقد رأت من قبل فظاعات مثلَ هذه، فقد أحرقوا أباها واثنين من أُخوتها وهم أحياء خلال الحرب، وكانت تظنّ أنّه ما عاد يُمكن لأيّ قسوة بشريّة أن تُفاجئها. لكن، عندما جاءت إحدى الجارات راكضة لتخبرها عمّن يوجد عند الجسر، أفلتت القِدْر من يديها، وتبعثر على الأرض دقيقُ عجينة التامال. كانت تنتظر منذ وقت لا بأس به أن ينتهي الأمر بحفيدها الأكبر إلى السجن أو ميتًا في شجار، لكنّها لم تتوقّع له مثل هذه النهاية.

«هيّا أيّتها العجوز، انصرفي من هُنا قبل أن أغضب»، ألحَّ قائد الشرطيّين وهو يدفعها.

نفض أندريس وإيفيلين أخيرًا عنهما السبات، وأمسكا الجدّة من ذراعيها، وانتزعا ساقيها من الأرض واقتاداها بصعوبة. لقد هرمت

كونثيبثيون فجأة، وأخذت تجرّ قدميها منكمشة على نفسها كعجوز هَرِمة. كانت تنظر إلى الأرض بينما رأسها يترنّح، وهي تُردِّد: فليباركْه لي الرَّب وليغفرْ له، فليباركْه لي الرَّب وليغفرْ له.

وكان على الأب بينيتو أن يؤدِّي المهمَّة المحزنة بالاتِّصال بأمّ غريغوريو ليخبرها بنكبة ابنها، ويحاول مواساتها عبر الهاتف. كانت مريام تنتحب من دون أن تدري ما الذي حدث. فقد أوصت كونثيبثيون، الكاهنَ، من خلال تعليمات محدَّدة منها، بألا يُخبرها بالتفاصيل، واكتفى بالقول لها إنَّ الأمر حادث مرتبط بالجريمة المنظَّمة، مثل كثير من المِيتات العشوائيَّة التي تحدث يوميًا؛ وإنَّ غريغوريو كان ضحيَّة عابرة أُخرى من ضحايا العنف المنفلت. وأخبرها بأنَّ لا جدوى من مجيئها لحضور الدفن، لأنَّها لن تستطيع الوصول في الوقت المناسب، لكن هُنالك حاجة إلى نقود من أجل شراء التابوت، ومن أجل حجز مكان في المقبرة، إضافة إلى نفقات أُخرى. وسوف يتكفَّل هو نفسه بتأمين دفن مسيحيّ لابنها وإقامة قدّاس من أجل راحة نفسه. ولم يُخبر مريام كذلك بأنَّ الجثمان في مستودع جُثث على بُعد ستِّين كيلومترًا، وأنَّه لن يُسلَّم إلى العائلة إلَّا بعد صدور تقرير الشرطة، وهو ما يُمكن أن يتأخَّر شهورًا، اللَّهمَّ إلَّا إذا تمَّ دفع مبلغ تحت الطاولة. وفي هذه الحالة، لن يتذكَّر أحد التشريح. ومن أجل هذا الأمر سيُستخدم جزء من المال. وسيكون عليه هو نفسه أيضًا القيام بهذه المساعي المزعجة.

قطعة الكرتون المعلَّقة بعنق غريغوريو، وتحمل الحرفيين الأوَّلين من «مارا سالفاترتشا»، توجد على وجهها الآخر كتابةٌ تقول: «هكذا يموت من يخونون عائلتهم». ولم يدرِ أحد ما هي حقيقة خيانة

غريغوريو أورتيغا. لقد كان موته تحذيرًا لأعضاء العصابة إذا كان هُنالك من أُصيب ولاؤه ببعض الوهن، وسخريةً من الشرطة الوطنيَّة وتفاخرِها بأنَّها تتحكَّم في الأمن وتحول دون وقوع الجرائم، وتهديدًا للأهالي. علم الأب بينيتو بالرسالة التي على قطعة الكرتون من خلال أحد رجال الشرطة، وقدَّر أنَّ من واجبه إخبار كونثيبثيون مونتويا بالخطر الذي يتهدَّد أسرتها. فكان جواب المرأة: «وماذا تريد منَّا أن نفعل يا أبتاه؟». قرَّروا أن على أندريس أن يُرافق إيفيلين في ذهابها إلى المدرسة وإيابها منها، وعليهما المشي بمحاذاة الطريق العام، بدلًا من اختصار الطريق عبر الدرب الأخضر بين مزارع الموز، مع أنَّ هذا الطريق يتطلَّب عشرين دقيقة إضافيَّة، لكن أندريس لم يضطرّ إلى تنفيذ ذلك، لأنَّ أخته رفضت العودة إلى المدرسة.

صار جليًا، في أثناء ذلك، أنَّ رؤية أخيها معلَّقًا على الجسر قد شوَّشت ذهن إيفيلين ولسانها. كانت الفتاة، في ذلك العام على وشك إتمام الخامسة عشرة من العمر، وبدأت تُلمَح بعضُ تكوُّرات المرأة فيها وتجاوزها الإحساس بالخجل. فقد صارت، قبل مقتل غريغوريو، تتجرأ على المشاركة في الدروس والتدخُّل فيها، وصارت تعرف الأغاني الرائجة، وباتت واحدة أُخرى بين الصغيرات في الساحة، ترمق الفتيان بنظرات، متظاهرة بعدم المبالاة. لكن منذ يوم جمعة الرُّعب ذاك، فقدت الرغبة في تركيب الحروف بانسيابيَّة، وخانتها القدرة على ذلك. صارت تتلعثم كثيرًا، حتى إنَّ حنان جدَّتها لم يعد كافيًا لمحاولة فهم ما تريد قوله.

لوثيا

تشيلي

أمّها لينا، وأخوها إنريكي، كانا دعامتي طفولة لوثيا مارات قبل أن ينتزع منها الانقلاب العسكريّ أخاها. أمّا أبوها فكان قد مات في حادث سير وهي صغيرة جدًّا، وهو بالنسبة إليها كمن لم يكن له وجود قطّ. لكن فكرة الأب ظلّت تطفو بين الابنين كغمامة. ومن ذكريات لوثيا القليلة، وهي ذكريات غائمة جدًّا إلى حدّ يُمكن لها ألّا تكون ذكريات وإنّما مشاهد مستحضرة من خلال أخيها، هنالك ذكرى أنّها كانت في حديقة الحيوان، فوق كتفي أبيها، تمسك بكلتا يديها رأسه ذا الشعر الأسود الخشن، وتجول بين أقفاص القرود. وفي ذكرى أخرى بمثل غموض تلك، كانت في أرجوحة دوّارة تركب وحيد قرن، وأبوها يقف إلى جانبها يثبّتها من خصرها. ولا يظهر في أيّ واحدة من تلك اللحظات أخوها أو أمّها.

لينا مارات التي أحبّت ذلك الرجل منذ السابعة عشرة من عمرها بنكران للذات لا جدال فيه، تلقّت خبر موته المأساويّ، وتمكّنت من أن تبكيه بضع ساعات فقط، قبل أن تكتشف أنّ الشخص الذي تعرّفت

إلى جثّته للتوّ في المستشفى العام، حيث عرضوا عليها الجسد مغطّى بملاءة فوق منضدة معدنيّة، كان شخصًا مجهولًا لها، والزواج منه كان تدليسًا وتزويرًا عظيمين. ضابط الشرطة نفسه الذي أخبرها بما حدث، رجع فيما بعد يرافقه تحرٍّ من المباحث ليطرح عليها أسئلة بدت قاسية، بسبب الظروف. ولأنّها أسئلة لا علاقة لها بالحادث، كان عليهم أن يُكرِّروا المعلومة مرّتين كي تفهم لينا ما يريدون قوله لها. لقد كان زوجها متزوّجًا من امرأتين. فعلى بعد مئة وستّين كيلومترًا، في إحدى مدن الأقاليم، توجد امرأة أخرى مخدوعة مثلها، تظنّ أنّها الزوجة الشرعيّة وأمّ ابنه الوحيد. لقد عاش زوجها حياة مزدوجة طوال سنوات، مغطّيًا نفسه بعمله الذي يتطلّب السفر بكثرة، وهي ذريعة جيّدة لفترات غياب طويلة. وبما أنّه كان قد تزوّج من لينا أوّلًا، فإنّ علاقته بالثانية لا تتمتّع بأيّ قيمة قانونيّة. أمّا الابن الآخر فجرى الاعتراف به، وهو يحمل لقب الأب.

تحوّل حداد لينا إلى إعصار ضغينة وغيرة مستعادة. أمضت شهورًا وهي تُراجع الماضي بحثًا عن أكاذيب أو سهو، وتحاول ربط الأمور لتتمكّن من تفسير كلّ عمل مريب، وكلّ كلمة زائفة، وكلّ وعد لم يُنجَز، مرتابةً حتى بالطريقة التي مارسا فيها الحبّ. وفي سعيها للتحرّي عن المرأة الثانية، سافرت إلى مقاطعتها كي تتجسّس عليها، وتمكّنت من التأكّد من أنّها كانت شابّة ذات مظهر تافه، سيّئة الملبس، وتضع نظّارة طبّيّة، ومختلفةً كثيرًا عن الخليلة التي تخيّلتها. راقبتها من بعيد ولاحقتها في الشارع، لكنّها لم تقترب منها. وبعد أسابيع من ذلك، اتّصلت بها المرأة هاتفيًا لتطلب منها أن تلتقيا لتبادل الحديث عن الوضع، ذلك بأنّهما قد عانتا بطريقة مماثلة، وأبناء كلتيهما

يتشاطرون الأب نفسه، لكنَّ لينا قاطعتها حينها بجفاء، قائلةً لها إنَّه لا يوجد شيء مشترك بينهما؛ وإنَّ خطايا ذلك الرجل لا تنتمي إلَّا إليه وحده، ولا شك في أنَّه يدفع ثمن ذلك الآن في المطهر.

كان الحقد ينهش حياتها، لكنَّها انتبهت في لحظة ما إلى أنَّ زوجها ما زال يؤذيها من قبره، وأنَّ غضبها نفسه آخذ بتدميرها أكثر من خيانته. عندئذ اختارت حلًّا صارمًا: قطعت كلّ أثر للخائن من حياتها بضربة فأس: أتلفت صوره التي في متناول يدها، وتخلَّصت من أشيائه، ولم تعد تلتقي الأصدقاء المشتركين، وتفادت أيّ اتِّصال بعائلة ماراث، لكنَّها احتفظت بالكنية، لأنَّها كنية ابنيها.

تلقَّى إنريكي ولوثيا تفسيرًا أوَّليًّا: توفِّي الأب في حادث، لكنَّ الحياة تتواصل، ومن غير الصحِّي التفكير في الأموات. عليهما أن يقلبا الصفحة؛ ويكفي أن يضيفاه إلى صلواتهما كي ترقد روحه بسلام. لا يمكن للوثيا أن تتخيَّل شكله إلَّا من خلال صورتين بالأبيض والأسود، أنقذهما أخوها قبل أن تكتشف لينا وجودهما. ويبدو الأب فيهما رجلًا طويل القامة، نحيلًا، بعينين حادَّتين، وشعر مصمَّغ. ويظهر في إحدى الصورتين فتيًّا جدًّا، في زيّ بحريّ، إذ درس وعمل كمهندس صوت لبعض الوقت. ويظهر في الصورة الثانية، بعد سنوات من تلك، مع لينا ومع إنريكي وله من العمر بضعة شهور، تحمله بين ذراعيها. لقد وُلد في دالماسيا وهاجر إلى تشيلي مع أبويه وهو طفل، مثل لينا ومئات الكرواتيين الآخرين الذين دخلوا البلاد باعتبارهم يوغسلافيين واستقرُّوا في الشمال. تعرَّف إلى لينا في احتفال فولكلوري، واكتشافهما كمِّيَّة القصص التي يعرفانها بصورة مشتركة غذَّى بينهما وهم الحبّ، لكنَّهما كانا، في صورة أساسيَّة، مختلفين

تمامًا. فقد كانت لينا جدِّيَّة، محافظة ومتديِّنة، بينما هو مرحٌ، بوهيميّ وقليل الاحترام. وكانت تلتزم بالأنظمة من دون أن تناقشها، ومُحبَّة للشغل، ومقتصدة. بينما كان هو محبًا للّهو ومبذِّرًا.

* * *

ترعرعت لوثيا من دون معرفة أيّ شيء عن أبيها، لأنَّ الموضوع كان تابو في البيت. لم تمنع لينا الحديث فيه قطّ، لكنَّها كانت تتجنَّبه بزمِّ شفتيها وتقطيب جبينها. تعلَّم الابنان ابتلاع فضولهما. وأشارت لينا إلى ذلك الزوج في مناسبات قليلة جدًّا، ولكنَّها استطاعت، في الأسابيع الأخيرة من حياتها، التكلُّم عليه والردّ على أسئلة لوثيا. «متى خرجتِ بإحساسك بالمسؤوليَّة والقوَّة والمتانة؛ أمَّا أبوكِ فيمكنك شكره لأنَّه منحك اللطف وسرعة البديهة، ولكنَّه لم ينقل إليك أيًّا من عيوبه، وقد كانت كثيرة»، قالت لها.

كان غياب الأب بالنسبة إلى لوثيا في طفولتها، أشبهَ بحُجرة مغلقة في البيت؛ بابٍ مُحكم الإغلاق يخبّئ سرًّا غير معروف. كيف سيكون فتح الباب؟ من ستجد في تلك الحُجرة؟ ومهما أمعنت النظر باهتمام إلى رجل الصورتين، لا تتوصَّل إلى ربط نفسها به. لقد كان غريبًا. عندما كانوا يسألونها عن أسرتها، فإنَّ أوّل ما اعتادت أن تقوله، بملامح حزينة، كي تتهرَّب من استجواب محتمل، هو أنَّ أباها قد مات. فيثير هذا الجواب الأسى ـ الطفلة المسكينة يتيمة الأب ـ ولا يتوجَّه أحد بمزيد من الأسئلة. لقد كانت تحسد في سرِّها آديلًا، صديقتَها المفضَّلة، والابنة الوحيدة لأبوين منفصلين، فهي مدلَّلة كأميرة من أبيها، وهو طبيب متخصِّص بزرع الأعضاء الحيويَّة، يُسافر كثيرًا

إلى الولايات المتَّحدة ويأتيها بدمًى تتكلَّم الإنكليزيّة، وبأحذية جلديّة حمر مثل دوروثي في قصّة «ساحر أوز». لقد كان الطبيب نبع حنان وضحك خالص، يأخذ آديلًا ولوثيا إلى صالون الشاي في فندق غريبون لتناول مثلَّجات في كؤوس مكلَّلة بالكريما، وإلى حديقة الحيوان لرؤية الفقمات، وإلى الحديقة البرِّيَّة لركوب الخيول؛ ولكنّ النزهات والألعاب هي أقلّ ما يُمكن الحديث عنه. فأفضل لحظات لوثيا هي عندما تمضي ممسكة بيد أبي صديقتها أمام الناس متظاهرة بأنّ آديلا هي أختها، وتتقاسمان كلتاهما، هذا الأبَ الذي يشبه أبًا من إحدى الحكايات. كانت تتمنّى بحماسة أن يتزوّج ذلك الرجل الكامل أمّها فيصبح زوج أمّها، ولكنّ السماء استبعدت أمنيتها هذه مثل أمنيات كثيرة أخرى.

كانت لينا ماراث في تلك الفترة، امرأة شابّة وجميلة، لها كتفان مربَّعتان، وعنق طويل، وعينان متحديتان بلون السبانخ، لم يتجرّأ أبو آديلًا على مغازلتها قطّ. فبدلاتها الصارمة ذات السترة الرجّاليَّة، وبلوزاتها العفيفة لا تخفي غواية تقاطيعها، لكن سلوكها يفرض الاحترام والاحتفاظ بمسافة حذرة. وكان يُمكن لها أن تجد فائضًا من المتقدِّمين لطلب ودّها لو أنّها سمحت بذلك، لكنّها تشبَّثت بالترمُّل بكبرياء إمبراطورة. لقد زرعت فيها أكاذيب زوجها انعدام ثقة بجنس الذكور بأسره، لا سبيل إلى إخماده.

* * *

إنريكي ماراث الذي يكبر أخته بثلاث سنوات، كان يغذّي بعض الذكريات المثاليّة أو المختلفة عن أبيه، ويتقاسمها سرًّا مع لوثيا، لكن

ذلك الحنين راح يتبدّد مع الأيّام. لم يكن يهمّه والد أديلّا بهداياه الغرينغيّة وكؤوس مثلّجاته في فندق غريبون. كان يريد أبًا خاصًّا به وعلى مقاسه، يشبهه عندما يكبر، يتعرّف إليه حين ينظر إلى نفسه في المرآة عندما يحين الوقت ويبدأ بحلاقة ذقنه. شخص يُعلّمه مزايا الرجولة الأساسيّة. أمّه تكرّر القول له إنّه هو نفسه رجل البيت، والمسؤول عنها وعن أخته، لأنّ مهمّة الرجال هي الحماية والرعاية. في إحدى المرّات، تجرّأ وسألها كيف يُمكن تعلُّمْ ذلك كلّه بلا أب. فأجابته بجفاء: بالارتجال، وأنّه حتى لو كان أبوه حيًّا، فلن ينفع كنموذج. ليس هُنالك ما يُمكن تعلُّمه منه.

كان الأخوان مختلفين، أحدهما عن الآخر، مثلما كان أبواهما. فبينما كانت لوثيا تضيع في متاهة تخيُّل محموم وفضول لا ينضب، وقلبها في يدها على الدوام، تبكي الألم الإنسانيّ وسوء معاملة الحيوانات، كان إنريكي كلّه عقلًا. منذ صباه، أبدى حماسة تبشيريّة دعويّة كانت تُثير الضحك في البدء، وتحوّلت فيما بعد إلى مصدر إزعاج. لم يكن هُنالك مَن يتحمّل ذلك الفتى شديد الحماسة، ذا المزاج الفوقيّ وعقدة الواعظ. في مرحلته الكشفيّة، كان يمضي طوال سنوات، في زيّ السروال القصير، محاولًا إقناع كلّ من يشاء له سوءَ الطالع، بفوائد التزام النظام والهواء الطلق. ونقل هذا الميل المَرَضيّ، فيما بعد، إلى نظريّة جورد غوردجييف وتعاليمه الروحانيّة، ثم تحوَّل إلى لاهوت التحرُّر، وإلى إيحاءات عقار الهلوسة «الـ أس دي» وتجلياته، إلى أن وجد ميله الطبيعي عند كارل ماركس.

كانت مُرافعات إنريكي الناريّة تُعكّر، إلى أقصى الحدود، مزاج أمّه التي لا ترى في اليسار سوى ضجيج ومزيد من الضجيج، ولا تؤثّر

في أخته، التلميذة المستهترة وغير المبالية، والتي تهتمّ بحبيبٍ ليوم واحد وبمغنّي الروك أكثر من اهتمامها بأيّ شيء. كان إنريكي، بلحيته القصيرة وشعره الطويل وقبّعة البيريه السوداء، يقلّد رجل حرب العصابات الشهير تشي غيفارا الذي سقط في بوليفيا قبل سنتين من ذلك الحين، في العام ١٩٦٧. لقد قرأ كتاباته، وصار يستشهد به في كلّ وقت، ولو بصورة غير مؤاتية، أمام نزق أمّه الانفجاريّ وتقدير أخته وإعجابها الأبله.

كانت لوثيا تُنهي المدرسة الثانويَّة، في نهاية عقد الستّينيَّات، عندما انضمّ إنريكي إلى القوى المؤيِّدة لمرشَّح الرئاسة الاشتراكي سلفادور ألليندي الذي كان في نظر كثيرين الشيطانَ مجسَّدًا. وكان إنريكي يرى أنَّ خلاص الإنسانيَّة يرتكز على هزيمة الرأسماليَّة عن طريق ثورة لا تترك حجرًا على حجر. ولهذا، فإنَّ الانتخابات ليست أكثر من حفلة تهريج. ولكن بما أنَّه قد توافرت فرصة وحيدة للتصويت لمرشَّح ماركسيّ، فلا بُدّ من انتهازها. المرشَّحون الآخرون يَعِدون بإصلاحات في إطار ما هو معروف، بينما برنامج اليسار جذريّ. وقد أطلق اليمين حملة رعب متنبِّئًا بأنَّ تشيلي ستصير مثل كوبا، وأنَّ السوفيات سيختطفون الأطفال التشيليين لغسل أدمغتهم، وسيدمِّرون الكنائس، ويغتصبون الراهبات، ويُعدمون الكهنة، وأنَّهم سينتزعون الأرض من أصحابها الشرعيين ويقضون على الملكيَّة الخاصَّة. وحتى الفلَّاح الأشدّ بؤسًا سيفقد دجاجاته، وينتهي به الأمر عبدًا في أحد غولاغات سيبيريا.

على الرَّغم من حملة الرُّعب هذه، فإن البلاد مالت نحو أحزاب اليسار التي اجتمعت في ائتلاف باسم «الوحدة الشعبيَّة»، يترأسه

سلفادور ألليندي. وأمام رعب من مارسوا السلطة دومًا، والولايات المتَّحدة التي كانت تُراقب الانتخابات التشيليَّة وفي ذهنها فيديل كاسترو وثورته، كسبت «الوحدة الشعبيَّة» الانتخابات عام ١٩٧٠. ربّما كان المتفاجئ الأكبر هو سلفادور ألليندي الذي كان قد تقدّم إلى انتخابات الرئاسة ثلاث مرَّات من قبل، وقد اعتاد رواية نكتة عن أنّ لوحة قبره سيُكتب عليها: هُنا يرقد رئيس تشيلي المستقبليّ. والمتفاجئ الثاني كان إنريكي ماراث الذي وجد نفسه بين ليلة وضحاها بلا شيء يعارضه. لكن ذلك تبدّل سريعًا فور هدوء الحماسة الأوّلية.

اجتذب فوز سلفادور ألليندي، أوّلِ ماركسيّ يُختار عبر تصويت ديموقراطيّ، اهتمامَ العالم بأسره، وبصورة خاصَّة وكالة المخابرات المركزيَّة الأميركيَّة. وتبيَّن أنَّ ممارسة الحُكم مع الأحزاب متنوّعة التوجُّهات التي تدعمه، ومع الحرب الشعواء التي يشنّها معارضوه، ستكون مهمَّة مستحيلة، وهو ما سيكتشفه سريعًا جدًّا، حين بدأت العاصفة الهوجاء التي ستستمرّ ثلاث سنوات وستهزّ أُسس المجتمع. لم يعد هنالك أحدٌ غير مبال.

لقد كانت الثورة الحقيقيَّة، في نظر إنريكي ماراث، مثلَ الثورة في كوبا، أمَّا إصلاحات ألليندي فلن تنفع إلَّا في تأجيل هذه الثورة بصورة محتَّمة. وراح حزبه اليساريّ المتطرِّف يمارس التخريب ضدَّ الحكومة بالحماسة نفسها التي يفعل بها اليمين ذلك. فبعد قليل من الانتخابات، ترك إنريكي دراسته، وغادر بيت أمّه من دون أن يترك عنوانًا له. كانوا يحصلون على أخبار متباعدة عنه، حين يأتي في زيارة أو يتّصل هاتفيًا، وهو على عجلة من أمره دومًا، لكن نشاطاته كانت سرّيَّة. ظلَّ بلحيته وشعره الطويل، لكنَّه تخلَّى عن قبَّعة البيريه والجزمة، وصار يبدو أكثر

تأمّلًا. لم يعد يندفع إلى الهجوم مسلّحًا بعبارات رجم ضدّ البرجوازيّة والدين والإمبرياليَّة الأميركيَّة، فقد تعلّم الاستماع بتهذيب متصنّع إلى آراء أمّه التي ترجع إلى عصر إنسان الكهوف وحماريّة أخته، مثلما كان يصنّفهما.

كانت لوثيا قد زيَّنت غرفتها بملصق لتشي غيفارا، لأنّ أخاها أهداها إيّاه، ولأنَّ رجل حرب العصابات «سِكْسِي» (جذّابًا)، وكي تزعج أمّها التي تعتبره «مجرمًا». وكانت لديها كذلك عدّة أُسطوانات للمغنّي والموسيقيّ ڤيكتور خارا. وهي تعرف أغنياته الاحتجاجيّة المعارِضة، وبعض العبارات المكرورة عن «الطليعة الماركسيّة اللينينيّة للطبقة العاملة والطبقات المضطهَدة»، مثلما يصنّف حزب إنريكي نفسه. وتنضمّ إلى المسيرات الحاشدة دفاعًا عن الحكومة، مغنّية حتى الزعيق أنَّ الشعب موحَّدًا لن يُهْزَم أبدًا. وتخرج، بعد أسبوع من ذلك، وبحماسة مماثلة، مع صديقاتها في مظاهرات أُخرى، حاشدة أيضًا، للاحتجاج ضدَّ الحكومة نفسها التي كانت تدافع عنها منذ أيّام. لم تكن القضيَّة تعنيها بقدر ما تعنيها مهزلة الصراخ في الشارع. فقد كان تماسكها الأيديولوجيّ بائسًا جدًّا، على حدّ قول إنريكي وهو يوبّخها ذات يوم، حين رآها ضمن مظاهرة للمعارضة. لقد كان الميني جوب موضة رائجة، وكذلك الجزمات ذات الكعب السميك، والعيون الملطّخة بالأسود التي تبنَّتها لوثيا، وحركة الهيبيّين، أبناء الزهور، الذين لم يقلّدهم سوى عدد قليل من الشبّان التشيليّين، وكانوا يرقصون مخدَّرين على وقع دفوفهم، ويمارسون الحبّ في الحدائق، كما في لندن وكاليفورنيا. لم تصل لوثيا إلى تلك الحدود، لأنَّ أمّها ما كانت لتسمح لها بالاختلاط بأولئك «الرعويّين المنحطّين»، على حدّ قولها.

ونظرًا إلى أنَّ الموضوع الوحيد في البلاد هو السياسة التي كانت تؤدِّي إلى حالات قطيعة عنيفة بين الأصدقاء وأفراد العائلات نفسها، فرضت لينا في بيتها قانون الصمت بشأن الموضوع، مثلما فرضته بشأن زوجها. أمَّا لوثيا، التي كانت في أوج تمرُّد مراهقتها، فكانت طريقتها المثاليَّة لاستفزاز أمّها هي ذكر اسم ألليندي. كانت لينا ترجع في الليل منهَكة من يوم عملها، فوسائط النقل العام سيِّئة جدًّا، وحركة المرور معطَّلة بسبب الإضرابات والمظاهرات، وأرتالِ الانتظار الأبديَّة الطويلة من أجل الحصول على فرُّوج هزيل أو على سجائرها التي لا يُمكنها العيش من دونها، ولكنَّها تستجمع قواها لتقرع القدور مع الجارات في الحيّ، كطريقة مُغْفَلة للاحتجاج على ندرة الموادّ التموينيَّة بصورة خاصَّة، وضدّ الاشتراكيَّة بصورة عامَّة. كان ذلك الطَّرْقُ على القدور يبدأ ببضع طرقات منفردة في فناء أحد البيوت، وسُرعان ما ينضمّ قرعُ آخرين في كورال يبعث على الصَّمَم، ينتشر في مناطق الطبقتين الوسطى والعُليا في المدينة كنذير بالقيامة. كانت تجد ابنتها تجلس دَهِشَة قُبالة التلفزيون أو تثرثر على الهاتف، مع أغنياتها المفضَّلة بأعلى صوت. تلك الصبيَّة غير الواعية، والتي لها جسد امرأة ودماغ ذُبابة، تُثير قلقها، ولكن من يُثير قلقها أكثر هو إنريكي. كانت تخشى أن يكون ابنها واحدًا من تلك الرؤوس الحامية التي تريد حماية السلطة عن طريق العنف.

* * *

الأزمة العميقة التي كانت تقسم البلاد صارت لا تُطاق. فالفلَّاحون يستولون على أراضٍ لإقامة تعاونيّات زراعيَّة، وجرت مُصادرة مصارف ومصانع، وتمَّ تأميم مناجم النحاس في الشمال، وقد

كانت على الدوام في أيدي شركات أميركيّة؛ وصارت ندرة المواد داءً مستوطنًا، فهناك شحّ بالإبر الطبيّة والأضمدة في المستشفيات، وقطع غيار الآلات، وحليب الأطفال، والناس يعيشون في حالة من البارانويا. أرباب العمل يخرّبون الاقتصاد، ويسحبون موادّ أساسيّة من السوق. وردًا عليهم، ينتظم العمّال في لجان، فيطردون أصحاب المصانع ويسيطرون عليها. وفي شوارع مركز المدينة، تُشاهد مجموعات من عمّال يتجمّعون حول مواقد نيران يحرسون المكاتب والمتاجر من العصابات اليمينيّة، بينما تجري الحراسة في الأرياف نهارًا وليلًا من أجل حماية الملّاكين القدماء. لقد كان هُناك قَتَلة مسلّحون من الجانبين. وعلى الرَّغم من أجواء الحرب، فإن اليسار زاد في نسبة أصواته في الانتخابات البرلمانيّة في شهر آذار/مارس. وكانت المعارضة، في أثناء ذلك، قد أمضت ثلاث سنوات من التآمر، مدركة أنَّ التخريب وحده لا يكفي للإطاحة بالحكومة، وأنَّه لا بدّ من اللجوء إلى أسلحة أخرى.

تمرَّد العسكريُّون ضدَّ الحكومة، يوم الثلاثاء، ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٧٣. سمعت لينا ولوثيا في الصباح هدير حوّامات تحلّق على ارتفاع منخفض، وتشكيلات طائرات حربيّة. أطلّتا ورأتا دبّابات وشاحنات في الشوارع شبه المقفرة. ولم تكن أيُّ قناة تلفزيونيَّة تعمل؛ إذ كانوا يعرضون صورة ثابتة لشكل هندسي متناسق. وعلمتا من الإذاعة بوقوع الانتفاضة العسكريّة، ولم تفهما ما الذي يعنيه ذلك إلّا بعد ساعات، عندما تجدَّد بثّ قناة التلفزيون الحكوميّة، وظهر على الشاشة أربعة جنرالات، في زيّ الميدان، يقفون أمام راية تشيلي، ويُعلنون نهاية الشيوعيَّة في الوطن الجدير، وقرأوا بيانًا على الأهالي التقيّد بمضمونه.

أعلنت حالة الحرب، واعتُبر الكونغرس في عطلة مفتوحة، وأُلغيت الحقوق المدنيَّة ريثما تتمكَّن القوَّات المسلَّحة المجيدة من إعادة إقرار القانون والنظام وقيم الحضارة المسيحيَّة الغربيَّة. أوضحوا أنَّ سلفادور ألليندي قد أطلق خطَّة تتلخَّص في إعدام آلاف آلاف الأشخاص من المعارضة في إبادة لم يسبق لها مثيل، ولكنَّهم استبقوه وتمكَّنوا من تجنُّب ذلك. «ماذا سيحدث الآن؟»، سألت لوثيا أمّها بقلق، لأنَّ سعادة لينا المنفلتة، ومسارعتها إلى فتح زجاجة شمبانيا للاحتفال بالحدث، بدتا لها نذير شؤم؛ ويعني ذلك أنَّه يُمكن لأخيها إنريكي أن يكون في موقف حَرِج في مكان ما. «لن يحدث أيّ شيء يا ابنتي، فالجنود هُنا يحترمون الدستور، وعمَّا قريب سوف يدعون إلى انتخابات»، ردَّت عليها لينا، من دون أن يخطر لها أنَّ ستَّة عشر عامًا سوف تمضي قبل أن يحدث ذلك.

بقيت الأمّ والابنة حبيستَي الشقَّة إلى أن رُفع حظر التجوُّل. بعد مرور يومين، وتمكَّنتا من الخروج لوقت قصير من أجل شراء المؤن. لم تعد هناك صفوف انتظار. رأتا في المتاجر أكوامًا من الفراريج، ولكن لينا لم تشترِ منها لأنَّها بدت لها غالية الثمن، لكنّها تموَّنت بعدَّة كرتونات من علب السجائر. «أين كانت الفراريج أمس؟» تساءلت لوثيا. «كان ألليندي يخبّئها في مخزنه الخاصّ»، ردَّتْ عليها أمّها.

علمنا بأنَّ الرئيس قد مات خلال قصف القصر الحكومي الذي شاهدناه إلى حدّ الإنهاك في التلفزيون، وسمعنا إشاعات عن أجساد تطفو في نهر مابوتشو لدى مروره في المدينة، وعن حرائق ضخمة تُحرَق فيها كتب محظورة، وعن آلاف المشبوهين الذين حُشروا في شاحنات الجيش ونُقلوا إلى أماكن اعتقال جرى ارتجالها في آخر

ساعة، مثل الإستاد الوطني، حيثُ كانت تتنافس قبل أيَّام فرقُ كرة قدم. كان الجيران في حيّ لوثيا فرحين جدًّا مثل لينا، أمَّا هي فكانت تشعر بالخوف. ظلَّت التعليقات التي سمعتها بصورة عابرة تتردَّد في صدرها كتهديد مؤكَّد ضدَّ أخيها: سوف يضعون الشيوعيين الملاعين في معسكرات اعتقال، وأوَّل من يحتجّ منهم سيرمونه بالرصاص، مثلما خطَّط أولئك التعساء للعمل بنا.

عندما انتشر الصوت بأنّ جسد ڤيكتور خارا، بيديه المهشَّمتين، قد أُلقي في أحد الأحياء الفقيرة، ليكون عبرة، بكت لوثيا بحرقة طوال ساعات. «إنَّها تقوُّلات يا ابنتي، مجرَّد مبالغات. ما عادوا يعرفون ماذا يختلقون من أجل تشويه سمعة القوَّات المسلَّحة التي أنقذت البلد من براثن الشيوعيَّة. كيف يمكن أن يخطر في بالك أنَّ مثل هذه الأمور قد تحدث في تشيلي»، قالت لها لينا. كان التلفزيون يعرض رسومًا متحرِّكة وبلاغات عسكريَّة، والبلاد في حال من الوجوم. وأوَّل الشكوك خامر لينا حين ورد اسم ابنها في إحدى القوائم السوداء التي تُهدِّد من تظهر أسماؤهم فيها بأن يسلِّموا أنفسهم إلى مراكز الشرطة.

* * *

حضر، بعد ثلاثة أسابيع، عدَّة رجال مسلَّحين وبلا زيٍّ عسكريٍّ، وليسوا في حاجة إلى أن يُعرِّفوا بأنفسهم، وقاموا بتفتيش شقَّة لينا بحثًا عن ابنيها، إنريكي لأنَّه متَّهَم بأنَّه رجل حرب عصابات، ولوثيا باعتبارها متعاطفة. لم تكن لدى لينا أخبارٌ عن ابنها منذ شهور عديدة، ولو كانت لديها أيُّ أخبار لما قدَّمتها إلى أولئك الرجال. وكانت لوثيا قد بقيت لقضاء الليل في بيت صديقة لها خلال حظر التجوُّل، وكانت

أنّها من الفطنة بحيث لم تستسلم للخوف من التهديدات والصفعات التي تلقّتها خلال التفتيش. فقد أخبرت التحريّين بكلّ هدوء بأنّ ابنها قد انفصل عن الأسرة ولم تعد تعرف عنه أيّ شيء، أمّا ابنتها فقد ذهبت إلى بوينس آيرس في رحلة سياحيّة. فذهبوا مع التنبيه إلى أنّهم سيعودون لاعتقالها هي نفسها ريثما يظهر ابناها.

توقّعت لينا أن يكون الهاتف مراقبًا، وانتظرت حتى الساعة الخامسة صباحًا، موعد رفع منع التجوُّل، كي تذهب وتخبر لوثيا في بيت صديقتها. ثم ذهبت بعد ذلك لمقابلة الكردينال الذي كان صديقًا مقرَّبًا إلى أسرتها قبل أن يترفَّع في سُلّم الفاتيكان السماويّ. لم تكن قد طلبت من أحد معروفًا قطّ، لكنَّها في تلك اللحظات لم تتذكَّر كبرياءها. كان الكردينال متضايقًا من الوضع ومن صفوف المتوسِّلين، وقد تكرَّم بالاستماع إليها، والحصول للوثيا على لجوء في سفارة فنزويلا. ونصح لينا بأن تغادر أيضًا قبل أن يعود إليها عناصر الشرطة السرِّيَّة لتنفيذ تهديدهم، فردَّت عليه: «سأبقى هنا يا صاحب النيافة. لن أذهب إلى أيّ مكان قبل أن أحصل على أخبار عن ابني إنريكي».

«إذا ما وجدتِهِ، تعالَي لمقابلتي يا لينا، لأنَّ الشابّ سيكون في حاجة إلى مساعدة».

ريتشارد

بروكلين

أمضى ريتشارد بوماستير ليلة ذلك السبت من شهر كانون الثاني/ يناير وهو شبه جالس ومستند إلى الجدار، بينما ساقاه خدرتان بثِقل رأس لوثيا، يستيقظ للحظات وهو يحلم بآخرين، ذاهلًا بتأثير البسكويت السحريّ. لا يتذكَّر أنَّه أحسّ بهذا القدر من السعادة منذ زمن طويل. نوعيَّة المأكولات التي تتضمَّن ماريجوانا ضئيلة الدقَّة والثبات، ومن الصعب تقدير الكمِّيَّة التي يجب استهلاكها للتوصُّل إلى التأثير المرغوب فيه من دون الانطلاق محلِّقًا مثل صاروخ. تدخين الماريجوانا أفضل، لكنَّ الدخان يسبِّب له ربوًا. لقد كان محتوى الجزء الأخير قويًّا جدًّا. كان عليه أن يقسم البسكويت قطعًا أصغر. فالعشبة تنفعه في الاسترخاء بعد يوم عمل ثقيل أو من أجل إبعاد الأشباح، إذا كانت أشباحًا شرِّيرة. ليست المسألة أنَّه يؤمن بالأشباح طبعًا، فهو رجل عقلانيّ، ولكنَّها تظهر له. ففي عالم آنيتا الذي تقاسمه معها عدَّة سنوات، كان الموت والحياة متداخلين بصورة لا رجعة عنها، والأرواح الخيِّرة والشرِّيرة تحوم في كلِّ مكان. كان يوافق على

أنَّه كحوليّ، ولهذا السبب تجنّب المشروبات لسنوات، ولكنَّه لم يكن يظنّ أنَّه سيدمن على موادَّ أخرى، أو سينساق إلى رذيلة ذات أهمِّيَّة، اللَّهُمَّ إلَّا إذا كان ركوب الدرَّاجة إدمانًا أو رذيلة. كمِّيَّة الماريجوانا الضئيلة التي يتعاطاها، لا تدخل في هذا التصنيف قطعيًّا. ولو أنَّ قطعة البسكويت، في الليل، لم تؤثّر فيه بقوَّة، لكان نهض فور انطفاء نار المدفأة وذهب إلى سريره بدلًا من النوم جالسًا على الأرض، ليطلع عليه الصباح وقد تشنَّجت عضلاته وتراخت إرادته.

في هذه الليلة، ومع انخفاض دفاعاته، توافدت شياطينه لتوجِّه إليه ضربات من مخالبها في لحظات النوم المضطرب أو في الأحلام. لو حدث ذلك في سنوات سابقة لحاول إبقاء شياطينه حبيسة في حجرة مصفَّحة من حجرات الذاكرة، ولكنَّه تخلَّى عن ذلك لأنَّ الملائكة تمضي جنبًا إلى جنب مع الشياطين. تعلَّم بعد ذلك رعاية ذكرياته، بما في ذلك أشدُّها إيلامًا، لأنَّه من دونها سيكون كما لو أنَّه لم يكن شابًّا قطّ، ولم يحبّ قطّ، ولم يكن أبًا قطّ. فإذا كان الثمن الذي سيدفعه في مقابل ذلك مزيدًا من المعاناة، فسوف يدفعه. تكسب الشياطين، في بعض الأحيان، الصراع ضدّ الملائكة، وتكون النتيجة صُداعًا يُصيب المرء بالشلل، وهذا جزء من الثمن أيضًا. إنَّه يحمل دَيْنًا ثقيلًا من الأخطاء المقترفة، وهو دَيْن لم يتقاسمه مع أحد حتى هذا الشتاء في عام ٢٠١٦، حين فتحت الظروف قلبه بالقوّة. كان الافتتاح قد بدأ هذه الليلة بالذات، وهو ملقًى على الأرض بين امرأتين وكلب مضحك، بعزم على ماضيه، بينما بروكلين نائمة في الخارج.

على كمبيوتره، عندما يُشعل الشاشة، تظهر صورة آنيتا وبيبي، تحاصرانه أو تبتسمان له، بحسب الحالة المعنويّة في كلّ يوم. لم يكن

ثمّة وسيلة تذكير، فهو لا يحتاج إلى تذكير. وإذا وصل الأمر بالذاكرة إلى الإخفاق، فإنَّ آنيتا وبيبي ستكونان في انتظاره في البُعد غير الزمانيّ من أحلامه. في بعض الأحيان، يبقى أحد تلك الأحلام، وخصوصًا المعيش منها، ملتصقًا ببشرته، ويجعله يمشي طوال اليوم بقدم في هذا العالم، والقدم الأخرى في أرض ملتبسة وغير ثابتة لكابوس كارثيّ. وعند إطفاء النور، قبل أن ينام، يستحضر آنيتا وبيبي على أمل رؤيتهما. كان يعرف أنَّ الرؤى الليليّة هي إنتاج خاصّ به؛ وإذا كان ذهنه قادرًا على معاقبته بكابوس، فإنَّه يُمكن له كذلك أن يكافئه، لكنَّه لم يكتشف منهجًا لاستثارة أحلام مواسية.

لقد بدَّل ألمُه لونَه وتركيبته مع مرور الزمن. ففي البدء كان أحمر ولاذعًا، ثم تحوَّل بعد ذلك إلى رماديّ، سميك وخشن مثل نسيج كيس خيش. كان متآلفًا مع ذلك الألم في الخفاء، لقد ضمَّه إلى الإزعاجات اليوميَّة، إلى جانب الحموضة المعويّة. لكنَّ الذنب، مع ذلك، لا يزال نفسه، باردًا وقاسيًّا كالبلُّور، لا يلين. صديقه هوراسيو المستعدّ دومًا لرفع نَخب ما هو جيِّد وتتفيهِ ما هو سيِّئ، اتَّهمه في إحدى المناسبات بأنَّه عاشق للمصيبة: «أرسلْ أناك العليا إلى اللعنة يا رجل. فهذا التفحُّص لكلِّ عمل ماضٍ أو آنيّ، والعيشُ وأنت تجلد نفسك، هما انحراف وخطيئة عجرفة. لستَ شديد الأهمّيَّة. عليك أن تسامح نفسك مرَّة واحدة وإلى الأبد، مثلما سامحتك آنيتا وبيبي».

* * *

قالت له لوثيا مارات، بما يشبه المزاح، إنَّه أخذ بالتحوُّل إلى عجوز موسوس ورعديد. «إنَّني كذلك بالفعل»، أجابها محاولًا مجاراةَ

نبرة صوتها المُضحكة، لكنّه أحسّ بأنّه قد جُرح، لأنّ ما قالته حقيقة من المحال دحضُها. كانا واقفين في واحد من تلك اللقاءات الاجتماعيّة المرعبة في القسم، من أجل وداع بروفسورة ستُحال على التقاعد. اقترب من لوثيا حاملًا كأسَ نبيذ لها وكأس مياه معدنيّة له. لقد كانت الشخص الوحيد الذي لديه رغبة في تبادل الحديث معه. التشيليّة محقّة. إنّه يعيش قلِقًا. فهو يبتلع حفنات من المكمّلات الفيتامينيّة لأنّه يرى أنّه إذا ما اعتلّت صحّته فسوف يذهب كلّ شيء إلى الخراب، وستنهار عمارة وجوده كلّها. لقد ركّب جهاز إنذار في البيت لأنّه سمع أنّهم في بروكلين، وفي كلّ الأنحاء في الواقع، يدخلون للسرقة في وضح النهار. وكان يحمي حاسوبه وهاتفه الخلويّ بكلمات سرّ شديدة التعقيد كيلا يتوصّل أحدٌ إليها، فينساها هو نفسه بين حين وآخر. كما أنّ لديه تأمينًا على السيّارة وعلى الصحّة وعلى الحياة... باختصار، لا ينقصه إلّا تأمين مضادٌّ للذكريات السيّئة التي تداهمه حين يخرج عن روتينه وتُشوّشه الفوضى. وقد اعتاد أن يعظ طُلّابه بأنّ النظام هو فنّ الكائنات العقلانيّة، ومعركة بلا هدنة ضدّ القوى المُبعَدة عن المركز، لأنّ الديناميكيّة الطبيعيّة لكلّ وجود هي التمدُّد، والتكاثر، والفوضى. وكدليل على ذلك، يكفي مراقبة السلوك البشريّ، وإنّهم الطبيعة وتعقيد الكون اللامتناهي. ومن أجل الحفاظ على مظهر للنظام على الأقلّ، فإنّه هو نفسه يتهاون، ويُبقي حياته تحت الرقابة بدقّة عسكريّة. ومن أجل هذا تُفيده قوائمه ورزنامته الصارمة التي استثارت الكثير من ضحك لوثيا حين اكتشفتها. السيّئ في عملهما معًا هو أنّه ليس هنالك ما يفلت منها.

«كيف تظنّ ما ستكون عليه شيخوختك؟» سألته لوثيا ذات يوم.

ـ إنّني مستقرٌّ فيها.

ـ لا يا رجل، ما زالت لديك عشر سنوات لبلوغها.

ـ آمل ألّا أعيش كثيرًا، لأنَّ ذلك سيكون نكبة. الوضع المثاليّ يكون بوفاة المرء وهو في كامل صحَّته، فلنقل في الخامسة والسبعين تقريبًا، حين يكون جسدي وعقلي يعملان مثلما يجب.

«تبدو لي خطَّة جيِّدة»، قالت بمرح.

كان ريتشارد يقول ذلك بجدٍّ. يتوجَّب على المرء، في الخامسة والسبعين، أن يجد طريقة فعَّالة لتصفية نفسه بنفسه. وعندما تصل تلك اللحظة، فسوف يذهب إلى نيوأورليانز، ليستقرَّ في أجواء الموسيقى بين أشخاص غرباء في الحيّ الفرنسيّ. إنَّه يُفكِّر في إنهاء أيَّام حياته هناك، يعزف على البيانو مع زنوج رائعين يتقبَّلونه في فريق العزف بدافع الشفقة، ويضيع هناك في إيقاعات الترومبيت والساكسيفون، مستغرقًا في الحماسة الأفريقيَّة لمجموعة الطبول والصنوج. وإذا كان كثيرًا طلبُ ذلك، فلا بأس، سوف يتمنَّى مغادرة الدّنيا بصمت وهو جالس تحت مروحة متهالكة في بارٍ قديم، يواسيه إيقاع جاز كئيب، بينما هو يشرب كوكتيلات إكزوتيكيَّة من دون أيّ اهتمام بالنتائج، لأنَّه يحمل القرص الوفيَّ في جيبه. ستكون تلك ليلته الأخيرة، ولا بأس في أن يتناول بضع كؤوس.

«ألا تشعر بحاجة إلى رفيقة يا ريتشارد؟ امرأة في فراشك مثلًا؟» سألته لوثيا مع غمزة خبيثة.

ـ مطلقًا.

لا ضرورة لأن يخبرها بأمر سوزان. فتلك العلاقة لم تكن ذات أهمِّيَّة بالنسبة إلى سوزان وبالنسبة إليه على السواء. كان واثقًا بأنَّه مجرَّد عشيق آخر بين عشَّاق عديدين يُساعدونها على تحمُّل نكبة زواج كان لا بدّ له، بحسب رأيه، من أن يكون قد انتهى منذ سنوات. لقد كانت تلك مسألة يتجنَّبانها، فسوزان لا تتكلَّم في ذلك الأمر، وهو لا يسأل عنه. كانا زميلين، رفيقين جيِّدين، تجمع بينهما صداقةٌ حسِّيَّة وحميميَّة، ثقافيَّة وفكريَّة. تخلو مواعيدهما من التعقيدات، في يوم الأحد الأخير من كلِّ شهر، وفي الفندق نفسه دومًا. فهي منهجيَّة مثله. مساء يوم واحد من كلِّ شهر، هذا يكفيهما، ولكلٍّ منهما حياته.

إنَّ فكرة وجود ريتشارد أمام امرأة في حفلة استقبال، مثل تلك، وبحثهما عن موضوع لتبادل الحديث، وتلمّسهما الأرضيَّة من أجل الخطوة التالية، أمورٌ أيقظت قريحته قبل ثلاثة شهور. ولكن، منذ أن استقرَّت لوثيا في قبو بيته، كان يتخيَّل حوارات معها. وكان يتساءل لماذا معها تحديدًا، على الرَّغم من وجود نساء أخريات لديهنَّ استعداد أفضل مع جارته، وما الذي أوحى إليه بأن يكونا عشيقين، كونهما يعيشان قريبين، أحدهما من الآخر، وتتولّى هي في بعض الأحيان العناية بالقطط. التفسير الوحيد لتلك المحادثات الوهميَّة مع التسليَّة هو أنَّ الوحدة بدأت تُثقل عليه، وفكَّر: هذا عارض آخر من أعراض الشيخوخة. ليس هُنالك ما هو مثير للأسى أكثر من صوتِ الشوكة على الطبق في بيت مقفر، وتناولِ الطعام وحيدًا، والنومِ وحيدًا، والموتِ وحيدًا. ولكن وجود رفيقة، مثلما أوحت إليه لوثيا، كيف سيكون؟ أن يطبخ من أجلها، أن ينتظرها في المساءات؛ أن يمشي معها، وكلٌّ منهما يمسك بيد الآخر، وأن يناما متعانقين، يخبرها بأفكاره، ويكتب

إليها أشعارًا... امرأة مثل لوثيا. إنَّها ناضجة، قويَّة، ذكيَّة، ذات ضحكة سهلة، تعرف لأنَّها عانت، ولكنَّها لا تتشبَّث بالمعاناة، مثله. اضف إلى ذلك أنَّها جميلة. ولكنَّها جريئة وتحبّ توجيه الأوامر. امرأة من هذا النوع تحتلُّ حيِّزًا كبيرًا، سيكون ذلك كالصراع مع جناح حريم. كثيرٌ من الجهد، فكرةٌ سيِّئة جدًا. ابتسم مفكِّرًا بالنسبة المئويَّة لفرضيَّة أن تتقبَّله. لم تعطه قطُّ أيَّ إشارة تدلّ على اهتمامها به، باستثناء تلك المرَّة التي طبخت له فيها، ولكنَّها كانت قد وصلت للتوِّ حينذاك، وكان هو في حالة دفاعيَّة أو في القمر. لقد تصرَّفتُ كأبله يومذاك، هذا ما خطر له، واختتم بالتفكير: أُريد البدء من جديد معها.

* * *

لقد تكشَّفت التشيليَّة عن شخصيَّة مثيرة للتقدير على المستوى المهنيّ. فبعد أسبوع من وصولها إلى نيويورك، طلب منها أن تُدير سيمينارًا. وكان عليهم أن يقيموه في القاعة الكُبرى لأنَّ عدد من تسجّلوا فيه كان أكبر من المتوقَّع، وكان عليه هو نفسه أن يُقدِّمها. كان موضوع الليلة هو تدخُّل المخابرات المركزيَّة الأميركيَّة في أميركا اللاتينيَّة، حيثُ أسهمت في تدمير ديموقراطيَّات، وأحلَّت محلَّها نوعًا من النظام التوتاليتاري الذي لا يتقبَّله أيّ أميركي. جلس ريتشارد بين الجمهور، بينما كانت لوثيا تتكلَّم من دون الاستعانة بملاحظات بالإنكليزيَّة، بتلك اللكنة التي تبدو له لطيفة. وعندما أنهت عرضها، كان السؤال الأوَّل من أحد الزملاء عن المعجزة الاقتصاديَّة للدكتاتوريَّة في تشيلي. وبدا جليًا، من خلال نبرة تعليقه، أنَّه يسوّغ القمع. انتصب شعر ريتشارد في مؤخّرة رأسه، وكان عليه أن يبذل جهدًا كي يبقى صامتًا، لكن لوثيا لم تكن في حاجة إلى أن يدافع عنها أحد. ردَّتْ

بأنَّ فُقّاعة المعجزة المزعومة قد أُفرغت من الهواء، وأنَّ الإحصاءات الاقتصاديَّة لم تكن تلتفت إلى انعدام المساواة والفقر.

أشارت أستاذة زائرة من جامعة كاليفورنيا إلى وضع العُنف في غواتيمالا وهندوراس والسلفادور، وإلى عشرات آلاف الأطفال الذين يعبرون الحدود وحدهم، هاربين أو بحثًا عن آبائهم، واقترحت إعادة تنظيم حركة *Sanctuary Movement* التي انتشرت في الثمانينيَّات. تناول ريتشارد الميكرفون، وتحسُّبًا من أن يكون هناك بين الجمهور مَن يجهل ما هو المقصود، أوضح أنَّها كانت مبادرة من أكثر من خمسمئة كنيسة، ومحامين وطلَّاب ونشطاء أميركيِّين لمساعدة اللاجئين الذين كانوا يُعامَلون كمجرمين وتُعيدهم حكومة ريغان إلى بلادهم. وسألت لوثيا إن كان هُناك أحد في القاعة قد شارك في تلك الحركة، فرُفعت أربع أيدٍ. في ذلك الحين، كان ريتشارد في البرازيل، لكن أباه التزم بالحركة بفعاليَّة، وقد أُدخل السجن في مناسبتين اثنتين. وكانت تلك لحظات لا تُنسى من حياة جوزيف العجوز.

استمرَّت جلسة السيمينار ساعتين، وكان المضمون شديد الزخم، تلقَّت عليه لوثيا تصفيقًا حماسيًّا. ذُهل ريتشارد ببلاغتها، كما أنَّها بدت له جذَّابة جدًّا بثوبها الأسود، وعقدها الفضِّيّ، وخُصل شعرها الملوَّنة. كانت لها وجنتا تتاريّ وطاقتُه. إنَّه يتذكَّرُها بشعر طويل ضارب إلى الحمرة، وبنطال ضيِّق محكم على مقاسها، ولكن ذلك كان منذُ سنوات. وعلى الرَّغم من أنَّها قد تغيَّرت الآن، فإنَّها ما زالت جميلة، ولولا خشيته من أن يُفهَم بصورة خاطئة لقال لها ذلك. هنَّأ نفسه لأنَّه دعاها إلى قسمه. كان يعرف أنَّها مرَّت بسنوات قاسية: مرض، وطلاق، ومن يدري أيّ أمور أخرى. خطر له أن يدعوها إلى تدريس

السياسة التشيليّة خلال فصل من ستّة شهور في الكلّيّة، وهو عمل ربّما يُفيدها في أن تسهو عن همومها، ولكنّه سيكون أكثر فائدة لطلّابه. فقد كان بعضهم في حالة جهل مُطبق، يصلون إلى الجامعة من دون أن يكونوا قادرين على تحديد موقع تشيلي على الخريطة، ولم يكونوا بكلّ تأكيد، قادرين أيضًا على تحديد موقع بلادهم في العالم: فهم يظنّون أنّ الولايات المتّحدة هي العالم.

* * *

كان يريد بقاء لوثيا وقتًا أطول، لكنّ الحصول على الأرصدة اللازمة سيكون أمرًا معقّدًا، فتقتير الإدارة الجامعيّة شبيه بتقتير الڤاتيكان. وفضلًا عن عقد الدورة التعليميّة، قدّم إليها الشقّة المستقلّة في بيته، وكانت شاغرة. افترض أنّ لوثيا ستكون سعيدة بالحصول على مسكن مرغوب فيه، في قلب بروكلين، بالقرب من وسائل المواصلات العامّة، وبأجر معقول جدًّا، لكنّها لم تُدارِ خيبة أملها حين رأت البيت. يا لها من امرأة صعبة، فكّر ريتشارد في تلك اللحظة. لقد بدأ بخطوة سيّئة، لكنّ الأمور تحسّنت بينهما.

كان واثقًا بأنّه تصرّف بكرم وتفهُّم، بلّ إنّه تحمّل وجود الكلب معها، لفترة موقّتة كما وعدته، ولكن ها قد مضى أكثر من شهرين. وعلى الرّغم من أنّ عقد الإيجار يمنع وجود حيوانات أليفة، فلقد أصابه الجنون من ذلك الكلب الشيهواهوا الذي ينبح ككلب رعاة ألمانيّ، فيخيف ساعي البريد والجيران. إنّه لا يعرف شيئًا عن الكلاب، لكنّه يستطيع أن يرى أنّ مارسيلو كلب مميّز، بعينيه البارزتين كعينَي ضفدع، وغيرِ المتناسبتين مع محجريهما، ولسانِه المتدلّي؛ يتدلّى

لأنّ الكلب قد فَقَدَ الكثير من أسنانه. وثوب الصوف الإسكتلنديّ الذي يلبسه لا يُسهم في تحسين مظهره. لقد ظهر الكلب ذات ليلة، على حدّ قول لوثيا، متكوّرًا على نفسه عند باب بيتها، محتضرًا وبلا طَوق يُعرِّف بهويّته. من هو قاسي القلب الذي استطاع أن يطرُده، قال لها ريتشارد بنظرة متوسّلة. وفي تلك المناسبة، دقّق النظر أوّل مرّة في عينَي لوثيا القاتمتين مثل حبّتي زيتون، بأهداب كثيفة وتجعُّدات ضحك خفيفة، إنّهما عينان شرقيّتان؛ ولكنّه تفصيل لا يعني شيئًا محدّدًا. لقد كان مظهرها أقلّ ما يهمّه. فمنذ أن اشترى البيت، فرض على نفسه قاعدة عدم التآلف مع المستأجرين كي يُحافظ على خصوصيّته، ولم يفكّر في أن تكون هذه حالة استثنائيّة.

* * *

كان ريتشارد أوّل من استيقظ، في صباح يوم الأحد الشتويّ ذلك. كانت الساعة السادسة صباحًا، وكان ظلام الليل لا يزال قاتمًا. بعد قضاء ساعات بإحساس من يُبحر ما بين الإغفاء والصحو، نام أخيرًا كالمخدَّر. لم يكن قد بقي من النار إلّا بعض الجَمار، وكان البيت أشبه بضريح متجمّد. أحسّ بألم في ظهره، وكانت رقبته متصلّبة. قبل بضع سنوات، حين كان يذهب للتخييم مع صديقه هوراسيو، كان ينام في كيس نوم على الأرض القاسية، ولكنّه صار عجوزًا على القيام بتلك الأمور. أمّا لوثيا، فكانت متكوّرة إلى جانبه، وتبدو عليها ملامح الرضى كمن تستريح على ريش. وإيڤيلين مستلقية على الوسادة وملتحفة بمعطفها، ونائمةً بجزمتها وقفّازيها، تشخر بخفوت ومارسيلو فوقها. احتاج ريتشارد إلى بضع ثوان ليتذكّرها ويتذكّر ما الذي تفعله تلك الصغيرة في بيته: السيّارة، الاصطدام،

الثلج. بعد أن سمع جزءًا من قصَّة إيفيلين، عاوده الشعور بالمهانة الأخلاقيّة التي دفعته، فيما مضى، إلى الدفاع عن المهاجرين، والتي ما زالت تستثير حماسة أبيه. لقد ابتعد عن الفعل والممارسة، وانغلق على نفسه في عالمه الأكاديميّ، بعيدًا عن الواقع القاسي الذي يعيشه الفقراء في أميركا اللاتينيَّة. كان متأكِّدًا من أنَّ ربَّي عمل إيفيلين يستغلَّانها، وربَّما يُسيئان معاملتها أيضًا؛ وهذا ما يُبرِّر حالة رعبها.

دفع لوثيا، من دون كثير اهتمام، كي يزيحها عن ساقيه ومن تفكيره. نفض نفسه ككلب مبلول ونهض واقفًا بصعوبة. كان فمه جافًّا وأحسَّ بظمأ بدويّ. فكَّر في أن يتناول البسكويت. كانت فكرة سيِّئة، وعزا ذلك إلى أحاديث البوح في الليلة السابقة، وقصَّة إيفيلين، وقصَّة لوثيا، ومن يدري ما الذي رواه هو لهما. لا يتذكَّر أنَّه قال لهما شيئًا عن ماضيه، إنَّه لا يفعل ذلك أبدًا، لكنَّه أتى على ذكر آنيتا من دون شكّ، لأنَّ لوثيا علَّقت بأنَّه بعد مرور سنوات طويلة على فقدانه زوجته ما زال يحنُّ إليها. «أنا لم يُحبّني أحد هكذا يا ريتشارد، لقد كان الحبّ يُمنح لي بصورة وسطيَّة على الدوام»، هذا ما أضافته.

* * *

قدَّر ريتشارد أنَّ الوقت ما زال مُبكرًا للاتصال بأبيه، على الرَّغم من أنَّ العجوز يستيقظ منذُ الفجر وينتظر اتِّصاله بفارغ الصبر. يتناولان الغداء معًا، في أيَّام الآحاد في مكان يختاره جوزيف، لأنَّه إذا تولَّى ريتشارد هذا الأمر، فسوف يذهبان إلى المكان نفسه على الدوام. «لديّ هذه المرَّة على الأقلّ شيء مختلف أرويه لأبي»، قال ريتشارد لنفسه. وسوف يهتمّ جوزيف بمعرفة قصَّة إيفيلين أورتيغا، فموضوعه

المفضَّل هو المهاجرون واللاجئون.

جوزيف بوماستير، العجوز الهَرِمُ جدًّا وصافي الذهن، كان ممثِّلًا. وُلد في ألمانيا لأسرة يهوديَّة ذات تقاليد طويلة في اقتناء الأشياء القديمة وجمع الأعمال الفنِّيَّة، يُمكن متابعة ماضيها حتى عصر النهضة. وقد كان أفرادها أناسًا مثقَّفين ومرهَفين، وإن تكن الثروة التي راكمها أسلافه قد ضاعت في الحرب العالميَّة الأولى. في أواخر الثلاثينيَّات، حين صار صعود هتلر أمرًا لا مفرَّ منه، عمد أبو جوزيف إلى إرساله إلى فرنسا بذريعة الدراسة المتعمِّقة لفنِّ الرسم الانطباعيّ، ولكنَّهم أرادوا في الواقع إبعاده عن خطر النازيَّة الوشيك، بينما كان الأبوان يُرتِّبان أمورهما للهجرة بصورة غير شرعيَّة إلى فلسطين التي كانت تحت سيطرة بريطانيا العُظمى. ومن أجل تهدئة العرب، حصر الإنكليز هجرة اليهود بهذه الأراضي وحدها، ولكن لم يكن هُناك ما يمكنه كبح اليائسين.

بقي جوزيف في فرنسا، ولكنَّه اهتم بالمسرح، بدلاً من أن يدرس الفنّ. كانت لديه موهبة طبيعيَّة للتحرُّك على منصَّات المسارح ولتعلُّم اللغات. ففضلًا عن الألمانيَّة، كان يُتقن الفرنسيَّة، وبدأ دراسة الإنكليزيَّة بنجاح كبير، بحيث يُمكنه محاكاة عدَّة لهجات، ابتداءً من لهجة الكوكني، حتى فصاحة «البي بي سي». في العام ١٩٤٠، عندما غزا النازيُّون فرنسا واحتلُّوا باريس، تدبَّر أموره بالهرب إلى إسبانيا، ومن هُناك انتقل إلى العاصمة البرتغاليَّة. ولسوف يتذكَّر مدى الحياة كرمَ الأشخاص الذين قدَّموا إليه المساعدة في تلك الأوديسة، معرِّضين أنفسهم لمجازفات خطيرة. ترعرع ريتشارد على سماع قصص أبيه عن الحرب، مؤمنًا بفكرة منحوتة في ذهنه، فحواها أن مساعدة المطارَدين

واجب أخلاقي لا يُمكن تجنُّبه. وما إن بلغ السنّ المناسبة، حتى أخذه أبوه إلى فرنسا لزيارة أُسرتين خبَّأتاه من الألمان، وإلى إسپانيا لشكر من ساعدوه على البقاء حيًّا والوصول إلى البرتغال.

كانت لشبونة قد تحوَّلت، في عام ١٩٤٠، إلى الملاذ الأخير لمئات آلاف اليهود الأوروبيِّين الذين يُحاولون الحصول على وثائق من أجل الوصول إلى الولايات المتَّحدة وأميركا الجنوبيَّة، أو إلى فلسطين. وبينما هو ينتظر فرصته، أقام جوزيف بحيّ ألفاما، وهو متاهة أزقَّة وبيوت غامضة، وسكن في بنسيون يعبق برائحة الياسمين والبرتقال. وهناك وقع في حبّ كلوي، ابنة صاحبة النُزل، وكانت أكبر منه بثلاث سنوات؛ موظَّفة في البريد خلال النهار ومغنِّية فادو في الليل. كانت فاتنة سمراء ذات ملامح مأساويَّة، مناسبة لمجموعة أغنياتها الحزينة. لم يجرؤ جوزيف على إخبار أبويه بأنَّه أحبّ كلوي، لأنَّها ليست يهوديَّة، إلى أن تمكَّنا من الهجرة معًا إلى لندن في أوَّل الأمر، حيث عاشا سنتين، وبعد ذلك رحلا إلى نيويورك. كانت الحرب، في أثناء ذلك، تتأجَّج بشدَّة في أوروپا، وأبوَا جوزيف يستقرَّان بصورة موقَّتة في فلسطين. لم يمانعا في أن تكون كنَّتهما المستقبليَّة وثنيَّة. فالشيء الوحيد المهمّ هو أن يكون ابنهما في منجًى من الإبادة التي يُنفِّذها الألمان.

بدَّل جوزيف، في نيويورك، كنيته بلقب بوماستير، لأنَّ له وقعًا إنكليزيًّا من سلالة نقيَّة، واستطاع، بلكنته الأرستقراطيَّة المصطنَعة، تقديمَ أعمال شكسبير طوال أربعين عامًا. أمَّا كلوي، في المقابل، فلم تتعلَّم الإنكليزيَّة جيِّدًا قطّ، ولم تجد نجاحًا في أغنيات موطنها الكئيبة الفادو، ولكنَّها انكبَّت على دراسة الأزياء، بدلاً من الغرق في الحزن

محبطة، وتحوَّلت إلى مموِّنة الأُسرة، لأنَّ مداخيل جوزيف من المسرح لم تكن تكفي قطّ للوصول إلى نهاية الشهر. تلك المرأة التي كانت تتطلّع إلى أن تكون مغنّية مشهورة حين تعرَّف إليها جوزيف في لشبونة، أثبتت أنَّها تملك حسًّا عمليًا عظيمًا وقُدرةً على العمل. كانت راسخة في عواطفها، وقد كرَّست حياتها لحبِّ زوجها وابنها الوحيد ريتشارد، الذي ترعرع مدلَّلًا كأمير في شقَّة متواضعة في برونكس، يحميه من العالم حنان أبويه. عند تذكُّره تلك الطفولة السعيدة، يتساءل في أحيان كثيرة لماذا لم يكن على مستوى ما رسَّخا فيه وهو صغير، لماذا لم يتَّبع النموذج الذي تلقَّاه، وأخفق كزوج وكأب.

تكشَّف ريتشارد عن شخص وسيم مثل جوزيف تقريبًا، لكنَّه أقصر منه قامةً، وبلا ميله كممثِّل إلى التفخيم، بل خرج أقرب إلى السوداويَّة، مثل أمِّه. فأبَوَاه المشغولان بعمليهما، كانا يُحبَّانه من دون خنقه، ويعاملانه بالتهاون المعهود في تلك الحقبة، قبل أن يتحوَّل الأطفال إلى مشاريع. وكان ذلك مناسبًا لريتشارد، لأنَّهما يتركانه بسلام مع كُتبه ولا يطالبه أحد بالكثير. يكفي أن يحصل على نتائج جيِّدة ويكون حَسَنَ السلوك والمشاعر. وقد كان يمضي مع أبيه وقتًا أطول ممَّا يمضيه مع أمِّه، لأنَّ مواقيت عمل جوزيف أكثر مرونة، بينما كانت كلوي شريكة في متجر أزياء، وقد اعتادت على البقاء مشغولة بالخياطة حتى ساعات متأخِّرة من الليل. كان جوزيف يأخذ ابنه إلى نزهاته الإسعافيَّة، كما تُسمِّيها كلوي، إذ يذهب ليترك طعامًا وملابس تتبرَّع بها الكنائس لأسر برونكس الأشدِّ فقرًا، سواء أكان أفرادُها يهودًا أم مسيحيِّين. «المحتاج لا يُسأل من يكون، ولا من أين هو آتٍ يا ريتشارد. جميعُنا متساوون في النكبات»، كان جوزيف يقول لابنه.

وبعد عشرين عامًا من ذلك، كان لا بُدَّ من اختباره في مواجهات في الشوارع مع الشرطة للدفاع عن المهاجرين الذين كانوا بلا وثائق؛ ضحايا كمائن الشرطة في نيويورك.

* * *

تأمَّل ريتشارد لوثيا، في رقَّة مفاجئة. كانت لا تزال نائمة على الأرض، وقد أضفى عليها خُذلان الليل مظهرًا شبابيًا وهشًّا. هذه المرأة التي لديها من العمر ما يكفي لأن تكون جدَّة، ذكَّرته بآنيتا في سكونها؛ آنيتا ذات العشرين عامًا ونيِّف. وأحسَّ للحظات بغواية الانحناء، وإمساك وجهها بين يديه وتقبيلها، لكنَّه كبح نفسه على الفور، وقد فاجأه هذا الدافع الغادر.

«هيَّا، استيقظا!»، صاح وهو يصفِّق بيديه.

فتحت لوثيا عينيها واحتاجت إلى لحظات أيضًا كي تحدِّد أين هي في الزمان والمكان.

«كم الساعة الآن؟» سألت.

- إنَّها ساعة البدء بالتحرُّك.

- ما زال الظلام مخيِّمًا! القهوة أوَّلًا. لا أستطيع التفكير من دون كافيين. البرد هنا قطبيّ يا ريتشارد. حُبًّا بالربِّ، ارفع درجة التدفئة، لا تكن بخيلًا إلى هذا الحدِّ. أين الحمَّام؟

- استخدمي حمَّام الطابق الثاني.

نهضت لوثيا على مراحل متعدِّدة: في البدء حَبْوًا، وبعد ذلك على ركبتيها، ثم بالاستناد بيديها على الأرض ومؤخّرتها مرفوعة عاليًا،

مثلما تعلّمت في دروس اليوغا، وأخيرًا على قدميها.

«كنت، في السابق، قادرة على الانثناء. أمّا الآن، فمجرّد شدّ جسمي يُسبّب لي تشنُّجات. يا للتقدُّم في السنّ من برار»، دمدمت وهي تتّجه نحو الدرج.

«أرى أنّني لستُ الوحيد المتوجّه نحو الشيخوخة»، فكّر ريتشارد بشيء من الرضا. ذهب لتصفية القهوة، وليضع الطعام للقطط، بينما إيفيلين ومارسيلو يستيقظان بتكاسل كما لو أنّ اليوم كلّه أمامهما من أجل إضاعة الوقت.

حمّام الطابق الثاني، نظيف وبلا استخدام ظاهر. إنّه واسع وقديم، وفيه حوض استحمام بقوائم أَسَدٍ نحاسيّة وصنابير مذهّبة. رأت لوثيا في المرآة امرأة مجهولة، بعينين منتفختين، ووجه أحمر، وبعض الشعر الأبيض والورديّ يبدو كباروكة مهرّج. كانت خصلات شعرها في الأصل بلون الشمندر، ولكنّ لونها راح يبهت. استحمّت. مجرد دوش سريع، ونشّفت جسمها بقميصها الداخلي، لأنّها لم تجد هُناك منشفة، وسرّحت شعرها بأصابعها. إنّها في حاجة إلى فرشاة أسنانها وحقيبة مكياجها. «ما عاد في إمكاني الخروج إلى الدنيا من دون مسكرة وقلم أحمر شفاه»، قالت للمرآة. لقد رعت الاعتزاز بالنفس دومًا كما لو أنّه فضيلة، اللّهمَّ إلّا في شهور العلاج الكيميائيّ، عندما تخلّت عن نفسها مستسلمة، إلى أن أجبرتها دانييلا على العودة إلى الحياة. تمنح نفسها، في كلّ صباح، وقتًا لتتزيّن حتى لو كانت ستبقى في البيت ولن ترى أحدًا. كانت تتهيّأ لليوم، تتمكيج، تختار ملابسها كمن سترتدي درعًا. كانت تلك طريقتها في الظهور واثقة بنفسها أمام

العالم. تفتنها رياش الزينة وأقلامُها؛ الأصبغةُ؛ اللوسيوناتُ؛ الألوانُ؛ المساحيقُ؛ الأقمشةُ؛ المنسوجاتُ. كان ذلك وقتَها للتأمُّل اللطيف. لا يُمكنها التخلِّي عن المكياج، والحاسوب، والخلويّ، والكلب. الحاسوب أداة عملها، والخلويّ يوفِّر اتِّصالها بالعالم، وبصورة خاصَّة بدانييلَّا، وضرورة المعيشة مع حيوان بدأت عندما كانت تعيش وحدها في فنزويلَّا، وواصلتها في سنوات زواجها من كارلوس. ماتت كلبتها أوليڤيا هَرِمَةً في الوقت الذي هاجمها هي نفسَها السرطانُ بالضبط. في تلك الفترة، كان من نصيبها البُكاءُ على موت أمِّها، والطلاق، والمرض، وفقدان الكلبة أوليڤيا، رفيقتها الوفيَّة. وقد كان مارسيلو مبعوثًا من السماء، إنَّه النجيّ الكامل، تُبادله الحديث فيُضحكها بقبحه ونظرته المستفهمة، وبعينيه اللتين تشبهان عينَي ضفدع. مع هذا الكلب الشيهوهوا الذي ينبح على الفئران وعلى الأشباح، تجد مخرجًا لتصريف الحنان الذي تحمله في داخلها ولا تستطيع تقديمه إلى ابنتها، لأنَّها قد تُثقل عليها بذلك، وتُربكها.

لوثيّا وريتشارد

بروكلين

وجدت لوثيا ريتشارد في المطبخ، بعد عشر دقائق، يُحمِّص خبزًا، بينما آلة القهوة ممتلئة، وثلاثة فناجين كبيرة جاهزة على المنضدة. رجعت إيفيلين من الفناء والكلب يرتعش بين ذراعيها، وانقضّت على فنجان القهوة وقطع الخبز المحمَّص التي قدمها إليها ريتشارد. بدا أنّها جائعة جدًّا وضئيلة جدًّا، تتوازن على الكرسيّ الصغير الذي بلا مسند وفمها ممتلئ، على نحو جعل ريتشارد يتأثّر. كم يُمكن أن يكون عمرها؟ من المؤكّد أنّها أكبر سنًّا ممّا تبدو عليه. ربّما تكون في مثل عمر بيبي.

«سنوصلك إلى بيتك يا إيفيلين»، قالت لوثيا للفتاة عندما انتهوا من تناول القهوة.

«لا! لا!»، هتفت إيفيلين، وهي تنهض واقفة بصورة مفاجئة جعلت الكرسيّ الصغير ينقلب ومارسيلو يتدحرج على الأرض.

- إنّها صدمة بسيطة يا إيفيلين. لا ترتعبي. أنا نفسي سأشرح ما جرى لربّ عملك. ما اسمه؟

«فرانك ليرُوي... لكن ليس بسبب صدم السيَّارة فقط»، تلعثمت إيفيلين، وقد شحب لونها.

«وماذا هُنالك أكثر؟»، سألها ريتشارد.

«هيَّا يا إيفيلين، ما الذي تخافينه إلى هذا الحدّ؟» أضافت لوثيا.

قالت الفتاة عندئذ متعثِّرة بالحروف، ومرتجفة، إنَّ هُناك ميْتًا في صندوق السيَّارة. كان عليها أن تكرِّر ذلك مرَّتين كي تفهمها لوثيا. واحتاج ريتشارد إلى ما هو أكثر من ذلك. لقد كان يتكلَّم الإسپانيَّة، لكن لغته الأقوى هي برتغاليَّة البرازيل العذبة المغنَّاة. لم يستطع تصديق ما يسمعه. ضخامة هول هذا التصريح أصابته بالتجمُّد. إذا كان قد فهم جيِّدًا، فإنَّ هُنالك احتمالين اثنين: إمَّا أنَّ الفتاة مجنونة هذيانيَّة، وإما أنَّ لديها ميْتًا حقًّا في سيَّارة اللكزس.

ـ أتقولين جثَّة؟

هزَّت إيفيلين رأسها ووجهها متَّجه نحو الأرض.

ـ غير ممكن. أيّ نوع من الجثث هي؟

«ريتشارد! لا تكن مُضحكًا. إنَّها جثَّة بشريَّة بالطبع»، تدخَّلت لوثيا، وكانت مذهولة جدًّا، وتبذل جهودًا لكبح ضحكة عصبيَّة.

«كيف وصلتْ إلى هناك؟» سأل ريتشارد، وهو لا يزال غير مصدِّق.

ـ لا أدري...

ـ هل صدمتِهِ؟

ـ لا.

بدأ ريتشارد يحكّ، بكلتا يديه، حساسيّة ذراعيه وصدره، كرد فعل على هول ما سمع من احتمال أن يكون لديهم ميِّت مجهول بالفعل، وهي حساسيَّة تظهر في لحظات التوتُّر. إنَّه رجل روتين وعادات ثابتة، وغيرُ مهيَّأ لأمور مفاجئة مثل هذا. لقد انتهت حياته المستقرَّة والحذرة، ولكنَّه ما زال لا يعرف ذلك.

«يجب الاتّصال بالشرطة»، اتَّخذ القرار وهو يتناول هاتفه الخلويّ.

أطلقت الفتاة الغواتيماليَّة صرخة رعب وانفجرت باكية في نحيب مؤثِّر لأسباب واضحة للوثيا، لكنَّها ليست كذلك لدى ريتشارد، على الرُّغم من أنَّه كان مطَّلعًا بصورة جيِّدة على تردُّد معظم المهاجرين اللاتينيِّين وارتيابهم.

«أظنّ أنَّكِ بلا مستندات ووثائق شخصيَّة»، قالت لوثيا. «لا يُمكنُنا الاتّصال بالشرطة يا ريتشارد، لأنَّنا سنُدخل هذه الصغيرة في ورطة. فقد أخرجت السيَّارة من دون إذن. يُمكن لهم أن يتَّهموها بالسرقة والقتل. وأنت تعرف أنَّ الشرطة تعمل على ملاحقة غير الشرعيِّين. الحبل ينقطع عند أوهن نقطة فيه».

- أيّ حبل؟

- هذه تورية يا ريتشارد.

«كيف مات ذلك الشخص؟ مَن يكون؟»، ألحَّ ريتشارد في التساؤل.

قالت لهما إيفيلين إنَّها لم تلمس الجثَّة. فعند الصيدليَّة، حيثُ

ذهبت لشراء حفاضات تُستخدم لمرَّة واحدة، فتحت غطاء صندوق السيَّارة بيد واحدة، بينما كانت تمسك كيس الحفاضات باليد الأُخرى، وحين دفعته نحو الداخل، لاحظت أنَّ صندوق السيَّارة مُمتلئ. عندئذ رأت كومة مُغطَّاة ببساط، وحين أزاحت البساط جانبًا كُشف عن جسد متكوِّر على نفسه. أوقعها الرعب جالسة على الشارع أمام الصيدليَّة، لكنَّها ابتلعت الصرخة التي حاولت الإفلات منها. نهضت واقفة بتعثُّر، وأغلقت صندوق السيَّارة بقوَّة. وضعت كيس الحفاضات في المقعد الخلفيّ، وجلست في السيَّارة وقتًا لا بأس به، لا تدري كم طال، ربَّما استغرقت عشرين أو ثلاثين دقيقة على الأقلّ، إلى أن هدأت بما يكفي لتقود السيَّارة عائدة إلى البيت. وبشيء من الحظّ، كان يُمكن لغيابها أن يمرّ بلا مشاكل، ومن دون أن يعرف أحد أنَّها قد استخدمت السيَّارة، ولكن ذلك صار مستحيلًا بعد صدمة ريتشارد، وغطاء صندوق السيَّارة شبه المفتوح.

«نحن لا نعرف إذا كان ذلك الشخص ميّتًا حقًّا. يُمكن أن يكون فاقدًا الوعي»، قال ريتشارد وهو يمسح جبهته بخرقة المطبخ.

«احتمال ضئيل، سيكون قد مات بسبب انخفاض حرارة الجسم، ولكن هُنالك طريقة لمعرفة ذلك»، قالت لوثيا.

- بالله عليكِ يا امرأة! لا تقولي إنَّك تُفكِّرين في فحص ذلك في الشارع...

- هل تخطر لك طريقة أُخرى؟ لا أحد الآن في الخارج. الوقت ما زال مبكرًا، وما زال الظلام سائدًا، وهذا يوم أحد. من سيرانا؟

- ولا بأيّ حال. لا تعتمدي عليّ.

ـ لا باس، أعرني مصباحًا يدويًا. سأذهب أنا وإيفيلين إلخ.

ازدادت حدّة بُكاء الفتاة عدّة ديسيبيلات نتيجة ذلك، فاحتضنتها نظرة. لوثيا متألّمة لحال هذه البنت التي عانت محنًا كثيرة خلال الساعات الأخيرة.

«أنا لا علاقة لي بهذا كلّه! تأميني سيدفع أضرار السيّارة، هذا هو كلّ ما يمكنني عمله. اعذريني يا إيفيلين، لكن عليك أن تغادري»، قال ريتشارد بإسبانيّته القرصانيّة.

«أتفكّر في طردها يا ريتشارد؟ أأنت مجنون؟ يبدو أنّك لا تعرف ما الذي يعنيه أن يكون المرء بلا مستندات إثبات الشخصيّة في هذه البلاد!»، صرخت لوثيا.

«أعرف ذلك يا لوثيا. وإذا كنتُ لا أعرفه من خلال عملي في المركز، فإنّني أعرفه من خلال أبي الذي يعيش وهو يُكرّر عليّ ذلك»، زفر ريتشارد مهزومًا، وأضاف: ما الذي نعرفه عن هذه الفتاة؟

ـ نعرف أنّها في حاجة إلى مساعدة. هل لكِ أسرة هُنا يا إيفيلين؟

ساد صمت قبر. لن تأتي إيفيلين على ذكر أمّها التي تسكن في شيكاغو كيلا تُدمّر لها حياتها معها أيضًا. وكان ريتشارد يحكّ بشلّة وهو يشعر بأنّه قد تورّط: شرطة، تحقيق، صحافة، وستذهب سمعته إلى الجحيم، بينما صوت أبيه وسط صدره يوصيه بواجب مساعدة المُلاحَق المضطهَد. «ما كان يُمكن لي أن أكون في هذه الدنيا، وما كنتَ أنت ستولد لو لم تساعدني أرواحٌ شجاعة وتخبّئني من النازيّين»، كرّر له أبوه هذا القول مليون مرّة.

«علينا أن نتحرَّى إذا كان ذلك الشخص حيًّا، لا وقت لدينا نضيِّعه»، كرَّرت لوثيا.

تناولت مفاتيح السيَّارة التي تركتها إيفيلين على منضدة المطبخ، وأعطتها الشيهواهوا كاحتياط من القطط. وضعت الطاقيَّة والقفَّازين، وأعادت طلب المصباح اليدويّ.

«لا يُمكنك الذهاب وحدك يا لوثيا. يا للعنة! عليّ أن أرافقك» قرَّر ريتشارد مستسلمًا... وأضاف: يجب إزالة الجليد عن غطاء صندوق السيَّارة من أجل التمكُّن من فتحه

* * *

ملآ قِدْرًا كبيرة بماء ساخن وخَلٍّ وحملاها بمشقَّة، ما بين ريتشارد ولوثيا، بينما كانت أقدامهما تنزلق على مرآة الدرج الجليديَّة، ظلَّا مستندين إلى الحاجز الجانبيّ للبقاء منتصبين. تجمَّدت عدستا عيني لوثيا، وصارت تحسّ بهما كقطعتي زجاج في عينيها. كان من عادة ريتشارد الذهاب في الشتاء لصيد السمك في بحيرات الشمال المتجمِّدة، وتوافرت له خبرة في مقارعة البرد القارس، لكنَّه لم يكن مهيَّأً لعمل ذلك في بروكلين. كانت مصابيح أعمدة النور ترسم دوائر فوسفوريَّة صفراء على الثلج، وتأتي الريح في هبَّات ثم تهدأ فجأة، متعَبة من الجهد، لتعود بعد قليل وتثير زوابع من الثلج المتفلِّت. ويخيِّم خلال لحظات توقُّفها صمتٌ مطلق، وسكينةٌ متوعِّدة. كانت هُناك على امتداد الشارع سيَّاراتٌ مغطَّاة بالثلج، بعضُها مغطَّى أكثر من ألبعض الآخر، وكانت سيَّارة إيفيلين البيضاء غير مرئيَّة تقريبًا. لم تكن أمام البيت، وهذا ما كان يخشاه ريتشارد، وإنَّما على بُعد نحو خمسة

عشر مترًا عنه. لم يكن هُنالك أحد في الشوارع في تلك الساعة. لقد بدأ مزيلو الثلوج بتنظيف الشارع منذ اليوم السابق، وكانت هُناك أكوام من الثلج على الأرصفة.

كان صندوق السيَّارة، مثلما قالت إيڤيلين، مثبَّتًا بحزام أصفر. وقد وجدا صعوبة في حلّ العقدة وهما يضعان القفَّازات؛ إذ كان ريتشارد مهووسًا بعدم ترك آثار بصمات. فتحا الصندوق أخيرًا ووجدا حزمة مغطَّاة بصورة سيِّئة ببساط ملوَّث بدم جافٍّ، وعند رفعه انكشف وجود امرأة ترتدي ملابس رياضيَّة، وجهها متوارٍ وراء ذراعيها. لم تكن تبدو بشريَّة، فقد كانت متكوِّرة في وضع غريب، كأنَّها دمية مفكَّكة الأوصال، وكان الجزء الضئيل المرئيّ من البشرة زهريّ اللون. لقد كانت ميِّتة، لا شكَّ في ذلك. ظلَّا يتأمَّلانها عدَّة دقائق من دون أن يتوصَّلا إلى تخيُّل ما يمكن أن يكون قد حدث. لم يريا دمًا، وكان عليهما أن يقلباها كي يرياها كاملة. لقد كانت التعيسة متجمِّدة وقاسية مثل كتلة إسمنت. وعلى الرَّغم من محاولات لوثيا في الشدِّ والدفع فإنَّها لم تتمكن من تحريكها، بينما كان ريتشارد على وشك البكاء من الجزع وهو يُضيء لها بالمصباح اليدويّ.

«أظنّ أنَّها ماتت يوم أمس»، قالت لوثيا.

ـ لماذا؟

ـ إنَّه *«التخشُّب الموتيّ»*. يتصلَّب الجسد متخشِّبًا بعد نحو ثماني ساعات من الموت، وتستمرّ هذه الحالة قُرابة ستّ وثلاثين ساعة.

ـ يُمكن لها، إذًا، أن تكون ميِّتة منذ أمس ليلًا.

ـ صحيح، بل يُمكن أن تكون قبل أكثر من ذلك، لأنَّ درجة

الحرارة منخفضة جدًّا. أيًا يكن من وضع هذه المرأة هنا، فإنّه كان يعتمد على ذلك بكلِّ تأكيد. ربَّما لم يستطع التخلُّص من الجسد بسبب عاصفة يوم الجمعة. ومن الواضح أنّه لم يكُن مستعجلًا.

ـ من الممكن أن يكون «*التخشُّب الموتيّ*» قد انقضى ثم تجمَّد الجسد بعد ذلك من البرد»، افترض ريتشارد.

ـ الكائن البشريّ ليس مثل فرُّوج الدجاج يا ريتشارد، يحتاج إلى يومين في ثلّاجة كي يتجمَّد تمامًا. يُمكننا القول إنَّها قد ماتت في الليلة السابقة أو يوم أمس.

ـ كيف تعرفين هذا كلّه؟

«لا تسألني»، أجابته بنبرة جازمة.

«في أيِّ حال، هذا أمر من اختصاص الطبيب الشرعيّ والشرطة، وليس من اختصاصنا نحن»، أنهى ريتشارد.

وكما لو أنّه جرى استدعاؤها بصورة سحريَّة، رأيا مصباحي سيَّارة تنعطف عند الناصية ببطء. تمكَّنا من إنزال غطاء صندوق السيَّارة الخلفيّ، وظلّ نصفَ مُغلق، في لحظة توقُّف سيَّارة دوريَّة الشرطة قريبًا منهما. أطلَّ أحد الشرطيين برأسه من النافذة.

«هل كلّ شيء على ما يرام؟»، سألهما.

«كلّ شيء على ما يرام أيُّها الضابط»، ردَّت عليه لوثيا.

«ما الذي تفعلانه في هذه الساعة هُنا خارجًا؟»، ألحَّ الرجل.

«نبحث عن حفاضات أمّي، فقد ظلَّت في السيَّارة»، قالت له وهي تُخرج كيس الحفاضات عن الكرسيّ الخلفيّ.

«صباح الخير أيُّها الضابط»، أضاف ريتشارد، فخرج صوته مترنِّمًا كما من ناي.

انتظرا إلى أن ابتعدت سيَّارة دورية الشرطة ليُعيدا تثبيت غطاء الصندوق الخلفيّ بالحزام، ثم دخلا البيت منزلقين على ثلج الدرج وهُما يحملان الحفاضات والقِدْر الفارغة، متوسِّلين إلى السماء ألَّا يخطر لشرطيَّي الدوريَّة أن يعودا لإلقاء نظرة على سيَّارة اللكزس.

* * *

وجدا إيفيلين ومارسيلو والقطط في الوضع نفسه الذي تركوهم فيه. سألا الفتاة عن الحفاضات، فأوضحت لهما أنَّ فرانكي، الطفل الذي تعتني به، مُصاب بشلل دماغي ويحتاج إلى الحفاضات.

«كم عمر الطفل؟»، سألتها لوثيا.

- ثلاث عشرة سنة.

- ويستخدم حفاضات بالغين؟

احمرَّ وجه إيفيلين، وأوضحت أنَّ الطفل يبدو أكبر بكثير من عمره، ويجب أن تكون الحفاضات واسعة عليه، لأنَّها توقظ له عصفوره. وقد ترجمت لوثيا ذلك لريتشارد: انتصاب.

«تركتُه منذُ أمس، لا بدَّ من أن يكون في حالة من اليأس. من سيعطيه الأنسولين؟» دمدمت البنت.

- يحتاج إلى أنسولين؟

- إذا استطعنا الاتِّصال بالسيِّدة ليرُوي... لا يُمكن لفرانكي البقاء وحيدًا.

«استعمال الهاتف مجازفة»، قال ريتشارد.

«سأتّصل من هاتفي الخلويّ، فالرقم فيه مخفي»، قالت لوثيا.

رنَّ الهاتف مرَّتين وردَّ صوت غاضب صارخًا، فأغلقت لوثيا فورًا وتنفَّست إيفيلين الصعداء. الوحيدة التي تردّ على هذا الرقم هي أمّ فرانكي. فإذا كانت معه، يُمكن لإيفيلين أن تشعر بالراحة، لأنَّ هذا يعني أنَّ الطفل في رعاية جيِّدة.

«هيّا يا إيفيلين، لا بدَّ من أنَّ لديك فكرة ما عن كيفيَّة وصول هذه المرأة إلى صندوق السيَّارة»، قال ريتشارد.

ـ لا أدري. اللكزس لرّب عملي، للسيِّد ليرُوي.

ـ لا بُدَّ من أنَّه يبحث عن سيَّارته.

ـ إنَّه في فلوريدا، سيعود غدًا على ما أظنّ.

ـ أتظنّين أنّ له علاقة بهذا؟

ـ أجل.

«هذا يعني أنّك تظنّين أنّه يُمكن أن يكون هو من قتل هذه المرأة»، ألحَّ ريتشارد.

«عندما يغضب السيِّد ليرُوي، يصبح مثل شيطان...» قالت الفتاة، وأجهشت في البكاء.

«دعها هادئة يا ريتشارد»، تدخَّلت لوثيا.

«أتدركين أنّنا لم نعد قادرين على اللجوء إلى الشرطة، يا لوثيا؟ كيف سنفسِّر أنّنا كذَّبنا على الدوريَّة؟»، سألها ريتشارد.

ـ انسَ أمر الشرطة حاليًا.

«لقد أخطأت في الاتّصال بك. لو أنّني كنت أعلم بأنّ الفتاة تتجوّل ومعها جثّة، لكنت أخبرت الشرطة فورًا»، علّق ريتشارد، وهو ساهمٌ أكثر ممّا هو غاضب، وقدّم فنجان قهوة إلى لوثيا: اتريدين حليبًا؟

ـ سادة، وبلا سكّر.

ـ يا للمشكلة التي تورّطنا فيها!.

ـ تقع في الحياة أحداثٌ طارئة يا ريتشارد.

ـ ليس في حياتي.

ـ أجل، لقد لاحظت ذلك. لكنّك ترى كيف أنّ الحياة لا تتركنا بسلام؛ وعاجلًا أو آجلًا سوف تدركنا.

ـ على هذه الفتاة أن تغادر مع جثّتها إلى مكان آخر.

«قل لها أنت ذلك»، قالت له مشيرة إلى إيفيلين التي كانت تبكي بصمت.

«ما الذي تفكّرين في عمله أيّتها الصغيرة»، سألها ريتشارد.

هزّت كتفيها بأسف، ودمدمت بعبارة اعتذار لأنّها أزعجته.

«عليك أن تفعلي شيئًا...» ألحّ ريتشارد من دون قناعة كبيرة بما يقول.

أمسكته لوثيا من كمّه واقتادته إلى جانب البيانو، بعيدًا عن إيفيلين:

«لا بدّ أوّلًا من التخلّص ممّا هو لافت للأنظار»، قالت بصوت

خافت، وأضافت: وهذا قبل أيّ شيء آخر.

ـ لا أفهمك.

ـ يجب إخفاء كلّ أثر للسيّارة والجثّة.

«أنت معتوهة!» صاح.

ـ هذا يناسبك أنت أيضًا، يا ريتشارد.

ـ يناسبني أنا؟

ـ أجل، منذ اللحظة التي فتحت فيها الباب لإيفيلين في الليل واستدعيتني. علينا أن نقرّر أين سنترك الجثّة.

ـ أعتقد أنّك تمزحين. كيف تخطر لك مثلُ هذه الفكرة غير المعقولة؟

ـ انظر يا ريتشارد، لا تستطيع إيفيلين العودة إلى بيت ربَّيْ عملها، ولا يمكنها أن تلجأ إلى الشرطة أيضًا. أتريدها أن تمضي حاملةً جثّةً في سيّارة ليست لها؟ لكم من الوقت؟

ـ أنا واثق بأنَّ هذا الأمر يمكن كشفه.

ـ عن طريق الشرطة؟ ولا بأيّ حال.

ـ فلننقل السيّارة إلى حيّ آخر لينتهي الأمر.

ـ سيعثرون عليها فورًا يا ريتشارد. إيفيلين في حاجة إلى وقت لتصبح في منجًى. أعتقد أنّك انتبهت إلى أنّها مرعوبة. إنّها تعرف أكثر ممّا قالته لنا. أظنّ أنّ لديها خوفًا محدَّدًا جدًّا من ربّ عملها، ذلك المدعو ليرُوي. إنّها تشكّ في أنّه قد قتل هذه المرأة وهو يمضي الآن بحثًا عنها. يعرف أنّها أخذت سيّارة اللكزس، ولن يتركها تهرب.

ـ إذا كان الأمر على هذه الحال، فنحن أيضًا معرّضان للخطر

ـ لا أحد يعرف أنَّ الفتاة معنا. فلنأخذ السيَّارة بعيدًا من هنا.

ـ سيحوّلنا هذا إلى متواطئين!

ـ إنَّنا كذلك، ولكنَّنا إذا نفَّذنا الأمور جيِّدًا فلن يعلم أحد بالأمر. لا يمكن لهم ربطنا بذلك، ولا حتى بإيفيلين. الثلج بَركة، وعلينا استغلاله ما دام موجودًا. يجب الخروج هذا اليوم بالذات.

ـ إلى أين؟

ـ وما أدراني أنا يا ريتشارد! فكِّر في شيء. يجب أن نذهب في اتّجاه البرد كيلا يبدأ الجسد بالتعفُّن.

* * *

رجعا إلى حيث منضدة المطبخ وتناولا قهوة وهما يُقلّبان احتمالات مختلفة من دون مشاركة إيفيلين أورتيغا التي ظلَّت تراقبهما بخوف. كانت قد مسحت دموعها، لكنَّها عادت إلى بُكمها باستسلام مَن لم يتحكَّم في حياته قطّ. ورأت لوثيا أنَّه كلَّما كان المكان أكثرَ بعدًا، تكون احتمالات الخروج بنجاح من المغامرة أكبرَ:

ـ لقد ذهبتُ ذات مرَّة إلى شلَّالات نياغرا واجتزت الحدود إلى كندا من دون إظهار أيِّ وثائق ولم يفتِّشوا السيَّارة.

ـ لا بدَّ من أنَّ هذا قد حدث قبل خمسة عشر عامًا. إنَّهم يطلبون جوازات السفر الآن.

ـ يمكننا الذهاب إلى كندا في وقت قصير جدًّا، وترك السيَّارة في غابة هناك، توجد غابات كثيرة في تلك الأنحاء.

ـ يمكنهم أن يحدّدوا هويّة السيّارة في كندا أيضًا يا لوثيا. فنحن لسنا في بنغلاديش.

ـ بالمناسبة، يجب أن نحدّد هويّة الضحيّة. لا يمكننا تركها في أيّ مكان من دون أن نعرف من تكون على الأقلّ.

«لماذا؟» سألها ريتشارد حائرًا.

«بدافع الاحترام. سيكون علينا أن نلقي نظرة إلى صندوق السيّارة، ومن الأفضل أن نفعل ذلك الآن، قبل أن يوجد أناس في الشارع»، قرّرت لوثيا.

اقتادا إيفيلين خارجًا، وكان عليهما أن يدفعاها بالقوّة تقريبًا كي تقترب من السيّارة.

«هل تعرفينها»، سألها ريتشارد، بعد أن فكّ الحزام، وأضاء داخل صندوق السيّارة بمصباح يدويّ، مع أنّ الضياء كان قد بدأ بالانتشار.

كرّر السؤال ثلاث مرّات قبل أن تتجرّأ الفتاة على فتح عينيها. كانت ترتجف، وقد استولى عليها رعبٌ ارتداديٌّ من ذكرى مشهد ذلك الجسر في قريتها؛ رعب يترصّدها منذ ثمانية أعوام في الظلّ، لكنّه متأجّج كما لو أنّ أخاها غريغوريو موجودٌ هنا بالذات، في هذا الشارع، في هذه الساعة، داكن البشرة ومغطّى بالدم.

«ابذلي جهدًا يا إيفيلين. من المهمّ جدًّا أن نعرف مَن هي هذه المرأة»، ألحّت لوثيا.

«إنّها السيّدة كاترين... كاترين براون...» دمدمت الفتاة أخيرًا.

إيفيلين

غواتيمالا

جاء دور أخَوَي غريغوريو أورتيغا، في ٢٢ آذار/مارس من العام ٢٠٠٨، يوم السبت المقدَّس، بعد مرور خمسة أسابيع على موته. استغلَّ المنتقمون ذهاب الجدَّة كونثيبثيون إلى الكنيسة لتجهيز الزهور من أجل يوم أحد القيامة، وانقضُّوا على الكوخ في وضح النهار ظهرًا. كانوا أربعة، يمكن التعرُّف إليهم من وشومهم وفظاظتهم، جاؤوا إلى قرية مونخا بلانكا دِل بايي على درَّاجتين ناريَّتين صاخبتين، تلفتان النظر بشدَّة في تلك القرية التي يتنقَّل فيها الناس مشيًا على الأقدام أو على درَّاجات هوائيَّة. لم يبقوا داخل البيت سوى ثماني عشرة دقيقة. كان هذا الوقت كافيًا. إذا كان الأهالي قد رأوهم، فإنَّ أحدًا لم يتدخَّل، ولم يشأ أحد منهم، فيما بعد، أن يُقدِّم شهادة. واقع أنَّهم ينفِّذون عمليَّاتهم في أسبوع الفصح تحديدًا، وهو موعد مقدَّس للصوم والتوبة، سيجري التعليق عليه باعتباره أعظم خطيئة لا تُغتفر.

رجعت كونثيبثيون مونتويا إلى بيتها نحو الساعة الواحدة، وهو الوقت الذي تكون فيه الشمس مسلَّطة في أوجِّ غضبها، وتكون حتى

البغاوات صامتة بين الأغصان. لم يفاجئها الصمت ولا خلوُّ الشوارع من المارَّة. إنَّه موعد القيلولة، والذين لا ينامون لنيل قسط من الراحة، يكونون مشغولين بالتحضير لموكب بعث السيِّد حيًّا والقدَّاس الأعظم الذي يقوده الأب بينيتو، في اليوم التالي، وهو يرتدي الثوب الأبيض الفضفاض والعباءة البنفسجيَّة، بدلًا من بنطال رعاة البقر المتقشِّف ولفاع القماش الطويل المطرَّز في أرياف تشيتشيكاستنانغو الذي يلبسه طوال السنة. ولانبهارها من الضوء في الشارع، احتاجت المرأة إلى بضع ثوان كي تضبط حدقتيها على الظلمة الداخليَّة الظليلة وترى حفيدها أندريس بالقرب من الباب، متكوِّرًا على نفسه مثل كلب في استراحة. «ماذا جرى لك يا بنيّ؟»، تمكَّنت من السؤال قبل أن ترى الدم المتناثر على تراب الأرضيَّة والجرح العميق في الرقبة. وَلْولةٌ مبحوحة صعدت من قدميها، ممزِّقة إيَّاها من الداخل. جثت إلى جانبه تناديه: أندريس، أندريسيتو. وعندئذ، في ومضة خاطفة، تذكَّرت إيفيلين. كانت البنت ملقاة في الجانب الآخر من الغرفة، جسدها النحيل مكشوف: دم على وجهها؛ دم على ساقيها؛ دم على ثوبها القطنيّ الممزَّق. زحفت الجدَّة نحوها متضرِّعة إلى الله، متأوِّهة ألَّا يأخذها، أن يرأف بها. أمسكت بكتفي حفيدتها، هزَّتهما، ورأت أنَّ إحدى ذراعيها معلَّقة بها بزاوية مستحيلة، بحثت عن إشارة حياة، وعندما لم تجدها خرجت إلى الباب واستنجدت بالعذراء، بصرخات مروِّعة.

كانت إحدى الجارات هي أوَّل من هرعت، وتوافدت بعد ذلك نساء أُخريات. ثبَّتت اثنتان منهنَّ الجدَّة كونثيبثيون التي أصابها مسٌّ من الجنون، وتأكَّدت أخريات من أنَّه لم يعد في الإمكان عمل أيّ شيء

لأندريس، لكن إيڤيلين ما زالت تتنفَّس. أرسلوا فتًى على درَّاجة ليُخبر الشرطة، بينما رُحن يحاولن إنعاش إيڤيلين من دون أن يحرِّكنها، بسبب ذراعها الملتوية، ولأنَّها كانت تتقيَّأ دمًا من فمها ومن أسفل.

وصل الأب بينيتو بشاحنته الصغيرة قبل وصول الشرطة. وجد البيت ممتلئًا بأناس يعلِّقون ويحاولون المساعدة بأيِّ طريقة. وضعوا جسد أندريس فوق المنضدة، ورتَّبوا وضع رأسه ولفُّوا العنق المجروح بشال، وكانوا قد نظَّفوه بخرق مبلولة، وراحوا يبحثون عن قميص له كي يبدو في صورة لائقة، بينما نساء أُخريات يضعن كمَّادات ماء بارد لإيڤيلين ويحاولن مواساة كونثيبثيون. أدرك الكاهن أنَّ الوقت قد فات للحفاظ على الأدلَّة التي تداولتها وعبثت بها أيدي أولئك الجيران ذوي النيَّات الطيِّبة وداستها أقدامهم، مع أنَّ ذلك لم يعد مهمًّا، من جهة أخرى، بسبب تراخي الشرطة. وربَّما لن تزعج أيُّ سلطات نفسها من أجل هذه الأسرة الفقيرة. أفسح له الناس الطريق باحترام وأمل، عند وصوله، كما لو أنَّ السلطات الإلٰهيَّة التي يمثِّلها قادرة على إبطال مفاعيل تلك المأساة. ثانية واحدة كانت كافية كي يُقدِّر الأب بينيتو حقيقة وضع إيڤيلين. ضمَّد الذراع بخرقة، وطلب أن يضعوا فراشًا في شاحنته الصغيرة، وقامت النساء بوضع بطَّانيَّة تحت الفتاة؛ وتولَّت أربعٌ منهنَّ حملها ووضعها على الفراش في الشاحنة. أمر الجدَّة كونثيبثيون بأن ترافقه، وأن تبقى النساء الأخريات هناك في انتظار رجال الشرطة، إن كانوا سيأتون.

ذهبت الجدَّة واثنتان من النساء مع الكاهن إلى عيادة كهنة البعثة التبشيريَّة على بُعد أحد عشر كيلومترًا، حيث يوجد على الدوام طبيب مناوب أو اثنان، لأنَّهم يقدِّمون خدماتهم إلى عدَّة قُرى مجاورة. من

المعروف عن الأب بينيتو أنَّه مُخيف وراء المقود، لكنَّه قاد السيَّارة للمرَّة الأولى في حياته بحذر شديد، لأنَّ إيڤيلين كانت تئنّ متوجِّعة مع كلّ حفرة في الطريق، وعند كلّ منعطف. نقلوها، عندما وصلوا، من الشاحنة إلى العيادة على البطَّانيَّة التي بدت كأرجوحة نوم، ووضعوها على محفَّة. استقبلتها طبيبة تُدعى نوريا كاستيل، تبيَّن أنَّها كتلانيَّة ولاأدريَّة، مثلما تحرَّى الأب بينيتو فيما بعد، وليست راهبة تبشيريَّة في أيّ حال. كانت ذراع إيڤيلين اليُمنى قد فقدت الخرقة. وبالنظر إلى الرضوض والكدمات، لا بُدَّ من أنَّ مجموعة من أضلاعها قد كُسرت. وسوف تؤكِّد ذلك الصورُ الشعاعيَّة، قالت الدكتورة. كما أنَّها تعرَّضت لضربات على الوجه، مع احتمال أن تكون مُصابة برجَّة دماغيَّة. كانت واعية وقادرة على فتح عينيها، لكنَّها تُدمدم بكلام غير مترابط؛ ولا تتعرَّف إلى جدَّتها ولا تُدرك أين هي.

«ماذا جرى لها؟» سألتْ الطبيبة الكتلانيَّة.

«هاجموا البيت. أظنّ أنَّها رأت كيف قتلوا أخاها»، قال الأب بينيتو.

ـ ربَّما أجبروا الأخ على رؤية ما يفعلونه بها قبل أن يقتلوه.

«يا يسوع!» هتف الكاهن وهو يوجِّه لكمة إلى الجدار.

«كُنْ حذرًا في التعامل مع عيادتي، إنَّها مهلهلة وقد قمت بطلائها للتوّ. سأفحص الطفلة لتحديد الضرر الداخليّ»، قالت له نوريا كاستيل، مع زفرة خبرة مستسلمة.

اتّصل الأب بينيتو هاتفيًا بمريام. كان عليه في هذه المرَّة أن يخبرها بالحقيقة العارية، وأن يطلب نقودًا من أجل مأتم ابنها الثاني،

ومن أجل الدفع لمُهرِّب بوصل إيفيلين إلى الشمال. فالطفلة معرَّضة لخطر مباشر، لأنَّ عصابة المارا ستحاول تصفيتها لتتجنَّب إمكانيَّة تحديد هويَّة المعتدين. وبينما هي مستنفَدة من البكاء، وغيرُ قادرة على استيعاب المأساة، أوضحت له مريام أنَّ تغطية نفقات مأتم غريغوريو اضطرَّتها إلى مدّ يدها إلى النقود التي كانت توفِّرها من أجل نفقات رحلة أندريس بعد إنهائه المدرسة، مثلما كانت قد وعدته. ولم يبق معها الكثير، ولكنَّها ستحصل على قرض في أسرع ما يمكن من أجل ابنتها.

* * *

أمضت إيفيلين بضعة أيَّام في العيادة، إلى أن صارت قادرة على ابتلاع عصائر فواكه وذرة مهروسة، وكذلك المشي بصعوبة. عادت جدَّتها لتتولَّى مسؤوليَّة إجراءات دفن أندريس، وذهب الأب بينيتو إلى مركز الشرطة، وقام هناك باستخدامٍ جيِّد لصوته ذي اللكنة الإسبانيَّة ليطلب نسخة من التقرير عمَّا حدث لآل أورتيغا، مع التوقيع والأختام الرسميَّة. لم يُزعج أحد نفسه باستجواب إيفيلين، وحتى لو أنَّهم فعلوا ذلك فإنَّه لن يُفيد كثيرًا، لأنَّ البنت كانت في حالة من الخبل. طلب الكاهن أيضًا من نوريا كاستيل نسخةً عن التقرير الطبِّيّ، مفكِّرًا في أنَّه قد يكون مفيدًا في وقت ما. أُتيحت الفرصة للدكتورة الكتلانيَّة وللكاهن الجزويتي الباسكيّ، خلال تلك الأيَّام، لأن يُمضيا معًا عدَّة ساعات. تناقشا، بإسهاب، في اللاهوت من دون أن يتَّفقا، لكنَّهما اكتشفا أنَّ المبادئ نفسها في الميدان الإنسانيّ تجمع بينهما. «مؤسف أن تكون كاهنًا يا بينيتو. بهذه الوسامة والعذوبة، يا لها من خسارة!» كانت تقول له الدكتورة، ممازحة ما بين فناجين القهوة.

لقد أنجزت عصابة «المارا» تهديدها بالانتقام. لا بدَّ من أنَّ خيانة غريغوريو لها كانت خطيرة جدًّا كي تستحقّ مثل ذلك العقاب، فكَّر الكاهن، مع أنَّ تلك الخيانة قد تكون مجرَّد تصرُّف جبان أو توجيه شتيمة في لحظة نحس. من المستحيل معرفة ذلك، فهو يجهل قوانين ذلك العالم وأعرافه.

«عليهم اللعنة، أولئك التعساء»، دمدم في واحد من لقاءاته مع الدكتورة.

ـ رجال هذه العصابات لم يولدوا أشرارًا يا بينيتو، لقد كانوا ذات يوم أطفالًا بريئين، ولكنَّهم ترعرعوا في البؤس، بلا قانون، وبلا أبطال يقتدون بهم. هل رأيت الأطفال يتسوَّلون؟ يبيعون إبرًا وقناني ماء في الدروب؟ ينبشون في القمامة، وينامون في العراء مع الفئران؟

ـ لقد رأيتهم يا نوريا. ليس هنالك ما لم أرَه في هذه البلاد.

ـ بانضمامهم إلى العصابة لا يُعانون الجوع على الأقلّ.

ـ هذا العنف هو نتيجة حرب دائمة ضدّ الفقراء. مئتا ألف من السكَّان الأصليِّين جرت إبادتهم، وهناك خمسون ألف شخص مختفون، ومليون ونصف مليون إنسان نازح. هذا بلد صغير، قدِّري النسبة المئويَّة من السكَّان التي تعنيها هذه الأرقام. أنت شابَّة جدًّا يا نوريا، لا تعرفين شيئًا من هذا.

ـ لا تستهتر بي يا رجل. أنا أعرف ما الذي تتكلَّم عليه.

ـ جنود الجيش يقترفون فظاعات ضدَّ أُناس مثلهم، من العِرْق نفسه، من الطبقة نفسها، ومن البؤس نفسه الذي لا يُسبَر له غَور. إنَّهم

ينفّذون أوامر، هذا صحيح، ولكنّهم ينفّذونها مسمّمة بالمخدّر الأشدّ إدمانًا: ممارسة السلطة بلا عقاب.

«أنت وأنا كنّا محظوظين يا بينيتو، لأنّنا لم نُجرّب ذلك المخدّر. إذا ما توفّرت لك السلطة وعدم العقاب، فهل ستعاقب المذنبين بالمعاناة نفسها التي تسبّبوا بها لضحاياهم؟» سألته الدكتورة.

ـ أعتقد أنّني سأفعل.

ـ تقول هذا وأنت كاهن، ربّك يأمرك بأن تصفح.

«مسألة إدارة الخدّ الآخر بدت لي بلاهةً على الدوام، لا تنفع إلّا لتلقّي صفعة ثانية»، ردّ عليها.

ـ إذا كانت تُشعرك أنت بالعار، فتصوّر ماذا يكون موقف البشر العاديّين. أنا، من جهتي، لن أتورّع عن إخصاء مغتصبي إيفيلين من دون تخدير.

ـ أشعر بأنّ التعاليم المسيحيّة تخذلني في كلّ لحظة يا نوريا. ربّما أكون باسكيًا فظًّا، مثلما كان أبي، لترقد روحه بسلام، وأنا أقول، ربّما لو أنّني وُلدت في اللوكسمبورغ، لما كنت ساخطًا إلى هذا الحدّ.

ـ هنالك حاجة إلى مزيد من الغاضبين أمثالك في هذا العالم، يا بينيتو.

لقد كان غضبًا قديمًا. أمضى الكاهن أعوامًا في الصراع ضدّه، ويعتقد أنّه في هذه السنّ، وبعد كلّ ما عاشه وكلّ ما رآه، قد حان الوقت للمصالحة مع الواقع. التقدُّم في العمر لم يجعله أكثر حكمة ولا أكثر هدوءًا، بل أشدّ تمرُّدًا. أحسّ بذلك التمرُّد في شبابه ضدّ

الحكومة، ضدَّ العسكريين، ضدَّ الأميركيِّين والأثرياء الدائمين، وهو يشعر به الآن ضدَّ الشرطة والسياسيِّين الفاسدين، وتجّار المخدِّرات، والمهرِّبين، والغنغستر، ومذنبين كثيرين آخرين في الكارثة. لقد أمضى ستَّة وثلاثين عامًا في أميركا الوسطى، مع فترتي انقطاع، عندما أرسلوه إلى الكونغو كعقوبة لمدَّة سنة، وإلى عزلة في إكستريمادورا لعدَّة شهور من أجل التكفير عن خطيئة التكبُّر وتبريد شغفه بالعدالة، بعد أن كان مسجونًا في سنة ١٩٨٢. كان قد خدم الكنيسة في هندوراس والسلڤادور وغواتيمالا، أي ما يسمُّونه اليوم مثلَّث الشمال، والمكانَ الأشدّ عنفًا في العالم الذي ليس في حالة حرب، ولم يتمكَّن خلال وقت طويل من التعايش مع الظلم وعدم المساواة.

«لا بدَّ من أنَّه من الصعب أن تكون أُسقفًا بهذا الطبع الذي أنت عليه»، قالت مبتسمة.

ـ نَذْرُ الطاعة والانصياع له ثِقلُ أطنان يا نوريا، ولكنَّني لم أطرح للنقاش قطّ مسألةَ إيماني أو تقبُّلي الدعوة الربَّانيَّة.

ـ وماذا عن نَذْر العزوبة؟ هل وقعت في الحبِّ ذات مرَّة؟

ـ في كلّ لحظة، ولكنَّ الربَّ يُساعدني وينقضي ذلك فورًا، ولهذا لا تحاولي غوايتي يا امرأة.

* * *

التقت الجدَّة حفيدتها في العيادة، بعد دفن أندريس إلى جوار أخيه. أخذهما الأب بينيتو إلى بيت أصدقاء له في سولولا، حيث ستكونان في منجًى ريثما تتماثل إيڤيلين إلى الشفاء، وقال إنَّه سيبحث بنفسه عن وسيط موثوق من أجل رحلة إيڤيلين إلى الولايات المتَّحدة.

كانت الفتاة تمضي بذراع معلَّقة برقبتها، وكلّ نَفَس تتنفَّسه يعني عذابًا لأضلاعها. لقد فقدت الكثير من وزنها منذ موت غريغوريو. وانمحت خلال تلك الأسابيع تكوُّراتُ المراهقة. لقد كانت نحيلة وهشَّة، ويمكن لأيّ هَبَّة ريح قويَّة أن تطوّح بها وتحملها إلى السماء. لم تروِ شيئًا ممَّا حدث في يوم سبت النور المقدَّس ذاك، والواقع أنَّها لم تقل كلمة واحدة مذ استيقظت وهي على الفرشة في الشاحنة. هنالك أمل بألَّا تكون قد رأت كيف كانوا يذبحون أخاها، لأنَّها كانت، بلا شكّ، قد غابت عن الوعي قبل ذلك. أمرت الدكتورة كاستيل بأن يمتنعوا من توجيه أسئلة إليها؛ فقد كانت تعاني صدمة نفسيَّة وتحتاج إلى هدوء وإلى وقت كي تستعيد عافيتها.

طرحت كونثيبثيون مونتويا على الدكتورة عند الوداع، احتمالَ أن تكون حفيدتها حبلى، مثلما حدث لها هي نفسها عندما أمسك بها الجنود في شبابها، فمريام هي ابنة ذلك الاغتصاب. دخلت الكتلانيَّة مع الجدَّة إلى الحمَّام وقالت لها على انفراد ألَّا تقلق بهذا الشأن، لأنَّها أعطت إيفيلين حبَّةً اخترعها الأميركيُّون لتفادي الحَبَل. وهو عقّار غير مشروع في غواتيمالا، لكن أحدًا لن يعلم بذلك. «أُخبرك بهذا أيّتها السيِّدة كيلا تفكِّري في اللجوء إلى أيّ علاج شعبيّ للصغيرة، لأنَّها عانت ما يكفي».

إذا كانت إيفيلين تتلعثم في السابق، فإنَّها بعد الاغتصاب تخلَّت بكلّ بساطة عن الكلام. كانت تمضي ساعات من الراحة في بيت أصدقاء الأب بينيتو، من دون أن تهتمّ بما في ذلك البيت من مستجدَّات. ماءٌ جارٍ ينزل من الصنبور، كهرباء، حمَّامان اثنان، هاتف... بل تلفزيون في حجرتها أيضًا.

استشفَّت كونثيبثيون أنَّ مرض عدم الكلام ذاك خارجٌ عن علم الدكاترة، وقرَّرت أن تتصرَّف قبل أن يتجذَّر الداء في عظام حفيدتها. وما إن تمكَّنت الصغيرة من الوقوف على ساقيها والتنفُّس من دون ضربات بقبضتها على الصدر، حتى ودَّعت أولئك الناس الطيِّبين الذين آووها وانطلقت معها إلى قرية بيتين في رحلة شاقَّة استمرَّت ساعات طويلة، في ميكروباص مخلَّع، من أجل زيارة فيليثيتا الساحرة والمداوية وحارسة تقاليد المايا. إنَّها امرأة مشهورة، يأتي إليها الناس من العاصمة، وحتى من هندوراس وبيلز لاستشارتها في أمور الصحَّة والقَدَر. لقد أجروا معها لقاءً في برنامج تلفزيوني، بحيث قدَّروا أنَّها قد بلغت من العمر مئة واثنتي عشرة سنة، وأنَّها أكبر الناس عمرًا في العالم. لم تُكذب فيليثيتا ذلك، ولكنَّها كانت تحتفظ بمعظم أسنانها وبجديلتي شعر كثيف على ظهرها، وقد كانت تلك الأسنانُ وذلك الشعر أكثر ممَّا هو معقول لشخص في مثل ذلك العمر.

كان الوصول إلى المُداوية سهلًا، لأنَّ الجميع يعرفونها. لم تُبد فيليثيتا أيّ شعور بالمفاجأة عند وصولهما: فهي معتادة على استقبال الأرواح، مثلما تسمِّي زائريها، وقد استقبلتهما بكلِّ لطف في بيتها. كانت تؤكِّد أنَّ خشب الجدران، وترابَ الأرضيَّة الممهَّد، وقشَّ السقف، جميعها تتنفَّس وتفكِّر، مثل كلِّ الأحياء، وهي تتكلَّم معها جميعًا لتطلب منها النصح في الحالات الصعبة، وتردّ عليها تلك الأشياء في أحلامها. كان بيتها المستدير مؤلَّفًا من حجرة واحدة، حيث تعيش حياتها وتمارس العلاج والطقوس. هناك ستارة من نسيج المايا ذي الألوان الزاهية تفصلها عن الحيِّز الضيِّق الذي تنام فيه في سرير من ألواح خشبيَّة خام. حيَّتِ الساحرةُ القادمتين الجديدتين برسم

إشارة الصليب، وقدّمت إليهما مجلسًا على الأرض، ثم سكبت قهوة مُرَّة لكونثيبثيون ونعناعًا طازجًا لإيفيلين. قبلت نقود الأجر المتعارف عليه في مقابل خدماتها، ووضعتها في علبة صفيح من دون أن تعدّ أوراق النقد تلك.

شربت الجدَّة والحفيدة ما قُدِّم إليهما بصمت ووقور، منتظرتين بفارغ الصبر أن تسكب فيليثيتا ماءً بمرشَّة على أعشاب طبِّيَّة في أصص مصفوفة في الظلّ، وأن تُلقي ذُرَة للدجاجات التي تتنقَّل في كلّ مكان، وتضع الفاصوليا لتغلي على موقد في الفناء. وبانتهائها من إنجاز الأعمال المستعجلة، فردت العجوز على الأرض منديلًا منسوجًا على النول بألوان صارخة، ووضعت فوقه، بترتيب لا يتبدَّل، عناصرَ مذبحها: شموعًا؛ حُزمَ أعشاب عطريَّة، أحجارًا، أصدافًا وأشياء أخرى مختلطة من طقوس المايا والمسيحيَّة. وأشعلت بعض عيدان المريميَّة ونظَّفت بدخانها البيت من الداخل وهي تمشي بصورة دائريَّة وتردِّد رُقًى وتعويذات بلغة قديمة كي تطرد الأرواح السلبيَّة. ثم جلست في مواجهة زائرتيها وسألتهما ما الذي جاء بهما إلى هناك، فشرحت لها كونثيبثيون مشكلة النطق التي تعانيها حفيدتها.

تفحَّصت عينا المداوية اللامعتان بين جفونها المجعَّدة وجهَ إيفيلين لدقيقتين طويلتين، وأمرت الصبيَّة: «أغمضي عينيك وأخبريني بالذي ترينه». أغمضت إيفيلين عينيها، لكن صوتها لم يخرج لتصف مشهد الجسر ولا هول الرجال الموشومين والذين ثبَّتوا أندريس، وضربوه وجرّوه. حاولت التكلُّم فعلقت الأصوات في حلقها، ولم تستطع بعدَ جهد كبير سوى إفلات بعض الحروف المختنقة. تدخَّلت كونثيبثيون لتروي ما جرى لأسرتها، ولكنَّ المداوية قاطعتها. أوضحت لها أنَّها

توجِّه مسار الطاقة الكونيَّة الشافية، وهي قدرة تلقَّتها عند ولادتها وطوَّرتها على امتداد حياتها من سحرة وشامانات آخرين. ولهذا سافرت بعيدًا بالطائرة، حيث سحرةُ قبيلة سيمينولا في فلوريدا وإنويت الأسكيمو في كندا، وغيرهم كُثُر، ولكن مصدر أعظم معارفها هو نبتة مقدَّسة في الأمازون، وهي بوَّابة الدخول إلى عالم الأرواح. أشعلت أعشابًا قدسيَّة في فنجان من صلصال ملوَّن برموز ما قبل كولومبيَّة، ونفخت الدخان في وجه المريضة، ثم جعلتها بعد ذلك تشرب شايًا مقزِّزًا، لم تتمكَّن إيفيلين من ابتلاعه.

* * *

سرعان ما بدأ المشروب يُعطي مفعوله، ولم يعد في إمكان الصغيرة البقاء جالسة، فتهاوت جانبًا، وحطّ رأسها في حضن جدَّتها. لقد تراخت عظامها، وذاب بدنها كما يذوب ملح في بحر أغبش، ورأت نفسها محاطة بدوَّامات وهميَّة ذات ألوان فاقعة: صَفارِ عبَّاد شمس، سَوادِ سَبَج، خَضارِ زمرّد. ملأ مذاق الشاي المقرف فمها وتقيَّأت دفقات غثيان قويَّة في إناء بلاستيكيّ وضعته فيليثيتا أمامها. وأخيرًا، هدأ الغثيان وعادت إيفيلين لتستند إلى حضن جدَّتها مرتجفة. راحت الرؤى تتوالى سريعة؛ ظهرت في بعضها أمُّها مثلما رأتها آخر مرَّة، وتضمَّنت رؤى أخرى مشاهدَ من طفولتها، وهي تستحمّ في النهر مع أطفال آخرين، وفي الخامسة من عمرها وهي تمتطي كتفي أخيها الكبير؛ وظهرت فهدةٌ مع شبلين، ثم أمّها مرَّة أخرى ورجل مجهول، ربَّما هو أبوها. وفجأة، وجدت نفسها قبالة الجسر الذي يتدلَّى عليه جسد أخيها. صرخت مذعورة. كانت وحيدة مع غريغوريو. الأرض تنضح ضبابًا ساخنًا؛ حفيف مزارع الموز؛ ذبابات زرقاء هائلة؛ طيور

سود متوقّفة وهي في أوج تحليقها، متحجّرة في السماء؛ أزهار عنيفة؛ آكلة لحم، تطفو في مياه النهر التي بلون الصدأ، وأخوها مصلوب.
ظلّت إيفيلين تصرخ وتصرخ، محاولة، من دون جدوى، الهرب والاختباء. لم تكن قادرة على تحريك عضلة واحدة، لقد تحوّلت إلى حجر. وسمعت من بعيد، صوتًا يتلو ترتيلة بلغة المايا، وبدا لها أنّهم يهدهدونها ويهزونها. وبعد أبديّة راحت تهدأ، وتجرّأت عندئذ على رفع نظرتها، ورأت أنّ أخاها غريغوريو لم يعد معلّقًا مثل شاة في المسلخ، بل يقف على قدميه على الجسر، سليمًا، وبلا وشوم، مثلما كان قبل أن يفقد براءته. وإلى جانبه كان أندريس، سليمًا كذلك، يناديها أو يودّعها بحركة غامضة من يده. أرسلتْ إليهما قبلة عن بُعد، وابتسم لها أخَواها قبل أن يضمحلّا ببطء على خلفيّة سماء بلون الأرجوان، ثم يتلاشيا تمامًا. التوى الزمن ملتفًّا، فلم تعد تعرف إن كان من قبل أم بَعْد، ولا كيف تمرّ الدقائق أو الساعات. استسلمت بالكامل لسلطة العقّار المَهُولة، وفقدت عندئذ الخوف. رجعت الفهدة الأمّ مع شبليها، وتجرّأت هي على أن تمرّ بيدها على ظهرها. كان شعرها قاسيًا وله رائحة مستنقع. رافقتها تلك الهرّة الهائلة الصفراء لبعض الوقت، تدخل وتخرج في رؤى أخرى، ترصدها بعينيها العنبريّتين، وتدلّها على الطريق عندما تضيع في متاهات تجريديّة، وتحميها إذا ما تربّصت بها كائنات خبيثة.

خرجت إيبيلين، بعد ساعات من ذلك، من العالم السحريّ، ووجدت نفسها ممدَّدة على سرير ضيّق، مغطّاةً ببطّانيَّة، وذاهلةً في شبه غيبوبة وجسدها مضعضع، لا تدري أين هي. وعندما استطاعت تركيز بصرها ميَّزت وجود جدتها جالسة إلى جانبها، تصلّي بالمسبحة، وامرأة

أخرى، لم تعرفها إلى أن ذكرت اسمها، فيليثيتا، فتمكّنت من تذكُّرها. «أخبريني بما رأيتِ أيّتها الصغيرة»، قالت لها آمرةً. بذلت إيڤيلين جهدًا هائلًا كي تُخرج صوتها وتصوغ كلمات، لكنّها كانت متعَبة جدًّا، ولم تستطع سوى تمتمة عبارة: رأيتُ أخوَيَّ وفهدة. «أكانت أنثى؟»، سألتها المداوية، فأومأت البنت بالإيجاب. «طاقتي هي الطاقة الأنثويّة»، قالت المداوية، إنّها سلطة الحياة التي كان يملكها القدماء، سواء النساء أو الرجال. إنّها الآن مستقرّة وغافية في الرجال، ولهذا توجد الحروب، لكن هذه السلطة ستستيقظ؛ وسيعمّ عندئذ الخيرُ الأرض كلّها، وستسود الروح العظيمة، سيكون هناك سلام وتنتهي أعمال الشرّ. لست أنا وحدي من أقول هذا، بل يقوله جميع المسنّين والمسنّات، ممّن لديهم حكمة الشعوب الأصليّة التي زرتها. أنت أيضًا لديك سلطة الأنوثة. ولهذا زارتك الفهدة الأمّ. تذكّري هذا. ولا تنسَي أنّ أخوَيك مع الأرواح وأنّهما لا يتألّمان».

غرقت إيڤيلين المنهَكة في غيبوبة موت، بلا أحلام. واستيقظت بعد ساعات نشطة في فراش فيليثيتا، متذكّرة ما حلمت به، وجائعةً. أكلت بشراهة الفاصوليا والعجّة التي قدّمتها إليها الساحرة، وعندما شكرتها خرج صوتها على دفعات، لكنّه كان جهوريًا. «ما بك أيّتها الصغيرة، ليس مرضًا في الجسد، وإنّما في الروح. يمكن أن يُشفى من تلقاء ذاته، ويمكن أن يُشفى لبعض الوقت ثم يعود، لكنّه داء مكابر وعنيد جدًّا، ويمكن ألّا تُشفَي منه أبدًا. فلنرَ إذن»، تنبّأت فيليثيتا. وقبل أن تودّع زائرتيها، أعطت إيڤيلين صورةً للعذراء، باركها البابا يوحنّا بولس عند زيارته غواتيمالا، وتميمةً صغيرة من حجر، نُحت عليه رسم إنشاشيل، الربّةِ الفهدة. «ستتألّمين أيّتها الصغيرة، لكنّ

فضيلتين ستحميانك. إحداهما الأمّ الفهدة المقدّسة عند أبناء المايا، والثانية هي الأمّ العذراء المقدّسة عند المسيحيين. استدعيهما تهرعا لمساعدتك».

* * *

يعيش آلاف الرجال والنساء والأطفال، ممّن يكسبون معيشتهم على هامش القانون، في المنطقة الغواتيماليّة القريبة من الحدود مع المكسيك، مركزِ التهريب والتجارة، ولكن كان من الصعب العثور على وسيط أو على مهرب موثوق. فمنهم من يعمدون، بعد أن يقبضوا نصف المبلغ، إلى ترك حمولتهم في أيّ مكان في المكسيك، أو نقلهم في ظروف غير إنسانيّة. وفي بعض الأحيان، تكشف الرائحة عن وجود حاوية فيها عشرات جثث المهاجرين المختنقين أو المشويَّيْن في الحرّ الشديد. وتتعرّض البنات لمخاطر كثيرة: يمكن أن يُغتصبن أو يُبَعن لقوّادين ومواخير. وكانت نوريا كاستيل، مرّة أخرى، هي من مدّت يد المساعدة للأب بينيتو، وأخبرته عن وكيلة متكتّمة وذات سمعة حسنة بين المبشّرين.

المعنيّة هي صاحبة مخبز تعمل على تهريب الأشخاص كتجارة جانبيّة. وهي تفاخر في أنّ أيًا من زبائنها لم ينتهِ به الأمر إلى أن يكون ضحيّة الإتجار بالبشر، لم يُختَطف أيٌّ واحد منهم، أو يُقتَل على الطريق، ولم يسقط أيّ منهم أو يجري دفعه عن القطار. يمكنها أن تقدّم ضمانات معيّنة في تجارة تقوم أساسًا على المجازفة، وتتّخذ إجراءات الحذر التي في متناول يدها، وما تبقّى توكّل به الربّ ليسهر من علياء سمائه على أتباعه المساكين. وهي تتقاضى السعر نفسه الذي

بتلقّاه المهرّب لتغطية نفقات مجازفتها وتقاضي عمولتها الخاصّة. وهي تتّصل بـ«موبايلها» بالوسطاء، تتابع مسيرتهم بالتفصيل، وتعرف دومًا أيّ نقطة من الرحلة صار زبائنها فيها. ولم يُفقَد حتى الآن أحدٌ ممّن تعاملوا مع تلك الخبّازة، بحسب قول نوريا.

ذهب الأب بينيتو للقائها ووجد نفسه أمام امرأة خمسينيّة، متبرّجة جدًا، وتتزيّن بحليّ ذهبيّة في كلّ مكان: في أذنيها، وعنقها، ومعصميها، وأسنانها. طلب إليها الكاهن أن تمنحه تخفيضًا باسم الربّ، مستنجدًا بطيبة قلبها كمسيحيّة، لكنّ المرأة ترفض الخلط بين الإيمان وتجارتها، وكانت صارمة لا تلين. يجب دفع سلفة إلى المهرّب وعمولتها كاملة. وبقيّة المبلغ تُؤخَذ من أقرباء الزبون في الولايات المتّحدة، أو تبقى دينًا عليه، مع الفوائد طبعًا. «من أين تريدينني الحصول على هذا المبلغ يا سيّدتي؟»، احتجّ الكاهن الجيزويتيّ. فردّت عليه بسخرية: «من تبرّعات كنيستك يا أبتاه». لكن ذلك لم يكن ضروريًّا، لأنّ المبلغ الذي أرسلته مريام غطّى تكاليف دفن أندريس، وعمولة الوكيلة، وثلاثين في المئة من أجر المهرّب، مع سند ببقيّة المبلغ يُسدَّد عند وصول إيڤيلين. وهذا الدَّين مقدّس، لا يتخلّف أحد عن تسديده.

المهرّب الذي خصّصته صاحبة المخبز لإيڤيلين أورتيغا هو شخص يُدعى بيرتو كابريرا. وهو مكسيكيّ، له شارب كثيف، وكرشُ شاربِ بيرة جيّد. في الثانية والثلاثين من العمر، يُمارس المهنة منذ أكثر من عشر سنوات. وقد قام بالرحلة مئتي مرّة مع مئات المهاجرين. ومن الناحية الشخصيّة هو أخلاقيّ شديد الالتزام والدقة، أمّا إذا تعلّق الأمر بصفقات أخرى فتكون أخلاقه قابلة للنقاش. وقد أوضحت الخبّازة

للكاهن: «يُنظَر إلى عملي نظرة سيِّئة، لكنِ ما أقوم به عمل اجتماعيّ. إنَّني أعتني بالأشخاص، فلا أنقلهم في شاحنات بهائم ولا على سطوح القطارات».

انضمَّت إيفيلين أورتيغا إلى جماعة من أربعة رجال يريدون الذهاب إلى الشمال بحثًا عن عمل، وامرأة تحمل طفلًا لا يزيد عمره على الشهرين، تريد الذهاب للقاء خطيبها في لوس أنجلوس. سيكون الطفل مزعجًا في الرحلة، لكنَّ الأمّ توسَّلت كثيرًا، فوافقت صاحبة الوكالة أخيرًا. اجتمع الزبائن في الحجرة الخلفيَّة للفرن، حيث تلقَّى كلُّ واحد منهم وثائق شخصيَّة مزوَّرة، وأُطْلع على المغامرة التي تنتظره. على كل منهم، ابتداءً منذ اللحظة، أن يستخدم اسمًا جديدًا، ويفضَّل ألَّا يعرف كلّ منهم أسماء الآخرين الحقيقيَّة. كانت إيفيلين تحني رأسها، ولم تتجرَّأ على النظر إلى أحد، لكنَّ المرأة، أمَّ الطفل، اقتربت منها لتقدِّم نفسها: «اسمي آلان ماريّا إينيس بورتييو. وأنت، ما اسمك؟» سألتها. فعرضت عليها إيفيلين بطاقة هويَّتها. كان اسمها الجديد: بيلار سارافيا.

حين يصيرون خارج غواتيمالا، سيتصرَّفون على أنَّهم مكسيكيُّون. لا تراجع عن هذا الأمر، وعليهم طاعة تعليمات المهرِّب من دون تذمُّر. ستكون إيفيلين تلميذة في مدرسة مزعومة للصمّ والبكم تُديرها الراهبات في مدينة دورانغو. وتعلَّم المسافرون الآخرون النشيدَ الوطنيّ المكسيكيّ، وبعض الكلمات المحلِّيَّة شائعة الاستخدام والمختلفة عن بلادهم. فهذا يساعدهم على التصرُّف كمكسيكيِّين حقيقيِّين إذا ما اعتقلهم موظَّفو الهجرة. نهاهم الدليل عن التحدُّث باستخدام صيغة الاحترام، vos، مثلما يفعلون في غواتيمالا، وطلب إليهم أن

يستخدموا، مع أيّ شخص موظّف أو يرتدي زيًّا رسميًا، تعبيرَ usted، من باب الحيطة والاحترام. أمّا مع الآخرين، فتُستخدم الصيغة غير الرسميّة tu. وبالنسبة إلى إيفيلين، باعتبارها صمّاء بكماء، فيجب أن تظلّ صامتة إذا ما وجّهت إليها السلطات أسئلة. وسوف يريهم بيرتو وثيقة من مدرستها الوهميّة. تلقّوا تعليمات بأن يرتدوا أفضل ملابسهم، وأن ينتعلوا أحذية، فالصنادل غير مقبولة في أيّ حال. وهكذا لا يُثيرون الكثير من الشكوك. سفر النساء بالبنطلونات سيكون أكثر راحة لهنّ، ولكن لا شيء من بناطيل الجينز الممزّقة، تلك الشائعة الآن. ستحتاجون إلى أحذية رياضيّة وملابس داخليّة وسترة سميكة؛ كلّ هذا يمكن وضعه في حقيبة صغيرة أو جعبة ظهر. لا بدَّ من المشي في الصحراء. لا يمكنكم أن تحملوا أشياء ثقيلة هناك. ولنستبدل الكيتزالات التي تملكونها ببيزوات مكسيكيَّة. نفقات النقل كلّها مغطّاة، ولكنّكم تحتاجون إلى نقود مكسيكيّة من أجل الطعام.

سلّم الأب بينيتو إيفيلين مغلفًا بلاستيكيًا لا ينفذ إليه الماء، وفيه وثيقة ولادتها، ونسخة من التقارير الطبّيّة والشرطيّة، ورسالة توضح وضعها المعنويّ. وقد قال له أحدهم إنّه يمكن لها الحصول على حقّ اللجوء في الولايات المتّحدة، وهو احتمال بعيد جدًا، لكنّه لم يشأ استبعاده. كما أنّه جعل إيفيلين تحفظ عن ظهر قلب رقم هاتف أمّها في شيكاغو ورقم هاتفه الخلويّ الخاصّ. وعندما عانقها مودّعًا أعطاها بضع أوراق نقديّة، هي كلّ ما يملكه.

حاولت كونثيبثيون مونتويا أن تحافظ على هدوئها وهي تودّع حفيدتها، لكن دموع إيفيلين أسقطت نيّاتها أرضًا، وانتهى بها الأمر إلى البكاء معها.

«أشعر بحزن شديد لأنّك ستذهبين»، قالت المرأة منتحبة. وأضافت: أنت ملاك حياتي، ولن أعود لرؤيتك يا صغيرتي. هذا هو الألم الأخير الذي كان ينقصني. وإذا كان الربّ قد أراد لي هذا القَدَر، فلحكمة ما.

نطقت، عندئذ، إيفيلين من دون انقطاعات، الجملةَ الأولى التي تتفوَّه بها منذ عدَّة أسابيع، والأخيرة التي ستقولها خلال الشهرين التاليين:

ـ هكذا مثلما أنا ذاهبة يا جدَّتي، هكذا سأعود.

لوثيا

كندا

كانت لوثيا مارات قد أكملت التاسعة عشرة من عمرها، وتسجّلت في الجامعة لتدرس الصحافة عندما بدأت حياتها كلاجئة. ما عادوا يعرفون شيئًا عن أخيها إنريكي. ومع مرور الزمن، وبعد كثير من البحث عنه، سيتحوَّل إلى واحد من أولئك الذين اختفوا من دون أن يخلِّفوا أثرًا. ظلَّت الفتاة شهرين في سفارة فنزويلا في سنتياغو، تنتظر الحصول على تصريح مرور يسمح لها بمغادرة البلاد. مئات الضيوف، مثلما كان يُصرّ السفير على تسميتهم، كي يخفِّف مهانة كونهم لاجئين، كانوا ينامون حيث يجدون متَّسعًا، ويصطفُّون بالطابور طوال الوقت أمام حمَّامات البيت. كان مُطارَدون آخرون، يخترعون عدَّة مرَّات كلَّ أسبوع، أساليبَ ذكيَّة أخرى، للقفز عن سور السفارة على الرَّغم من الحراسة العسكريَّة في الشارع. لقد وضعوا بين يدي لوثيا في أحد الأيَّام طفلًا حديث الولادة، أدخلوه سيَّارة دبلوماسيَّة، أو كان مخبَّأً في سلَّة خضروات، مع التوصية برعايته إلى أن يتمكَّن أبواه من الحصول على لجوء.

يوفّر التكدُّس والغمّ الجماعي أسبابًا للنزاع، لكن سرعان ما يتقبّل الضيوف الجدد قواعد التعايش ويتعلّمون تنمية الصبر. تأخّر تصريح مرور لوثيا أكثر من المعهود بالنسبة إلى شخص بلا سوابق سياسيَّة أو بوليسيَّة، لكنَّه ما إن وصل إلى السفير حتى تمكَّنت من المغادرة. وقبل أن يأخذوها بمرافقة موظَّفين دبلوماسيِّين من السفارة حتى باب الطائرة، ومن هناك إلى كاراكاس، تمكَّنت من تسليم الطفل الوليد إلى أبويه اللذين تمكَّنا أخيرًا من اللجوء إلى السفارة. كما تمكَّنت من وداع أمّها هاتفيًا، ووعدتها بأنَّها سترجع قريبًا. «لا ترجعي قبل عودة الديموقراطيَّة»، ردَّت عليها لينا بملء صوتها.

بدأ مئات التشيليِّين يصلون إلى فنزويلا، البلاد الغنيَّة والكريمة، وسرعان ما صاروا آلافًا مؤلَّفة، أُضيف إليهم الهاربون من الحرب القذرة في الأرجنتين والأوروغواي. وراحت تلك الجالية المتنامية من لاجئي جنوبيّ القارَّة، تتجمَّع في أحياء معيَّنة، حيث كلّ شيء، ابتداءً من المأكولات حتى اللكنة الإسبانيَّة في الشارع، كانت من تلك البلدان. وتمكَّنت لجنة لمساعدة اللاجئين من مساعدة لوثيا على الحصول على غرفة يمكنها العيش فيها من دون دفع التكاليف لمدَّة ستَّة شهور، والعمل كموظَّفة استقبال في عيادة جراحة تجميليَّة أنيقة. لم يتح لها الوقت لشغل الغرفة والوظيفة لأكثر من أربعة شهور، لأنَّها تعرَّفت إلى منفيّ تشيليّ آخر، أستاذِ علم اجتماع معذَّب من اليسار المتطرِّف، تذكّرها خطبه المسهبة بألم شديد بأخيها. إنَّه شابٌّ وسيم ممشوق القامة مثل مصارع ثيران، له شعر طويل ومزيّت، ويدان ناعمتان، وشفتان حسِّيَّتان تحملان تعبيرًا ازدرائيًا مستخفًا. لم يكن يفعل شيئًا لمداراة سوء مزاجه أو عجرفته. ستتذكَّره لوثيا بحيرة، بعد

سنوات من ذلك، من دون أن تفهم كيف استطاعت أن تحبّ شخصًا على ذلك القدر من الإزعاج. يمكن أن يكون التفسير الوحيد هو أنّها كانت فتيَّة جدًّا ووحيدة جدًّا. كان ذلك الرجل يشعر بالصدمة من سعادة الفنزويليِّين الطبيعيَّة، وكان يرى في ذلك، بحسب رأيه، علامةَ انحطاط أخلاقيّ لا جدال فيه، وأقنع لوثيا بأن يهاجرا معًا إلى كندا، حيث لا أحد يتناول الشمپانيا على الفطور، أو ينتهز أيَّ ذريعة ليبدأ الرقص.

استُقبلت لوثيا ومناضلُها الفدائيّ النظريّ، المهمِلُ لهندامه، في مونتريال، بذراعين مفتوحتين من لجنة أُناس طيِّبين آخرين، أسكنوهما في شقَّة مزوَّدة بأثاث، وأدوات مطبخ، وحتى ملابس على مقاسهما في الخزانة. كان ذلك في أوج كانون الثاني/يناير، وفكَّرت لوثيا في أنَّ البرد قد استقرَّ في عظامها إلى الأبد. كانت تعيش متكوِّرة على نفسها، ترتجف، ملتفَّة بدُثر صوفيَّة، وصار يخامرها الشكّ في أنَّ الجحيم ليس محرقة دانتيَّة، وإنَّما هو الشتاء في مونتريال. تجاوزت الشهور الأولى في قيد الحياة بالبحث عن ملجأ في المتاجر، وفي الحافلات ذات التدفئة، وفي الأنفاق تحت الأرض التي تصل بين الأبنية في عملها، وفي أيّ مكان، باستثناء الشقَّة التي تتقاسمها مع رفيقها، حيث درجة الحرارة مناسبة، ولكنَّ الأجواء في الخارج يمكن قطعها بالمقصّ.

* * *

جاء شهر أيَّار/مايو بربيع مفرط في الحيويَّة. وكانت القصَّة الشخصيّة للفدائيّ في أثناء ذلك، قد تطوَّرت لتتحوَّل إلى مغامرة مبالغ فيها، إذ تبيَّن فجأة أنَّه لم يخرج من سفارة هندوراس في طائرة

وتصريح مرور، مثلما فهمت منه لوثيا، وإنّما مرّ من بيّا غريمالدي، مركز التعذيب الرهيب سيّئ السمعة، وقد خرج منه بعطب بدنيّ وروحيّ، وهرب عبر ممرّات خطرة في سلسلة جبال، من تشيلي إلى الأرجنتين، حيث نجا بمقدار شعرة من الوقوع ضحيّة الحرب القذرة فيها. كان من الطبيعيّ، بمثل هذا الماضي المؤلم. أن يكون الرجل المسكين مُصابًا بصدمة نفسيّة وغير قادر على العمل. ولحسن الحظّ أنّه يعتمد على التفهُّم المطلق من جانب لجنة مساعدة اللاجئين التي سهَّلت له الوسائل لتلقّي علاج نفسيّ بلغته بالذات، وتوفير وقت له كي يكتب مذكّراته عن معاناته. تقبّلت لوثيا، في أثناء ذلك، وظيفتين على الفور، لأنّها ترى أنّها لا تستحقّ إحسان اللجنة: هنالك لاجئون في ظروف أشدّ إلحاحًا منها. فكانت تعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم وتعود لتطبخ، وتنظّف، وتغسل الثياب، وتعمل على رفع معنويّات الصديق الثوريّ.

تحمّلت لوثيا بصورة رواقيّة عدّة شهور، إلى أن رجعت ذات ليلة إلى الشقّة وهي شبه ميّتة من الإنهاك ووجدتها مظلمة، مع رائحة رطوبة وقيء. لقد أمضى الرجل يومه في الفراش، يشرب الجنّ وهو منهار حتى الخمود، لأنّه ما زال عالقًا عند الفصل الأوّل من مذكّراته. «هل أحضرتِ معك شيئًا للأكل؟ لا يوجد شيء هنا، أكاد أموت جوعًا»، تلعثم المتطلّع إلى أن يكون كاتبًا عندما أشعلت لوثيا النور. تكشّف عندئذ لها أخيرًا مدى فظاظة تلك المساكنة. طلبت بيتزا بالهاتف وبدأت المهمّة اليوميّة، تولّي مسؤوليّة ترتيب فوضى المعركة التي كان ينضوي فيها ذلك الفدائيّ. وفي تلك الليلة بالذات، وبينما هو ينام بعمق ويستسلم لإغفاءة الجنّ الذي شربه، حزمت أشياءها وغادرت

بصمت. كان لديها بعض النقود المدَّخرة، وكانت قد سمعت أنَّهم بدأوا في فانكوفر بإنشاء مستوطنة للمنفيِّين التشيليِّين. وركبت، في اليوم التالي، القطارَ الذي سينقلها عبر القارَّة إلى الساحل الغربي.

* * *

كانت لينا مارثا تزور ابنتها لوثيا في كندا مرَّة كلّ عام، وتظلّ معها ثلاثة أسابيع أو أربعة، لا أكثر من ذلك أبدًا، لأنَّها كانت لا تزال تبحث عن إنريكي. وتحوَّل بحثها اليائس، مع مرور السنوات، إلى أسلوب حياة، ومجموعةِ تصرُّفات روتينيَّة، تنجزها كالتزام دينيّ، وتمنح معنًى لحياتها. فبعد قليل من الانقلاب العسكريّ، افتتح الكردينال مكتب نيابة أسقفيَّة للتضامن، من أجل مساعدة الملاحَقين وعائلاتهم، وكانت لينا تذهب إليه كلّ أسبوع، ومن دون جدوى على الدوام. وتعرَّفتْ هناك إلى أشخاص آخرين، في مثل وضعها، وعقدت صداقات مع المتديِّنين والمتطوِّعين، وتعلَّمت التحرُّك في بيروقراطيَّة الآلام. حافظت على تواصل مع الكردينال إلى حيث كان ذلك ممكنًا، لأنَّ ذلك الحَبر هو أكثر شخص مشغول في البلاد. كانت الحكومة تتحمَّل، من دون رغبة منها، أمَّهات المفقودين؛ وبعد ذلك الجدَّات اللاتي كنَّ يتظاهرن صامتات وصورُ أبنائهنَّ وأحفادهنّ معلَّقةٌ على صدورهنَّ، ويتوقَّفن بصمت أمام الثكنات ومراكز الاعتقال رافعات لافتات تطالب بالعدالة. ترفض أولئك العجائز العنيدات أن يفهمن أنَّ الأشخاص الذين يطالبن بهم لم يُعتقلوا قطّ، وأنَّهم قد غادروا إلى أمكنة أخرى، أو أنَّه لم يكن لهم أيّ وجود في الأصل.

جاءت دوريَّة عسكريَّة إلى شقَّة لينا مارثا، في فجر يوم ثلاثاء

شتويّ، لتُخبرها بأنَّ ابنها وقع ضحيَّة حادث مميت، ويمكنها أن تذهب لأخذ أشلائه في اليوم التالي، في عنوان أعطوها إيَّاه، بعد أن نبَّهوها إلى أنَّه يجب عليها الحضور في الساعة السادسة صباحًا بالضبط، في سيَّارة ذات حجم مناسب لنقل تابوت. تراخت ركبتا لينا وانهارت على الأرض. لقد انتظرت طوال سنوات خبرًا عن إنريكي، وحين رأت نفسها في مواجهة واقع أنَّها قد عثرت عليه، حتى لو كان ميتًا، انحبس الهواء في صدرها.

لم تتجرَّأ على الذهاب إلى مكتب النيابة الأسقفيَّة خوفًا من أن يؤدّي أيّ تدخُّل إلى تقويض تلك الفرصة الوحيدة المتاحة لاسترداد ابنها، وبالطبع، ربَّما تكون الكنيسة نفسها أو الكردينال شخصيًّا وراء تحقُّق تلك المعجزة. لجأت لينا إلى أختها، لأنَّها لم تجد الشجاعة للذهاب وحدها. ذهبتا معًا، مرتديتين ملابس الحداد، إلى الإدارة التي أخبروهما بها. وهناك، في فناء مربَّع مُحاط بجدران ملطَّخة بسيالات صدأ أخضر بفعل الرطوبة والزمن، استقبلهما رجال أشاروا لهما إلى صندوق من ألواح خشب الصنوبر، وأعطوهما تعليمات بدفنه قبل الساعة السادسة مساء. كان الصندوق مختومًا. أخبروهما بأنَّه ممنوع منعًا باتًّا فتحه، وسلّموهما شهادة وفاة من أجل الإجراءات في المقبرة، وقدَّموا إلى لينا إيصالًا كي توقِّعه، وفيه تُقرّ بأنَّ الإجراء قد تمَّ وِفْق القانون. أعطوها نسخة من الإيصال وساعدوها على وضع التابوت في شاحنة من السوق كانت المرأتان قد استأجرتاها.

* * *

لم تذهب لينا مباشرة إلى المقبرة، كما هي الأوامر، وإنَّما إلى

بيت أختها الذي يقوم على قطعة أرض صغيرة خارج سنتياغو. أنزلتا الصندوق بمساعدة سائق الشاحنة، وضعوه فوق منضدة غرفة الطعام. وحين صارتا وحدهما قطعتا الحزام المعدني الذي يحمل الختم، وفتحتا الصندوق. لم تتعرَّفا إلى الجسد. لم يكن إنريكي، على الرُّغم من أنَّ الوثيقة تحمل اسمه. أحسَّت لينا بمزيج من الرعب حيال الوضع الذي كان عليه جسد ذلك الشابّ، والطمأنينة لأنَّه ليس ابنها. يمكنها الاحتفاظ بالأمل في العثور على إنريكي حيًّا. وبإلحاح من أختها، قرَّرت المجازفة بالتعرُّض للانتقام، واتَّصلت بأحد أصدقائها في النيابة الأسقفيَّة، وهو كاهن بلجيكي، جاء على درَّاجته الناريَّة بعد ساعة من ذلك، وكان مزوَّدًا بآلة تصوير فوتوغرافيَّة.

ـ ألديكِ فكرة عمَّن يمكن أن يكون هذا الفتى المسكين يا لينا؟

ـ إنَّه ليس ابني، هذا هو ما يمكنني قوله يا أبتاه.

«فلنقارن صورته مع الصور التي في أرشيفنا لنرى إن كان في استطاعتنا تحديد هويَّته وإبلاغ أسرته»، ردّ الكاهن.

«سوف أقوم، في هذه الأثناء، بدفنه كما يجب، لأنَّهم أمروني بذلك، ولا أريدهم أن يأتوا وينتزعوه منِّي»، قرَّرت لينا.

ـ هل أستطيع مساعدتك في هذا الأمر يا لينا؟

ـ أشكرك، أستطيع تدبُّر الأمر وحدي. يمكن حاليًّا لهذا الشابّ أن يرقد في كوَّة إلى جانب زوجي في المقبرة الكاثوليكيَّة. وعندما تجد حضرتك أسرته نستطيع نقله إلى حيث يرغب أفرادها.

لم تتطابق الصورة التي التقطوها ذلك اليوم مع أيّ واحدة من

الصور الموجودة في أرشيف النيابة الأسقفيَّة. يمكن لذلك الشابّ، كما قالوا للينا، ألّا يكون تشيليًّا، ويمكن أن يكون قد جاء من بلد آخر، ربَّما من الأرجنتين أو من أوروغواي. ففي عمليَّة الكندور التي وحَّدت أجهزة مخابرات وقمع دكتاتوريَّات كل من تشيلي والأرجنتين وأوروغواي وباراغواي وبوليڤيا والبرازيل، وحصدت ستِّين ألف قتيل، كانت تحدث أحيانًا اختلاطات في نقل السجناء والجثامين والوثائق الشخصيَّة. وهكذا وُضعت صورة الشابّ المجهول على جدار مكتب النيابة الأسقفيَّة لعلّ أحدًا يتعرَّف إليه.

كان لا بدَّ من انقضاء عدَّة أسابيع قبل أن يخطر للينا أنَّه يمكن لذلك الشابّ الذي دفنته أن يكون الأخ غير الشقيق لإنريكي ولوثيا، أي ابن زوجها من الزوجة الأخرى. تحوَّل هذا الاحتمال إلى عذاب لم يعد يتركها في سلام. بدأت المساعي لتحديد مكان المرأة التي رفضت أن تقابلها قبل سنوات، وأحسَّت بالندم حتى العظم لأنَّها أساءت معاملتها على ذلك النحو، ولأنَّها لم تكن هي وطفلها مذنبَين، فقد كانا ضحيَّتين مثلها هي للخديعة نفسها. توصَّلت إلى القناعة من خلال منطق اليأس، بأنَّ هناك أمًّا أخرى، في مكان ما، قد فتحت صندوقًا مختومًا فيه إنريكي. وآمنت بأنَّها إذا ما وجدت أمّ الشابّ الذي دفنته، فإنَّ إحداهنَّ ستبحث عنها هي بالذات، في المستقبل، لتقدِّم إليها الخبر اليقين عن ابنها. ولأنَّ جهودها وجهود النيابة الأسقفيَّة لم تكن مجدية، فقد تعاقدت مع تحرٍّ متخصِّص بالأشخاص المفقودين، كما هو وارد في بطاقته التعريفيَّة، ولكنَّه لم يستطع العثور على أثر لتلك المرأة وابنها. «لا بدَّ من أنَّها قد ذهبت إلى الخارج يا سيِّدتي. فهناك أُناس كثيرون، كما أرى، يريدون السفر في هذه

الأزمنة...»، قال لها التحرّي الخاصّ.

هرمت لينا بعد ذلك فجأة. تقاعدت من العمل في المصرف، حيث عملت لسنوات طويلة، واعتكفت في بيتها، ولم تعد تخرج إلّا للإلحاح على بحثها. كانت تذهب في بعض الأحيان إلى المقبرة وتقف أمام الكوّة التي فيها الشابّ المجهول لتروي له أحزانها وتطلب منه، إذا كان ابنها معه في تلك الأنحاء، أن يخبره بأنّها في حاجة إلى رسالة أو علامة منه كي تتوقّف عن البحث عنه. ومع مرور الوقت، توصّلت إلى ضمّ ذلك الشابّ إلى أسرتها، كروح مباشرة. وقد وفّرت لها المقبرةُ، بصمتها، ودروبها المكفهرّة وحمائمها غير المبالية، عزاءً وسلامًا. فهناك وضعت زوجها، ولكنّها لم تذهب لزيارته طوال تلك السنوات. والآن، بذريعة الصلاة من أجل الشابّ، صارت تصلّي من أجله أيضًا.

* * *

أمضت لوثيا ماراث سنوات منفاها في فانكوفر، وهي مدينة لطيفة ذات مناخ أفضل من مناخ مونتريال، وفيها استقرَّ المئات من منفيي المخروط الجنوبيّ، في جاليات منغلقة جدًا، حتى إنَّ بعضهم كان يعيش كمن لم يخرج قطّ من بلاده، من دون اختلاط مع الكنديّين بأكثر ممّا هو ضروريّ ولا بدَّ منه. لم تكن هذه حالَ لوثيا. فبالإصرار البطوليّ الذي ورثته عن أمّها، تعلّمت الإنكليزيّة التي صارت تتكلّمها بلكنة تشيليّة، ودرست الصحافة، وعملت في إعداد تقارير بحثيّة لمجلّات سياسيّة وللتلفزيون. تأقلمت مع البلاد، وعقدت صداقات، وتبنّت كلبة تُدعى أوليڤيا رافقتها أربعة عشر عامًا، واشترت شقّة صغيرة جدًا، لأنّها أفضل

من الإيجار. وإذا ما أحبّت، وهو ما حدث لها أكثر من مرّة، كانت تحلم بأن تتزوَّج وترسِّخ تجذّرها في كندا، ولكن ما إن تبرد عواطفها حتى يعاودها فجأة الحنين إلى تشيلي. فمكانها هناك، في جنوب الجنوب، في تلك البلاد المتطاولة والضيِّقة التي تستدعيها. وسوف تعود، إنَّها واثقة بذلك. لقد رجع عدد من المنفيِّين التشيليِّين، وهم يعيشون حياة هادئة من دون أن يزعجهم أحد، بل هي تعرف أنَّ حبّها الأوَّل، ذلك الفدائيّ الميلودراميّ ذا الشعر المزيَّت، قد رجع أيضًا إلى تشيلي بصورة سرِّيَّة، وهو يعمل في شركة تأمين من دون أن يتذكَّره أحد أو يعرف شيئًا عن ماضيه. ولكن، ربَّما تكون هي أقلّ حظًّا، لأنَّها شاركت، من دون هوادة، في الحملة الدوليَّة ضدَّ الحكومة العسكريَّة. لقد أقسمت لأمّها إنَّها لن تحاول العودة، لأنَّ احتمال تحوُّل ابنتها إلى ضحيَّة للقمع سيكون أمرًا لا يمكن للينا ماراث التسامح معه.

رحلات لينا إلى كندا صارت تتباعد، لكنَّ المراسَلة مع ابنتها تكثَّفت. بدأت الكتابة يوميًّا، وكانت لوثيا تفعل ذلك عدَّة مرَّات كلّ أسبوع. فكانت الرسائل تتقاطع في الجوّ كمحاورة طرشان، لكن أيًّا من الاثنتين لم تكن تنتظر الردّ لتكتب. تلك الغزارة في المراسلات كانت يوميَّة في الحياتين. إنَّها السجلّ اليوميّ. ومع مرور الوقت، صارت الرسائل أمرًا لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة إلى لوثيا. وما لم تكن تكتبه إلى أمِّها تعتبر كما لو أنَّه لم يحدث قطّ. . . مجرَّد حياة منسيَّة. وفي ذلك الحوار الرسائلي، إحداهما في فانكوفر والأخرى في سنتياغو دي تشيلي، طوَّرتا صداقة شديدة العمق، بحيث إنَّ كلاًّ منهما، عند عودة لوثيا إلى تشيلي، كانت تعرف الأخرى كما لو أنَّهما عاشتا معًا منذ الأزل.

قررت لينا، في واحدة من رحلاتها، وهي تتحدّث عن الشابّ الذي سلّموها جثّته بدلاً من إنريكي، أن تروي لابنتها الحقيقة عن أبيها، والتي أخفتها لسنوات طويلة.

«إذا لم يكن الشابّ الذي سلّموني إيّاه في ذلك التابوت أخاك من أبيك، فإنَّ لكِ في مكان ما أخًا في مثل عمرك تقريبًا، ويحمل كنيتك نفسها ودمَكِ نفسه»، قالت لها.

«ما اسمه؟»، سألتها لوثيا، متفاجئة بالخبر عن أنَّ أباها كان متزوِّجًا من امرأتين، بحيث لم يكد صوتها يخرج.

- اسمه إنريكي باراث، مثل أبيك وأخيك. لقد حاولتُ العثور عليه يا لوثيا، ولكنّه هو وأمّه تبخَّرا. إنّنا في حاجة إلى أن نعرف إن كان ذلك الشابّ الذي في المقبرة ابنَ أبيكِ من تلك المرأة الأخرى.

- ليس مهمًّا يا أمّاه. إمكانيّة أن يكون أخي غيرَ الشقيق معدومة، فهذه الأمور لا تحدث إلَّا في الروايات التلفزيونيَّة. المؤكَّد أكثر هو ما قالوه لكِ في النيابة الأسقفيَّة عن أنَّ هناك اختلاطًا في هويّات الضحايا. لا تلقي على كاهلك عبءَ البحث عن ذلك الشابّ. فأنتِ منذ سنوات مهووسةٌ بمصير إنريكي. تقبَّلي الحقيقة، مهما تكن مروِّعة، قبل أن تُصابي بالجنون.

- إنَّني عاقلة تمامًا يا لوثيا. أتقبَّل موت أخيك عندما يتوفَّر لي دليل ما، وليس قبل ذلك، في أيِّ حال.

اعترفت لوثيا بأنَّها في الطفولة لم تصدِّق، هي وإنريكي، بصورة كاملة، روايةَ حادثة موت الأب المحاطة بغموض كثير له وقعُ الخيال. كيف سيصدِّقان ذلك إذا كانا لم يريا أيَّ مظاهر حداد ولم يزورا قبرًا،

وكان عليهما أن يقنعا بشرح مقتضب وبصمت حذر. كانا يحاولان اختلاق روايات بديلة مفادها: أنَّ الأب حيّ في مكان آخر؛ أو أنّه ارتكب جريمة وهو هارب من العدالة؛ أو أنَّه يصطاد تماسيح في أستراليا. وكان أيُّ تفسير أكثر عقلانيَّة من الرواية الرسميَّة: لقد مات وانتهى الأمر، ولا تطرحوا المزيد من الأسئلة.

ـ كنتما صغيرين جدًّا يا لوثيا، لا يمكنكما فهم نهائيَّة الموت. وكان واجبي أن أحميكما من ذلك الألم. وبدا لي أنَّ من الأسلم لكما نسيانَ الأب. ارتكبت خطيئة التكبُّر. أعرف ذلك. قرَّرت أن أحلَّ محلَّه، أن أكون أبًا وأمًّا لابنَيّ.

ـ لقد فعلتِ ذلك على أحسن وجه يا أمَّاه، ولكنَّني أتساءل عمّ إذا كنتِ ستتصرَّفين بهذه الطريقة لو لم يكن متزوِّجًا بامرأتين.

ـ بالتأكيد لا، يا لوثيا. ربَّما كنتُ في هذه الحالة سأحوِّله إلى شخصيَّة مثاليَّة. لقد كان يحرِّكني الحقد أكثر من أيِّ شيء آخر، وكذلك العارُ. ولم أشأ تلويثكما بقبح ما حدث. ولهذا، لم أحدِّثكما عنه فيما بعد، عندما صرتما في سنِّ الإدراك والتفهُّم. أعرف أنَّكما كنتما تفتقدان الأب.

ـ أقلّ ممَّا تتصوَّرين يا أمَّاه. والصحيح أنَّه كان من الأفضل أن يكون لنا أب، ولكنَّك تدبَّرتِ الأمر بأفضل ما يمكن لتربيتنا.

ـ افتقاد الأب يترك فجوة في قلب المرأة يا لوثيا. فأيّ طفلة في حاجة إلى الشعور بالحماية، وفي حاجة إلى طاقة ذكوريَّة لتطوير ثقتها بالرجال، على نحو يتيح لها فيما بعد تقبُّل الحبّ. ما هي النسخة الأنثويَّة من عقدة أوديب؟ أهي إليكترا؟ أنت لم تحصلي عليها. وهذا

ما يبرِّر كونك شديدة الاستقلاليَّة وتمضين متنقِّلة من حبٍّ إلى آخر، باحثة على الدوام عَن أمان الأب.

«أرجوكِ يا عجوزي! ما هذا كلّه إلَّا مجرَّد هذر فرويديّ. لست أبحث عن أبي في عشَّاقي. ولستُ في الوقت نفسه ممَّن يقفزنَ من فراش إلى آخر. إنَّني أحاديَّة الزواج في سلسلة متتالية، وغراميَّاتي تدوم طويلًا، اللهمَّ إلَّا إذا كان الشخص أبلهَ لا خلاص له»، قالت لونيا، وانفجرتا في الضحك، مفكِّرتين في الفدائيّ المهجور في مونتريال.

لوثيا وريتشارد

بروكلين

ربطوا من جديد غطاء صندوق السيَّارة، بعد تعرُّف إيفيلين أورتيغا إلى كاترين براون، ورجعوا في رتل في اتِّجاه البيت. تناول ريتشارد الرفش، في انتهاز لفرصة وجودهم خارج المنزل، وأزاح الثلج من أمام باب القبو، ريثما تأتي لوثيا ببقايا «الكاثويلّا»، وطعام مارسيلو وأدوات نظافتها. تقاسموا في مطبخ ريتشارد الحساء اللذيذ، ثم أعدّوا إبريق قهوة آخر. وكرَّر ريتشارد، في سهوه من كثرة المفاجآت، ملء طبقه بالحساء، على الرَّغم من أنَّ قطعًا من لحم البقر كانت تطفو فيه بين قطع البطاطا والفاصوليا الخضراء والقرع. كان قد توصَّل إلى التحكُّم في عضَّات جهازه الهضميّ باتِّباعه حِمْيَةً منضبطة. لم يكن يتذوَّق الغلوتين، وكانت لديه حساسيَّة من اللكتوز، ويمتنع من شرب الكحول لسبب أهمّ كثيرًا من قرحة معدته. مَثَلُه الأعلى التغذِّي على النباتات، لكنَّه في حاجة إلى البروتينات، لهذا أضاف إلى طعامه بعض المنتوجات البحريَّة الخالية من الزئبق، وستَّ بيضات عضويَّة، ومئة غرام من الجبن القاسي كلَّ أسبوع. يلتزم خطَّة الأيام الخمسة عشر،

بقائمتي طعام ثابتتين شهريًا، وهكذا يشتري ما يحتاج إليه بالترتيب المقرَّر مسبقًا كيلا يتلف لديه أيُّ شيء. يرتجل، في أيّام الآحاد، من العروض الطازجة التي تقدِّمها السوق، وهذا أحد تحليقات المخيِّلة التي يسمح بها لنفسه. لا يقرب لحمَ الثدييات بسبب قراره الأخلاقيّ عدم أكل حيوانات ليس مستعدًّا لقتلها، ولا دواجن بسبب رعبه من المداجن الصناعيَّة. يحبّ أن يطبخ أحيانًا، فإذا ما خرج معه طبق لذيذ بصورة مميَّزة، يتخيَّل تقاسمه مع أحدهم، مثل لونيا ماراث مثلًا، إذ تبيَّن أنَّها أكثر أهمِّيَّة من مستأجري القبو السابقين. إنَّه يفكِّر فيها أكثر فأكثر في معظم الأحيان، وهو سعيد بوجودها في بيته، حتى لو كان ذلك بذريعة غير معقولة وفَّرتها لهما إيفيلين أورتيغا. الحقيقة أنَّه سعيد أكثر ممَّا يمكن أن تسمح به الظروف، إذ هنالك شيء غريب يحدث له، وعليه أن يكون حذرًا.

«مَن هي كاترين؟» توجَّه ريتشارد بالسؤال إلى إيفيلين.

- إنَّها مَن تقدِّم علاج كينسول إلى فرانكي. تتولَّى علاجه يومي الاثنين والخميس كلّ أسبوع. وقد علَّمتني كيف أُجري بعض التمارين للطفل.

- هذا يعني أنَّها شخص معروف في ذلك البيت. ما هو اسم ربَّي عملك؟

- شيريل وفرانك ليرُوي.

- يبدو أنَّ فرانك ليرُوي هو المسؤول عن...

«لماذا تفترض ذلك يا ريتشارد؟ يجب ألَّا نعتبر أيّ شيء مؤكَّدًا قبل أن تتوافر الأدلَّة»، تدخَّلت لونيا.

ـ لو أنَّ تلك المرأة ماتت موتًا طبيعيًا لما كانت داخل صندوق سيّارة فرانك ليرُوي.

ـ يمكن أن يكون حادثًا.

ـ هذا يعني أن تكون أدخلت رأسَها في صندوق السيَّارة، مثلًا، ثم تدثَّرت بالبساط، وعندئذ انغلق عليها الباب، فماتت من الجوع ولم ينتبه إليها أحد. إنَّه احتمال ضعيف جدًّا. هنالك مَن قتلها، لا مجال للشكّ يا لوثيا، وكان يخطِّط للتخلُّص من الجثَّة عندما يزول الثلج. ولا بد من أنَّه يتساءل الآن عن أيِّ شياطين قد جرت لسيَّارته والجثَّة.

«فلنرَ يا إيفيلين، فكِّري قليلًا... كيف تظنِّين أنَّ هذه الشابَّة قد انتهت إلى صندوق السيَّارة؟» سألتها لوثيا.

ـ لا أدري، لا أدري...

ـ متى رأيتها آخر مرَّة؟

«إنَّها تأتي يومي الاثنين والخميس»، كرَّرت الفتاة.

ـ الخميس الماضي؟

ـ أجل، وصلت الساعة الثامنة صباحًا، لكنَّها انصرفت فورًا تقريبًا لأنَّ اضطرابًا حدث في الغلوكوز لدى فرانكي. وكانت السيِّدة غاضبة غضبًا شديدًا. فطلبت من كاترين أن تنصرف ولا ترجع.

ـ تجادلتا؟

ـ أجل.

ـ ماذا كان لدى السيِّدة ليرُوي ضدَّ المرأة؟

ـ قالت إنَّها وقحة ومبتذلة.

ـ أقالت لها ذلك في وجهها؟

ـ كانت تقوله لي، ولزوجها.

* * *

أخبرتهما إيفيلين بأنَّ كاترين براون أمضت عامًا وهي تعالج فرانكي. وكانت علاقتها سيِّئة منذ البدء مع شيريل ليرُوي، فهي تعتبرها متهتِّكة، لأنَّها تأتي إلى العمل ببلوزات مفتوحة جدًّا تكشف عن نصف نهديها. وكانت تقول عنها إنَّها وقحة لها عادات رقيب فصيلة؛ كما أنَّها لم تكن تلحظ أيّ تقدُّم في حالة فرانكي. وقد أعطت تعليمات لإيفيلين بالبقاء حاضرة دومًا في أثناء عمل كاترين براون مع الطفل، وإخبارها فورًا إذا ما لاحظت أيّ تعسُّف. لم تكن تثق بها، وتعتقد أنَّها فظَّة جدًّا في التمارين البدنيَّة. أرادت طردها في مناسبتين، لكن زوجها عارض ذلك، مثلما كان يعارض كلّ مبادراتها. وهو يرى أنَّ فرانكي طفل مدلَّل، وأنَّ شيريل تغار من المُعالِجة لأنَّها شابَّة وجميلة، هذا هو كلّ شيء. وكانت كاترين براون تتكلَّم بدورها بالسوء على السيِّدة في غيابها؛ تقول إنَّها تعامل ابنها كطفل رضيع، وإنَّ الأطفال في حاجة إلى أن تُفرَض عليهم سُلطة، وعلى فرانكي أن يأكل بنفسه. فما دام قادرًا على استخدام الحاسوب، فلا بدَّ من أنَّ في استطاعته الإمساك بملعقة، وتفريش أسنانه. لكن، كيف يمكن له أن يتعلَّم مع هذه الأمّ الكُحوليَّة ومتعاطية المخدّرات، والتي تمضي اليوم كلّه في نادٍ رياضيّ، كما لو أنَّها ستتمكَّن بذلك من وقف تقدُّم الشيخوخة. فزوجها سيتركها، وهذا مؤكَّد.

تلقَّت إيفيلين بوح الاثنتين بذهن محايد، من دون أن تكرِّر شيئًا منه. كانت جدَّتها تفرك فم أخويها بصابون الصودا الكاوية حين يتلفَّظان بكلمات بذيئة، وتفعل لها ذلك إذا ما نقلت نميمة. كانت إيفيلين تعلم بمشاجرات ربَّي عملها، لأنَّ الجدران في ذلك البيت لا تحفظ أسرارًا. وكان فرانك ليرُوي شديد البرود مع الموظَّفين ومع ابنه، بل إنَّه شديد التحكُّم في نفسه حين يعاني الصغير نوبة غيظ، ولكنَّه يفقد السيطرة على نفسه مع امرأته لأدنى سبب. كانت شيريل، في يوم الخميس ذاك، متضايقة من تدنِّي نسبة الغلوكوز عند فرانكي، وارتابت في أنَّ السبب هو العلاج الفيزيائيّ، فتحدَّت أوامر زوجها.

«كان السيِّد ليرُوي، في بعض الأحيان، يهدِّد السيِّدة»، قالت لهما إيفيلين، وأضافت: لقد وضع ذات يوم مسدَّسًا في فمها. لم أكن أتجسَّس عليهما، أقسم على ذلك. كان الباب مواربًا. وقال إنَّه سيقتلها هي وفرانكي.

«أكان يضرب زوجته؟ أو فرانكي؟» سألتها لوثيا.

- لم يكن يتدخَّل مع الطفل، لكن فرانكي يعرف أنَّ أباه لا يحبّه.

- لم تردِّي على سؤالي عمَّا إذا كان يضرب زوجته.

كانت تظهر، في بعض الأحيان، آثارُ كدمات على جسدها، لكن ليس على وجهها في أيِّ حال، فتقول إنَّها وقعت.

- وهل كنتِ تصدِّقينها؟

- قد تقع بسبب تناولها الحبوب أو بسبب شربها الويسكي، ويكون عليّ عندئذ أن أرفعها عن الأرض وأقتادها إلى الفراش. ولكن

آثار الضرب هي من مشاجراتها مع السيِّد ليرُوي. أشعر بالحزن على السيِّدة، إنَّها غير سعيدة أبدًا.

ـ وكيف ستكون سعيدة مع ذلك الزوج وذلك الابن. . .

ـ إنَّها تعبد فرانكي. تقول إنَّه من خلال المحبَّة وإعادة التأهيل سوف يتحسَّن.

«هذا محال»، قال ريتشارد مدمدمًا.

ـ فرانكي هو سعادة السيِّدة الوحيدة، على حدِّ علمي. يحبّ كلٌّ منهما الآخر! لو أنَّكما تريان كم يكون فرانكي سعيدًا عندما تكون أمّه معه. يمضيان ساعات في اللعب. وفي ليال كثيرة تنام السيِّدة معه.

«لا بد من أنَّها تعيش مغمومة بسبب حالة ابنها الصحِّيَّة»، علَّقت لوثيا.

«أجل، فرانكي ضعيف جدًا. هل يمكننا الاتِّصال مجدَّدًا بالبيت؟» سألت إيفيلين.

«لا يا إيفيلين. ستكون مجازفة كبيرة. لقد عرفنا أنَّ أمّه كانت معه في الليل. هذا يفترض أنَّها ستتولَّى هي نفسها مسؤوليَّته في أثناء غيابك. فلنرجع إلى المشكلة الملحَّة، علينا التخلُّص من الأدلَّة»، ذكَّرتهما لوثيا.

وافق ريتشارد بسرعة جعلته يتفاجأ فيما بعد من تقلُّبه ذاك. فعند التفكير في الأمر جيِّدًا، يتبيَّن أنَّه يخشى، ربَّما منذ سنوات، أيَّ تبدُّل يمكن أن يزعزع أمنه. وعلى الرَّغم من أنَّ الأمر لم يكن خوفًا، وإنَّما تحسُّبًا واحتياطًا، فربَّما كان يكتم رغبة خفيَّة في أنَّ تدخُّلًا إلهيًّا سيكسر

نمط حياته المضبوط والرتيب. وقد كانت إيفيلين أورتيغا، مع الجثّة التي جاءت بها، ردًّا جذريًّا على تلك الرغبة الكامنة. عليه أن يتّصل بابيه، لأنّه لن يستطيع أن يُخرجه اليوم من دار رعاية المسنّين ليتناولا الغداء معًا، مثلما يفعل كلّ يوم أحد. وراودته خلال لحظةِ الرغبةُ في أن يُخبره بما سيفعله؛ ومن المؤكّد أنّ جوزيف العجوز سيصفّق له بقوّة من كرسيّه ذي العجلات. سوف يخبره بالأمر فيما بعد، وجهًا لوجه، كي يرى ملامح الحماسة التي ستظهر عليه. لقد وافق، في أيّ حال، على حجج لوثيا مع قَدْر ضئيل من التمنّع، ثم ذهب للبحث عن خريطة وعدسة مكبّرة. فكرة التخلُّص من الجثّة التي رفضها بكلّ صراحة قبل قليل، بدت له فجأة أمرًا لا بدّ منه، والحلّ المنطقيّ الوحيد لمشكلةٍ بدت له فجأة أيضًا أنّها مشكلته.

* * *

تذكّر ريتشارد، وهم يتفحّصون الخريطة، البحيرةَ، حيث كان يذهب مع هوراسيو آمادو ـ كاسترو، وحيث لم يذهب في السنتين الأخيرتين. كان لصديقة بيتٌ ريفيٌّ هناك، اعتاد أن يُقيم به صيفًا مع أسرته قبل انتقاله إلى الأرجنتين، ويذهب معه هو نفسه، كلاهما فقط، في عزّ الشتاء، عند ذهابهما لصيد السمك بفتح ثقب في الجليد. كانا يتجنّبان الأمكنة التي يرتادها الآخرون، حيث تجتمع مئات المقطورات فيما يشبه مهرجانات شعبيّة صاخبة. فصيد السمك في نظرهما رياضة تأمُّليّة، وفرصة خاصّة للصمت والوحدة، ولتمتين صداقة مستمرّة منذ ما يقارب الأربعين عامًا. كان الوصول إلى ذلك الجزء من البحيرة صعبًا ولا يجتذب فِرق الرحلات الشتويّة. وقد اعتادا على التوغُّل في سيّارة لاندروفر على سطح البحيرة المتجمّد ومعهما ما يحتاجان إليه من

الأدوات الضروريّة لقضاء اليوم، فكانا يأخذان معهما: منشارًا وأدواتٍ أخرى من أجل ثقب الجليد، وقصباتٍ وسنانيرَ الصيد، وبطّاريّاتٍ، ومصباحًا، ومدفأةَ كيروسين، ووقودًا وموادَّ تموينيّة. يُحدثان ثقوبًا في السطح ويصطادان بصبر غير متناهٍ أسماك تروويت تافهة، لا تعدو أن تكون بعد شيِّها أكثرَ من جلد وهيكل عظميّ. لقد رجع هوراسيو إلى الأرجنتين عند وفاة أبيه، وكان يفكّر في العودة بعد أسابيع، لكن وقتًا طويلًا قد انقضى وما زال مشغولًا بأعمال العائلة وتجارتها، ولم يعد يزور الولايات المتّحدة سوى مرّتين في السنة.

كان ريتشارد يشتاق إليه، ويتولّى في أثناء غيابه مسؤوليّة شؤونه: لديه مفتاح لبيته الريفيّ في البحيرة، وهو بيت يبقى شاغرًا، ويستخدم سيّارته السوبارو ليغاسي، وفيها أدوات تزلُّج ودرّاجة هوائيّة، يرفض هوراسيو أن يبيعها. كان ريتشارد قد دخل جامعة نيويورك بإلحاح من هوراسيو؛ وعمل أستاذًا مساعدًا خلال ثلاث سنوات وأستاذًا مشاركًا لثلاث سنوات أخرى. ثم وافق على تولّي أستاذيّة الكرسيّ بالثقة التي يتطلّبها ذلك. وعندما ترك هوراسيو منصبه كمدير، حلّ هو محلّه. وقد اشترى منه أيضًا البيت في بروكلين بسعر بخس جدًّا. ولهذا كلّه، اعتاد أن يقول إنَّ الطريقة الوحيدة ليردّ إلى صديقه كلَّ ما هو مدين له به، لا بدَّ من أن تكون بالتبرُّع له برئتيه لتُزرعا في صدره. لأنَّ هوراسيو يدخّن السجائر بكثرة، مثل أبيه وأخيه، وهو دائم السعال.

«توجد في تلك المنطقة غاباتٌ لا يمكن ولوجها. لا أحد يدخل هناك في الشتاء، وأشكُّ في أنَّ أحدًا يدخلها في الصيف كذلك»، أوضح ريتشارد للوثيا.

ـ كيف سنرتّب الأمر؟ سيكون علينا أن نستأجر سيّارة للعودة.

ـ هذا يعني أنّنا سنترك أثرًا. لا يمكن لنا أن نلفت الانتباه. سنأخذ سيّارة السوبارو من أجل العودة. من الممكن الذهاب والرجوع في يوم واحد، ولكن في هذه الأجواء المناخيّة سنحتاج إلى يومين.

ـ وماذا عن القطط؟

ـ سأترك لها طعامًا وماءً. إنّها معتادة على البقاء وحدها بضعة أيّام.

ـ قد تحدث أمور طارئة.

«كأن ينتهي بنا الأمر إلى الاعتقال، أو أن يقوم فرانك ليبرُوي بقتلنا؟» سألها ريتشارد بابتسامة مستترة. وأضاف: في هذه الحالة ستتولّى جارتي مسؤوليّة القطط.

«علينا أن نأخذ مارسيلو معنا»، قالت لوثيا.

ـ ولا في أيِّ حال!

ـ وماذا تريدني أن أفعل به؟

ـ سنتركه عند جارتي.

ـ الكلاب ليست مثل القطط يا رجل. إنّها تعاني جزع الفراق. يجب أن يذهب معنا.

ردّ عليها ريتشارد بحركة مسرحيّة. إنّه يجد صعوبة في فهم التبعيّة البشريّة للحيوانات بصورة عامّة، وهذه الصعوبة أكبر في حالة ذلك الكلب الشيهواهوا المشوّه. إنّ هررته مستقلّة ويمكن له الذهاب في رحلات تستمرّ أسابيع؛ ويكون متأكّدًا من أنّها لن تفتقده أو تشتاق

إليه. والهرَّة الوحيدة التي تستقبله بمحبَّة عند عودته هي «دويس»، أمَّا القطط الأخرى فلا تنتبه لغيابه.

لحقت به لوثيا إلى إحدى الغرف الخاوية في الطابق الأوَّل، حيث توجد أدواته ومنضدة نجارته. كان ذلك آخر ما تتوقَّعه منه؛ إذ كانت تفترض أنَّه عاجز عن دقِّ مسمار، مثل جميع رجال حياتها، لكن تبيَّن بجلاء أنَّ ريتشارد يستمتع بالأعمال اليدويَّة. كانت أدوات النجارة مرتَّبة على ألواح من فلِّين مثبَّتة على الجدار؛ وكان قد خطّ محيط كلّ أداة منها بطبشور على الفلِّين كي ينتبه فورًا لغياب أيّ أداة منها. وكان الترتيب صارمًا مثل الطريقة التي تعلَّمت بها لوثيا ترتيب المؤن، إذ لكلّ مادَّة مكانُها المحدَّد. الفوضى الوحيدة في هذا البيت هي فوضى الأوراق والكتب التي تملأ الصالة والمطبخ، وربَّما تكون كذلك في المظهر فقط، بينما هي في الحقيقة مصنَّفة وفق نظام سرِّي لا يفهمه أحد سوى ريتشارد. وانتهت إلى أنَّه لا بدَّ لهذا الرجل من أن يكون من برج العذراء.

* * *

رجعوا إلى الشارع، بعد النشاط الذي منحهم إيَّاه حساء الكاثويلَّا التشيلي، فشرع ريتشارد يتفحَّص لعدَّة دقائق قفلَ صندوق السيَّارة المعطَّل، بينما لوثيا تحميه، بمظلَّة سوداء، من الثلج المتساقط ببطء. حسم الأمر قائلًا: «لا يمكنني إصلاح هذا القفل، سأثبّت غطاء الصندوق بسلك». كانت يداه زرقاوين وأصابعه متيبِّسة من البرد، تحت القفَّازين البلاستيكيين الطبِّيِّين اللذين وضع يديه فيهما كيلا يترك آثارًا، ولكنَّه يعمل بدقَّة طبيب جرَّاح. وبعد خمس وعشرين دقيقة من العمل،

كان قد طلى بالأحمر مصباح التوقُّف الخلفيّ، لأنّ غطاءه البلاستيكيّ قد كُسر عند الاصطدام، وأنهى ربط الصندوق ببراعة جعلت السلك غير مرئيّ. رجعا إلى البيت وهما يرتجفان من البرد، حيث كانت تنتظرهما القهوة التي ما زالت ساخنة.

«سيتحمَّل السلك الرحلة ولن يسبِّب لك مشاكل»، قال ريتشارد للوثيا.

ـ لي أنا؟ لا يا ريتشارد. أنت من سيقود سيَّارة اللكزس. فأنا خرقاء بعض الشيء، ولكنّني أصير أكثر طيشًا وأنا عصبيَّة. يمكن للشرطة أن توقفني.

ـ فلتفعل إيفيلين ذلك، إذًا. أنا سأتقدَّمكما بالسوبارو.

ـ إيفيلين بلا وثائق.

ـ ألا تحمل إجازة سياقة سيَّارة؟

ـ لقد سألتها. لديها إجازة باسم شخص آخر. وهي إجازة مزيَّفة بالطبع. لن نُعرِّض أنفسنا لمزيد من المجازفات غير الضروريَّة. أنت ستقود اللكزس يا ريتشارد.

ـ ولماذا أنا؟

ـ لأنَّك رجل أبيض. لن يطلب منك أيُّ شرطيّ الوثائق، حتى لو برزت قدم بشريَّة من صندوق السيَّارة. أمَّا وجود امرأتين لاتينيَّتين تقودان سيَّارة عبر الثلج، فستكونان مشبوهتين بصورة آليَّة.

ـ إذا كان الزوجان من آل ليرُوي قد تقدَّما بإخبارٍ عن اختفاء السيَّارة، فسوف نواجه مشاكل.

ـ ولماذا سيفعلان ذلك؟

ـ كي يتقاضيا بدل التأمين.

ـ كيف يخطر لك هذا يا ريتشارد؟ أحدهما هو القاتل، آخر ما يمكنه التفكير فيه هو التقدُّم بشكوى.

ـ وماذا عن ليرُوي الأخرى؟

ـ إنَّك تضعني دائمًا في أسوأ القضايا!

ـ لا يروق لي، في أيِّ حال، اجتيازُ ولاية نيويورك في سيَّارة مسروقة.

ـ وأنا مثلك أيضًا، لكن لا خيار لدينا.

ـ اسمعي يا لوثيا، هل فكَّرتِ في أنَّه يمكن أن تكون إيفيلين هي من قتلت تلك المرأة؟

ـ لا يا رينشارد، لم أفكِّر في هذا، لأنَّها فرضيَّة بلهاء. أتظنّ أنَّ هذه التعيسة قادرة على قتل ذبابة؟ وما الذي يجعلها تأتي إلى بيتك ومعها الضحيَّة؟

أراها رينشارد على الخريطة الطريقين المؤدِّيَيْن إلى البحيرة، أحدهما أقصر من الآخر، ولكنَّه طريق مطروق ويمكن أن تكون فيه نقاط مراقبة، والآخر فيه منعطفات كثيرة وهو أقلّ استخدامًا. اختارا الطريق الثاني على أمل أن تكون كاسحات الجليد قد نظَّفته.

إيفيلين

المكسيك

المهرِّب المكسيكي بيرتو كابريرا الذي تمَّ الاتِّفاق معه من أجل أخذ إيفيلين أورتيغا إلى الشمال، حدَّد موعدًا للقاء مع زبائنه في المخبز، الساعة الثامنة صباحًا. وعندما اكتمل عدد الجماعة، وقفوا في دائرة متراصَّة وهم يمسكون بأيدي بعضهم بعضًا، وتلا المهرِّب دعاءً. «إنَّنا نحن، حجَّاجَ كنيسة بلا حدود. نتوسَّل إليك أيُّها الربّ، من أجل أن تمكِّننا من السفر بحمايتك الإلٰهيَّة ضدَّ اللصوص وحرَّاس الشرطة على السواء. نطلب منك هذا باسم ابنك، يسوع الناصريّ. ولتكن هذه مشيئتك». قال جميع المسافرين «آمين»، باستثناء إيفيلين التي واصلت البكاء بلا صوت. «احفظي دموعك هذه يا بيلار سارافيا، لأنَّك ستحتاجين إليها أكثر فيما بعد»، نصحها كابريرا، ثم سلَّم كلَّ واحد منهم تذكرةَ ركوب بالحافلة، وحظر عليهم تبادل النظرات أو الكلام فيما بينهم، أو إقامة صداقة وتعارف مع مسافرين آخرين أو الجلوس إلى جانب النافذة، فهذا أوَّل ما يفعله المبتدئون، فينتبه الحرَّاس إليهم. «وأنت أيَّتها الصغيرة، ستأتين معي، سأكون منذ

الآن خالك. ستظلّين صامتة، وبملامح البلاهة هذه التي لك، وهكذا لن يرتاب بك أحد. مفهوم؟» هزَّت إيڤيلين رأسها بصمت.

سيَّارة شاحنة صغيرة مخصَّصة لتوزيع الخبز، تابعة للمخبز، أوصلتهم إلى النقطة الأولى من الرحلة، إلى تيكون أومان، المدينة الحدوديَّة الغواتيماليَّة التي يفصلها عن المكسيك نهرُ سوشياتي. عبر النهر، ومن خلال الجسر الذي يصل بين ضفَّتيه، تجري على الدوام عمليَّات تهريب بشر وسلع. إنَّها حدود نفوذه. يحاول الشرطيُّون الاتحاديُّون المكسيكيُّون، من دون اهتمام وغيرة كبيرين، أن يمنعوا تهريب المخدّرات والأسلحة وغيرها، لكنَّهم يتجاهلون المهاجرين، ما داموا لا يلفتون الانتباه بشدَّة. ولإحساسها بالذعر من الجموع المتزاحمة، ومن فوضى الدرَّاجات الهوائيَّة والدرَّاجات ثلاثيَّة العجلات، ومن صخب الدرَّاجات الناريَّة، تشبَّثت إيڤيلين بذراع المهرِّب الذي طلب من الآخرين الذهاب متفرّقين إلى فندق سربانتس. صعد هو وإيڤيلين إلى إحدى عربات «التاكسي» المحلِّيَّة، وهي درَّاجة تتَّصل بها مقطورة صغيرة مغطَّاة بمظلَّة قماشيَّة للركَّاب، وتُعتبر وسيلة النقل الأكثر استخدامًا في تلك الأنحاء، وسرعان ما اجتمعا مع بقيَّة أفراد الجماعة في فندق بائس للعابرين، وأمضوا هناك تلك الليلة.

أخذهم بيرتو كابريرا، في اليوم التالي إلى النهر، حيث تصطفّ زوارق وأطواف، كلُّ طوف منها مؤلَّف من إطاري عجلتي شاحنة وبضعة ألواح خشبيَّة. وهكذا ينقلون بضائع من كلّ نوع، وحيوانات ومسافرين. استأجر كابريرا طوفين يجرُّ كلًّا منهما شابٌّ يافع بحبل مربوط إلى خصره، بينما يتولّى شابٌّ آخر، من فوق الطوف، توجيه المسار مستعينًا بعصًا طويلة جدًّا. صاروا في الجانب المكسيكيّ خلال

أقلّ من عشر دقائق، وركبوا من هناك حافلة أوصلتهم إلى مركز مدينة تَباتشولا.

أوضح كابريرا لزبائنه أنَّهم صاروا في ولاية تشياباس، أخطر منطقة على المسافرين الذين لا يعتمدون على حماية وسيط، لأنَّهم تحت رحمة قطّاع الطرق واللصوص وذوي الزيّ الشرطيّ والذين يمكن لهم أن يستولوا على ممتلكاتهم، ابتداء من النقود وحتى الأحذية الرياضيَّة. وهم أناس من المحال مغافلتهم، لأنَّهم يعرفون كلّ المخابئ المحتملة، حتى إنَّهم يفتِّشون الثقوب الحميمة الخاصَّة في أجساد الأشخاص. أمَّا بشأن ابتزاز رجال الشرطة، فالذي لا يستطيع الدفع سينتهي به الأمر إلى السجن، يتلقَّى ضربًا مبرّحًا، وتجري إعادته إلى بلده. ويتمثَّل الخطر الأكبر في «المادرينات»، قال المهرِّب، وهؤلاء مدنيُّون متطوّعون، وبحجَّة أنَّهم يساعدون السلطات، يقومون بأعمال اغتصاب وتعذيب. إنَّهم جماعة من المتوحِّشين. ففي ولاية تشياباس تختفي آثار أُناس. يجب عدم الوثوق بأحد، لا بالمدنيِّين ولا بالسلطات.

مرُّوا قبالة مقبرة، حيث تسود عزلة الموت وصمتُه، لكنْ، سُمع وسط ذلك الصمت، بصورة مفاجئة، لهاثُ قطار يتأهَّب للانطلاق؛ وضجَّ المكان فجأة بالحياة، بقدوم عشرات المهاجرين، كانوا ينتظرون مختبئين. راشدون وأطفال، ظهروا من بين القبور والشجيرات، واندفعوا راكضين مجتازين قناة مجرور، ومتقافزين فوق صخور تظهر بارزة وسط المياه القذرة، ويتَّجهون نحو عربات القطار. أوضح لهم بيترو كابريرا أنَّهم يُطلقون على القطار تسمية «الدابَّة»، و«الدودة الحديديَّة»، أو «قطار الموت»، وعليهم أن يستبدلوا ثلاثين قطارًا أو

أكثر كي يجتازوا المكسيك كلّها، من الجنوب إلى الشمال.

«لن أُخبركم بعدد من يسقطون وتدوسهم العجلات»، نبَّههم كابربرا. وأضاف: ابنة عمّي، أولغا سانتشيث، حوَّلت معمل عجّة مهجورًا إلى ملجأ لأشخاص يحملونهم إليها بأذرع أو سيقان بترها القطار. وقد أنقذت حيوات كثيرة في ذلك المكان الذي سمَّته «ملجأ يسوع الراعي الطيِّب». ابنة عمّي أولغا امرأة قدِّيسة. إذا ما توافر لنا الوقت، فسنمرُّ لزيارتها. أنتم مسافرون مترفون، لن تسافروا متعلِّقين بالقطارات، ولكنَّنا لا نستطيع هنا ركوب الأوتوبيس أيضًا. أترون أولئك الأشخاص الذين معهم كلاب ويتفحَّصون الوثائق والأمتعة؟ إنَّهم من الشرطة الفيدراليَّة. الكلاب مدرَّبة على شمِّ المخدِّرات ورائحة الخوف البشري.

* * *

اقتادهم المهرِّب إلى حيث يقف سائق شاحنة صديق. وبالاتِّفاق على سعر محدَّد، جعلهم يصعدون ويجلسون بين صناديق أجهزة كهربائيَّة منزليَّة. ففي أقصى الشاحنة، كان هناك حيِّز ضيِّق بين الحمولة، حيث استقرّ مسافروه متكوِّرين على أنفسهم. لا يمكن لهم أن يمدُّوا أرجلهم، ولا يجدون أين يضعون أقدامهم. يلفّهم الظلام، مع قليل من الهواء وسط حَرٍّ جهنَّمي، بينما تتعثَّر الشاحنة بصورة تهدِّد بسقوط الصناديق عليهم. أمَّا المهرِّب الذي يجلس مستريحًا في كابينة السائق، فقد نسي أن يخبرهم بأنَّهم سيبقون محبوسين هناك ساعات، لكنَّه نصحهم بأن يقتصدوا في تناول الماء وأن يحبسوا بولهم، لأنَّه لن يكون هناك أيّ توقُّف للراحة. تناوب الرجلان وإيڤيلين على التهوية

بقطعة كرتون لماريًا إينيس، وقدَّموا إليها جزءًا من حصَّتهم من الماء، لأنَّ عليها إرضاعَ طفلها.

نقلتهم الشاحنة بلا أيِّ حوادث حتى فورتين ديلاس فلوريس، في فيراكروث، حيث آواهم بيرتو كابريرا في بيت مهجور خارج المدينة، لكنَّه مزوَّد بعدَّة صفائح ماء، وخبز ومرتديلًا، وجبن مصنوع يدويًّا وبسكويت. «انتظروني هنا وسوف أعود سريعًا»، قال لهم، واختفى. وبعد يومين من ذلك، حين استنفدوا الطعام وما زالو بلا أخبار عن المهرِّب، انقسمت الجماعة ما بين الرجال المقتنعين بأنَّهم قد خُدعوا وتُركوا لمصيرهم، وبين ماريًا إينيس المؤيِّدة لفكرة إعطاء كابريرا مزيدًا من الوقت، ولاسيَّما أنَّ المبشِّرين أوصوا بالتعامل معه. أمَّا إيفيلين، فامتنعت من إبداء الرأي. أضف إلى ذلك أنَّ أحدًا لم يسألها عن رأيها. وخلال الأيَّام القليلة التي أمضوها في السفر معًا، تحوَّل الرجال الأربعة إلى حُماة للأمّ والطفل وللصبيَّة النحيلة غريبة الأطوار التي تبدو كأنَّها تعيش في القمر. كانوا يعرفون أنَّها ليست صمَّاء بكماء في الواقع، فقد سمعوها تقول بعض الكلمات المتفرِّقة، ولكنَّهم كانوا يحترمون صمتها، لأنَّه قد يكون نَذْرًا دينيًا أو أنَّه ملاذها الأخير. كانت المرأتان تأكلان أوَّلًا، وقد اختاروا لهما أفضل مكان لتناما فيه، في الغرفة الوحيدة التي ما زال لها سقف. وفي حين يقوم الرجال في الليل بتناوب الحراسة، وبينما يتولَّى أحدهم السهر، يستريح الآخرون.

* * *

خرج ثلاثة من الرجال، عند غروب اليوم الثاني، لشراء موادّ غذائيَّة، وللتعرّف إلى المنطقة، والتحرِّي عن كيفية مواصلة الرحلة من

دون كابريرا، بينما ظلّ الرجل الرابع لرعاية المرأتين. كان طفل ماريًا إينيس قد رفض ثدي أمّه منذ اليوم السابق، وبدا أنّه يجد صعوبة في التنفُّس من شدَّة البكاء والسعال. تعاطفت إيفلين مع غمّ أمّه العاجزة عن تهدئته، وتذكَّرت وسائل جدَّتها العلاجيَّة في حالات مشابهة؛ فبلَّلت بماء بارد قميصين داخليين ولفَّت بهما الطفل لخفض حرارته، بينما كانت ماريًّا إينيس تبكي وتتكلَّم على العودة إلى غواتيمالا. راحت إيفلين تتمشَّى بالطفل وهي تترنَّم بلحن مرتجل، بلا كلمات معروفة، وإنَّما بأصوات طيور وهبَّات ريح كانت لها القدرة على تنويم الصغير.

رجع الرجال الآخرون، في تلك الليلة، ومعهم سجق وأقراص عجَّة، وفاصوليا وأرز، وبيرةٌ للرجال ومياهٌ غازيَّة للنساء. شعروا بعد هذه المأدبة بأنَّهم أكثر حماسة، وبدأوا بوضع خطط لمواصلة الرحلة نحو الشمال. اكتشفوا وجود «بيوت مهاجرين» على امتداد الطريق، وأنَّ عددًا من الكنائس تُقدِّم إليهم المساعدة؛ كما أنَّهم يستطيعون الاعتماد على «جماعات بيتا»، وموظَّفي المؤسَّسة الوطنيَّة للهجرة الذين لا تتمثَّل مهمَّتهم في فرض القانون، وإنَّما مساعدة المسافرين بمعلومات إنسانيَّة، وإنقاذيَّة، واسعافات أوَّليَّة في حالات الحوادث. وأكثر ما هو مثير للفضول أنَّهم يفعلون ذلك كلّه مجَّانًا، ومن دون الحاجة إلى رشوتهم. هذا ما قاله الرجال الثلاثة. وهذا يعني أنَّهم ليسوا متروكين ومخذولين بصورة نهائيَّة. أحصوا الأموال المشتركة التي معهم جميعًا، وأبدوا استعدادهم لتقاسم كلّ شيء، وتعاهدوا على البقاء معًا.

تبيَّن لهم، في اليوم التالي، أنَّ الطفل قد استيقظ بشهيَّة مفتوحة، على الرَّغم من أنَّه ما زال يتنفَّس بصعوبة، وقرَّروا أنَّه عندما يخفّ الحرّ بعض الشيء سيبدأون المسير. لا مجال للتفكير في ركوب

حافلات، فأجورها غالية جدًا، لكنّهم يستطيعون طلب توصيلة مجّانيّة في شاحنات، ويمكنهم، كاحتمال أخير، أن يتسلّقوا فوق سطوح قطارات الشحن.

وصل بيرتو كابريرا وهو في حالة من السعادة العظيمة، عندما انتهوا من ترتيب مقتنياتهم وبقايا الطعام في جِعابهم، وكان يحمل أكياسًا، جاء بها في شاحنة صغيرة مستأجَرة. استقبلوه بوابل من اللوم والتأنيب، فتقبّل ذلك ومرّره بلطف، ثم بدأ يشرح لهم أنّه غيّر خططه الأساسية، لأنّ هنالك حراسة مشدّدة في الحافلات؛ كما أنّ بعض من اعتاد التعامل معهم قد أخلفوا اتّفاقهم معه. بكلمات أخرى، لا بدّ من تقديم إكراميّات جديدة. كان لديه معارف في نقاط المراقبة على الطريق، وكان يدفع إليهم مبلغًا محدّدًا عن كلّ مسافر؛ فيحتفظ قائدهم بنصف المبلغ لنفسه، ويُوزّع ما تبقّى على رجاله؛ وهكذا يخرج الجميع رابحين في تجارة النمال تلك. وهذه المناورة تتطلّب الحرص، لأنّه من الممكن أن تخرج لهم دوريّة متطلّبة وينتهي الأمر بإعادتهم إلى بلادهم، ومخاطر حدوث ذلك تكون أكبر حين يكون الشرطيّون غير معروفين.

كان يمكن لهم القيام بالرحلة حتى الحدود خلال يومين، لكنّ الحمى عادت إلى طفل ماريّا إينيس، فاضطرُوا إلى أخذه إلى مستشفى في سان لويس بوتوسي. وقفوا بالدّور، وحصلوا على رقم، وانتظروا ساعات في صالة مزدحمة بالمرضى إلى أن استدعوهم أخيرًا. وكانت حال الطفل، في أثناء ذلك، قد تردّت كثيرًا. قام بفحصه طبيب تحبط بعينيه زرقة إرهاق وملابسه مجعّدة، شخّص الحالة على أنّها سعال دِيكيّ، واستبقى الصغير في المستشفى مع إعطائه مضادّاتٍ حيويّةً. أثار

المهرِّب صخبًا ومشكلة، لأنَّ ذلك يُفسد خططه، لكنَّ الطبيب كان صارمًا: الطفل مُصاب بالتهاب حادّ جدًّا في المجاري التنفُّسيَّة. فلم يعد أمام كابريرا سوى التنازل والرضوخ. أكَّد للأمّ المحزونة أنّه سيعود لأخذها بعد أسبوع، وأنَّها لن تفقد نقود السلفة التي دفعتها مقدَّمًا. وافقت ماريًّا إينيس على ذلك وهي تبكي، لكنَّ أعضاء الفريق الباقين رفضوا مواصلة الرحلة من دونها. «نرجو من الله أوَّلًا ألَّا يذهب الطفل من بين أيدينا، ولكن إذا حدث ذلك، فسوف تحتاج ماريًّا إينيس إلى من يرافقها في المأتم». كان هذا قرار الجميع.

أمضوا ليلة في فندق سيِّئ جدًّا، ولكنَّ المهرِّب تذمَّر كثيرًا بسبب هذه النفقات الإضافيَّة التي تستدعي ذهابهم إلى النوم في فناء كنيسة، إلى جانب عشرات الآخرين من أمثالهم. وهناك يتلقَّون طبق طعام، ويمكنهم الاستحمام وغسل ملابسهم، ولكنَّهم يدفعونهم خارج الأبواب في الثامنة صباحًا، ولا يؤذن لهم بالعودة إلَّا بعد غياب الشمس. كان النهار يبدو طويلًا جدًّا وهم يتسكَّعون في المدينة، وفي حالة تأهُّب دائمة، واستعداد للانطلاق راكضين في أيِّ لحظة. حاول الرجال كسب بعض البيزوات بغسل السيَّارات أو تحميل موادّ بناء، من دون أن يلفتوا أنظار رجال الشرطة الذين كانوا يتجوّلون في كلِّ مكان. لأنَّ الغرينغيين، بحسب قول كابريرا، يمرِّرون ملايين الدولارات إلى الحكومة المكسيكيَّة لتقطع دابر المهاجرين قبل وصولهم إلى الحدود. ويجري في كلِّ سنة إبعاد أكثر من مئة ألف شخص من المكسيك فيما يُسمَّى «حافلة الدموع».

تولَّى كابريرا مسؤولية رعاية إيفيلين بإبقائها في مركبته، لأن صوتها إيفيلين لم يكن يخرج، ولو من أجل التسوُّل، كما أنَّه يمكن لها

أن تقع في يد أيّ قوّاد ممّن يصطادون الفتيات القاصرات الوحيدات.
كانت إيفيلين تنتظر صامتة وغير مرئيّة في الشاحنة الصغيرة، بينما هو يعقد صفقاته بالموبايل، ويسهر في أوكار وخيمة مع نساء للإيجار. ويرجع عند الفجر مترنّحًا وبعينين زائغتين، فيكتشف وجودها متكوّرة على نفسها ونائمة في المقعد، فيُدرك أنَّ البنت قد أمضت النهار والليل من دون أن تتناول طعامًا أو تشرب ماء. «كم أنا ابن عاهرة!»، كان يتلعثم، ويأخذها بحثًا عن مكان مفتوح حيث يمكن لها أن تذهب إلى الحمّام وأن تأكل حتى التخمة.

«الذنب ذنبك أنت أيّتها الجبانة. إذا كنت لا تتكلّمين فسوف تموتين جوعًا في هذا العالم النذل. كيف ستتدبَّرين أمورك وحيدة في الشمال؟» يقول لها مؤنّبًا بنبرة لا تخلو من الرقّة.

أخرجوا، بعد أربعة أيّام، طفل ماريّا إينيس من المستشفى، ولكنَّ المهرِّب قرّر أنّه لا يمكن مواصلة الرحلة معه في أيّ حال، لأنَّه قد يموت في الطريق. فما زالت أمامهم أشدّ المراحل مشقَّة: اجتياز نهر ريو غرانديي، وبعد ذلك الصحراء. اقترح على ماريّا إينيس أن تختار بين البقاء في المكسيك لبعض الوقت، والعمل في أيّ عمل تجده، وسيكون ذلك صعبًا، لأنّها لن تجد من يقدّم إليها عملًا وهي تحمل طفلًا بين ذراعيها، أو أن ترجع إلى غواتيمالا. فاختارت المرأة الرجوع، وودّعت رفاق الرحلة الذين صاروا أشبه بأسرة.

* * *

وهكذا، بعد أن تركوا ماريّا إينيس وطفلها في الحافلة، قاد برينو كابريرا زبائنه في اتّجاه تاماوليباس. روى لهم أنّ شخصين يرتديان

بدلتين وربطتي عنق هاجماه في رحلة سابقة، عند مدخل فندق، وكان لهما مظهر الموظَّفين، وانتزعا منه النقود والموبايل. وصار منذ ذلك الحين يتوخَّى الحذر من فنادق العابرين، حيث ينزل المهرِّبون في معظم الأحيان مع مسافريهم، لأنَّ مؤسَّسة الهجرة والشرطة الفيدراليَّة وتحرِّيي المباحث يضعون تلك الفنادق تحت المراقبة.

أمضوا الليل في بيت أحد معارف كابريرا. ناموا على الأرض محشورين فوق البطَّانيَّة التي في الشاحنة. وانطلقوا مع بداية الصباح في الرحلة إلى نويفو لاريدو، المرحلة الأخيرة من الرحلة عبر المكسيك، وكانوا بعد ساعات قليلة في ميدان هيدالغو، في مركز المدينة، بين مئات المهاجرين المكسيكيين والقادمين من بلدان أميركا الوسطى، وإلى جانب مهرِّبين من كلّ الأنواع، يعرضون خدماتهم. تعمل تسعُ مجموعات تهريب منظَّمة في نويفو لاريدو، وكلّ مجموعة منها لديها أكثر من مئة مهرِّب ووسيط. ولها جميعها سمعة بالغة السوء، تسرق وتغتصب، وبعضها مرتبط بعصابات سطو ودعارة.

«ليسوا أُناسًا شرفاء مثلي، لم يستطع أحد أن يذكر كلمة سيِّئة واحدة عنِّي خلال الوقت الذي أمضيته في هذه المهنة. فأنا أهتمّ بسمعتي وشرفي، لأنَّني شخص مسؤول»، قال كابريرا.

اشتروا بطاقات للاتِّصال هاتفيًّا، وتمكَّنوا من التكلُّم مع أقربائهم ليُخبروهم بأنَّهم صاروا على الحدود. اتَّصلت إيفيلين بالأب بينيتو، ولكنَّها كانت تتلعثم كثيرًا، فانتزع منها كابريرا الهاتف.

«البنت في حالة جيِّدة، لا تقلق عليها، وتقول إنَّها تبعث تحيَّاتها إلى الجدَّة. قريبًا سوف نقفز إلى الجانب الآخر»، وطلب منه أخيرًا:

اعمل معروفًا بالاتّصال بأمِّها وقُلْ لها أن تكون مستعدَّة وجاهزة.

أخذهم ليتناولوا شطائر تاكو وبوريتو عند «كشك» في الشارع، وذهب بهم من هناك إلى كنيسة سان خوسيه ليدفعوا نذرهم إلى الأب ليو. وشرح لهم أنَّ الكاهن قدّيس طيِّب مثل أولغا سانتشيث، وأنَّه لا ينام لأنَّه يقدِّم المساعدة في النهار والليل إلى رتل لا ينتهي من المهاجرين، ويوفِّر لهم حاجاتهم الأخرى كالماء والطعام، ويمنح مساعدات أوَّليَّة، كالهاتف والمواساة الروحيَّة التي يقدِّمها لهم على شكل طرائف ومزاح وحكايات وقصص معبِّرة يختلقها بصورة فوريَّة. يمرّ بيرتو كابريرا، في كلِّ رحلة، بالكنيسة ليقدِّم إلى الكاهن نسبة خمسة في المئة ممَّا يتلقَّاه، بعد حسم نفقاته، في مقابل مباركته له وبعض التراتيل من أجل خير مَن يسافرون معه. إنَّها قيمة التأمين على عمله، والحصَّة التي يدفعها إلى السماء كي توفِّر له الحماية، مثلما يقول مقهقهًا. وهو يدفع بالطبع حصَّة أخرى إلى أسوأ المجرمين الأشرار، وإلى كارتيل لوس سيتاس[1] كي يتجنَّب اختطافهم زبائنه. وفي حال حدوث ذلك، تتقاضى عصابة لوس سيتاس فدية عن كلِّ رأس، يجب على عائلة كل منهم أن تدفعها من أجل إنقاذ حيواتهم. ويُسمُّون ذلك بـ «اختطاف إكسبريس». ولأنَّ كابريرا يعتمد على صلوات الكاهن القدِّيس، ولأنَّه يدفع إلى لوس سيتاس، فإنَّه يمضي مطمئنًا إلى هذا الحدِّ أو ذاك. هكذا كانت أموره على الدوام.

وجدوا الكاهن حافيًا، يشمِّر ساقَيْ بنطاله، ويرتدي قميصًا متَّسخًا، وينتقي ثمارًا وخضارًا سليمة من صناديق منتوجات زراعيَّة

---

(١) لوس سيتاس Los Zetas: عصابة إجرام مكسيكيَّة وكارتيل تجارة مخدرَّات.

ناضجة أكثر ممَّا يجب، أُهديت إليه في السوق. وكانت هناك بركة من رحيق الفواكه على الأرض تجتذب حلاوةُ تعفّنها الذبابَ. استقبل الأب ليو المهرِّب كابريرا شاكرًا له مساهمته الماديَّة، وتعهُّده بأن يقنع المهرِّبين الآخرين بدفع ذلك التأمين الرائع المدعوم من السماء.

خلعت إيفيلين وزملاؤها أحذيتهم الرياضيَّة، وتوغَّلوا في مستنقع الفواكه والخضار المتعفِّنة للمساعدة على إنقاذ ما هو صالح للاستخدام في مطبخ الكنيسة، بينما توقَّف الكاهن ليأخذ قليلًا من الراحة في الظلّ، ويُطلع صديقه كابريرا على العقبات الجديدة التي اخترعها اليانكيُّون. ففضلًا عن نظَّارات الرؤية الليليَّة والأجهزة الحراريَّة لكشف الأجساد، زرعوا الصحراء بأجهزة استشعار ارتجاجيَّة تلتقط وقع الخطوات على الأرض. وعلَّقا على الأحداث الأخيرة مستخدمَين عبارات ملطَّفة في الإشارة إلى عمليَّات السطو المسلَّحة. إذ إنَّهما لا يستخدمان في حديثهما مصطلحات «عصابة» أو «تُجَّار مخدَّرات». لأنَّه لا بدَّ من صون اللسان.

* * *

أخذهم بيرتو كابريرا من كنيسة سان خوسيه، إلى أحد المخيَّمات على ضفَّة نهر ريو غراندي. بيوت بائسة من كرتون وخيام، أفرشة، كلاب متشرِّدة، فئران وفضلات، بيوت موقَّتة لمتسوِّلين وجانحين ومدمني مخدَّرات ومهاجرين، في انتظار توافر فرصة. قال لهم: «سنبقى هنا إلى أن تحين لحظة عبورنا إلى الجانب الآخر». تجرَّأ مسافروه على التلميح إلى أنَّ الاتِّفاق لم يكن هكذا، فالسيِّدة صاحبة المخبز في غواتيمالا وعدتْ بأنَّهم سينامون في فنادق.

«هل نسيتم الفنادق التي كنّا فيها؟ هنا على الحدود يجب أن نتكيّف. ومن لا يعجبه فليرجع من حيث جاء»، ردّ عليهم المهرِّب.

كان في إمكانهم، من ذلك المعسكر، رؤيةُ الجانب الأميركي المراقَب ليلًا ونهارًا بكاميرات، وأضواء كشّافة، وشرطيين في سيّارات عسكريّة، وزوارق وطائرات هليوكبتر. ويحذّرون، بمكبِّرات الصوت، مَن هم في النهر بأنّهم في أراضٍ أميركيَّة وعليهم الرجوع. لقد عزَّزوا الحدود في السنوات الأخيرة بآلاف رجال الشرطة المزوَّدين بأحدث الوسائل التكنولوجيَّة، غير أنَّ اليائسين يجدون على الدوام طريقة لتجاوز المراقبة. حين رأى كابريرا مدى خوف زبائنه عند رؤيتهم مجرى النهر العريض والصاخب وذي المياه الضاربة إلى الخضرة، أوضح لهم أنّه لا يغرق هناك سوى الحمقى الذين يحاولون العبور سباحة أو بإمساكهم بحبل. يموت مئات كلّ عامٍ بهذه الطريقة، وتظلّ الأجساد المنتفخة عالقة بين الصخور، أو مرميةً عند قصب الضفاف أو يحملها النهر إلى خليج المكسيك. الفرق بين الموت والحياة هو المعلومات: معرفة أين، وكيف، ومتى يمكن العبور؟ ثم قال لهم محذِّرًا: ومع ذلك، فإن الخطر الأكبر ليس النهر، بل الصحراء، حيث درجات الحرارة جهنَّميَّة تُذيب الصخر، ولا وجود للماء. ترصدهم هناك العقاربُ والقطط المتوحّشة وذئاب القيوط الجائعة. الضياع في الصحراء يعني الموت المحتَّم خلال يوم أو يومين. الأفاعي ذات الأجراس وحيّات الصحراء وتلك الثعابين الزرقاء الغاضبة، جميعها تخرج للصيد ليلًا، في الوقت الذي يبدأ فيه المهاجرون مسيرهم، لأنَّ الحرّ في النهار قاتل. لا يمكنهم استخدام مصابيح يدويَّة، لأنّها تكشفهم. يجب عليهم الثقة بالصلوات وحسن الحظّ. كرَّر لهم أنّهم

مسافرون مرفَّهون، لن يُتركوا مرميين في الصحراء تحت رحمة الأفاعي. فمهمَّته تنتهي عند اجتيازهم نهر ريو غراندي، لكن هناك شريكه في الولايات المتَّحدة، وسيكون جاهزًا لإيصالهم إلى مكان آمن.

استقرَّ المسافرون مرغَمين في المعسكر تحت سقف مرتجل من الكرتون، يوفِّر لهم شيئًا من الظلِّ في الحرِّ الخانق نهارًا ووهم الأمان ليلًا. وخلافًا لمهاجرين آخرين ينامون ملتفِّين بأكياس بلاستيكيَّة، ويأكلون مرَّة كلَّ يوم في إحدى الكنائس أو يكسبون بضعة بيزوات من امتهانِ أيِّ عمل، كان هؤلاء يحصلون على مبلغ يقدِّمه إليهم المهرِّب يوميًّا كي يشتروا طعامًا وماء قوارير. وخرج كابريرا، في أثناء ذلك، بحثًا عن أحد معارفه متوقِّعًا أن يجده مخدَّرًا في مكان ما، كي يساعدهم على العبور إلى الجانب الآخر. وقبل أن يذهب، أعطاهم تعليمات بالبقاء معًا وألَّا يتركوا الفتاة بمفردها ولو لحظة واحدة، لأنَّهم محاطون بأُناس ليس لديهم أيّ وازع أخلاقي، وخصوصًا مدمني المخدّرات، فهم لا يتورَّعون عن قتل أيّ شخص لانتزاع حذائه أو جعبته. يشحّ وجود الطعام في المعسكر، ولكن هنالك فائضًا من المشروبات الكحوليَّة والماريجوانا والكراك والهيرويين وتشكيلة من الحبوب المتنوّعة والتي بلا أسماء، إذا ما خُلطت بالكحول يمكن لها أن تكون قاتلة.

ريتشارد

نيويورك

اعتاد ريتشارد بوماستير، في الرحلات التي كان يقوم بها طوال سنوات مع هوراسيو آمادو ـ كاسترو، على الذهاب معه إلى أمكنة نائية، حيث يصلان أوَّل الأمر بسيَّارة السوبارو، ومن هناك يتابعان على درَّاجتيهما مع جعبتي الظهر وخيمة خفيفة. صار غياب صديقه أشبه بموت صغير، فقد خلَّف فراغًا في مكان وجوده وزمانه. هنالك أشياء كثيرة يرغب في تقاسمها معه. كان سيخطر لهوراسيو حلّ صحيح وعقلانيّ لمشكلة الجثَّة في سيَّارة اللكزس، وكان سينفِّذ ذلك الحلَّ من دون تردُّد وهو يكاد يموت من الضحك. أمَّا هو، فيشعر، في المقابل، بوخزة متوغِّلة في قرحته؛ بعصفور مذعور في المعدة. «ما الذي ستجنيه من التفكير في المستقبل، فالأمور ستواصل مسارها وأنت ليس لديك القدرة على التحكُّم في أيِّ شيء. استرخِ يا أخي»، إنَّها النصيحة التي كرَّرها عليه صديقه مئة مرَّة. كان يتَّهمه بأنَّه يعيش في حوار دائم مع نفسه، يغمغم، يتذكَّر، يندم، يخطِّط. يقول إنَّ البشر وحدهم يمضون وهم يركِّزون فيما في دخيلة أنفسهم، ويمضون عبيدًا لأناهم،

يراقبون أنفسهم، ويظلُّون متأهِّبين للدفاع على الرَّغم من عدم وجود أيّ خطر يتهدَّدهم.

تؤكِّد لوثيا شيئًا مشابهًا، وتضع مثالًا على ذلك كلبها الشيهواهوا الذي يعيش إلى الأبد ممتنًّا، ويتقبَّل، في الوقت الحاضر، ما يأتي من دون أن يستبق احتمال حدوث كارثة، ككوارث أخرى حدثت له من قبل، في حياته ككلب مهجور. «إنَّها حكمة زِن كبيرة بالنسبة إلى كائن ضئيل مثله»، ردَّ عليها ريتشارد حين عدَّدت له تلك الفضائل في كلبها. فهو يتقبَّل أنَّه وفيّ لنمط التفكير السلبيّ، مثلما كان يؤكِّد هوراسيو. فمنذ السابعة من عمره، كان يراوده القلق من انطفاء الشمس والقضاء على كلّ أشكال الحياة على الكوكب. والمُشجِّع في الأمر أنَّ ذلك لم يحدث بعد. أمَّا هوراسيو، فلا يشعر في المقابل بأيّ قلق من مسألة الاحتباس الحراريّ؛ فعندما ستذوب ثلوج القطبين، وتغرق القارَّات، سيكون أحفاد أحفاده قد ماتوا في عمر الشيخوخة، أو تكون قد نبتت لهم غلاصم أسماك. فكَّر في أنَّ هوراسيو ولوثيا سيتفاهمان على ما يرام، بتفاؤلهما الأرعن وميلهما الذي لا يمكن تفسيره إلى السعادة. أمَّا هو، فإنَّه مرتاح إلى تفكيره العقلاني.

* * *

بالنسبة إلى ريتشارد، كلّ غرام زائد في الوزن يُحسَب، لأنَّه سيحمله؛ وكلّ حريرة محسوبة من أجل إقامة أودهما حتى موعد الرجوع. هوراسيو ارتجاليّ مخص. يسخر من تحضيرات ريتشارد المهووسة، لكنَّ التجربة أثبتت كم هي تلك التحضيرات ضروريَّة. ففي إحدى المناسبات، نسيا أن يأخذا كبريتًا، واضطرّا إلى الرجوع بعد أن

أمضيا ليلة شبه مخدّرين من البرد وجائعين. وقد اكتشفا أنَّ إشعال النار بحكِّ عودين ليس أكثر من وهم من تخيُلات الكشَّافة.

قام ريتشارد بترتيب الأمور من أجل الرحلة القصيرة إلى البحيرة، بالحذر نفسه الذي يخطّط فيه رحلاته مع صديقه. أعدّ قائمة مفصّلة بما يمكن أن يحتاجا إليه في حالة طوارئ؛ ابتداء من الطعام وحتى أكياس النوم، فضلًا عن بطّاريّات إضافيّة للمصباح اليدويّ.

«الشيء الوحيد الذي ينقصك يا ريتشارد هو مرحاض نقّال. لسنا ذاهبين إلى حرب، هنالك مطاعم وفنادق في كلّ مكان»، قالت لوثيا.

ـ لا يمكننا الظهور في أمكنة عامّة.

ـ لماذا؟

ـ السيَّارت والأشخاص لا يختفون هكذا يا لوثيا. من المحتمل جدًّا أن تفتح الشركة تحقيقًا في الأمر. ويمكن لها التعرُّف إلينا إذا ما خلَّفنا أثرًا.

ـ لا أحد يهتمّ بأحد يا ريتشارد. ونحن نبدو كثنائيّ ناضج في إجازة.

ـ إجازة في الثلج؟ وبسيَّارتين؟ ومع طفلة تبكي وكلب يلبس مثل شرلوك هولمز؟ وأنتِ بهذا الشعر الضارب إلى الحمرة. سوف نلفت الانتباه من دون أيّ شكّ يا امرأة.

وضع الأمتعة المعقَّدة في صندوق سيَّارة السوبارو، وترك طعامًا وافرًا للقطط. واتَّصل بالعيادة البيطريَّة ليطمئنّ على «تريس». قبل أن يُصدر أمر الانطلاق. كان وضعه مستقرًا، ويجب أن يبقى تحت

المراقبة عدَّة أيَّام أخرى، ثم اتَّصل بجارته، لينبِّهها إلى أنَّه سيتغيَّب ليومين، ويطلب منها أن تُلقي نظرة على القطط الثلاث الأخرى. تأكَّد مرَّة أخرى من أنَّ سلك تثبيت غطاء صندوق اللكزس يؤدِّي وظيفته، وكشط الجليد عن كلتا السيَّارتين. افترض أن تكون وثائق السيَّارة نظاميَّة، لكنَّه أراد التأكُّد. وجد في محفظة السيَّارة ما يبحث عنه، إضافة إلى جهاز ريموت كونترول وحمَّالة مفاتيح مُذَهَّبة مع مفتاح وحيد.

ـ أعتقد أنَّ هذا الرموت كونترول يفتح كراج آل ليرُوي.

«أجل»، قالت إيفيلين.

ـ والمفتاح هو مفتاح بيتهم.

ـ ليس مفتاح البيت.

ـ أتعرفين لأيِّ شيء هو؟ هل رأيته من قبل؟

ـ لقد أرتني إيَّاه السيِّدة ليرُوي.

ـ متى حدث ذلك؟

ـ أمس. فالسيِّدة أمضت يوم الجمعة في الفراش، كانت متضايقة جدًّا، قالت إنَّ جسدها كلّه يؤلمها، وهذا يحدث لها أحيانًا، لا تستطيع النهوض. أضف إلى ذلك، إلى أين يمكنها الذهاب بوجود العاصفة؟ لكنَّها أحسَّت يوم أمس بأنَّها أحسن حالًا، وقرَّرت الخروج. وقبل خروجها أرتني هذا المفتاح. قالت إنَّه كان في جيب بدلة السيِّد ليرُوي، وكانت عصبيَّة جدًّا، ربَّما بسبب ما حدث لفرانكي يوم الخميس. وطلبت منِّي أن أقيس السكَّر لديه كلّ ساعتين.

ـ و. . . ؟

ـ أرعبت عاصفة يوم الجمعة فرانكي، لكنَّه بدا في حالة جيِّدة أمس. كان السكر مستقرًا. هنالك في السيَّارة مسدَّس أيضًا.

«مسدَّس؟» انتفض ريتشارد.

ـ يضعه السيِّد ليرُوي للحماية. . . من أجل عمله كما يقول.

ـ وما هو عمله؟

ـ لا أعرف. أخبرتني السيِّدة بأنَّ زوجها لن يطلِّقها أبدًا، لأنَّها تعرف الكثير عن أسرار عمله.

«زوجان مثاليَّان على ما أرى. أفترض أنَّه سلاح مرخَّص. ولكن لا وجود لأيِّ مسدَّس هنا يا إيفيلين. هذا أفضل. . . مشكلة أقلّ»، علَّق ريتشارد بعد أن تفحَّص محفظة السيَّارة للمرَّة الثانية.

«لا بدَّ من أنَّ فرانك ليرُوي هذا أكثر حذرًا من قاطع طريق»، غمغمت لوثيا.

ـ من الأفضل أن نخرج سريعًا يا لوثيا. سنمضي في قافلة. نحاول ما أمكن أن يكون كلٌّ منَّا في متناول نظر الآخر، ولكن مع الاحتفاظ بمسافة بعيدة بيننا، من أجل التمكُّن من التوقُّف في الوقت المناسب، لأنَّ الطريق زلق. أبقي الأنواء مضاءة كي تري وكي يراكِ السائقون الآخرون. وإذا ما وجدنا نفسينا في صفّ سيَّارات، أشعلي ضوء الخطر المتقطِّع لتنبيه الآتين من الخلف. . .

ـ إنِّني أقود السيَّارات منذ نصف قرن يا ريتشارد.

«أعرف، ولكن تفعلين ذلك بطريقة سيِّئة. هنالك أمر آخر. الثلج

يكون أسوأ على الجسور، لأنّ البرودة أشدّ ممّا هي عليه على الأرض»، أضاف، واستعدّ للانطلاق مشيرًا بإيماءة موافقة.

* * *

استقرَّت لوثيا وراء مقود السوبارو ومعها إيفيلين ومارسيلو كمعاونين، ومعها أيضًا الخريطة التي يظهر عليها الطريق المرسوم بخطّ أحمر، لأنّها لا تثق كثيرًا بالـ «جي. ب. أس»، وتخشى أن يضيع ريتشارد عن نظرها خلال الطريق. لديها تعليمات بالالتقاء به في عدّة نقاط في حال انفصال أحدهما عن الآخر، وسيعتمدان على هاتفيهما الخلويين للبقاء على تواصل. إنّها الرحلة المستحيلة الأكثر أمانًا، هذا ما قالته لإيفيلين كي تُطمئنها. خرجت من بروكلين في أثر ريتشارد ببطء شديد. لم تكن هنالك حركة مرور، ولكنّ الثلج كان عائقًا. افتقدت موسيقاها المفضَّلة، مثل جودي كولينز وجوني ميتشل، لكنّها انتبهت إلى أنَّ إيفيلين تصلّي بصوت خافت، وبدا لها أوّل الأمر أنَّ إلهاءها عن صلاتها سينطوي على قلَّة احترام، بينما كان مارسيلو، غير المعتاد كثيرًا على التنقُّل في سيَّارة، يئنُّ في حضن الفتاة.

أمَّا ريتشارد، فكان يمضي شبه متجمِّد، وبجزع شديد، على الرَّغم من تناوله قُرص الدواء الأخضر قبل الخروج. أيّ تفسير عقلانيّ يمكن له أن يقدّمه؟ إنَّه في سيَّارة ليست له، وربَّما تكون مسروقة، ومعه في صندوقها، تعيسةُ الحظّ كاترين براون التي لم يعرفها قطّ عندما كانت حيَّة. لقد مضى على الجسد هناك ساعات طويلة، ولكن مع انخفاض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر، ستكون لا تزال، بكلّ تأكيد، في حالة *«التخشُّب الموتيّ»*. إنَّه يرغب، نظريًّا، في رؤية

وجهها كي يتذكَّرها فيما بعد، وأن يتفحَّص جسدها كي يتحرَّى كيف ماتت، لكنَّه لم يكن يرغب حقًّا، لا هو ولا لوثيا، وأقلّ منهما إيفيلين، في العودة إلى فتح صندوق السيَّارة. مَن هي فعلاً تلك المرأة التي معه في هذه السيَّارة؟ فمن خلال ما روته إيفيلين عن الزوجين ليرُوي، يمكن للشابَّة أن تكون قُتلت كي تغلق فمها، إذا كانت قد اكتشفت شيئًا يمكن له أن يُجرِّم فرانك ليرُوي. فنشاطات ذلك الرجل الغامضة وسيرته العنيفة، مثلما ذكرت إيفيلين، تقود إلى افتراضات مشؤومة. لا بدَّ من التساؤل عن كيفيَّة حصوله على وثائق مزيَّفة لإيفيلين. لا ريب في أنَّه يعتمد على وسائل غير مشروعة. لقد أخبرته لوثيا بأنَّ الفتاة تملك بطاقة انتماء إلى قبيلة من السكَّان الأصليِّين الأميركيِّين.

كان في حاجة إلى أن يتَّصل بأبيه، وكان يطيب له أن يطلب منه النصح، أو بكلمة أدقّ، أن يتفاخر قليلًا... أن يثبت له أنَّه هو أيضًا ليس مجرَّد رجل عاديّ، وأنّه قادر على إلقاء نفسه في عمل جنونيّ مثل هذا الذي يفعله الآن. لكن، سيكون من التهوُّر ذكر ذلك على الهاتف. إنَّه يتخيَّل مفاجأة العجوز جوزيف وسعادته عندما سيروي له الأمر. لا شكَّ في أنَّ أباه سيرغب في التعرُّف إلى لوثيا. إنَّهما ثنائيٌّ متناسب جدًّا. «كلّ هذا ضمن افتراض أنَّنا سنخرج أحياء من هذه المهمَّة... إنَّني أتحوَّل إلى هذياني، كما تقول لوثيا. ساعدينا يا آنيتا، ساعدينا يا بيبي»، طلب منهما بصوت عالٍ، مثلما اعتاد أن يفعل حين يكون وحيدًا. إنَّها طريقة للشعور بأنَّ هناك مَن يرافقه. ثم أضاف: «إنَّني في حاجة الآن إلى حماية أكثر من حاجتي إلى رفقة».

شعر بحضور آنيتا بوضوح جعله يلتفت ليرى إن كانت في المقعد

إلى جانبه. لم تكن المرَّة الأولى التي تظهر له، ولكنَّها تأتي دومًا وتذهب بصورة عابرة سريعة كومضة، فيظلُّ متشكِّكًا في قدراته بالذات. لقد كان قليل الميل إلى فِتن التخيُّل، ويعتبر نفسه صارمًا في تحكيم العقل، ومتطلِّبًا في إثبات الوقائع، ولكن آنيتا كانت تتفلَّت على الدوام من هذه المعايير. إنَّه في الستِّين من عمره، ومتورِّط في مهمَّة جنونيَّة، وشبه مشلول من البرد، لأنَّ السيَّارة تمضي من دون تشغيل جهاز التدفئة من أجل حفظ الجثَّة في صندوقها، ومع إبقاء النافذة مفتوحة قليلًا للحيلولة دون أن يغطِّي البخار الزجاج أو يتجمَّد عليه، راح ريتشارد يراجع ماضيه مرَّة أخرى، وتوصَّل إلى أنَّ أكثر سنوات حياته سعادة هي تلك التي أمضاها مع آنيتا، قبل أن تصل إليها الكارثة.

تلك هي الفترة التي كان فيها حيًّا بالفعل. لقد انمحت من ذهنه المشكلات اليوميَّة، وسوء التفاهم اللغويّ والثقافيّ، وتَدَخُّل حمويه وأخوة زوجته الدائم، وإزعاج الأصدقاء الذين يأتون إلى بيته في أيِّ وقت من دون دعوة، وطقوس آنيتا التي كان يعتبرها مجرَّد شعوذات، ونوبات غضبها الانفجاريَّة، بصورة خاصَّة، عندما يشرب أكثر قليلًا ممَّا هو مقدَّر. لا يتذكَّرها في الأزمات، عندما كانت عيناها المذهَّبتان تصبحان بلون القطران، ولا في حالات غيرتها الجنونيَّة أو نوبات غضبها الأعمى، ولا عندما كان يضطرّ إلى تثبيتها عند الباب بأساليب السجَّانين ليحول دون مغادرتها وتركها إيَّاه. إنَّه لا يتذكَّرها إلَّا في حالتها الأصليَّة، مشبوبةَ العاطفة، سهلةَ الانقياد وسخيَّةً. آنيتا الحبّ الوحشيّ والعذوبة السهلة. كانا سعيدين. تستمرّ المشاجرات قليلًا وتمتدّ المصالحات أيَّامًا وليالي طويلة.

* * *

كان ريتشارد طفلًا محبًا للدرس وخجولًا، مريضًا أبديًا في معدته. وقد أنقذه ذلك من المشاركة في ألعاب الرياضة الفظّة في المدارس الأميركيّة، وقاده من دون مفرّ نحو الحياة الأكاديميّة. درس العلوم السياسيّة، وتخصّص بالبرازيل، لأنّه يتكلّم البرتغاليّة، فقد أمضى إجازات مدرسيّة كثيرة، في طفولته، مع جدّيه لأمّه في لشبونة. وقدّم أطروحة الدكتوراه عن مناورات الأوليغاركيّة البرازيليّة وحلفائها، التي أدّت إلى هزيمة الشخصيّة الكاريزميّة، الرئيس اليساري جواو جولارت عام ١٩٦٤ والقضاء على نموذجَيْه السياسيّ والاقتصاديّ. لقد أطاح جولارت انقلابٌ عسكريٌّ مدعومٌ من الولايات المتّحدة في إطار عقيدة الأمن القوميّ لمقاومة الشيوعيّة، مثلما حدث لحكومات عديدة أخرى في القارّة، قبل البرازيل وبعدها. وقد استُبدل جولارت بدكتاتوريّات متتالية ستستمرّ واحدًا وعشرين عامًا، مع فترات قمع قاسية، وسَجن معارضين، ورقابة على الصحافة والثقافة، وتعذيب وعمليّات تغييب وإخفاء.

مات جولارت عام ١٩٧٦، بعد أكثر من عشر سنوات من المنفى في الأوروغواي والأرجنتين. عزت الرواية الرسميّة موته إلى نوبة قلبيّة، لكنّ الإشاعة الشعبيّة تقول إنّه جرى تسميمه على أيدي خصومه السياسيين الخائفين من عودته من المنفى وتحريضه المحرومين. ظلّت الشكوك بلا أساس بسبب عدم تشريح الجثّة، ولكنّها ستكون بعد سنوات ذريعة لريتشارد من أجل مقابلة ماريّا تيريزا، أرملة جولارت، التي كانت قد رجعت إلى بلادها، ووافقت على استقباله لإجراء سلسلة من المقابلات. وجد ريتشارد نفسه أمام سيّدة تتمتّع بالمهابة والثقة اللتين يمنحهما الجمال حين يكون جمالًا منذ الولادة. أجابت الأرملة

عن أسئلته، لكنَّها لم تستطع أن توضح الشكوك بشأن موت زوجها. تلك المرأة، التي تمثِّل فكرًا سياسيًا وعصرًا صار جزءًا من التاريخ، أثارت في نفس ريتشارد افتتانًا لا شفاء منه بالبرازيل وناسها.

وصل ريتشارد بوماستير عام ١٩٨٥، وهو على وشك إكمال السنة التاسعة والعشرين من عمره. كانت الدكتاتوريَّة في تلك الأثناء قد لانت، إذ استُعيدت بعضُ الحقوق السياسيَّة، وكان هناك برنامج عفو عن المتَّهمين بجرائم سياسيَّة، فضلًا عن تراخي الرقابة. وأهمّ من ذلك، أنَّ الحكومة سمحت بانتصار المعارضة في الانتخابات البرلمانيَّة عام ١٩٨٢.

عاش ريتشارد هناك أوَّل انتخابات حُرَّة. أبدى الناس فيها ازدراءهم للحكومة العسكريَّة وأنصارها بتقديمهم الفوز إلى مرشَّح المعارضة، لكن بلعبة خبيثة من ألعاب التاريخ، توفِّي المرشَّح قبل تولِّيه المنصب. فكان نائبه للرئاسة، جوسيه سارنيه، الإقطاعيّ المقرَّب من العسكريِّين، هو من تولَّى افتتاح «الجمهوريَّة الجديدة» وتعزيز التحوُّل إلى الديموقراطيَّة. كانت لحظة رائعة لدارس للسياسة مثل ريتشارد. فقد كانت البلاد تواجه مشكلات خطيرة جدًّا من كلِّ نوع، فهي صاحبة أكبر دَيْن خارجي في العالم، وغارقة في حالة من الركود، وتتركَّز القوَّة الاقتصاديَّة فيها في أيدٍ قليلة بينما يُعاني بقيَّة السكَّان التضخُّمَ والبطالة والفقر وعدم المساواة، على نحو يحكم على كثيرين بالبقاء في البؤس. كان هناك فائض من أجل الموضوعات التي يرغب في بحثها والمقالات التي يفكِّر في نشرها، ولكن إلى جانب هذه التحدِّيات الفكريَّة، كان هناك الإغواء الدائم باستغلال أقصى ما يمكن من طاقته الشبابيَّة في جوِّ الملذَّات الذي حطّ فيه.

استقرَّ في شقَّة طالب في ريو دي جانيرو، واستبدل اللكنة البرتغاليَّة القاسية بعذوبة اللهجة البرازيليَّة، وتعلَّم شرب الكايبرينها؛ المشروبِ الوطنيّ الذي يُحضَّر من الكاتشاسا والليمون، والذي كان ينزل إلى معدته كأحماض البطّاريّات. وغامر في التوغُّل، بشيء من الحذر، في حياة صَخَب المدينة. ولأنَّ أشدّ الفتيات جاذبيَّة كنّ على الشواطئ أو في صالات الرقص، فقد قرَّر السباحة في البحر وتعلَّم الرقص. لم تكن ضرورة تعلُّم الرقص قد خطرت له من قبل. وقد نصحه أحدهم بالذهاب إلى أكاديميَّة آنيتا فارينها، حيث قام بالتسجيل لتعلُّم رقص السامبا وإيقاعات أخرى رائجة، لكن هيكله العظميّ كان متصلِّبًا مثل كثيرين من الرجال البيض، ولديه شعور بأنَّه مضحك. لقد كان أسوأ تلميذ في الأكاديميَّة، لكنَّ الجهد كان يستحقّ العناء، لأنَّه تعرَّف هناك إلى حبّه الوحيد.

* * *

إرث آنيتا فارينها الأفريقي القديم يتبدّى في جسدها الطافح بالحيويّة، بخصرها النحيل وساقيها المتينتين، وبمؤخّرة مكوَّرة تهتزّ مع كلّ خطوة بلا أيّ نبات تمنح من جانبها. كانت تحمل الموسيقى والظرافة في دمها. ويظهر في أكاديميّتها بوضوح تألُّقُ طبعها، أمّا خارج الأكاديميَّة فتكون آنيتا شابَة جدّيَة، متحفِّظة، بسلوك لا تشوبه شائبة، وملتصقة بعائلتها الكبيرة والصاخبة. تمارس بلا تعصُّب تديُّنها الخاصّ، وهو «خليط سَلَطةٍ» من المعتقدات الكاثوليكيَّة والأرواحيَّة المتبِّلة بأساطير أنثويَّة. وتحضر بين حين وآخر وتشارك مع أخواتها في طقوس كاندومبليَّة، وهذه من ديانات العبيد الأفارقة، كانت تقتصر في السابق على الزنوج، ولكنَّها راحت تكتسب معتنقين لها بين البيض من

الطبقة المتوسّطة. وكان لآنيتا إلٰهةُ أوريشا خاصّة بها، ولها موجِّهتُها الإلٰهيّة في تحقيق قَدَرها: يمايا، ربّةُ الأمومة والحياة والمحيطات. وقد شرحت ذلك كلّه لربتشارد عندما رافقها مرّة وحيدة إلى أحد تلك الطقوس، وأخذ الأمر يومذاك على محمل المزاح. فتلك الوثنيّة، مثل الكثير من عادات آنيتا الأخرى، بدت له غريبة وفاتنة. وقد ضحكت هي أيضًا، لأنّها لم تكن تأخذ الأمر بقناعة راسخة جدًّا، إذ كانت ترى أنّ الإيمان بكلّ شيء أفضل من عدم الإيمان بأيّ شيء، وبهذا تتضاءل المجازفة بإغضاب الآلهة، إذا ما كان لهم وجود.

لاحقها ريتشارد، بإلحاح جنونيّ غير متوقّع من شخص رصين مثله، إلى أن توصّل إلى الزواج منها، بعد قبوله من سبعة وثلاثين فردًا من أسرة فارينها. وقد تطلّب منه ذلك القيام بزيارات مجاملة لا حصر لها، من دون أن يأتي على ذكر الغرض من تلك الزيارات، وكان يرافقه أبوه الذي سافر إلى البرازيل من أجل هذا الهدف فقط، لأنّ تقدُّمه إلى طلب يدها بمفرده يُنظر إليه على أنّه إساءة احترام. كان جوزيف بوماستير يرتدي ملابس حداد من رأسه إلى قدميه، لأنّ زوجته كلوي التي أحبّها كثيرًا كانت قد ماتت قبل وقت قريب، ولكنّه كان يضع زهرة حمراء في عروة سترته احتفالًا بخطوبة ابنه. كان ريتشارد يفضّل حفلة زفاف محدودة، ولكن أفراد أسرة آنيتا وأصدقاءها المقرَّبين وحدهم كانوا أكثر من مئتي شخص. أمّا من جهة ريتشارد فلم يحضر سوى أبيه، وصديقه هوراسيو آمادو ـ كاسترو الذي جاء من الولايات المتّحدة بصورة مفاجئة، وماريًّا تيريزا دي جولارت التي صارت تشعر بمحبّة أموميّة تجاه الطالب الأميركي الوسيم.

أرملة الرئيس التي ما زالت شابّة وجميلة ـ كانت أصغر من

زوجها بواحد وعشرين عامًا ـ اجتذبت اهتمام الحضور، وكان وجودها دعمًا قويًا لريتشارد أمام عائلة آنيتا التي تشكِّل أغلبيَّة ساحقة. لم تكن نفقات حفلة الزفاف على حساب العروسين، وإنَّما تحمَّلتها أمّ آنيتا وأخواتها وزوجات أخوتها، وهنَّ نساء ثرثارات ودودات، يعشن في تواصل دائم، ويتدخَّلن في كلّ تفصيل من حيوات بعضهنَّ بعضًا. وهنّ من قرَّرن أدقّ تفاصيل حفلة الزفاف، ابتداءً من قائمة الطعام وحتى طرحة العروس المخرَّمة بلون القشدة التي ارتدتها آنيتا، لأنَّها ميراث من جدَّة أمّها. أمَّا رجال الأسرة فكان دورهم أقرب إلى الديكور، لأنَّهم يمارسون السيطرة، إذا ما توافرت لهم، خارج البيت. يعامل الجميع ريتشارد بكثير من المودَّة واللطف، على نحو جعله يتأخَّر طويلًا قبل أن ينتبه إلى أنَّ آل فارينها، ككتلة، لا يثقون به. لم يكن ليؤثِّر فيه أيُّ شيء من ذلك، لأنَّ الحبّ الذي يتقاسمه مع آنيتا هو الشيءُ الوحيد الذي يهمّه حقًا. وما كان يمكن له أن يتوقَّع التأثير الذي سيمارسه آل فارينها في حياته الزوجيّة.

تضاعفت سعادة الزوجين عند ميلاد بيبي؛ الابنةِ التي جاءتهما في السنة الثانية لزواجهما، مثلما كانت الربّة يمايا قد وعدت من خلال «الوَدَع»، فواقع التنبُّؤ، وقد كانت الطفلة هديّة ثمينة إلى حدّ خشيت معه آنيتا من الثمن الذي ستتقاضاه الربّة في مقابل تلك المخلوقة الفاتنة. وكان ريتشارد يسخر من أساور بلور الكوارتز وغيرها من الاحتياطات التي تستخدمها زوجته للحماية من الإصابة بالعين. لكن آنيتا حظَّرت عليه التبجُّح بالسعادة، لأنَّ عمل ذلك أمر خطير ويستثير الحسد.

أفضل لحظات تلك الفترة، والتي ما زالت بعد سنوات طويلة

تتمتَّع بالقدرة على تسريع نبضات قلبه، هي اللحظات التي كانت آنيتا تتكوَّر فيها على صدره بوداعة هرَّة، أو تمتطي على ركبتيه وتدفن أنفها في رقبته، أو عندما خَطَت بيبي خطواتها الأولى بمثل ظُرف أمّها، وضحكتها بأسنانها اللبنيَّة. آنيتا، وهي في مريول المطبخ تقطِّع فواكه الصيف؛ آنيتا في أكاديميَّتها تتلوَّى كحنكليس على نغمات غيتار؛ آنيتا تخرخر نائمة بين ذراعيه بعد ممارسة الحبّ؛ آنيتا مثقلة ببطنها الذي يشبه بطِّيخة، مستندة إليه كي تصعد الدرج؛ آنيتا على الكرسيّ الهزَّاز، بينما بيبي متعلِّقة بصدرها، وهي تغنِّي بصوت خافت على ضوء المساء الضارب إلى البرتقاليّ.

لم يسمح لنفسه قطّ بالارتياب في أنَّ تلك السنوات كانت الأفضل في حياة آنيتا أيضًا.

لوثيا وريتشارد

شمالي نيويورك

كان التوقُّف الأوّل في محطّة بنزين، بعد نصف ساعة من الخروج من بروكلين. توقّفوا من أجل شراء سلاسل لعجلات اللكزس. أمّا سيّارة ريتشارد بوماستير السوبارو فكانت مزوّدة بعجلات خاصّة بالثلج منذ الزمن الذي كان يذهب فيه مع هوراسيو إلى الصيد في البحيرة المتجمّدة. كان قد حذّر لوثيا من خطر الثلج الأسود على الطرق المعبّدة، لأنّه السبب في معظم الحوادث الخطرة في الشتاء. «هذا سبب إضافي للحفاظ على الهدوء. استرخ يا رجل»، ردّتْ عليه، من دون أن تدري السبب، مكرّرةً نصيحة هوراسيو الدائمة له. كانت لديها تعليمات بالتوقُّف وانتظاره على بُعد نصف كيلومتر عند تحويلة في الطريق، ريثما يقوم هو بشراء السلاسل.

تولّت خدمةَ ريتشارد جدّةٌ عجوزٌ ذاتُ شعر رماديٍّ، ولها يدان حمراوان؛ تبيّن أنّها أكثر براعة وقوّة ممّا يمكن توقُّعه للوهلة الأولى. فقد قامت هي نفسها بتركيب السلاسل على العجلات خلال أقلّ من عشرين دقيقة، من دون أن تُبدي أيّ انزعاج من البرد، في حين كانت

تخبره صارخة بأنّها أرملة، وأنّها تقوم بالعمل وحدها، ثماني عشرة ساعة يوميًا وخلال ستّة أيّام في الأسبوع، بما في ذلك يوم أحد، مثل هذا اليوم، عندما لا يكون هناك من يتجرّأ على الخروج. لم يكن لديها قطعة غيار لمصباح الضوء الخلفيّ المكسور.

«إلى أين أنت ذاهب في مثل هذا الجوّ؟»، سألته الجدّة وهي تتقاضى منه ثمن السلاسل.

«إلى مأتم»، ردّ عليها وهو يشعر بقشعريرة.

سرعان ما تركت السيّارتان طريق الولاية العام وتقدّمتا نحو كيلومترين في طريق ريفيّ، لم تكن كاسحات الثلوج قد مرّت به منذ يومين، وكان غير سالك. صادفا مرور عدد قليل من السيّارات، ولكن من دون رؤية أيٍّ من سيّارات الشحن الكبيرة أو حافلات الركّاب التي تربط بين نيويورك وكندا، والتي انصاعت للأمر بتجنُّب تلك الطرق حتى يوم الاثنين، حين تصبح حركة المرور عاديّة. كانت غابات أشجار الصنوبر المغطّاة بالصقيع تتلاشى في بياض السماء اللامتناهي، وكان الطريق لا يكاد يظهر إلّا كخطّ قلم رماديٍّ وسط جبال من الثلج. وبعد اجتياز كلّ بضعة كيلومترات، كان لا بدَّ من التوقُّف لإزالة الصقيع عن مسّاحات الزجاج. كانت الحرارة منخفضة بضع درجات تحت الصفر، وتواصل الانخفاض. أحسَّ ريتشارد بالحسد تجاه المرأتين الموجودتين والكلبَ في سيّارة السوبارو، حيث جهاز التدفئة يعمل بأقصى طاقته. كان قد وضع قناع تزلُّج وارتدى ملابس متعدِّدة يكاد لا يستطيع معها تحريك مرفقه وركبتيه.

بدأ تأثير الأقراص الخضراء في ريتشارد، مع مرور الساعات،

فراح يتلاشى الغمّ الذي سيطر عليه قبل الانطلاق. وفقدتْ التساؤلات عن كاترين براون إلحاحها، وصار كلّ شيء يبدو كأنّه جزء من رواية كتب صفحاتِها آخرون، ولا علاقة له بها. كان يشعر بشيء من الفضول تجاه المستقبل القريب جدًا، ورغبة في معرفة كيف ستنتهي الرواية، ولكن لا يشعر بشيء من التعجُّل للوصول إلى مصيره. فسوف يصل آجلًا أو عاجلًا، وسينجز مهمَّته. أو بعبارة أدقّ، سينجز المهمَّة التي خصَّته بها لوثيا. فهي المسؤولة، وما عليه سوى الانصياع لها. إنَّه يطفو.

كان المشهد رتيبًا لا يتبدَّل، ينقضي الوقت في دائرة الساعة وتزداد الكيلومترات، ولكنّه لا يتقدَّم. إنَّه متوقِّف في المكان نفسه، وغارق في حيِّز من البياض، ومُنوّم بالرتابة. لم يقد أبدًا السيَّارة من قبل في شتاء بمثل هذه القسوة. كان واعيًا لمخاطر الطريق، مثلما حذَّرته لوثيا، ومتيقِّظًا للخطر الأكثر إلحاحًا: خطر أن يتغلَّب عليه النعاس الذي بدا يثقل على جفونه. شغَّل المذياع، ولكن سوء التناغم والركود استثارا حفيظته؛ فاختار مواصلة الصمت. بذل جهدًا من أجل أن يعود إلى الواقع، إلى السيَّارة، إلى الطريق، إلى الرحلة. شرب بضع رشفات قهوة فاترة من الحافظة، مفكِّرًا في أنَّه في حاجة في القرية التالية إلى الذهاب إلى الحمَّام وتناول قهوة قويَّة وساخنة مع قرصي أسبرين.

كان يلمح وراءه، في البعيد، من خلال المرآة العاكسة، أضواء سيَّارة السوبارو التي كانت تختفي عند المنحنيات لتعود إلى الظهور بعد قليل. خشي أن تكون لوثيا مرهقة جدًّا مثله. كان يجد صعوبة في الاستقرار في اللحظة الآنيَّة، لأنَّ أفكاره تختلط بصور من ماضيه.

* * *

كانت إيفيلين في سيَّارة السوبارو، لا تزال تصلِّي همسًا لأجل كاترين براون، مثلما كانت تصلِّي في قريتها للموتى. لم تستطع روح تلك الشابَّة الصعود إلى السماء، لأنَّ الموت داهمها فجأة، حين لم تكن تنتظره، فظلَّت عالقة في منتصف الطريق. من المؤكَّد أنَّ روحها ما زالت حبيسة في صندوق السيَّارة. تدنيس المقدَّسات خطيئة وإساءة احترام لا تُغْتَفر. من سيودِّع كاترين بالطقوس المناسبة؟ فالروح الحزينة الهائمة هي أشدّ ما يُثير الأسى في الدنيا. ولكنَّها هي نفسها من تتحمَّل المسؤوليَّة؛ فلو لم تأخذ السيَّارة من أجل الذهاب إلى الصيدليَّة، لما علمتْ أبدًا بالمصير الذي صارت إليه كاترين براون؛ ولكنَّها حين فعلت ذلك صارت كلٌّ منهما مقيَّدة بالأخرى. لا بدَّ من صلوات كثيرة من أجل التحرُّر من تلك الروح، وتسعة أيَّام من الحداد. مسكينة كاترين، لم يبكها أحد ولم يودِّعها أحد. يذبحون في قريتها ديكًا كي يرافق المتوفَّى إلى الجانب الآخر، ويشربون الروم احتفاءً برحلته إلى السماء.

كانت إيفيلين تصلِّي وتصلِّي سلسلةَ صلوات بعد أخرى، بينما استغرق مارسيلو، المتعَبُ من الأنين، في النوم ولسانه يتدلَّى خارج فمه، وعيناه نصف مغمضتين، لأنَّ الجفون لا تغطِّي إلَّا أقلّ من نصفهما. رافقت لوثيا إيفيلين للحظات في ترتيل «أبانا الذي في السماء»، و«يا قدِّيسة مريم»، اللتين تعلَّمتهما في طفولتها ويمكنها ترديدهما بتدفُّق، على الرَّغم من أنَّها لم تصلِّ منذ أكثر من أربعين عامًا. أصابتها رتابة التكرار بالنعاس، وراحت تروي لإيفيلين شطرًا من حياتها كي تلهي نفسها قليلاً وتسأل الفتاة بدورها عن حياتها. ساد بينهما جوٌّ من الثقة، وصارت البنت أقلّ تلعثمًا.

بدأ الجوّ يكفهرّ وعاود الثلج الهطول، وهو ما كان يخشاه ريتشارد، من دون أن يكونوا قد وصلوا إلى القرية التي خطّطوا أن يتوقّفوا فيها للذهاب إلى الحمّام وتناول بعض الطعام. اضطرُّوا إلى تخفيف السرعة. حاول ريتشارد الاتّصال بلوثيا بالهاتف الجوّال. ولعدم وجود إشارة، توقّف قرب حافّة الطريق وشغّل الأنوار المتقطّعة. توقّفت لوثيا خلفه واستطاعا تنظيف الزجاج من الثلج، ورشّه بسبراي مضادّ للتجمُّد، وتشاركا في تناول محتويات حافظة شوكولاتة ساخنة مع زلابيَّة. كان عليهما أن يُقنعا إيفيلين بأنّه ليس الوقت المناسب للصيام من أجل كاترين، وأنَّ الصلوات وحدها كافية. كانت الحرارة في سيَّارة اللكزس مماثلة لما هي عليه في الخارج. وعلى الرّغم من كلِّ الملابس التي يرتديها ريتشارد، فإنَّه كان يرتجف من البرد. انتهز الفرصة ليحرِّك ساقيه المخدَّرتين ويتدفَّأ قليلًا بالقفز وصفع وجهه براحتيه. تأكَّد من أنَّ كلّ شيء على ما يرام في السيَّارتين، ثم أرى لوثيا الخريطةَ مرَّة أخرى وأصدر الأمر بالمواصلة.

«كم بقي أمامنا؟» سألته لوثيا.

ـ بقي الكثير. لن يتوافر لنا الوقت لتناول الطعام.

ـ إنَّنا وراء المقود منذ ستّ ساعات يا ريتشارد.

ـ أنا متعب أيضًا، كما أنَّني أكاد أموت من البرد، سأُصاب بنزلة صدريَّة، لقد بدأتُ أشعر بها في عظامي، ولكن علينا أن نصل إلى البيت الريفيّ قبل حلول الظلام. إنَّه مكان معزول، وإذا ما تجاوزت المدخل من دون الانتباه إليه، فسوف نضيع.

ـ وماذا عن «الجي بي أس»؟

ـ لا يمكنه أن يشير لي إلى المنعطف. لقد كنت أصل إلى البيت دومًا بالاعتماد على الذاكرة، ولكنّني في حاجة إلى الرؤية. ما الذي أصاب الشيهواهوا؟

ـ لا شيء.

ـ يبدو ميّتًا.

ـ هكذا يكون عندما ينام.

ـ يا له من حيوان قبيح!

ـ حذارِ أن يسمعك يا ريتشارد. أريد أن أتبوّل.

ـ يجب عمل ذلك هنا بالذات، وحذار أن تتجمّد مؤخرتك.

قرفصت المرأتان إلى جانب السيّارة، بينما ذهب ريتشارد للتبوُّل وراء سيّارته. رفع مارسيلو أنفه حين رأى نفسه وحيدًا، ألقى نظرة إلى الخارج وقرّر الانتظار. لا يمكن لأحد أن يقنعه بأن يدوس على الثلج.

* * *

انطَلقوا مجدَّدًا. وبعد أن تقدَّموا سبعة وعشرين كيلومترًا، اقتربوا من قرية صغيرة: شارع رئيسيّ فيه المتاجر المعهودة، ومحطَّة وقود، وحانتان وبيوت من طبقة واحدة. أدرك ريتشارد أنَّهم لن يتمكَّنوا من الوصول، في أيِّ حال، قبل حلول الظلام، وقرَّر أن يمضوا تلك الليلة في ذلك المكان. كانت الريح والبرد قد اشتدَّا، وكان هو نفسه في حاجة إلى الدفء، ففكّه يؤلمه من شدَّة اصطكاك أسنانه. لكن فكرة قضاء ليلة في فندق كانت تقلقه، فهو لا يريد لفت الانتباه، إلّا أن

مُواصلة التقدُّم في الظلام والضباع ستكون أسوأ. كانت الإشارة متوافرة في الهواتف الخلويّة، وتمكّن من إخبار لوثيا بتبديل الخطّة. كان الأمل ضعيفًا في العثور على مكان لائق يأوون فيه، ولكن ظهر لهم نُزُل في الطريق، مع أمر مناسب هو أنّ الغرف تُطلّ مباشرة على مرأب السيّارات، ويمكنهم البقاء هناك من دون إثارة أيّ شكوك. نبّهوه في بهو الاستقبال العابق برائحة الكريوزوت، إلى أنّ النزل في حالة إصلاح وترميم، ولا تتوافر لديهم سوى غرفة واحدة. دفع ريتشارد ٤٩,٩٠ دولارًا نقدًا، ثم ذهب لاستدعاء المرأتين.

«هذا كلّ ما هو موجود. سنضطرّ إلى تقاسم الحجرة»، أخبرهما.

«أخيرًا ستنام معي يا ريتشارد!» هتفت لوثيا.

«ممم... يقلقني ترك كاترين في السيّارة»، قال مغيّرًا موضوع الحديث.

ـ أتريد النوم معها؟

كانت رائحة الغرفة كرائحة بهو الاستقبال، ولها المظهر الموقّت الذي لمشهد مسرحي سيّئ. فالسقف منخفض جدًّا، والأثاث مزعزع، وكلّ شيء مغطّى بطبقة من صدأ الرتابة الكئيب. فيها سريران، وتلفاز قديم جدًّا، وحمّام فيه لطخات لا يمكن محوها، وتنقيط دائم من صنبور المغسلة، ولكنّ هناك أيضًا إبريقًا كهربائيًّا لغلي الماء، ودوش ماء ساخن وتدفئة جيّدة. الواقع أنّ الحرّ في الغرفة كان خانقًا، وبعد دقائق قليلة تجاوز ريتشارد الإحساس بالبرد وبدأ بخلع طبقات الملابس السميكة. الأرضيّة التي بلون القهوة، وكذلك أغطيةُ السرير ذات المربّعات السود والزرق، تحتاج بصورة مستعجلة إلى حملة تنظيف

كبيرة، أمَّا الملاءات والمناشف، على الرَّغم من أنَّها مستهلكة، فإنَّها نظيفة. أسرع مارسيلو إلى الحمَّام وتبوَّل طويلًا أمام نظرات لوثيا المنبهجة ونظرات ريتشارد المذعورة.

«ماذا سنفعل الآن؟» سألها ريتشارد.

ـ أعتقد أنَّه ستكون هناك مناشف ورقيَّة بين الأعتدة الحربيَّة التي وضَّبتها للرحلة. سوف أذهب للبحث عنها، أمَّا أنت فقد نلت ما يكفي من البرد.

كان ريتشارد، بعد قليل من ذلك، قد تخلَّص من خوف إصابته بنزلة صدريَّة، فأعلن أنَّه سيذهب للبحث عن طعام، لأنَّهم لن يجدوا في هذه الأجواء من يغامر بإيصال بيتزا إليهم، ولاسيَّما أنَّه لا وجود لمطبخ في النُزُل، بل لا وجود إلَّا لبار، حيث الشيء الوحيد الذي يؤكل هو حبَّات زيتون وبطاطا مقليَّة معتَّقة. وافترض أنَّه مهما تكن القرية بائسة، فسيكون فيها مطعم صينيّ أو مكسيكيّ. كانت قد بقيت لديهم بعض المؤونة، لكنَّهم فضَّلوا أن يتركوها لليوم التالي. ووجد ريتشارد لوثيا وإيفيلين تشاهدان أخبار العاصفة في التلفزيون، بعد مرور أربعين دقيقة، عندما رجع ومعه طعام صينيّ وقهوة في الحافظتين.

«سُجِّلت في يوم الجمعة أكثر درجات الحرارة انخفاضًا منذ سنة ١٨٦٩ في ولاية نيويورك. لقد استمرَّت العاصفة نحو ثلاث ساعات، لكن هطول الثلوج سيتواصل يومين آخرين. وقد تسبَّب ذلك بأضرار تقدَّر بملايين الدولارات. والعاصفة لها اسم، إنَّها تُدعى 'يونس'»، أخبرته لوثيا.

«الوضع في البحيرة سيكون أسوأ. فكلَّما توجَّهنا شمالًا سيكون

البرد أشدّ»، قال لها ريتشارد وهو يخلع السترة السميكة والصديري واللفاع والطاقيّة وقناع التزلُّج والقفّازين.

لاحظَ وجود ذبابة خَرعة على قميصه الداخلي، لكنّه حين هزَّه اختفت الحشرة قافزة. إنّه برغوث! صاح وهو يربت براحتيه بيأس على كلّ أنحاء جسمه، في حين لم تُرْفَع أنظارهما عن التلفزيون.

براغيث! توجد هنا براغيث!» كرَّر ريتشارد وهو يحكّ جسمه.

«وماذا كنت تنتظر في مقابل تسعة وأربعين دولارًا وتسعين سِنتًا يا ريتشارد؟ نحن التشيليّين لا تلسعنا البراغيث»، قالت له.

«وأنا أيضًا لا تلسعني»، أضافت إيفيلين.

«إنّها تلسعك لأنّك خفيف الدم»، شخّصت لوثيا الحالة.

علب كرتون المطعم الصينيّ لها مظهر يبعث على الاكتئاب، لكن تبيَّن أنَّ محتواها أقلّ رهبة ممّا تصوَّروه. فعلى الرَّغم من أنَّ في الطعام من الملح ما يُفقد المكوِّنات الأخرى مذاقَها، فإن الوجبة أعادت إليهم جميعًا الحماسة، ومن بينهم الشيهواهوا الذي كان مزعجًا جدًّا، فهو يجد صعوبة في المضغ، ويريد أن يجرِّب وجبة الشون وين تلك. واصل ريتشارد الحكّ لبعض الوقت، إلى أن استسلم للبراغيث، وفضَّل عدم التفكير في الصراصير التي تظهر في الزوايا فور إطفاء النور. شعر بالدفء والأمن في فندق العابرين الكئيب ذاك، متَّحدًا مع امرأتين في المغامرة، ومتلمِّسًا أرضيَّة الصداقة والتأثُّر وهو على ذلك القرب من لوثيا. لم يكن معتادًا على هذا الإحساس الهادئ بالسعادة التي لم يستطع التعرُّف إليها.

كان قد اشترى زجاجة تيكيلا مينديث، وهو الشراب الوحيد الذي وجده في بار الفندق، مثلما طلبت منه لوثيا التي أضافت قليلًا منه إلى قهوتها وقهوة إيڤيلين. فأحسَّ لأوَّل مرَّة منذ سنوات بالرغبة في تناول جرعة، بدافع المشاركة الرفاقيَّة أكثر ممَّا هي بدافع الحاجة، ولكنَّه تخلَّى عن الفكرة. فقد ترسَّخ في ذهنه، من خلال التجربة، توخِّي الحذر الشديد من الكحول، إذ إنَّه يبدأ ببلّ الشفتين وينتهي مباشرة إلى الإدمان. من المحال التمكُّن من النوم، فالوقت ما زال مبكرًا، على الرَّغم من الظلمة التامَّة في الخارج.

انتهى بهم الأمر إلى رواية قصص حياتهم، لأنَّهم لم يتوصَّلوا إلى اتِّفاق على مشاهدة شيء محدَّد في التلفزيون، لأنَّ الشيء الذي نسوا ضمّه إلى أمتعتهم هو موادّ القراءة. وفعلوا الليلة مثلما فعلوا تمامًا في الليلة السابقة، إنَّما بغياب سحر البسكويت هذه المرَّة، لكن بالتدفُّق والثقة نفسيهما. أراد ريتشارد أن يعرف عن زواج لوثيا الفاشل، لأنَّه تعرَّف إلى زوجها كارلوس أورثوا في الجامعة. كان يقدِّره ويحترمه، لكنَّه لم يقل ذلك لها، لأنَّه افترض أنَّ الرجل لم يكن باهرًا إلى حدٍّ كبير، في المستوى الشخصيّ.

لوثيا

تشيلي

ظلّت لوثيا ماراث تراهن على أنّ زوجها وفيّ لها، خلال أعوام حياتها الزوجيّة العشرين. تظنّه مشغولًا جدًّا، لا مجال لديه للإبحار في إستراتيجيّات غراميَّة سرّيَّة، لكنّ الزمن كشف لها أنّها كانت مخطئة في هذا الأمر، كما في أمور كثيرة أخرى. كانت تشعر بالفخر لأنّها منحته بيتًا مستقرًّا وابنة استثنائيَّة. أمّا مشاركته في هذا المشروع فكانت اضطراريَّة في البدء، ثم متقاعسة بعد ذلك، ليس بدافع الخبث وإنّما لضعف شخصيّته، مثلما كانت تؤكّد دانييلًا بعد أن بلغت سنّ القدرة على محاكمة أبويها من دون إدانتهما. كان دور لوثيا، أن تحبّه، وكان دوره أن يتلقّى المحبّة.

تعارفا في العام ١٩٩٠. كانت لوثيا قد رجعت إلى تشيلي بعد نحو سبعة عشر عامًا من المنفى، وحصلت، بصعوبة كبيرة، على وظيفة مُنتجة تلفزيونيَّة، لأنّ آلافًا من الشباب المؤهّلين أكثر منها كانوا يبحثون عن عمل. وكان التعاطف ضئيلًا مع مَن يرجعون إلى البلاد: فاليسار يتّهمهم بأنّهم ذهبوا لأنّهم جبناء، واليمين يعتبرهم شيوعيين.

كانت العاصمة قد تغيَّرت كثيرًا، حتى إنَّ لوثيا لم تكن تعرف الشوارع التي أمضت فيها شبابها، فتسمياتها، التي كانت بأسماء قدّيسين وأزهار، استُبدلت بأسماء عسكريّين وأبطال من الحروب السابقة. كانت المدينة تتلألأ بنظافة الثكنات العسكريَّة ونظامها، واختفت منها جداريَّات الواقعيَّة الاشتراكيَّة التي حلّت محلَّها جدرانٌ بيضاء وأشجار تلقى رعاية جيِّدة. وأُقيمت على ضفاف نهر مابوتشو حدائقُ للأطفال، ولم يعد هناك من يتذكَّر القمامة والجثث التي كانت تحملها تلك المياه ذات يوم. وفي مركز المدينة، كانت البنايات الرماديَّة، وحركةُ مرور الحافلات والدرَّاجات الناريَّة، وبؤسُ الموظَّفين المُدارى بصورة سيِّئة، والناسُ المتعَبون والفتيان الذين يقومون بألعاب بهلوانيَّة عند الإشارات المروريَّة، ليتسوَّلوا بضعة بيزوات. هذا كلّه كان يتناقض مع المراكز التجاريّة في الحيّ العالي، المضاءة مثل خيام السيرك، حيث يمكن إرضاء أشدّ النزوات غرابة: كافيار من بحر البلطيق، شوكولاتة من ڤيينا، شاي من الصين، ورود من الإكوادور، عطور من پاريس... كلّ شيء في متناول يد مَن هو قادر على دفع الثمن. هناك أمَّتان تتقاسمان المكان نفسه: الأمَّة الصغيرة ذات الوفرة والتكبُّر الكونيّ، والأمَّة الكبرى التي تضمّ جميع الآخرين. ففي أحياء الطبقة الوسطى يجري تنفُّس هواء الحداثة بالتقسيط، بينما يتنفَّسون في أحياء الطبقة الراقية هواءَ التكلُّف المستوردَ من أمكنة أخرى. واجهات المتاجر هناك مشابهة لواجهات بارك أفينو، والبيوت الفخمة محميَّة بشباك مكهربة وكلاب باسلة. ومع ذلك، كانت هناك بالقرب من المطار، وعلى امتداد الأتوستراد، أحياءٌ هامشيَّة بائسة مخبَّأة عن عيون السيّاح بجدران وإعلانات ضخمة لفتيات شقراوات بملابس داخليَّة.

لم يبق ظاهرًا سوى القليل من تشيلي المتواضعة والشجاعة والتي عرفتها لوثيا، فقد صار التفاخر والمباهاة موضة رائجة. ولكن، كان يكفي أن تخرج من المدينة لتستعيد شيئًا من البلاد السابقة: قرى الصيّادين، الأسواقَ الشعبيّة، القصصَ مع حساء السمك والخبزِ الخارج للتوّ من الفرن، والناسَ البسطاء ممّن ما زالوا يتكلّمون بلهجة الماضي ويضحكون وهم يغطّون أفواههم بأيديهم، وكرم ضيافتهم. كانت راغبة في العيش في الريف، بعيدًا عن الضجيج، لكنّها لا تستطيع القيام بأعمالها البحثيّة إلّا في العاصمة.

كانت تعرف أنّها غريبة في موطنها، وأنّها منفصلة عن شبكة العلاقات الاجتماعيّة التي لم يكن أيّ شيء ممكنًا من دونها، تائهة في بقايا ماضٍ لا يتوافق مع تشيلي الزمن الحالي المتسرّعة. لم تكن تفهم رموزها وقواعدها؛ فحتى المزاج العام نفسه قد تغيّر، وغزتْ اللغةَ جائحةٌ من صياغات الاحتياط الحذرة ومحاولات تلطيف الكلام، إذ كانت لا تزال بقايا من رقابة الأزمنة الصعبة. لم يسألها أحد عن سنوات غيابها. لم يشأ أحد أن يعرف أين كانت ولا كيف كانت حياتها. هذا المقطع الفاصل من حياتها مُحي بالكامل.

* * *

كانت قد باعت بيتها في فانكوفر وادّخرت بعض النقود الإضافيّة، على نحو أتاح لها الاستقرار في مدينة سنتياغو، في شقّة صغيرة لكنّها في موقع جيّد. رأت أمّها عدمَ رغبتها في العيش معها تصرّفًا مُشينًا، لكن لوثيا، التي صارت في السادسة والثلاثين، كانت في حاجة إلى الاستقلاليّة، فألحّت عليها لينا: «هذه هي العادة في كندا، أمّا هنا

تظلّ البنات العازبات مع آبائهنّ. كان الأجر الذي تتقاضاه يكفيها بصعوبة، بينما هي تحضِّر كتابها الأوَّل. منحت نفسها سنة لإنجاز هذا العمل، لكنَّها سرعان ما أدركت أنَّ عمليَّات البحث والتقصّي ستكون أصعب كثيرًا ممَّا توقَّعته. كان الحكم العسكري قد انتهى منذ شهور قليلة، حين هُزم في استفتاء عام، وكانت ديموقراطيَّة مشروطة وحذرة قد بدأت تخطو خطواتها الأولى في بلاد تحمل جرح الماضي وتتنفَّس هواء الحذر، بينما نوعيَّة المعلومات التي عليها البحث عنها تشكِّل جزءًا من التاريخ السرّيّ.

كان كارلوس أورثوا محاميًا معروفًا ومثيرًا للجدل، يتعاون مع اللجنة الدوليَّة لحقوق الإنسان. ذهبت لوثيا لمقابلته من أجل كتابها، بعد محاولتها الحصولَ على موعد طوال أسابيع، لأنَّه كان مشغولًا جدًّا ويسافر بكثرة. مكتبه في بناية متواضعة في وسط سنتياغو، مؤلَّف من ثلاث غرف ممتلئة بمناضد وخزائن أرشيف معدنيَّة، فيها ملفَّات فائضة عن طاقة أدراجها، وكتبُ قانون، وصورٌ لأشخاص بالأبيض والأسود، جميعهم شبَّان تقريبًا، معلَّقةٌ بدبابيس على لوح خشبيّ، وسبُّورةٌ سُجِّلتْ عليها مواعيد وتواريخ. ملامح الحداثة الوحيدة تتمثَّل في جهازي كمبيوتر، وجهاز فاكس وآلة تصوير مستندات. وفي أحد الأركان، كانت سكرتيرته لولاّ تضرب على آلة كاتبة كهربائيَّة، بإيقاع عازفة بيانو. إنَّها امرأة قويَّة ومتورِّدة، لها مظهر بريء كأنَّها راهبة. استقبل كارلوس لوثيا وهو وراء مكتبه في الحجرة الثالثة التي لا تتميَّز عن الغرفتين الأُخريين إلَّا بشجرة مزروعة في أصيص كبير، وهي حيَّة بصورة إعجازيَّة في ظلال ذلك المكتب الضبابيَّة.

كان المحامي قد أكمل إحدى وخمسين سنة، يشعّ بحيويَّة

رياضيّ. إنَّه أكثر الرجال الذين رأتهم لوثيا جاذبيَّة؛ وقد استثار فيها عاطفة فوريَّة وساحقة. دفء بدائيّ ومتجاوز للحدود، سرعان ما سيتحوَّل إلى افتتان بشخصيَّته وبالعمل الذي يقوم به. أمضت بضع دقائق مشوَّشة، تحاول أن تركِّز في أسئلتها، بينما كان ينتظر وهو يضرب بغيظ على المنضدة بقلم رصاص. واغرورقت عينا لوثيا بالدموع لخشيتها من أن يصرفها تحت أيّ ذريعة، وشرحت له أنَّها أمضت سنوات طويلة خارج تشيلي، وأنَّ هوس التحقيق في موضوع المختفين شخصيّ جدًا، لأنَّ أخاها كان واحدًا منهم. ارتبك أمام ذلك الانقلاب في الموقف، فدفع علبة مناديل ورقيَّة في اتجاهها، وعرض عليها فنجان قهوة. نفَّت أنفها خَجِلة من عدم سيطرتها على نفسها أمام ذلك الرجل الذي رأى، من دون شكّ، آلافَ الحالات المشابهة لحالتها.

جاءت لولاّ حاملة فنجان قهوة لها وفنجان شاي له. وعندما قدَّمت الفنجان إلى لوثيا، وضعت المرأة يدها على كتفها وتركتها هناك عدَّة ثوانٍ. إيماءة الطِّيبة غير المتوقَّعة تلك أفلتت نوبة دموع ثانية، وجعلت قلب كارلوس يرقّ.

استطاعا عندئذ تبادل الكلام. تدبَّرت لوثيا الأمر لتطيل وقت تناول فنجان القهوة بصورة مبالَغ فيها. كانت لدى كارلوس معلومات من المحال الحصول عليها من دون مساعدته. وقد ردّ على الأسئلة طوال أكثر من ثلاث ساعات، محاولًا أن يفسِّر ما لا يمكن تفسيره؛ وفي النهاية، عندما استنفد الاثنان قواهما وخيَّم ظلام الليل في الخارج، عرض عليها تمكينها من الوصول إلى موادّ من أرشيفه الخاصّ. كانت لولاّ قد غادرت قبل وقت لا بأس به، ولكن كارلوس طلب من لوثيا أن تعود، وسوف تتولّى سكرتيرته توفير كل المعلومات

التي ترغب في الحصول عليها.

لم يكن في الموقف أيّ شيء من الرومانسيَّة، ولكنّ المحامي انتبه إلى التأثير الذي خلَّفه في تلك المرأة. وقرَّر مرافقتها حتى بيتها، لأنها بدت له جذّابة، على الرَّغم من أنّه يمتنع، من حيث المبدأ، من إقامة علاقات مع نساء معقّدات، وأقلّ من ذلك مع بكّاءات. وتكفيه المصائب التي عليه تصريفها يوميًّا في عمله، من أجل الصدمات الانفعاليَّة. وافق على تجريب وصفتها لكوكتيل «البيسكو سور»، عندما صارا في شقَّة لوثيا. ولسوف يؤكِّد على الدوام، بنبرة ممازحة، أنّها غيَّبته عن الوعي بذلك الشراب الكحوليّ وتملّقته بألاعيب ساحرة. مضت تلك الليلة الأولى في غيبوبة شراب البيسكو، وكانت المفاجأة المشتركة في أنَّهما وجدا نفسيهما معًا في الفراش. غادر باكرًا جدًّا في اليوم التالي، مودِّعًا إيَّاها بقبلة عفيفة، ولم تعد تعرف المزيد عنه. فكارلوس لم يتَّصل، ولم يردّ على اتِّصالاتها.

* * *

حضرت لوثيا ماراث إلى مكتب أورثوا، بعد ثلاثة شهور من ذلك، من دون إشعار مسبق. تعرَّفت إليها فورًا السكرتيرة لولا التي كانت تجلس في مكانها، تضرب على الآلة الكاتبة بالنَّزَق نفسه الذي كانت عليه في المرَّة الأولى، وسألتها متى ستراجع موادّ الأرشيف. لم تخبرها لوثيا بأنَّ كارلوس لم يولِ اهتمامًا باتِّصالاتها، لأنَّها افترضت أنَّ السكرتيرة تعرف ذلك. أدخلتها لولا مكتب رئيسها، وقدَّمت إليها فنجان قهوة سريعة الذوبان مع حليب مكثَّف، وطلبت منها الصبر، لأنَّه في المحكمة، لكن كارلوس جاء قبل انقضاء نصف ساعة وقد فكّ

ربطة عنقه وكان يحمل الجاكيت في يده. استقبلته لوثيا واقفة وأخبرته من دون أيّ مقدّمات بأنّها حبلى.

شعرت كما لو أنّه لا يتذكّرها أبدًا، على الرَّغم من أنّه أكّد لها أنّ شعورها ذاك كان زائفًا، وأنّه يعرف بالطبع من تكون، ولديه أفضل ذكرى من ليلة «البيسكو سور» تلك، وأنّ المفاجأة هي السبب في تأخُر ردّ فعله. وطلب منها بجفاء تحليل DNA، عندما أخبرته بأنّ تلك ربّما تكون فرصتها الأخيرة في أن تكون أُمًّا. كانت لوثيا على وشك أن تتركه وتغادر مصمِّمة على أن تتولّى تربية الطفل وحدها، ولكن ذكرى طفولتها بلا أب أوقفتها، فوافقت. وقد أكّد الفحص أبوّة كارلوس من دون أيّ شكّ أو شبهة، تلاشى عندئذ موقفه المرتاب والغاضب، وتحوَّل إلى حماسة ساذجة، فأعلن أنّهما سيتزوّجان، لأنّ تلك هي فرصته الأخيرة أيضًا لتجاوز رعبه من الزواج، ولأنّه يريد أن يكون أبًا، على الرَّغم من أنّه في سنّ تؤهِّله لأن يكون جَدًّا.

تنبّأت لينا للوثيا بأنّ ذلك الزواج لن يدوم أكثر من بضعة شهور، بسبب خمسة عشر عامًا، هي فارق السنّ بينهما، ولأنّ كارلوس أورثوا سيخرج هاربًا، فور ولادة الطفل، لأنّ عازبًا مهووسًا مثله لن يتحمَّل زعيق طفل حديث الولادة. تهيّأت لوثيا لهذا الاحتمال بحسٍّ فلسفيّ في الواقع. لم يكن هنالك في تشيلي قانون طلاق ـ ولن يوجد حتى ٢٠٠٤ ـ، ولكن كانت هناك أساليب ملتوية للحصول على إبطال الزواج بشهود زور وقُضاة متواطئين. وكان شائعًا وفعّالًا جدًّا منهج أنّ الأزواج الذين يظلُّون متَّحدين مدى الحياة يُعَدُّون على الأصابع. فاقترحت على أب ابنها المستقبليّ أن ينفصلا كصديقين بعد ولادة الطفل. لقد كانت عاشقة، ولكنّها أدركت أنّ الأمر سوف ينتهي إلى أن

بكرهها كارلوس إذا ما أحسّ بأنّه قد خُدع. وقد رفض هو فورًا هذا الحلّ، لأنّه بدا له غير أخلاقيّ، وظلّت هي مصمّمة على فكرة أنّه مع الزمن والتعوُّد على الحياة الحميمة المشتركة يمكن أن يتوصَّل إلى حبّها، وتهيّأت للتوصُّل إلى ذلك بأيّ ثمن.

* * *

استقرّا في البيت الذي ورثه كارلوس عن أبويه، وكان في حالة سيّئة، وفي حيٍّ تردَّت مكانته مذ راحت سنتياغو تتوسَّع في اتّجاه سفوح الجبال، حيث تُفَضّل الطبقة المتنفّذة العيش بعيدًا عن الغمامة السامّة التي تخنق المدينة عادة. أجّلت لوثيا، بناءً على نصيحة من أمّها، إجراءات البحث والتحرّي من أجل كتابها، لأنَّ الموضوع مؤذٍ إلى حدٍّ يمكن له أن يؤثّر في نفسيَّة الطفل وهو جنين في طور التكوين. وقالت لها لينا إنَّه ليس من المناسب لأحد أن يبدأ الحياة في بطن امرأة تمضي باحثة عن جثث. كانت تلك المرة الأولى التي تشير فيها أمّها إلى المُغَيَّبين بمثل هذه المصطلحات، وبدا ذلك كما لو أنّها تضع شاهدة قبر فوق اسم ابنها المُغَيَّب.

اتَّخذ كارلوس موقفًا متوافقًا مع نظريَّة حماته، وطرح بحزم قرار عدم مساعدة لوثيا بشأن الكتاب إلى ما بعد الولادة. وقال إنَّ شهور الانتظار هذه يجب أن تكون شهور مرح وسعادة وراحة، ولكنَّ الحَبَل أظهر لوثيا بطاقةٍ مشعَّة، وبدلاً من أن تنشغل بحياكة جوارب طفوليَّة، انهمكت في طلاء البيت من الداخل والخارج. وواظبت، في لحظات فراغها، على اتّباع دورات تدريب عمليّ، وانتهت إلى تنجيد أثاث الصالون، واستبدال تمديدات مياه المطبخ ومجاريه. كان زوجها يرجع

من المكتب ويجدها تحمل مطرقة وفمها مملوء بمسامير، أو تجر بطنها المنتفخ تحت حوض مجلى المطبخ وفي يدها أنبوبة لحام أوكسجين. واقتحمت بالحماسة نفسها الفناءَ المهجور منذ نحو عشر سنوات، وحوَّلته بالرفش والمعول إلى حديقة فوضويَّة، حيث تتعايش شتول الورود مع نبتات الخسّ والبصل.

كانت منهمكة في أحد مشاريعها البنائيَّة عندما ابتلّ بنطالها بماء مشيمتها فجأة. ظنَّت أنَّها قد بالت من دون أن تنتبه، لكن أمَّها التي كانت زائرة عندها، استدعت سيَّارة أجرة وأخذتها طيرانًا إلى مستشفى التوليد.

وُلدتْ دانييلًا في الشهر السابع، وألقى كارلوس اللوم في هذه الولادة المبكِّرة على سلوك لوثيا المستهتر. فقبل بضعة أيَّام، بينما هي ترسم غيومًا بيضاء على سقف غرفة الطفلة الأزرق السماوي، وقعت عن السلّم. ظلَّت دانييلا ثلاثة أسابيع في حاضنة، وأسبوعين آخرين تحت المراقبة في المشفى. تلك المخلوقة التي لا تزال نيئة، ولها مظهر قرد أجرد، موصولة بمسابير وأجهزة تحكُّم ومراقبة، كانت تسبِّب لأبيها خواءً في المعدة يشبه الغثيان، ولكن عندما استقرّ وضع الطفلة أخيرًا في مهدها في البيت، وأمسكت بإصبع أبيها الصغرى بإصرار، سيطرت عليه إلى الأبد. وتوصَّلت دانييلا إلى أن تكون الشخص الوحيد الذي يمكن لكارلوس أورثوا أن يخضع أمامه، والوحيدةَ التي استطاع أن يحبَّها.

* * *

لم تتحقَّق نبوءة لينا ماراث المتشائمة، واستمرَّ زواج ابنتها

لعقدين، حافظت لوثيا على حيويَّة ذلك الحبّ، خلال خمسة عشر عامًا من تلك الأعوام، من دون بذل أيّ جهد من جانب زوجها، وهي مأثرة مخبِّلة وإصرار. كانت لوثيا قد خاضت، قبل الزواج، أربع مغامرات غراميَّة مهمَّة؛ أُولاها طبعًا علاقتها بالفدائيّ المنفيّ المزعوم الذي تعرَّفت إليه في كاراكاس، والمنخرط في النضال النظريّ من أجل حلم مساواة اشتراكيّ لا يشمل النساء، مثلما اكتشفت هي نفسها سريعًا. وكانت علاقتها الأخيرة بموسيقيّ أفريقي مفتول العضلات، له جدائل شعر رفيعة مزيَّنة بحبَّات خرز بلاستيكيَّة، اعترف لها بأنَّ له زوجتين شرعيَّتين وعدَّة أبناء في السنغال. اعتادت لينا أن تُطلق تسمية «متلازمة شجرة عيد الميلاد» على ميل ابنتها ذاك إلى تزيين موضوع تخيُّلاتها بفضائل مختلقة. كانت لوثيا تختار شجرة سرو عاديَّة، تزيِّنها بأشياء غريبة متنوِّعة وحبال زينة وأوراق مذهَّبة، وتبدأ تلك الأشياء بالتساقط، مع مرور الوقت، إلى ألاّ يبقى سوى الهيكل العظمي للشجرة الجرداء المتيبِّسة. وكانت لينا تعزو ذلك إلى الكارما، فتجاوز بلاهة شجرة أعياد الميلاد هو من الدروس التي على ابنتها أن تتعلَّمه في إعادة التجسُّد تلك، كي تتجنَّب تكرار الخطأ نفسه في تجسُّدها التالي. لقد كانت كاثوليكيَّة مؤمنة، ولكنَّها تبنَّت فكرة الكارما وإعادة التجسُّد على أمل أن يعود ابنها إنريكي إلى الولادة من جديد، ويتمكَّن من أن يعيش حياة كاملة.

ظلَّت لوثيا لسنوات تعزو عدم مبالاة زوجها إلى ضغوط عمله الرهيبة، من دون أن يخامرها الشكّ في أنَّه ينفق جزءًا لا بأس به من طاقته ووقته مع عشيقات عابرات. كانا يتعايشان بمودَّة، كلٌّ منهما في نشاطاته، وفي عالمه، وفي غرفته الخاصَّة. ظلَّت دانييلًا تنام في سرير

أمّها حتى بلوغها الثامنة من العمر. وكانت لوثيا تمارس الحبّ مع كارلوس عندما تذهب إلى غرفته على رؤوس أصابعها كيلا توقظ الطفلة. وتشعر بالمهانة، لأنَّ هي من تبادر على الدوام.

كانت ترضى بفتات المحبَّة، معتزَّة بعدم الطلب. وتكتفي بنفسها، وكان هو ممتنًّا لذلك.

ريتشارد

شمال نيويورك

كان يمكن للساعات الأخيرة من يوم الأحد أن تبدو أبديَّة بالنسبة إلى ريتشارد ولوثيا وإيفيلين المحتجزين في غرفة النُّزُل، وسط رائحة الكريوزوت والطعام الصينيّ، لكنَّ الساعات انقضت سريعة وهم يروون قصص حياتهم. أوَّل من غلبهم النعاس هما إيفيلين والشيهواهوا. كانت الصبيَّة تحتلّ جزءًا صغيرًا جدًّا من السرير الذي تشغله مع لوثيا، لكن مارسيلو استولى على البقيَّة، مستلقيًا وقوائمه مشدودة ومتصلِّبة.

«كيف ستكون حال القطط؟» سألت لوثيا ريشارد عند الساعة العاشرة تقريبًا، عندما صارا يتثاءبان.

- على ما يرام. لقد اتَّصلتُ بجارتي من المطعم الصينيّ. لم أشأ استخدام الهاتف الخلويّ لأنَّهم يستطيعون تحديد مكان المكالمة.

- ومن الذي سيهتمّ بما تتحدَّث به يا ريتشارد؟ أضف إلى ذلك أنَّهم لا يستطيعون اعتراض جميع الهواتف الخلويَّة ومراقبتها.

- هذا أمر تحدّثنا فيه يا لوثيا. إذا ما وجدوا السيَّارة. . .

«هنالك بلايين وبلايين المكالمات المتقاطعة في الفضاء»، قاطعته لوثيا، وأضافت: وآلاف آلاف السيَّارات التي تختفي كلّ يوم، تُترك مهجورة، أو تُسرَق، أو يفكّكونها لبيعها قطعَ غيار، أو ينتهي بها المطاف بالتحوُّل إلى خردة، أو يرسلونها تهريبًا إلى كولومبيا...

ـ ويستخدمونها أيضًا لإلقاء جثث إلى أعماق بحيرة.

ـ أيثقل عليك هذا القرار؟

«أجل، ولكنَّ وقت الندم والتراجع قد فات. أُريد أن أستحمّ»، قال ريتشارد، وتوجَّه نحو الحمَّام.

تبدو لوثيا جيِّدة حقًّا بهذا الشعر المشعَّث وجزمة الثلج التي تنتعلها، فكَّر ريتشارد وماء الدوش الساخن جدًّا يحرق ظهره، وبدا علاجًا رائعًا لجهد النهار وإنهاكه وللسع البراغيث. إنَّهما يتجادلان في التفاصيل، ولكنَّهما يتفاهمان جيِّدًا. يروق له هذا المزيج من الفظاظة والمودَّة فيها، وطريقةُ انطلاقها في الحياة بلا خوف، وملامحُها ما بين المرح والمراوَغة، وابتسامتُها المواربة. فهو نفسه، بالمقارنة معها، يبدو زومبيًّا متعثِّرًا في المرحلة العمريَّة الثالثة، ولكنَّه سيستعيد معها الحياة. سيكون جيِّدًا أن يهرما معًا، يمسك كلٌّ منهما بيد الآخر، قال ذلك لنفسه. كان يشعر بضربات مطرقة في قلبه وهو يتخيَّل كيف يبدو شعر لوثيا المشعَّث على وسادتها، وكيف تبدو جزمتها إلى جانب سريرها، وكيف يبدو وجهها قريبًا جدًّا من وجهه إلى حدٍّ يمكن له الضياع في عينيها اللتين تشبهان عينَي أميرة تركيَّة. ودمدم: «سامحيني يا آنيتا». لقد عاش وحيدًا لوقت طويل، ونسي مذاق ذلك الحنان الخِرّيف، وحرقة الخذلان في فوَّهة المعدة، وذلك التسرُّع في الدم،

وهبّات الشهوة. «أيكون حبًّا هذا الذي يحدث؟ إذا كان كذلك فعلًا، فلا أدري ماذا أفعل. إنَّني في ورطة». ألقى باللائمة على التعب. سوف يصفو ذهنه مع ضوء النهار. سوف يتخلَّص من السيَّارة ومن جثَّة كاترين براون، وسيودِّع إيفيلين أورتيغا، وستعود لوثيا عندئذ لتكون التشيليَّة المقيمة بالقبو فحسب. لكنَّه لا يريد لتلك اللحظة أن تأتي. يريد أن تتوقَّف عقارب الساعات وألَّا يكون عليهما أن يتبادلا الوداع.

* * *

ارتدى قميصه الداخليّ وبنطاله، بعد أن انتهى من الاستحمام، لأنَّه لم يجد الشجاعة لإخراج البيجاما التي في جعبته. فإذا كانت لوثيا قد سخرت بمبالغته في حمل أمتعة كثيرة من أجل رحلة ليومين فقط، فسوف يبدو لها مضحكًا أنَّه أحضر بيجاما أيضًا. ولو أنَّه فكَّر في الأمر لتبيَّن له أنَّ ذلك مضحك بالفعل. رجع إلى الغرفة منتعشًا، ومُدركًا أنَّه سيجد صعوبة في النوم؛ لأنَّ أيّ تغيير في روتينه المعهود يسبِّب له الأرق، ولاسيَّما إذا لم تكن معه وسادته المصنوعة من موادّ لا تسبِّب أيَّ حساسيَّة، وذات التصميم المناسب لطريقته في النوم. لكنَّه رأى أنَّ من الأفضل عدمَ الإتيان، في أيِّ حال، على ذكر الوسادة أمام لوثيا. وجدها مستلقية على السنتيمترات القليلة التي تركها الكلب شاغرة.

«أنزليه عن السرير يا لوثيا»، قال وهو يقترب ليفعل ذلك.

- إيَّاك أن تفعل يا ريتشارد. مارسيلو حسَّاس جدًّا، وسوف يغضب.

- النوم مع الحيوانات خطر.

- لماذا؟

ـ من أجل الصحَّة، هذا كبداية. أتريدين أن تعرفي الأمراض التي يمكن أن. . .

ـ السيِّئ للصحَّة هو غسل الأيدي في كلِّ لحظة، مثلما تفعل أنت. طابت ليلتك يا ريتشارد.

ـ كما تريدين. ليلة سعيدة.

بدأت تظهر على ريتشارد أوَّل الأعراض. بعد ساعة ونصف ساعة من ذلك صار يشعر بثقل في معدته وبطعم غريب في فمه. أغلق باب الحمَّام على نفسه، وفتح كلّ صنابير الماء ليداري قرقعة فوران أحشائه، ثم فتح النافذة لتنقشع الرائحة. وظلّ هناك، يرتجف في المرحاض ويلعن الساعة التي تذوَّق فيها الطعام الصينيّ، ويتساءل كيف يمكن أن يكون هو المُصابَ الوحيد بين الثلاثة. جعلته تشنُّجات البطن يتعرَّق عرقًا باردًا. طرقت عليه لوثيا الباب بعد قليل.

ـ هل أنت على ما يرام؟

«لقد كان الطعام مسمَّمًا»، قال متلعثمًا.

ـ أيمكنني الدخول؟

ـ لا!

ـ افتح الباب يا ريتشارد، دعني أساعدك.

«لا! لا!»، صرخ بالقليل من القوَّة المتبقِّية لديه.

حاولت لوثيا فتح الباب، لكنَّه كان قد وضع القفل. لقد كرهها في تلك اللحظة. الشيء الوحيد الذي كان يتمنَّاه هو أن يموت هناك بالذات، متَّسخًا بالبراز ولسع البراغيث، وحيدًا، وحيدًا تمامًا، بلا شهود على عذابه، وأن تختفي لوثيا وإيفيلين، وتتحوَّلَ سيَّارة اللكزس

وكاتربن إلى دخان، وتهدأ تشنُّجات بطنه، ونُطرَدَ القذارة كلّها دفعة واحدة، ويأخذَ بالصراخ من العجز والغضب. أكّدت له لوثيا، عبر الباب، أنَّ الطعام لم يكن سيِّئًا، وأنَّه لم يسبِّب لها ولإيفيلين أيّ ضرر، وأنَّ آلامه سوف تنقضي، وكلّ ما هنالك أنَّه عصبيّ؛ وعرضت عليه أن تُعدّ له شايًا. لم يردّ عليها. كان يشعر ببرد شديد وبتجمُّد فكّه. هدأت أمعاؤه، بعد عشر دقائق، وبما يشبه المعجزة، واستطاع الوقوف على قدميه، وتفحَّص وجهه الأخضر في المرآة، وأخذ دوش ماء ساخن آخر لوقت طويل هدَّأ ارتجافه الارتعاشيّ. كان بردٌ ينخر العظام يدخل من النافذة المفتوحة، ولكنَّه لم يجرؤ على إغلاقها، ولا على فتح الباب وهو يتقزَّز من الوجع. سيبقى هناك إلى ألاّ يعود قادرًا على التحمُّل، لكنَّه أدرك أنَّ فكرة قضاء الليل في الحمَّام ليست عمليَّة، فخرج أخيرًا بركبتين متراخيتين، وهو لا يزال يرتعش، وأغلق الباب وراءه، وجرَّ قدميه حتى الفراش. كانت لوثيا حافية، مشعَّثة الشعر، وترتدي قميصًا فضفاضًا يصل حتى ركبتيها، جاءته بفنجان يتصاعد منه البخار. اعتذر إليها ريتشارد بسبب رائحة النتانة، مُهانًا حتى النخاع.

«عمَّ تتكلَّم؟ أنا لا أشمّ شيئًا، وكذلك إيفيلين ومارسيلو، وهما نائمان»، ردَّت عليه وهي تضع الفنجان بين يديه. اضافت: عليك أن تستريح الآن، وغدًا ستكون رجلًا جديدًا. اترك لي فسحة صغيرة، سوف أنام معك.

- ماذا قلتِ؟

- ابتعد قليلًا، لأنّي سأندسّ في الفراش.

- لوثيا... لا يمكن لك أن تختاري أسوأ لحظة، إنّني مريض.

ـ كيف تدفعني إلى التوسُّل يا رجل! إنَّها بداية سيِّئة، كان عليك أن تكون أنت المبادر، ولكنَّك بدلاً من أن تفعل ذلك تستثير غضبي.

ـ المعذرة، ما أردت قوله أن. . .

ـ دعك من التخنُّث. أنا لا أسبِّب أيّ إزعاج، أنام من دون أن أتحرَّك طوال الليل.

اندسَّت بين الملاءات، من دون مزيد من الكلام، واستقرَّت براحة بعد ثلاث حركات، بينما ريتشارد جالسٌ في الفراش ينفخ على الشاي ويتناول رشفات منه، مُبديًا ارتباكه بأقصى صورة ممكنة، من دون أن يعرف كيف يفسِّر ما يحدث. واستلقى أخيرًا بهدوء شديد إلى جانبها، مع شعوره بالوهن، والألم، والافتتان، واعيًا تمامًا الحضورَ الهائل لهذه المرأة، لشكل جسدها، لدفئها المنعش، ولمَّة شعرها الأبيض الغريب، وملمس ذراعها المهيِّجة والتي لا يمكن تفاديها والملامسةِ لذراعه، ووركِها، وقدمِها. لقد قالت لوثيا الحقيقة: إنَّها تنام على ظهرها وذراعاها متقاطعتان على صدرها، وقورةً وصامتة مثل سيِّد من العصور الوسطى منحوتٍ في صخرة ناووسه. ظنَّ ريتشارد أنَّه لن تغمض له عين خلال الساعات التالية، وأنَّه سيظلّ مستيقظًا يتنشّق عبير لوثيا المجهول والعذب، ولكنَّه قبل أن ينهي الفكرة نام. وقد نام سعيدًا.

* * *

طلع صباح يوم الاثنين هادئًا. لقد تحلَّلت العاصفة أخيرًا على مسافة عدَّة أميال داخل المحيط الأطلسيّ، وكان الثلج يغطّي المشهد كلّه كرداء من زبد، كاتمًا أيَّ صوت. كانت لوثيا نائمة إلى جانب

ريتشارد بالوضع نفسه الذي كانت عليه في الليلة الفائتة، بينما إيفيلين نائمة على السرير الآخر، مع الشيهواهوا المتقوقع على نفسه فوق الوسادة. عندما استيقظ ريتشارد، لاحظ أنَّ رائحة الطعام الصينيّ ما زالت في الغرفة، لكنَّها لم تعد تزعجه كالسابق. لقد أمضى الليل قلقًا، في البدء لأنَّه غير معتاد على العيش مع امرأة، فما بالك بالنوم معها. ولكنَّ النعاس فاجأه سريعًا، وراح يطفو بلا جاذبيَّة في فضاء الكواكب، في هاوية خاوية وغير متناهية. لقد اعتاد في السابق، عندما كان يشرب كثيرًا، على السقوط في حالات مشابهة، ولكن ما حدث كان خَدرًا ثقيلًا ومختلفًا جدًّا عن سلام هذه الساعات الأخيرة المباركة في النُّزُل إلى جانب لوثيا. رأى ساعة موبايله تُشير إلى الثامنة والربع صباحًا، وفُوجئ بأنَّه نام كلّ تلك الساعات بعد الحدث المخجل في المرحاض. نهض بتكتُّم كي يذهب بحثًا عن قهوة طازجة للوثيا وإيفيلين. إنَّه في حاجة إلى التهوية ومراجعة أحداث النهار والليلة السابقين. كان يشعر بأنَّه متشنِّج من الداخل، مزعزع بإعصار انفعالات جديدة. لقد استيقظ وأنفه يلامس عنق لوثيا، وإحدى ذراعيه تُحيط بخصرها مع انتصاب مراهق. دفء هذه المرأة الحميم، وتنفّسها الهادئ، ورأسها المشعّث، كلّ ذلك كان يبدو أفضل ممَّا كان يتخيَّله ويبعث فيه مزيجًا زخمًا من الإيروتيكيَّة وعذوبة لا تُطاق.

فكَّر، بصورة غائمة، في سوزان التي اعتاد اللقاء معها بانتظام في فندق في منهاتن، كإجراء صحِّيّ. إنَّهما ينسجمان تمامًا، ويتبادلان الحديث في أي موضوع، بعد إشباع احتياجاتهما الجسديَّة، باستثناء المشاعر. لم يناما الليل كلّه معًا قطّ، ولكن إذا ما توافر لهما الوقت يذهبان لتناول الطعام في مطعم مغربيّ محتشم جدًّا، ويفترقان بعد ذلك

كصديقين جيِّدين. وإذا ما التقيا مصادفة في أحد مباني الجامعة، يتبادلان التحيَّة بتلقائيَّة لطيفة، وهذه ليست واجهة للتغطية على علاقة سرِّيَّة، وإنَّما هي ما يشعر به كلاهما فعلًا. لقد كان كلٌّ منهما يقدِّر الآخر، لكن غواية الوقوع في الحبِّ لم تبرز قطّ.

ما يشعر به تجاه لوثيا لا يمكن مقارنته بتلك الحال. إنَّها النقيض. فمعها انمحت لدى ريتشارد عقود ماضية ورجع إلى الثامنة عشرة من عمره. كان يظنّ أنَّه منيع، فوجد نفسه وقد تحوَّل فجأة إلى فتًى يفع ضحيَّة فوران هرموناته. ولو أنَّها تمكَّنت من ملاحظة ذلك لسخرت منه بلا رحمة. لقد أمضى ساعات الليل المباركة مع امرأة لأوَّل مرَّة منذ خمسة وعشرين عامًا، قريبًا جدًّا منها، يتنفَّسان معًا. كانت مسألة النوم معها بسيطة جدًّا، لكنَّ ما يحدث له الآن معقَّدٌ جدًّا؛ هذا المزيج من السعادة والرعب، من التقدُّم قُدمًا والرغبة في الخروج هاربًا، وهذا التسرُّع في الشهوة.

وقرَّر: هذا جنون. أراد أن يكلِّمها؛ أن يوضِّح الأمور؛ أن يتحرَّى إذا ما كانت تشعر بمثل ما يشعر به، ولكنَّه لا يريد التسرُّع. يمكن له أن يستثير فزعها ويدمِّر كلّ شيء. أضف إلى ذلك، أنَّه بوجود إيڤيلين معهما، لن يكون ممكنًا لهما التحدُّث إلَّا في أقلِّ القليل. عليه أن ينتظر، ولكنَّ الانتظار يتفلَّت منه ويصبح مستحيلًا. ربَّما لن يكونا معًا في اليوم التالي، وتكون قد فاتت اللحظة المناسبة لقول ما يجب أن يقوله لها. إذا كان يتجرَّأ، فعليه أن يقول لها الآن بالذات، بلا مقدِّمات، إنَّه يحبّها، وإنَّه في الليلة الفائتة كان راغبًا في احتضانها وعدم إفلاتها أبدًا. وإذا كان لديه بصيص ضئيل على الأقلِّ ممَّا نفكِّر فيه، فلتقله هي نفسها. ما الذي يمكنه تقديمه إليها؟ إنَّه يحمل الكثير

من المتاع على كاهله؛ وجميع من هم في مثل سنّه يحملون متاعًا على كواهلهم، ولكن متاعه يزن مقدار حبَّة صغيرة.

يُتاح له أن يراها نائمة للمرَّة الثانية. تبدو كطفلة، لم تنتبه إلى أنَّه قد استيقظ، كما لو أنَّهما زوجان عجوزان تقاسما الفراش نفسه لسنوات طويلة. أراد أن يوقظها بقبلات؛ أن يطلب منها منحه فرصة؛ أن يدعوها إلى أن تغزوه، وأن تستقرّ في بيته، وأن تحتلّ حياته، حتى آخر ركن فيها، بحبّها الساحر والمتسلِّط. لم يكن قطّ في مثل هذه الثقة بالنفس في أيّ أمر. كان يتصوَّر أنَّه إذا وصلت لوثيا إلى الوقوع في حبِّه، فسوف يمثِّل ذلك معجزة. وتساءل كيف انتظر ذلك الوقت كلَّه لينتبه إلى هذا الحبّ الذي يخنقه، والذي يملأ كلّ ذرَّة من كيانه؟ فيمَ كان يفكِّر؟ لقد اضاع أربعة شهور كاملة كأبله. هذا الفيض من الحبِّ لا يمكن أن يكون وليد اللحظة، لا بدَّ من أنَّه بدأ ينمو منذ أيلول/سبتمبر، عند مجيئها. كان يشعر بألم في صدره من الخوف، مثل ألم جرح لذيذ. وفكَّر: فلتكوني مباركة يا إيفيلين أورتيغا، فبفضلك حدثت المعجزة. إنَّها معجزة، ولا وجود لتعريف آخر لهذا الذي يشعر به.

* * *

كان قد فتح الباب بحثًا عن هواء بارد؛ عن أوكسجين وسكينة، لأنه كان يختنق بوابل المشاعر المفاجئة والمندفعة بلا كابح. لم يُتح لريتشارد أن يخطو خطوة واحدة خارج الغرفة، لأنَّه وجد نفسه وجهًا لوجه مع أُيَّل. دفعه الرعب إلى الوراء مع إطلاق صيحة أيقظت لوثيا وإيفيلين. ومن دون أن يشاطره الحيوان مفاجأته، انحنى ليُدخل رأسه إلى الغرفة، لكن قرونه المسطَّحة الكبيرة كانت تحول دون ذلك.

تكوّرت إيفيلين على نفسها مرتعبة، فهي لم ترَ من قبل مثل ذلك المسخ، بينما راحت لوثيا تبحث بتسرُّع عن هاتفها الخلويّ لتلتقط صورة. ربَّما كان الأيَّل سيستقرّ في الغرفة لولا تدخُل مارسيلو الذي تصدَّى للمشكلة بنباحه المبحوح ككلب حربيّ. فتقهقر الأيَّل وهو يهزّ أساسات المبنى الخشبيّ عند ارتطام قرونه بالمدخل، وابتعد راكضًا يودِّعه كورال ضحكات عصبيَّة ونباحٌ غاضب.

أعلن ريتشارد، وهو يتعرَّق من شحنة الأدرينالين، أنَّه سيذهب بحثًا عن قهوة بينما يتركهما تلبسان، ولكنَّه لم يصل بعيدًا. فعلى بعد خطوات من الباب كان الأيَّل قد خلَّف كومة من البراز الطازج، كيلوغرامين من كرات بيضاء، غاص حذاؤه فيها حتى الكاحل. أطلق لعنة وراح يقفز على قدم واحدة في اتِّجاه بهو الاستقبال، وقد كان له لحسن الحظّ نافذة تُطلّ على مرأب السيَّارات، فطلب خرطوم ماء ليغسل جزمته. كان قد سعى بكلّ حذر إلى عدم لفت انتباه أحد إليهم، كيلا يتمكَّن أحد من تذكُّرهم خلال رحلتهم المتهوِّرة، فجاء هذا الحيوان، باستهتاره، ليطيح بكلّ احتياطاته. لأنَّه إذا كان هنالك أمر لا يمكن نسيانه، فإنَّه منظر شخص أبله غائص في البراز، هذا ما انتهى إليه ريتشارد. إنَّه طالع شؤم لما تبقَّى من الرحلة. أم أنَّه قد يكون فأل خير؟ لا يمكن حدوث شيء سيِّئ، حسم أمره، فأنا محميّ بصِبْيانيَّة وقوعي في الحبّ. وانفجر ضاحكًا، لأنَّه لولا اكتشاف الحبّ الذي يلوِّن الدنيا بألوان متوهِّجة، لظنّ أنَّه قد وقع ضحيَّة فأل شؤم. وكما لو أنَّ مسألة عاثرة الحظّ كاترين براون ليست كافية، فيأتي ليُضاف إليها سوءُ الظروف الجوِّيَّة، والبراغيثُ، والطعامُ المسمَّم، والقرحةُ المعويَّة، وبرازُه هو نفسه، ثم برازُ الأيَّل.

إيفيلين

الحدود بين المكسيك والولايات المتَّحدة

تبدو الأيَّام لإيفيلين أورتيغا بلا نهاية في ذلك الضجر والحَرّ الخانق في مخيَّم نويفا لاريدو، ولكن ما إن تبدأ برودة الليل حتى يتحوَّل المكان إلى جُحر فئران يعجّ بالنشاطات السرِّيَّة والرذيلة. لقد حذَّر المهرِّب كابريرا إيفيلين والمسافرين الآخرين معه من الاختلاط بأحد، وأوصاهم بأن ينتبهوا إلى ضرورة عدم إظهار أي نقود، ولكن ذلك كان مستحيلًا. نهم محاطون بمهاجرين مثلهم، ولكنَّهم أشدّ فقرًا منهم بكثير. مضت على بعضهم عدَّة شهور وهم يعانون البؤس والعوز. حاولوا اجتياز النهر عدَّة مرَّات من دون التمكُّن من ذلك، أو لأنَّ المياه سحبتهم إلى الجانب الآخر وأُعيدوا إلى المكسيك، لأنَّ إعادتهم إلى بلادهم الأصليَّة أكثر كلفة بكثير. لا يستطيع معظمهم الدفع إلى الوسطاء والمهرِّبين. والأكثر إثارة للشفقة هم الأطفال الذين يسافرون وحدهم، إذ لا يمكن حتى لأشدّ البخلاء حرصًا أن يمتنع من مساعدتهم. تقاسمت مجموعة إيفيلين مؤونتها والماءَ النظيف مع أخوين يمضيان دومًا معًا، وكلٌّ منهما يمسك بيد الآخر. إنَّهما طفل في الثامنة وطفلة في السادسة من العمر. هربا منذ

عام من بيت أعمام لهما يسيئون معاملتهما في السلفادور، وقد تشرَّدا في غواتيمالا حيث عاشا على الصَّدَقات، وأمضيا شهورًا في المشي من مكان إلى آخر في المكسيك، منضمَّين إلى مهاجرين آخرين يتبنُّونهما بصورة موقَّتة. إنَّهما يريدان العثور على أمّهما في الولايات المتَّحدة، ولكنَّهما لا يعرفان في أيِّ مدينة هي.

كان مسافرو كابريرا ينامون بالتناوب، في الليل، للحيلولة دون أن يسرقوا منهم حتى أرواحهم. هطل وابل من المطر في اليوم الثاني، بلَّل قطع الكرتون وأبقاهم في العراء. وهكذا جاءت ليلة السبت وبدا المخيَّم عندئذ كما لو أنَّه قد استيقظ من سباته، وكما لو أنَّ الجميع كانوا ينتظرون هذا الليل الذي بلا قمر. وبينما كان أشخاص من المهاجرين يستعدُّون لمواجهة النهر، كان المجرمون ورجال شرطة البلديَّة على أهبَّة الاستعداد للعمل.

لكن كابريرا كان قد تفاوض على الإذن بالمرور مع مجرمي العصابات ومع ذوي زي الشرطة الرسميّ. وعندما تكاثفت الغيوم في الليلة التالية، ولم يعد يظهر حتى بريق النجوم، جاء صديق كابريرا، وهو رجل قصير القامة، مجرَّد عظم وجلد ضارب إلى الصُّفرة، وله نظرة ملتبسة أشبه بنظرة مدمن متمادٍ، قدَّم نفسه على أنَّه «الخبير». أكَّد لهم كابريرا أنَّه على الرَّغم من مظهره المريب، فإنَّ لا وجود لمن هو أكثر كفاءة منه. فهو في البرِّ مجرَّدُ بائس تعيس، لكنَّه يتمتَّع في الماء بثقة مطلقة، يعرف التيَّارات والحوَّامات أفضل من أيِّ شخص آخر. وهو خبير بدراسة حركة الدوريَّات وأضواء الليل القويَّة؛ فهو يعرف كيف يختار لحظة النزول إلى الماء، والعبور ما بين مرورَين لحزمة الضوء، والوصول إلى المكان المحدَّد بدقَّة بين الآجام كيلا تتمّ

رؤيتهم. يتقاضى أجره بالدولار عن كلّ شخص، وهو مبلغ لا يمكن للوسيط تجنُّبه، لأنّه من دون كفاءته وجرأته سيكون من الصعب إيصال مسافريه إلى الأرض الأميركيَّة. «أتعرفون السباحة؟»، سألهم الخبير. لم يستطع أيٌّ منهم أن يقدِّم له إجابة مؤكَّدة. أخبرهم بأنّهم لا يستطيعون أن يحملوا معهم أيّ شيء، باستثناء وثائقهم الشخصيَّة والنقود، إذا كان قد تبقَّى لديهم شيء منها. جعلهم يخلعون ثيابهم وأحذيتهم وطلب منهم أن يضعوها في أكياس زبالة بلاستيكيَّة سوداء، ثم ربط ذلك كلّه بإطار داخليّ لعجلة شاحنة سيستخدمونه كطوف. أراهم كيف يجب أن يتشبَّثوا بإحدى الذراعين، ويسبحوا بالذراع الأخرى، من دون أن يضربوا الماء بأرجلهم تجنُّبًا لإحداث أصوات. وقال لهم: «من يُفلت الإطار يكُن قد انتهى».

ودَّع بيريتو كابريرا الجماعة معانقًا ومقدِّمًا إلى أعضائها توصياته الأخيرة. اثنان من مسافريه، بسرواليهما الداخليين، كانا أوَّل من دخل النهر، تشبَّثا بالإطار المطَّاطيّ وانطلقا يقودهما الخبير. غابوا عن النظر في سواد النهر. ورجع الخبير، بعد خمس عشرة دقيقة ماشيًا على الضفَّة وهو يجرّ وراءه الإطار المطَّاطي. لقد ترك الرجلين في جزيرة صغيرة وسط النهر، مختبئَين بين القصب، في انتظار وصول بقيَّة الجماعة. عانق بيريتو كابريرا إيفيلين العناقَ الأخير بتأثُّر، لأنَّه كان يشكّ في قدرة هذه البائسة على تجاوز العوائق التي ستعترض سبيلها.

- لا أرى أنَّك قادرة على المشي مسافة ١٣٥ كيلومترًا في الصحراء أيّتها الصغيرة. أطيعي شريكي، وهو يعرف ما الذي عليه عمله معك.

* * *

تبيَّن أنَّ النهر أكثر خطورة ممَّا يبدو عليه من الضفَّة، لكن أيًا منهم لم يتردَّد، لأنَّ ثواني قليلة متاحةٌ لهم لتجاوز حزم أشعَّة الأضواء. دخلت إيفيلين الماء بسروالها الداخليّ وحمَّالة صدرها، مع رفيقيها على كِلا الجانبين، وكانا متأهِّبين لمساعدتها إذا ما خارت قواها. كانت تخشى الغرق، ولكن أكثر ما كانت تخافه هو أن تكون السبب في انكشاف أمر الجميع. ابتلعت صرخة رعب عند نزولها إلى المياه الباردة، وتبيَّن لها أنَّ الأرضيَّة رخوة، وأنَّ أغصانًا وقمامة وربَّما حيّات ماء تمرّ ملامِسةً بدنَها. كان الإطار المطّاطي زلقًا، ولم تكن قادرة على تطويقه جيِّدًا بذراعها السليمة، بينما ذراعها الأخرى تضغط على صدرها. لم تعد قدماها تلامسان الأرض بعد ثوانٍ قليلة، وصار التيَّار يتلاعب فيها ويؤرجحها، وراحت تغطس وتظهر على السطح وقد ابتلعت ماءً، وتحاول بيأس عدم إفلات الإطار. تمكَّن أحد الرجال من إمساكها من خصرها قبل أن يسحبها التيَّار. أشار إليها الرجل بأن تستخدم كلتا ذراعيها في التمسُّك بالإطار، لكن إيفيلين كانت تشعر بألم لا يُطاق في كتفها المخلوعة والتي احتاجت إلى وقت طويل كي تُشفى، ولم تعد ذراعاها تستجيبان لها، وكفُّها كذلك. حملها رفاقها ووضعوها على ظهرها فوق الإطار المطّاطيّ، فأغمضت عينيها وتوقَّفت عن البكاء مستسلمة لقَدَرها.

لم يستغرق الطريق سوى وقت قصير جدًّا، بضع دقائق فقط، ووجدوا أنفسهم في الجزيرة الصغيرة، حيث انضمُّوا إلى المسافرين الآخرين الذين سبقوهم. وبينما هم يجلسون بلا حراك وسط أجمَّة، على الأرض الرمليَّة، كانوا ينظرون إلى الضفَّة الأميركيَّة القريبة جدًّا، إلى حدٍّ يستطيعون معه سماع حديث شرطيَّي دوريَّة يقومان بالحراسة

إلى جانب سيّارة مزوّدة بمصباح كشّاف قويّ الإنارة، موجّه إلى المكان الذي هم فيه. مضى ما يزيد على الساعة من دون أن يُبدي الخبير أيّ إشارة إلى فقدانه الصبر، والحقيقة أنّه كان يبدو كأنّه قد نام، بينما هم يرتجفون من البرد، وأسنانهم تصطكّ ويرون الهوام والحشرات والزواحف التي تمشي على جسمه. وفي منتصف الليل تقريبًا، أزاح الخبير النعاس جانبًا. لديه جهاز إنذار داخليّ. أطفأت السيّارة المصباح الكشّاف في تلك اللحظة بالذات، وسمعوها تبتعد.

«لدينا أقلّ من خمس عشرة دقيقة قبل مجيء الدوريّة البديلة. تيّارات الماء في هذا المكان أقلّ قوّة. سوف نذهب جميعنا معًا وسوف نضرب الماء بأقدامنا بشدّة، ولكن عند الوصول إلى الجانب الآخر يجب عدم إصدار أيّ صوت»، قال لهم آمرًا.

نزلوا إلى النهر مجدّدًا متشبّثين بالإطار المطّاطيّ الذي أنزله ثقل ستّة أشخاص إلى مستوى سطح الماء، ودفعوه بخطّ مستقيم. لامست أقدامهم القاع بعد قليل، فأمسكوا بعيدان القصب وتسلّقوا المنحدر المستنقعيّ على الضفّة الأخرى، وتعاونوا فيما بينهم على مساعدة إيفيلين. لقد وصلوا إلى الولايات المتّحدة.

سمعوا، بعد لحظات قليلة، صوتَ محرّك سيّارة أخرى، لكنّهم كانوا قد اختبأوا بين الآجام، بعيدًا عن أن تنال منهم المصابيح الكشّافة. قادهم الخبير مشيًا على الأقدام على اليابسة. تقدّموا متلمّسين طريقهم في رتل أحاديّ، يمسك كلٌّ منهم بيدِ مَن خلفه كيلا يضيعوا في الظلام، وكانوا يزيحون القصب جانبًا إلى أن وصلوا إلى مكان صغير أجرد، حيث أشعل الدليل مصباحًا يدويًّا موجّهًا إلى

الأرض، وسلَّمهم أكياس أمتعتهم، وأومأ إليهم بالإشارة بأن يرتدوا ملابسهم. نزع قميصه الداخليّ المبتلّ، وأعاد به تثبيت ذراع إيفيلين إلى صدرها، لأنها فقدت رباط التثبيت في النهر. انتبهت في تلك اللحظة، إلى عدم وجود المغلّف البلاستيكيّ والأوراق التي أعطاها إيّاها الأب بينيتو. بحثت على الأرض في المكان مستعينةً بضوء المصباح اليدويّ الخافت، آملة أن يكون قد سقط منها هناك، وحين لم تجده أدركت أنَّ التيَّار قد حمله عندما أنقذها زميلها بحملها من خصرها. أفلت منها، في تلك الحركة الرباطُ والمغلّف. كما أنَّها فقدت صورة الميداليَّة التي باركها البابا، ولكنَّها ما زالت تحمل في عنقها تميمة الربَّة ـ الجاغوار التي يجب أن تحميها من الأذى.

كانوا قد أوشكوا على الانتهاء من ارتداء ملابسهم عندما ظهر لهم من العدم، كشبح ليليّ، شريكُ كابريرا، وهو مكسيكيٌّ يعيش منذ سنوات طويلة في الولايات المتَّحدة، يتكلَّم الإسپانيَّة بلكنة عويصة. قدَّم إليهم حافظات حراريَّة فيها قهوة ساخنة ممزوجة بليكور، شربوها بصمت، شاكرين، بينما كان الخبير ينصرف مغادرًا بحرص، من دون أن يودِّعهم.

أمر الشريك الرجال، وسط الهمسات، بأن يتبعوه في رتل، وأمر إيفيلين بأن تذهب وحدها في اتِّجاه معاكس. أرادت الفتاة الاعتراض، ولكنَّها لم تستطع إخراج أيّ صوت، فقد أصابها بُكم الرعب من تعرُّضها للخيانة بعد أن وصلت إلى هناك.

«لقد أخبرني بيرتو بأنَّ أمّك تعيش هنا. سلّمي نفسك إلى أوّل حارس أو دوريَّة تظهر لك. لن يُبعدوك لأنَّك قاصر»، أكّد لها الشريك، واثقًا بأن أحدًا لا يستطيع تقدير عمر هذه الطفلة بأكثر من

أحد عشر عامًا. لم تصدِّقه إيفيلين، لكن رفاقها كانوا قد سمعوا أنَّ هذا هو القانون في الولايات المتَّحدة. عانقوها عناقًا سريعًا وتبعوا الشريك، وتلاشوا على الفور في الظلام.

* * *

لم تفعل إيفيلين سوى التكوُّر على نفسها مرتجفة وسط الدغل عندما تمكَّنت من الحركة. حاولت الصلاة همسًا، ولكن لم ترد إلى ذهنها أيُّ ترتيلة من صلوات جدَّتها. وهكذا مرَّت ساعة، ساعتان، بل ربَّما ثلاث ساعات، فقدت خلالها الإحساس بالزمن والقدرة على الحركة. أحسَّت بجسدها مكبَّلًا وبألم حادٍّ في كتفها. شعرت، في إحدى اللحظات، بخفق أجنحة طويل وساخط فوق رأسها، وأدركت أنَّها خفافيش تطير باحثة عن غذاء، مثل خفافيش غواتيمالا. غاصت أكثر في خضرة الدغل مرعوبةً، لأنَّ الجميع يعرفون أنَّ الخفافيش تمتصّ الدم البشريّ. وركّزت تفكيرها في وضع خطَّة للخروج من هناك، كيلا تفكّر في مصّاصي الدماء أو الأفاعي أو العقارب. من المؤكَّد أنَّ جماعات مهاجرين أخرى سوف تأتي، ويمكنها الانضمام إليها، وكلّ ما عليها عمله الآن أن تظلّ تنتظر مستيقظة. ابتهلت إلى الأمّ الجاكوار وأمّ يسوع، مثلما طلبت منها فيليثيتا، لكن أيًّا من الاثنتين لم تهرع لنجدتها؛ فهاتان الأمَّان الإلهيَّتان تفقدان سلطانهما في الولايات المتَّحدة. إنَّها مهجورة تمامًا هناك.

لم يبق سوى ساعات قليلة على طلوع ضوء الصباح، لكنَّها بدت كما لو أنَّها أبديَّة. وراحت عيناها شيئًا فشيئًا، تعتادان على ليل بلا قمر، بدا لها في البدء أنَّه غير قابل للاختراق، لكنَّها استطاعت أن

تميِّز نوع النباتات التي حولها. إنَّها أعشاب طويلة وجافَّة. كان الليل عذابًا طويلًا لإيفيلين، إلى أن انشقّ ضوء الفجر أخيرًا، وانتشر الضياء فجأة. لم تشعر خلال تلك الساعات كلّها بوجود أحد قربها، لا مهاجرين ولا حرَّاس. وما إن بدأ الضياء بالانتشار حتى تجرَّأت على إلقاء نظرة على ما يُحيط بها. كانت تشعر بالخَدَر. وجدت صعوبة في النهوض والتحرُّك بضعَ خطوات. إنَّها تشعر بجوع، وبعطش شديد، لكن ذراعها لم تعد تؤلمها. أحسَّت بدفقة مسبقة من دفء النهار من خلال البخار الذي يتصاعد خفيفًا من الأرض مثل طرحة عروس. كان الليل صامتًا، لا تقطعه سوى تنبيهات مكبِّرات الصوت البعيدة، ولكنَّ الأرض استيقظت في الفجر مع أزيز الحشرات، وطقطقة الأعشاب الجافَّة تحت قوائم القوارض، وأنين القصب مع النسيم، وتطاير زيزان في الهواء. رأت هنا وهناك لطخات ملوَّنة على الشجيرات. طائر ساحر أحمر الصدر، وعصفور غرِّيد أصفر أو آخر أخضر وله رأس أزرق، إنَّها طيور متواضعة بالمقارنة مع طيور قريتها. لقد ترعرعت وسط اختلاط أصوات الطيور وألف لون من الريش، وستمئة نوع من العصافير، فغواتيمالا هي جنَّة الطيور، على حدّ قول الأب بينيتو.
أصغت إلى التنبيهات الصارمة بالإسبانيَّة والصادرة عن مكبِّرات الصوت، وحاولت بلا جدوى أن تقدِّر بُعد المواقع الحدوديَّة، وأبراج المراقبة، والطريق إذا كان له وجود. لم تكن لديها أيُّ فكرة عن المكان الذي هي فيه. وراحت تسترجع، على شكل موجات، القصصَ التي تتناقلها ألسنة المهاجرين عن مخاطر الشمال؛ عن الصحراء القاسية، وأصحابِ المزارع الذين يطلقون النار بغزارة على من يدوسون ممتلكاتهم طلبًا للماء، والحراسِ المسلَّحين لخوض معركة،

والكلابِ الشرسة المدرَّبة على شمّ رائحة الخوف، والسجونِ التي يمكن للمرء قضاء سنوات فيها من دون أن يُعرَف عنه شيء. إذا كانت مثلَ سجون غواتيمالا، فإنَّها تفضِّل الموت قبل أن تنتهي في واحدة من تلك الزنازين.

جرَّ اليوم أنفاسَه ساعةً فساعة، دقيقةً فدقيقة، ببطء مريع. تقدَّمت الشمس في السماء مشعلة الأرض بِحَرٍّ جافٍ؛ حرٌّ جمر متأجِّج، مختلفٍ جدًّا عن الحرِّ الذي تعرفه إيڤيلين. كان عطشها شديدًا إلى حدٍّ لم تعد تشعر معه بالجوع. نكشت الأرض بعود بين شجيرتين، بسبب عدم وجود شجرة تمنح ظلاً، كي تبعد الأفاعي، وتكوَّرت هناك كيفما استطاعت، بعد أن غرست العود في الأرض، كي يُرشدها تحوُّل الظلِّ إلى مسار الوقت، مثلما رأت جدَّتها تفعل ذات مرَّة. سمعت، خلال فوارق زمنيَّة منتظمة، صوتَ مرور سيَّارات، وتحليقًا منخفضًا لطائرات هليوكبتر، ولكنَّها حين أدركت أنَّهم يقومون طوال الوقت بالجولة نفسها، لم تعد تولي تلك التحرُّكات أيَّ اهتمام. كانت مشوَّشة، تشعر بأنَّ رأسها مملوء بالقطن، وأنَّ أفكارها تتعثَّر في ذهنها. عرفت أنَّ النهار قد انتصف، من خلال ظلِّ العود المغروس، وكانت تلك هي ساعة أوَّل هذياناتها: أشكال وألوان مختلطة، ذنب، مدرَّع، فئران، جراء جاغوار بلا أمِّها، كلب أندريس الأسود الذي مات قبل أربع سنوات، وقد جاء بكامل صحَّته ليزورها. نامت للحظات متقطِّعة، يثقل عليها الحرّ اللاهب، ويشوِّش ذهنَها الإنهاكُ والظمأ.

بدأ المساء يتقدَّم بحرص شديد ومن دون أن تنخفض درجة الحرارة. مرَّت أفعى سوداء طويلة وثخينة فوق إحدى ساقيها في مداعبة مرعبة. تحجَّرت الفتاة، انتظرت حابسة أنفاسها وهي تشعر بثقل الحيَّة

الزاحفة؛ بملامسة جلدها المخمليّ الأملس؛ بتموُّج كلِّ عضلة في ذلك الجسد الخرطوميّ المنسلّ بلا تسرُّع. لم تكن تشبه أيّ ثعبان من ثعابين قريتها. ونهضت إيفيلين واقفة بقفزة واحدة، عندما ابتعد ذلك الحيوان الزاحف، واستنشقت الهواء بجرعات متتالية، وهي شبه دائخة من ضربة الرعب المَهُولة، وقلبها يخفق كعَدْوِ حصان. احتاجت إلى ساعات كي تستعيد السيطرة على نفسها وتخفِّف احتراسها. لم تجد القوّة للبقاء طوال النهار واقفة على قدميها تتفحَّص الأرض حولها. تشقَّقت شفتاها ونزفتا، وتورَّم لسانها مثل رخويَّة في فمها الجافّ، وكان جلدها يتأجَّج بالحمّى.

حلّ أخيرًا الليل، في أثناء ذلك، وبدأت البرودة تنتشر. كانت إيفيلين قد استنفدت قواها. لم تعد تهمّها الأفاعي، ولا الخفافيش، ولا الحرّاس المسلَّحون ببنادق، ولا مسوخ الكوابيس، ولم تكن تشعر إلَّا بالحاجة الملحَّة إلى شرب الماء والراحة. تقوقعت على الأرض مستسلمة للنكبة والوحدة، ومتمنّية الموتَ بأسرع ما يمكن: أن تموت وهي نائمة، وألَّا تستيقظ أبدًا.

* * *

لم تَمُتِ الفتاة في ليلتها الثانية تلك في أراضي الولايات المتَّحدة، مثلما كانت تنتظر. استيقظت عند الفجر وهي في الوضع نفسه الذي كانت عليه حين نامت، من دون أن تتذكَّر ما الذي حدث منذ مغادرتها مخيَّم نويفو لاريدو. كانت مُصابة بالتجفاف، وتحتاج إلى عدَّة محاولات كي تتمكَّن من شدّ ساقيها، والنهوض، ووضع ذراعها في الحمّالة المربوطة إلى عنقها والمشي خطوتين كعجوز. كانت تشعر بالألم في كلِّ خليَّة من جسمها، لكنَّ الألم الأشدّ طغيانًا هو الظمأ.

عليها، قبل أيّ شيء آخر، أن تجد ماءً. لم تعد قادرة على تركيز بصرها أو التفكير، لكنّها عاشت على الدوام في الطبيعة، وقد استشفّت من خبرتها أنّ الماء قريب. كانت محاطة بقصب وآجام أعشاب متشابكة، وتعرف أنّ هذه الأشياء تنمو حيث توجد رطوبة الماء. وراحت تمشي بلا وجهة محدَّدة، مدفوعةً بالعطش والغمّ، مستندة إلى العصا نفسها التي استخدمتها من قبل من أجل تحديد المواقيت.

تمكّنت من التقدُّم نحو خمسين مترًا بصورة متعرجّة، فأوقفها عندئذ ضجيج محرّك قريب جدًّا. فألقت بنفسها، بصورة غريزيَّة، على الأرض وانبطحت بين الأعشاب الطويلة. مرَّت السيَّارة على مسافة قريبة جدًّا منها حتى إنَّها استطاعت أن تسمع صوت رجل يتكلّم الإنكليزيَّة وصوتًا آخر مترجرجًا، كأنَّه يخرج من مذياع أو هاتف، يردّ على الرجل. ظلَّت جامدة بلا حراك وقتًا طويلاً بعد ابتعاد المحرّك، وأجبرها الظمأ أخيرًا على مواصلة «الحبو على أربعٍ» بين الأعشاب بحثًا عن النهر. كانت الأشواك تجرح وجهها وعنقها. مزَّق غصن إحدى الشجيرات قميصها، وأحدثت الأحجار جروحًا في يديها وركبتيها. نهضت واقفة وواصلت التقدُّم منحنيةً، متلمّسةً طريقها من دون أن تتجرَّأ على رفع رأسها لتتمكَّن من السير. كان الصباح قد بدأ للتوّ، لكن وهج الضوء كان مبهرًا.

وصل إليها فجأة، خريرُ مياه النهر بوضوح هلوسة أخرى، فتحمَّست لغذّ خطاها متجاهلة أيَّ احتياطات. أحسَّت أوَّل الأمر بالطين حول قدميها، وأزاحت الأعشاب على الفور، ووجدت نفسها قبالة نهر ريو غراندي، فأطلقت صرخة وهي تلقي بنفسها في الماء حتى خصرها، وراحت تشرب، بيأس، بكلتا يديها. سرى الماء البارد في

جونها كمباركة، شربت وشربت بجرعات كبيرة، من دون أن تفكّر في قذارة المياه، وفي الحيوانات النافقة التي تطفو في تلك المياه. كان النهر عميقًا هناك، وقد تمكّنت من أن تغطس فيه كلّها، وأحسَّت بمتعة الماء اللامتناهية في جلدها المتشقّق؛ في ذراعها المخلوعة، في وجهها المجرَّح، بينما شعرها الأسود الطويل يطفو كالطحالب الموجودة حولها.

كانت قد خرجت من النهر وتمدَّدت على الضفَّة، عائدة قليلًا إلى الحياة، عندما اكتشفت دوريَّةُ شرطة وجودَهَا.

* * *

موظَّفة الهجرة التي تولَّت أمر إيفيلين أورتيغا عند اعتقالها على الحدود، وجدت نفسها في إحدى الحجرات الصغيرة أمام طفلة تحني رأسها، خائفة، مرتجفة، من دون أن تلمس عصير الفاكهة ولا قطعَ البسكويت التي وضعتها أمامها على المنضدة لمنحها الثقة. أرادت طمأنتها بمداعبة خفيفة على رأسها، فلم تتوصَّل إلَّا إلى استثارة مزيد من خوفها. كانوا قد نبَّهوها إلى أنَّ البنت تعاني مشكلات ذهنيَّة، فطلبت قليلًا من الوقت الإضافيّ للمقابلة. كثيرون من القاصرين الذين مرُّوا من هناك كانوا يعانون الرهاب، لكنّ من المحال الحصولَ على تقويم نفسانيّ من دون أمر رسميّ. عليها أن تثق ببديهيَّتها وخبرتها.

ظنَّت الموظَّفة أنّ الطفلة لا تفهم الإسپانيَّة بسبب صمتها المكابر، وربَّما هي تتكلَّم لغة المايا فقط، وأهدرت دقائق ثمينة قبل أن تنتبه إلى أنَّها تفهم بلا مشقَّة، ولكنَّها تعاني عجزًا في التكلُّم، قدَّمت إليها عندئذ ورقة وقلمًا كي تدوِّن إجاباتها، راجية أن تكون قادرة على الكتابة؛

فمعظم الأطفال الذين يصلون إلى مركز الاعتقال لا يكونون قد ذهبوا إلى المدرسة مطلقًا.

ـ ما اسمك؟ من أين أنت آتية؟ هل لديك أيّ قريب هنا؟

كتبت إيفيلين بخطّ جيّد اسمَها، واسمَ قريتها في بلادها، واسمَ أمّها وإلى جانبه رقم. تنفّست الموظّفة الصعداء.

ـ هذا يُسهّل الأمور كثيرًا. سوف نتّصل بأمّك كي تأتي بحثًا عنك. سيسمحون لك بالذهاب معها بصورة موقّتة، إلى أن يحسم قاضٍ الأمر بشأن قضيّتك.

أمضت إيفيلين ثلاثة أيّام في مركز الاعتقال من دون أن تكلّم أحدًا، على الرّغم من أنّها كانت مُحاطة بنساء وأطفال آتين من أميركا الوسطى والمكسيك. كثيرون منهم غواتيماليُّون. كانوا يقدّمون إليهم وجبتَي طعام يوميًّا، ويقدّمون حليبًا وحفاضات إلى الأطفال الصغار، وأسرّةً ضيّقة وبطّانيّات عسكريّة ضروريّة جدًّا لأنّ أجهزة التكييف تحافظ على بقاء درجة الحرارة شتائيّة، تتسبّب بجائحة سعال ورشح دائمين. إنّه مكان عبور، لا أحد يبقى هناك زمنًا طويلاً، فالمعتقَلون يُنقَلون بأسرع ما يمكن إلى منشآت أخرى. والقاصرون الذين لهم أقرباء في الولايات المتّحدة، يُسلَّمون إليهم من دون إهدار جهد كثير في التقصّي، لأنّ هناك نقصًا في الزمن والموظّفين من أجل الاهتمام بكلّ حالة.

لم تكن مريام هي من جاءت بحثًا عن إيفيلين، وإنّما رجل يُدعى غاليليو ليون، جاء على أنّه زوج أمّ البنت. لم تكن إيفيلين تعرف أيّ شيء عن وجوده، وتمسّكت بكلّ تصميم بموقفها بعدم الذهاب معه، لأنّها كانت قد سمعت عن قوّادين وتُجّار يترصّدون القاصرات. ففي

بعض الأحيان، يطالب أشخاص مجهولون بأطفال، ويأخذونهم بمجرّد التوقيع على ورقة. وقد اضطرّ أحد الضبّاط إلى الاتّصال بمريام هاتفيًا كي توضح الموقف، وهكذا علمت إيفيلين بأنّ لأمّها زوجًا. وسرعان ما علمت بأنّ لها، إضافة إلى زوج الأمّ، أخوين من أمّها، أحدهما في الرابعة والآخر في الثانية من العمر.

«لماذا لم تأتِ أمّ الصغيرة بحثًا عنها؟» سأل الضابط المناوب غاليليو ليون.

«لأنّها ستفقد عملها. ولا تظنّ أنّ الأمر سهل بالنسبة إليّ أيضًا. إنّني أخسر أجر أربعة أيّام بسبب هذه البنت. إنّني عامل دهان وزبائني لا ينتظرون»، ردّ الرجل بنبرة ذليلة تتناقض مع مضمون كلماته.

ـ سوف نسلّمك الطفلة تحت فرضيّة المخاوف المحتملة. أتفهم ما الذي يعنيه هذا؟

ـ تقريبًا.

ـ يجب أن يتّخذ القاضي القرار بشأن صلاحيّة الأسباب التي جعلت الفتاة تغادر بلادها. على إيفيلين أن تُثبت وجود مخاوف ملموسة ومحدّدة، كأن تكون تعرّضت لاعتداء، أو أنّها عاشت تحت التهديد. وأنت ستأخذها معك بحرّيّة مشروطة.

«هل عليّ أن أدفع مبلغ تأمين؟» سأل الرجل مذعورًا.

ـ لا، إنّه رقم اسميّ يُسجّل في الكتاب، ولكن دائرة الهجرة لا تتقاضاه. سيرسلون إليها إشعارًا بريديًا على عنوان أمّها يحدّد موعد مثولها أمام محكمة الهجرة. وستُجري إيفيلين قبل ذلك مقابلة مع

ضابط متخصص بقضايا اللجوء.

«أهو محامٍ؟ لا يمكننا أن ندفع أتعابه...» قال ليون.

ـ النظام متعثّر بعض الشيء، لأنَّ أطفالًا كثيرين يأتون طالبين اللجوء. الحقيقة أنَّ أقلّ من النصف يجدون من يقدِّم إليهم النصح، ولكنَّها إذا حصلت على أحدهم، فسيكون مجّانًا.

ـ قالوا لي في الخارج إنَّهم قد يحصلون لي على أحدهم في مقابل ثلاثة آلاف دولار.

«إنَّهم مهرِّبون ومحتالون، لا تصدِّقهم. انتظر إشعار المحكمة، هذا هو كلُّ ما عليك عمله حاليًّا»، أضاف الضابط، معتبرًا الإجراءات منتهية.

استنسخ صورة عن رخصة سياقة غاليليو ليون كي يضمّها إلى إضبارة إيفيلين، وهو إجراء غير مُجْد تقريبًا، لأنَّ المركز يفتقر إلى القدرة على متابعة أحوال كلّ طفل. ودَّع إيفيلين بتسرُّع؛ إذ إنَّ هنالك عدَّة حالات أخرى في انتظاره هذا اليوم.

* * *

غاليليو ليون، المولود في نيكاراغوا، كان قد هاجر بصورة غير شرعيَّة إلى الولايات المتَّحدة، وهو في الثامنة عشرة، لكنَّه حصل على الإقامة استنادًا إلى قانون العفو لعام ١٩٩٥. ولم يقم، بسبب الإهمال، بإجراءات الحصول على المواطَنة. كان قصير القامة، قليل الكلمات ورديء الإيماءات؛ وهو لا يوحي بالثقة ولا التعاطف للوهلة الأولى.

كان التوقُّف الأوَّل في أسواق ولمارت لشراء ملابس وأدوات نظافة

لإيفيلين. ظنّت البنت أنّها تحلم حين رأت ضخامة المتجر وتنوّع البضائع غير المتناهي فيه، وكلّ نوع منها بألوان وأحجام متنوّعة... متاهة ممرّات ممتلئة إلى حدّ التخمة. ولخشيتها من الضياع إلى الأبد، تشبّثت بذراع زوج أمّها الذي توجّه كمستكشف خبير، اقتادها مباشرة إلى القسم المطلوب، وأشار إليها بأن تختار ملابس وقمصانًا داخليّة، وثلاث بلوزات، وبنطالَي كاوبوي، وتنُّورةً، وفستانًا وحذاءً للخروج إلى الشارع. وعلى الرَّغم من أنّها كانت ستكمل بعد قليل السادسة عشرة، فإنّ مقاسها كان يتناسب مع مقاس طفلة أميركيّة في العاشرة، أو الثانية عشرة من العمر. وقد حاولت إيفيلين المرتبكة أن تختار أرخص الأشياء، ولكنّها لم تكن تعرف العملة المستخدَمة فتأخّرت كثيرًا.

لا تدقّقي في الأسعار، كلّ شيء رخيص هنا، وقد أعطتني أمّك نقودًا لشراء ملابسك»، أوضح لها غاليانو.

وأخذها من هناك إلى أحد محالّ ماكدونالد ليأكلا همبرغرًا وبطاطا مقليّة، مع كأس كبيرة جدًّا من المثلّجات متوّجة بحبّة كرز، يمكن لها في غواتيمالا أن تكفي عائلة بأسرها.

«ألم يعلّمك أحد أن تقولي شكرًا؟» سألها زوج الأمّ بفضول أكثر ممّا هو بنيّة التأنيب.

هزّت إيفيلين رأسها من دون أن تتجرّأ على النظر إليه، وهي تلحس ملعقة المثلّجات الأخيرة.

- أتخافين منّي؟ أنا لستُ غولًا.

«شُ... شُ... كرًا...» تلعثمت البنت.

- أأنت بلهاء أم متلعثمة؟

ـ مُتَ... مُتل...

«أرى ذلك، اعذريني» قاطعها غاليليو، وأضاف: إذا كنتِ غير قادرة على التكلّم مع الناس، فلا أدري كيف ستتدبَّرين أمرك بالإنكليزيَّة. يا لها من ورطة! ماذا سنفعل بك؟

أمضيا الليلة في نزل سائقي شاحنات على الطريق العامّ. كانت الغرفة قذرة، ولكن فيها دوش ماء ساخن. أمرها غاليليو بأن تستحمّ، وأن تتوقَّف عن ترديد صلواتها، وأن تنام في السرير الذي إلى اليسار. فقد كان النوم في السرير الأيمن إحدى نزواته. «سأخرج إلى التدخين، وعندما أعود أريد أن أجدك نائمة» قال لها. انصاعت إيفيلين بأقصى سرعة. استحمَّت سريعًا واندسَّت في الفراش بملابسها مع الخفّ، وتدثَّرت بالغطاء حتى أنفها متصنِّعة النوم ومخطِّطة للهروب فور أن يلمسها هذا الرجل. كانت تشعر بتعب شديد، وتؤلمها كتفها ويُطبق الخوف على صدرها، ولكنَّها استذكرت جدَّتها ومنحها ذلك شجاعة. كانت تعرف أنَّ الجدَّة قد ذهبت إلى الكنيسة لتُشعل شموعًا من أجلها.

تأخَّر غاليانو أكثر من ساعة في الرجوع. خلع حذاءه، دخل الحمَّام وأغلق الباب. سمعت إيفيلين صوت تدفُّق الماء في المرحاض ورأته يرجع إلى الغرفة بسرواله وقميصه الداخليين وجوربيه. تأهَّبت للقفز من السرير. علَّق زوج أمّها بنطاله على الكرسيّ الوحيد المتوفِّر، ثم أقفل الباب وأطفأ النور. كان يتسرَّب من خلال ستائر النافذة المهترئة الانعكاسُ الأزرق لإعلان نيون يحمل اسم النُّزُل، ورأته إيفيلين في العتمة يجثو إلى جانب السرير الآخر، وراح غاليانو ليون يتمتم صلاة طويلة. وعندما اندسّ في السرير أخيرًا، كانت إيفيلين قد نامت.

ريتشارد

ريو دي جانيرو

خرجوا من النُّزل في الساعة التاسعة، وليس في أبدانهم سوى القهوة والجوع. طالبت لوئيا بأن يذهبوا لتناول الفطور في مكان ما، لأنَّهم في حاجة إلى طعام ساخن يُسكَب في طبق عاديّ، وليس في علب كرتون مع عيدان صينيَّة، على حدِّ قولها. فانتهى بهم المطاف في أحد مطاعم دينيس. جلست المرأتان أمام وليمة من المعجَّنات المحلَّاة بالعسل، بينما ارتشف ريتشارد بالملعقة حساء شوفان لا طعم له. اتفقوا، عند خروجهم من بروكلين في اليوم السابق، على التجوُّل منفصلين أمام الناس، لكن مع مرور الساعات، راح الحرص يتضاءل، وبدأوا يشعرون بأنَّهم على ما يرام وهم مجتمعون معًا، حتى إنَّ كاترين بروان ضُمَّت إلى الجماعة بكلِّ تلقائيَّة.

بدا الطريق أفضل ممَّا كان عليه في اليوم السابق. لم يتساقط سوى قليل من الثلج خلال الليل، ودرجة الحرارة لا تزال بضع درجات تحت الصفر، لكنَّ الرياح توقَّفت، وجرت إزاحة الثلوج عن الطرقات. تمكَّنوا من المُضِيِّ بسرعة أكبر، وقدَّر ريتشارد أنَّهم

سيتمكّنون، بهذه السرعة، من الوصول إلى البيت الريفيّ قرابة منتصف النهار، حيث يكون الضوء لا يزال مناسبًا للتخلُّص من سيَّارة اللكزس. لكن بعد ساعة ونصف الساعة، عند دخولهم في منعطف، وجدوا أنفسهم على بُعد مئة متر من أنوار متقطّعة زرقاء وحمراء، تصدر عن عدَّة سيَّارات شرطة تقطع الطريق. لم تكن هنالك منعطفات فرعيَّة، وإذا ما حاولوا الاستدارة والتراجع فسوف يلفتون الانتباه.

صعدت قرحة معدة ريتشارد إلى حلقه مع مكوِّنات الفطور، وملأت فمه بالمَرارة. استثار ذعره تقزُّزًا وانعكاسًا شبحيًا للإسهال السابق. تلمَّس جيب سترته العلويّ حيث يحتفظ عادة بأقراص دوائه الورديَّة، لكنَّه لم يجدها. ورأى لوثيا وراءه، من خلال المرآة العاكسة، تشير إليه إشارة تفاؤل بحركة من أصابعها. كانت أمامه عدَّة سيَّارات متوقِّفة، وسيَّارة إسعاف وشاحنة طوارئ. أشار إليه شرطيّ دوريَّة بأن يقف في صفّ السيَّارات المتوقِّفة. أزاح ريتشارد قناع التزلُّج عن وجهه، وسأله عمَّا يحدث، بأقصى ما يستطيعه من طمأنينة في صوته.

ـ حادث تصادم متعدِّد.

ـ هل يوجد موتى أيّها الضابط؟

ـ لستُ مخوَّلًا بتقديم معلومات.

أسندَ ريتشارد جبهته بين ذراعيه فوق مقود السيَّارة، وانتظر متوعِّكًا مع السائقين الآخرين وهو يعدّ الثواني. لقد اشتعل حريق في معدته ومريئه.

لا يتذكَّر أنَّه أُصيب بحموضة بمثل هذه الضراوة من قبل. خشي

أن نكون قرحته قد تفجَّرت، وأن يكون هنالك نزف داخلي. لا بدَّ من النظر في سوء الحظّ العاثر، إذ يواجهه توقُّف حركة المرور في هذه اللحظة بالذات، بينما هو يحمل جثَّةً على كاهلة، ويحتاج، بصورة مستعجلة، إلى حمَّام، لأنَّ أمعاءه تتلوَّى. ألا يكون التهاب الزائدة الدوديَّة هو ما يعانيه؟ تناوُله الشوفان كان خاطئًا، لم يتذكَّر أنَّه يسبِّب ارتخاء الأمعاء. «إذا لم يفتح هؤلاء الشرطيُّون القوّادون الطريق فسوف أفعلها هنا بالذات، هذا آخر ما كان ينقصني. ما الذي ستفكِّر فيه لوثيا! إنَّني حثالة رجل، مجرَّد أبله لديه إسهال مزمن»، قال بصوت عالٍ.

كانت الدقائق تمرّ متثاقلة ببطء في ساعة السيَّارة. وفي تلك اللحظة رنّ هاتفه الخلوي.

«هل أنت في حالة جيِّدة؟ تبدو كأنَّك غائب عن الوعي»، لقد جاءه صوت لوثيا من السماء.

«لا أدري»، ردّ عليها وهو يرفع رأسه عن مقود السيَّارة.

- إنَّها حالة نفسيَّة بدنيَّة يا ريتشارد. إنَّك عصبيّ. تناولْ أقراص دوائك.

- إنَّها في حقيبتي بسيَّارتك.

- سآتيك بها.

- لا!

رأى لوثيا تخرج من باب سيَّارة السوبارو وإيفيلين من الباب الآخر ومارسيلو بين ذراعيها. اقتربت لوثيا من اللكزس بأقصى حركة

طبيعيَّة وطرقت على زجاج النافذة بعقد أصابعها، فأنزل الزجاج مستعدًا لاستقبالها بالصراخ، لكنَّها قدَّمت إليه بسرعة أقراص الدواء في لحظة اقتراب أحد شرطيّي الدوريَّة بخطوات واسعة.

«يا آنسة! عليك البقاء في سيَّارتك!» أمرها.

«المعذرة أيُّها الضابط. ألا تحمل كبريتًا؟» سألته وهي تقوم بالحركة الكونيَّة لوضع سيجارة في فمها.

«اصعدي إلى سيَّارتك! وأنتِ أيضًا!» صاح الرجل بإيڤيلين.

انتظَروا خمسًا وثلاثين دقيقة، كان محرِّك السوبارو يدور من دون توقُّف لإبقاء جهاز التدفئة يعمل، بينما تحوَّلت اللكزس إلى ثلَّاجة قبل أن يبدأوا بإزالة آثار الحادث عن الطريق. وما إن غادرت سيَّارات الإسعاف وشاحنة الطوارئ حتى سمحت الشرطة بانطلاق السيَّارات المتوقِّفة في الاتِّجاهين، كليهما. وشاهدوا، لدى المرور قبالة مكان الحادث، سيَّارةً مقلوبة وعجلاتُها الأربع إلى أعلى، وسيَّارةً أخرى لا يمكن التعرُّف إلى نوعها، واجهتُها الأماميَّة مهشَّمة ومسحوقة بالكامل، إذ إنَّها صُدمت من الخلف، وسيَّارةً أخرى صعدت فوقها. كان الجوّ صحوًا، والعاصفة قد توقَّفت، ولم ينتبه أيّ من السائقين الثلاثة إلى الثلج الأسود.

كان ريتشارد قد ألقى أربعة أقراص مضادّة للحموضة في فمه. وما زال يشعر بها وبتواصل الومضات الحارقة في معدته. كان ينحني على المقود مستحمًّا بعرق بارد، وبرؤية غائمة من الألم، وتزداد في كلّ دقيقة قناعته بأنَّه ينزف في أحشائه. أخبر لوثيا بالهاتف الخلويّ بأنَّه ما عاد قادرًا على التحمُّل، وتوقَّف عند أوَّل منعطف وجده على

الطريق. توقفت هي خلفه في الوقت الذي فتح فيه الباب وتقيّأ بصخب على الطريق.

«فلنبحث عن مساعدة. لا بدّ من وجود مستشفى في هذه الأنحاء»، قالت لوثيا، وهي تقدّم إليه منديلًا ورقيًا وقارورة ماء.

ـ لا كلام على مستشفى. سوف ينقضي هذا الألم. إنّني في حاجة إلى حمّام...

توجّهت لوثيا إلى إيفيلين، من دون أن تمنحه فرصة معارضتها، وأمرتها بأن تقود السوبارو، واستقرّت هي وراء مقود اللكزس. «سيري ببطء يا لوثيا. لقد رأيتِ ما يمكن أن يحدث إذا ما انزلقت السيّارة»، قال لها ريتشارد قبل أن يرتمي في وضع جنيني على المقعد الخلفيّ. فكّر في أنّ كاترين براون تقبع في صندوق السيّارة في مثل وضعه بالذات، ولا يفصل بينهما سوى مسند المقعد الخلفيّ وحاجز بلاستيكيّ رقيق.

* * *

كان ريتشارد يشرب بصورة منهجيّة، عندما كان يعيش في ريو دي جانيرو، فالشرب هناك واجب اجتماعيّ، وجزء من الثقافة، ومطلب لا بدّ منه في أيّ لقاء، بما في ذلك لقاءات العمل. يُستخدم الشراب هناك كمهدِّئ في مساء ممطر، وكدواء دافئ، وكمحفِّز على الجدال السياسيّ، وكعلاج للرشح والحزن والغراميّات غير المؤاتية، أو لخيبة الأمل بعد مباراة كرة قدم. لم يرجع ريتشارد إلى تلك المدينة منذ سنوات طويلة، لكنّه يعتقد أنّ الأمور ما زالت فيها على هذه الحال. فبعض العادات يتطلّب أجيالًا قبل أن يندثر. كان يستهلك في تلك

الفترة كمّيّات كبيرة من الكحول، مثل أصدقائه ومعارفه. لا شيء استثنائيًا. هكذا كان يعتقد. ونادرًا ما كان يسكر إلى حدّ فقدان الوعي، لأنَّ السُكْر حالة غير لطيفة؛ ولأنَّه يفضِّل الإحساس بالطفو، برؤية العالم بلا زوايا ناتئة، لطيفًا وفاترًا. لم يكن يولي اهتمامًا لما يشربه إلى أنَّ وصفته آنيتا بالمشكلة، وبدأت تُحصي له الكؤوس التي يشربها، فعلتْ ذلك بتكتُّم في أوَّل الأمر، ثم صارت تهينه فيما بعد بتعليقات أمام الآخرين. فكان يؤكِّد أنَّ له رأسًا يتحمَّل الشراب جيِّدًا، وأنَّه قادر على أن يدفع إلى جوفه أربع زجاجات بيرة وثلاث كؤوس من كوكتيل الكابيرينها من دون أيّ تأثيرات مؤذية تُذْكَر، بل على العكس، إنَّها تؤدِّي به إلى التخلُّص من الخجل والاعتقاد أنَّه يتحوَّل إلى شخص لطيف مثير للإعجاب، لكنَّه كان يضبط الأمور لطمأنة زوجته بشأن القرحة التي تسبِّب له مفاجآتٍ مزعجةً أحيانًا. لم يأتِ في مراسلاته مع أبيه، الذي يكاتبه بكثرة، على سيرة موضوع الشراب، لأنَّ جوزيف لا يشرب الخمر، وبالتالي لن يفهم عليه.

حبلت آنيتًا ثلاث مرَّات، بعد ولادة بيبي، وكانت في كلّ مرَّة تتعرَّض لخسارة تلقائيَّة. كانت تحلم بأسرة كبيرة العدد مثل أسرتها؛ إذ إنَّها واحدة من بنات العائلة الصغيرات بين أحد عشر أخًا، ولها أبناء عمومة وأبناء أخوة وأخوات لا حصر لهم. وكان يأسها يتفاقم. بعد إخفاق كلّ حمل. وترسَّخ في ذهنها أنَّ ما يحدث لها هو امتحان إلٰهيّ أو عقابٌ على خطيئة غير واضحة، وشيئًا فشيئًا راحت تستنفد القوَّة والسعادة.

لم يعد للرقص أيُّ معنًى في نظرها، من دون تلك الفضائل الأساسيَّة جدًّا، وانتهى بها الأمر إلى بيع أكاديميَّتها الشهيرة. تضامنت

معها نساء آل فارينها، من جدّات وأمّهات وأخوات وعمّات وخالات وبنات عمومة وخؤولة، ورصَصْنَ الصفوف حولها، وتناوبن على مرافقتها. ولأنَّ آنيتا لم تكن تبتعد عن ابنتها بيبي، تراقبها بجزع، وتخشى فقدانها إلى حدِّ الهلع، فقد حاولن إلهاءها، وطلبن منها أن تؤلّف كتابًا تضمّنه وصفات طعام عدَّة أجيال من آل فارينها، لاعتقادهنَّ الراسخ أنّه ليس هنالك من داء قادر على مقاومة العلاج بالعمل وسلوى الطعام. وجعلنها تنظِّم، وفق ترتيب متسلسل زمنيًّا، ثمانين ألبوم صور عائليَّة، وعندما أنهت ذلك اختلقنَ ذرائع أخرى لإبقائها مشغولة. ووافق رينشارد مكرهًا على السماح لهنَّ بأخذ زوجته وبيبي إلى مزرعة الجدَّين لمدَّة شهرين. وقد حسَّنت الشمس والرياح معنويَّات آنيتا، فرجعت من الريف وقد ازداد وزنها أربعة كيلوغرامات، وكانت تشعر بالندم لأنّها باعت الأكاديميَّة، لأنَّ لديها رغبة في العودة إلى الرقص.

وعادا من جديد إلى ممارسة الحبّ، كما في الأزمنة التي لم يكونا يفعلان فيها أيّ شيء آخر. وباتا يذهبان لسماع الموسيقى والرقص. وصار رينشارد يتغلَّب على خراقته المتأصِّلة في الرقص، ويقوم بالدوران معها دورتين في حلبة الرقص، ولا يكاد ينتبه إلى أنَّ العيون جميعها شاخصة إلى زوجته، البعض لأنّهم يعترفون بأنَّ آنيتا فارينها هي ملكة الأكاديميَّة، وآخرون لمجرَّد التقدير أو الرغبة، فكان يتنازل عنها بلطف ليرقص معها رجال آخرون أكثر رشاقة بحركات أقدامهم، بينما هو يشرب على منضدته ويراقب بحنان، ويفكّر بغموض في حياته.

لديه فائض من العمر من أجل التخطيط لمستقبله، ولكن من

السهل عليه تأجيل هذا القلق بينما الكأس في يده. لقد حصل على الدكتوراه منذ أكثر من سنتين، ولم ينل منها أيَّ منفعة، باستثناء مقالتين استطاع نشرهما في مطبوعتين جامعيَّتين في الولايات المتَّحدة، واحدة عن حقوق السكَّان الأصليين في الأرض في دستور عام ١٩٨٨، وأخرى عن عنف الجندر في البرازيل. كان يكسب عيشه بإعطاء دروس إنكليزيَّة. وبدافع الفضول أكثر من الطموح، كان يتقدَّم بين حين وآخر إلى أحد إعلانات التوظيف في «أميركان بوليتكال ريفيو». كان يعتبر ذلك الوقت في ريو دي جانيرو استراحة لطيفة في قَدَره، ونوعًا من الإجازة الطويلة، وسيبدأ عمَّا قريب مسيرة عمله المهنيّ، ولكن يمكن لهذا العمل أن ينتظر لبعض الوقت الإضافي. فتلك المدينة تدعو إلى الملذَّات والبطالة. تملك آنيتا بيتًا صغيرًا على الشاطئ، وبيعُ الأكاديميَّة وما يجنيه من دروس اللغة الإنكليزيَّة، يوفِّران لهما ما يكفي للعيش.

* * *

لم يكن قد بقي سوى القليل لتبلغ بيبي الثالثة من العمر، عندما استجابت الآلهة أخيرًا لصلوات آنيتا وبقيَّة نساء العائلة. «إنَّني مَدينة بهذا للإلهة يمايا»، قالت آنيتا عندما أخبرته بأنَّها حبلى. «ياه، ظننت أنَّك تدينين به لي»، قال لها ضاحكًا وهو يحملها معانقًا إيّاها. تطوَّر الحمل من دون مشاكل وانتهى في وقته المضبوط، ولكنَّ الولادة تعرَّضت لتعقيدات، وكان لا بدَّ في نهاية الأمر من إخراج الطفل إلى الدنيا بعمليَّة قيصريَّة. حذَّر الطبيب آنيتا من أن عليها عدمَ إنجاب مزيد من الأبناء، لمدَّة بضع سنوات على الأقلّ، ولكن ذلك لم يؤثِّر فيها كثيرًا، ولاسيَّما أنَّه كان يحمل بين ذراعيه بابلو، وهو طفل سليم ونهم. إنَّه أخو بيبي الذي تنتظره الأسرة.

انحنى ريتشارد على المهد، بعد شهر من ذلك، عند الفجر، ليُخرج الطفل ويعطيه لآنيتا كي تُرضعه، مستغربًا أنَّه لم يبكِ صارخًا من الجوع مثلما يفعل كلّ ثلاث أو أربع ساعات. كان الصغير ينام بهدوء شديد، حتى إنَّه تردَّد في حمله. هزَّته موجة من الحنان حتى العظم. أحسّ بوخز في عينيه وانسداد في حلقه؛ بذلك الامتنان المُفحِم الذي يداهمه بكثرة في حضور بيبي. تلقَّت آنيتا الوليد وقميصها مفتوح، وتمكَّنت من وضعه على صدرها قبل أن تنتبه إلى أنَّه لا يتنفَّس. انطلقت عندئذ صرخة مدوِّية من عمق أحشاء حيوان معذَّب هزَّت أركان البيت، والحيّ، والمدينة، والعالم بأسره.

كان لا بدَّ من إجراء تشريح للجثَّة. حاول ريتشارد أن يخفي الأمر عن آنيتا، لأنَّ فكرة تقطيع بابلو الصغير بصورة منهجيَّة ستكون فظيعة جدًّا، ولكن يجب تحرِّي سبب الوفاة. عزا التقرير الطبِّي السبب إلى متلازمة الموت الفجائيّ، موت المهد، كما يقول التقرير بحروف كبيرة، وهو حدث من المحال تحديده. غرقت آنيتا في ألم قاتم وعميق، في كهف بعيد الغَور استُبعد منه زوجها. ووجد ريتشارد نفسه مرفوضًا من زوجته، ومهمَلاً في أقصى ركن من بيته كما لو أنَّه عقبة أمام بقيَّة آل فارينها الذين اقتحموا خصوصيَّته لرعاية آنيتا، وتولُّوا مسؤوليَّة ابنته بيبي، وصاروا يتَّخذون القرارات من دون استشارته. سيطر الأقرباء على أسرته الصغيرة، مفترضين أنَّه غير قادر على تفهُّم حجم المأساة، لأنَّ حساسيَّته مختلفة جدًّا عن حساسيَّتهم. لقد أحسَّ ريتشارد، في أعماقه، بالراحة، لأنَّه غريب فعلًا عن أرض الألم والحداد تلك. وزاد ساعات دروسه، وصار يخرج مبكّرًا من البيت ويرجع متأخِّرًا بذرائع مختلفة. وبات في تلك الفترة يشرب أكثر.

فالكحول، ضمن كمّيّة كافية، كانت تسلية ضروريّة.

* * *

كان المسافرون على بُعد كيلومترات قليلة من الطريق الفرعيّة عندما سمعوا صوت صفّارة إنذار تخرج من سيّارة تابعة للشرطة كانت تنتظر متخفّية وراء بعض الشجيرات. رأت لوثيا الأضواء تسلّط على سيّارة اللكزس وسيّارة السوبارو التي تسير خلفها. فكّرت بكلّ جدّ في أن تضغط على دوّاسة السرعة إلى أقصاها وتغامر بحياتها، لكن صرخة من ريتشارد أجبرتها على تعديل خطّتها. تقدّمت بضعة أمتار أخرى إلى أن تمكّنت من التوقّف عند مصرف الماء على حافّة الطريق. «لقد علقنا الآن حقًّا»، قال ريتشارد وهو يستوي بمشقّة. أنزلت لوثيا زجاج النافذة وانتظرت حابسةً أنفاسَها إلى أن توقّفت سيّارة الدوريّة وراءها. مرّت من جانبها سيّارة السوبارو مخفّفة سرعتها، وتمكّنت هي من توجيه إشارة إلى إيفيلين بأن تواصل من دون توقّف. اقترب منها شرطيّ بعد لحظة.

«أوراقكِ»، قال لها.

- هل ارتكبتُ أيّ مخالفة أيُّها الضابط؟

- أوراقك.

بحثت لوثيا في محفظة السيّارة وقدّمت إليه أوراق اللكزس، ورخصة قيادتها الدوليّة معتقدة أنّها قد تكون منتهية الصلاحيّة، فهي لا تتذكّر متى استصدرتها في تشيلي. تفحّص الرجل الأوراق ببطء، وتأمّل ريتشارد الذي اعتدل في جلسته وراح يرتّب ملابسه في المقعد الخلفيّ.

«انزلي من السيّارة»، أمر لوثيا.

انصاعت له. كانت ساقاها ترتجفان ولا تكادان تحملانها.
فكَّرت، بصورة خاطفة، في أنَّ هذا هو الشعور الذي يشعر به أيّ أمرو أميركي عندما توقفه الشرطة، ولو كان ريتشارد هو من يقود السيَّارة لكانت المعاملة مختلفة. فتح ريتشارد الباب في تلك اللحظة وخرج منحنيًا.

«انتظرْ داخل السيَّارة أيُّها السيِّد!»، صرخ به الشرطيّ وهو يمدّ يده إلى قراب مسدَّسه.

جلس ريتشارد القرفصاء يجتاحه الغثيان وتقيّأ بقيّة طبق الشوفان عند قدمي الرجل الذي تراجع قرفًا.

«إنَّه مريض، لديه قرحة أيُّها الضابط»، قالت له لوثيا.

ـ ما علاقتك به؟

ـ «أنا... أنا...» تلعثمت لوثيا.

«إنَّها مدبِّرة منزلي. تعمل عندي»، تمكَّن ريتشارد من صياغة الكلمات وسط غثيانه.

وضع الرجل، بصورة آليَّة، التصوُّراتِ النمطيَّةَ في أمكنتها: الخادمة اللاتينيَّة تقود السيَّارة بربِّ عملها، ربَّما إلى المستشفى. فالرجل يبدو مريضًا حقًّا. المثير للفضول أنَّ لدى المرأة رخصة قيادة أجنبيَّة. ليست المرَّة الأولى التي يرى فيها بطاقة دوليَّة... تشيلي؟ أين يقع هذا البلد؟ انتظر إلى أن استوى ريتشارد، وعاد يشير إليه بأن يصعد إلى السيَّارة، ولكن نبرته كانت أقرب إلى المصالحة. ذهب وراء اللكزس، ونادى لوثيا مشيرًا إلى الصندوق الخلفي.

ـ أجل أيّها الضابط. لقد جرى هذا للتوّ. كان هناك حادث متعدّد على الطريق، ربَّما تكون قد علمت بذلك. وقد صدمتنا من الخلف سيّارة لم يستطع سائقها كبحها في الوقت المناسب، الأمر عاديّ، مجرَّد صدمة بسيطة، التواء في غطاء الصندوق وكسر غطاء المصباح الخلفيّ. لقد طليتُ المصباح بطلاء أظافر ريثما أجد قطعة غيار.

ـ يجب أن أعطيك تبليغًا.

ـ عليّ أن أوصل السيِّد بوماستير إلى الطبيب.

ـ سأتركك تذهبين هذه المرَّة، ولكن عليك أن تستبدلي الضوء الخلفيّ قبل مرور أربع وعشرين ساعة. مفهوم؟

ـ أجل أيُّها الضابط.

ـ أتحتاجين إلى مساعدة بشأن المريض؟ يمكنني حراستك حتى المستشفى.

ـ شكرًا جزيلًا أيُّها الضابط. لا حاجة إلى ذلك.

عادت لوثيا إلى الجلوس وراء المقود وقلبها يخفق بشدَّة، وهي تجاهد لتهدئة أنفاسها، بينما كانت سيَّارة الشرطة تبتعد. أكاد أُصاب بسكتة قلبيَّة، فكَّرت، ولكنَّها كانت تهتزّ في ضحكة عصبيَّة بعد ثلاثين ثانية من ذلك. لو أنَّه سجَّل لها مخالفة لكانت هويَّتها ومعلومات السيَّارة قد سُجِّلت في المخالفة، ولكانت مخاوف ريتشارد قد تحقَّقت عندئذ، بكلِّ رعبها الهائل.

«لقد نجونا»، علقت وهي تمسح دموع الضحك، ولكن ذلك لم يبدُ مضحكًا، في أيِّ حال، لريتشارد.

* * *

كانت سيَّارة السوبارو تنتظرهما على بُعد كيلومتر إلى الأمام، واكتشف ريتشارد بعد قليل من ذلك المدخلَ المؤدِّي إلى بيت هوراسيو الريفي. إنَّه درب يكاد يكون غير مرئيٍّ، يتلوَّى بين أشجار الصنوبر، وتغطِّيه طبقة من الثلج سماكتُها عدَّةُ سنتيمترات. تقدَّموا ببطء في الغابة، متضرِّعين ألَّا تعلق السيَّارتان في الثلج، ومن دون أن يروا أثر أيّ حياة بشريَّة، طوال قرابة عشر دقائق، إلى أن ظهر فجأة السقف المائل لبيت ريفيٍّ كما في حكايات الحوريَّات، تتدلَّى منه أصابع صقيع كديكورات أعياد الميلاد.

أضعف التقيُّؤ ريتشارد، ولكن آلامه صارت أقلّ. فتح قفل البوَّابة الخارجيَّة بمفتاحه، وركنوا السيَّارتين وترجَّلوا. فتح باب البيت وكان عليه أن يدفعه بكلّ ثقل جسده كي يحرِّكه، لأنَّ خشب الباب كان قد انتفخ بفعل الرطوبة. ولدى الدخول صفعت وجوهَهم رائحةُ عفونة مقزِّزة. أوضح لهما ريتشارد، بعد أن هرع إلى الحمَّام، أنَّ البيت مقفل منذ أكثر من سنتين، ومن المؤكَّد أنَّ الخفافيش ودويبات أخرى قد غزته.

«متى ستتخلَّص من اللكزس؟»، سألته لوثيا.

«اليوم بالذات، ولكن امنحيني نصف ساعة كي أستعيد قواي»، قال لها وهو يُلقي بنفسه منبطحًا على الصوفا المخلَّعة في الصالة، من دون أن يتجرَّأ على الطلب منها أن تستلقي إلى جانبه وتعانقه كي تخلِّصه من البرد.

«استرِحْ. ولكنَّنا إذا ظللنا لوقت طويل هنا فسوف نتجمَّد»، قالت لوثيا.

ـ يجب تشغيل المولِّد ومَلءُ المدافئ بالوقود. هنالك زجاجات كيروسين في المطبخ. لا بدَّ من أنَّ الأنابيب متجمِّدة، وأعتقد أنَّ بعضها مكسور، هذه أمور يجري فحصها في الربيع. فلنُذب ثلجًا من أجل الطهو. لا يمكننا استخدام مدفأة الحطب، لأنَّ أحدًا سوف يرى الدخان.

«أنت لست في وضع يسمح لك بعمل أيِّ شيء. هلمِّي بنا يا إيفيلين!» قالت لوثيا وهي تغطِّي ريتشارد ببطَّانيَّة نخرتها العثَّة ومتيبِّسة كالكرتون، وجدتها على كرسيٍّ.

كانت المرأتان بعد قليل من ذلك قد تدبَّرتا أمر إشعال مدفأتين، ولكنَّهما لم تتمكَّنا من تشغيل مولِّد الكهرباء المحتضر، ولم يستطع ريتشارد ذلك أيضًا عندما استيقظ وتمكَّن من الوقوف. وجدوا في البيت موقد طبخ يعمل بالكيروسين، كانوا يستخدمونه عند الخروج لصيد السمك في الثلج، وكان ريتشارد قد ضمَّ إلى أمتعة الرحلة ثلاثة مصابيح يدويَّة، وأكياس نوم ووسائل راحة أساسيَّة لحملة استكشاف أمازونيَّة، إضافة إلى بعض علب المأكولات النباتيَّة والمجفَّفة، اعتاد على حملها معه في رحلاته الطويلة على الدرَّاجة الهوائيَّة. «إنَّها أغذية حمار»، علَّقت لوثيا في مزاج رائق، وهي تحاول أن تغلي ماء على موقد الكيروسين الصغير جدًّا، والذي تبيَّن أنَّه يكاد يكون غير صالح للعمل، مثله مثل مولِّد الكهرباء. وما إن نقعت مأكولات الحمار تلك في الماء حتى تحوَّلت إلى عشاء محترم، وجد ريتشارد نفسه عاجزًا عن تناوله، فاكتفى بحساء وبنصف فنجان شاي كي يُزوِّد جسمه بالماء. لم تكن معدته تتحمَّل أكثر من ذلك، ثم عاد إلى الاستلقاء والتدثُّر بالبطَّانيَّة.

إيفيلين

شيكاغو

كانت مريام، والدة إيفيلين أورتيغا، قد أمضت أكثر من عشر سنوات من دون رؤية أبنائها الثلاثة الذين تركتهم مع الجدَّة في غواتيمالا، لكنَّها تعرَّفت إلى إيفيلين فورًا عند وصولها إلى شيكاغو، بسبب الصور، ولأنَّها تشبه الجدَّة كثيرًا. لم تخرج شبيهة بي لحسن الحظّ، فكَّرتْ وهي تراها تنزل من شاحنة غاليليو ليون. الجدَّة كونثيبثيون مونتويا ذات دم خليط. لقد أخذت أفضل ما في سلالتَي المايا والعرق الأبيض. كانت آية في الجمال في مراهقتها، قبل أن يغتصبها الجنود. وقد ورثت إيفيلين عنها ملامحها المرهَفة، متجاوزة جيلًا من السلالة. لأنَّ مريام، في المقابل، فجَّة التقاطيع، لها جذع ثقيل وساقان قصيرتان، ربَّما هي مثلما كان أبوها، ذلك «المُغتَصِب الهنديّ النازل من الجبل»، مثلما تُضيف على الدوام هي نفسها كلَّما تحدَّثت عن أبيها. ما زالت ابنتها طفلة بجديلة ثخينة سوداء، تتدلَّى حتى الخصر، ووجه ناعم رهيف. ركضت مريام نحوها واحتضنتها بشدَّة، مكرِّرة اسمها وباكية سعادة بلقائها وحزنًا على أخويها القتيلين.

أتاحت لها إيفيلين أن تعانقها من دون أن تُبدي إيماءة واحدة تضيفها إلى تدفُّق مشاعر أمّها؛ تلك المرأة المربوعة ذات الشعر الأصفر والمجهولة لديها.

لقد حدَّد ذلك اللقاء الأوَّل طبيعة العلاقة بين الأمّ والابنة. كانت إيفيلين تتكلَّم أقلّ ما يمكن كي تتجنَّب خجل الكلمات التي تختلط في فمها، بينما ترى مريام في ذلك الصمت نوعًا من التأنيب. وعلى الرَّغم من أنَّ إيفيلين لم تتطرَّق إلى الموضوع قطّ، فإنَّ مريام كانت تستغلّ أيّ فرصة كي توضح أنَّها لم تغادر أبناءها برغبتها، وإنَّما بدافع العَوَز. فالجميع كانوا سيعانون الجوع لو أنَّها ظلَّت في قرية مونخا بلانكا دل بايي، تصنع شطائر التامال مع الجدَّة. ألا تتفهَّم إيفيلين ذلك؟ سوف تُدرك، عندما تصبح أمًّا بدورها، ضخامةَ التضحية التي أقدمت عليها من أجل أسرتها.

موضوع آخر كان يطفو في الجوّ: إنَّه المصير الذي انتهى إليه غريغوريو وأندريس. فمريام ترى أنَّها لو كانت في غواتيمالا لربَّت أبناءها بصرامة، ولما انحرف غريغوريو إلى طريق الجريمة، ولما مات أندريس بسبب أخيه. كان صوت إيفيلين في هذه المناسبات يعلو للدفاع عن جدَّتها التي علَّمتهم عادات حميدة؛ لكن أخاها تحوَّل إلى الحياة الخبيثة بسبب ضعفه، وليس لتقاعس الجدَّة وغياب صفعاتها.

كانت أسرة غاليليو ليون تعيش في حيٍّ مؤلَّف من بيوت نقَّالة، مجموعها عشرون بيتًا متشابهة تقريبًا، كلّ واحد منها له فناء صغير، تتقاسمه الأسرة مع ببّغاء وكلبة كبيرة وديعة. أعطوا إيفيلين فرشة إسفنجيَّة، تضعها على أرض المطبخ في الليل. ولديها حمَّام صغير

ومغسلة خارجيَّة في الفناء. وعلى الرَّغم من ضيق المكان، فإنَّ الوئام كان يسود بين الجميع، ذلك بأنَّهم، من ناحية أولى، كانوا يعملون في ورديَّات عمل مختلفة التوقيت. فمريام تعمل في تنظيف مكاتب في الليل وبيوت في الصباح، وتظلّ غائبة عن البيت منذ منتصف الليل حتى منتصف نهار اليوم التالي. أمَّا غاليليو فليس له مواعيد عمل ثابتة، وحين يكون في البيت يتجوَّل بتكتُّم كما لو أنَّه غير موجود، كي يتجنَّب سوء مزاج امرأته الدائم. وكانت هناك جارة ترعى الأطفال في مقابل أجر معقول، لكن حين جاءت إيفيلين أوكلوا إليها هذه المسؤوليَّة. في المساء، تكون مريام في البيت، وقد أتاح ذلك لإيفيلين الذهاب إلى دروس اللغة الإنكليزيَّة خلال السنة الأولى، وهذه إحدى المنافع التي تقدِّمها الكنيسة إلى المهاجرين، ثم صارت تعمل بعد ذلك مع أمِّها. كان مريام وغاليليو ينتميان إلى الكنيسة البروتستانتية الخمسينيَّة، وتدور حياتاهما حول خدمة كنيستهما ونشاطاتها الاجتماعيَّة.

شرح غاليليو لإيفيلين كيف أنَّه وجد خلاصه الروحيّ في الربّ، ووجد أُسرة في أخوته وأخواته بالإيمان. «كنت رجل حياة خبيثة إلى أن ذهبتُ إلى الكنيسة، وهناك نزل عليّ الروح القدس. حدث ذلك منذ تسع سنوات». لقد وجدت الفتاة صعوبة في تخيّل أن يكون هذا الرجل، المبالغ في مثاليَّته وأخلاقيَّاته، صاحبَ حياة خبيثة. وقد حدث، بحسب قول غاليليو، أنَّ شعاعًا إلٰهيًا طرحه أرضًا خلال خدمة القدَّاس، وفي تقلُّبات غيبوبته تلك طرد الشيطان، بينما كان حشد المؤمنين المتحمِّسين يغنُّون ويصلُّون بملء رئاتهم. وقال إنَّ حياته اتَّخذت منذ ذلك الحين وجهةً أخرى، وتعرَّف إلى مريام التي كانت آمرةً متسلِّطة، لكنَّها طيِّبة القلب، وقد ساعدته على البقاء في الطريق

القويم. ومنحه الربّ الابنين، وعلاقته به علاقة عائليّة، يتبادلان الحديث مثلما يتحدَّث الابن مع أبيه. يكفيه أن يطلب شيئًا بكلّ ما في قلبه من حماسة، فيُمنَح له. لقد قدَّم شهادة أمام الملأ عن إيمانه، وجرى تعميده بالتغطيس في مسبح محلّي، مثلما يأمل أن تفعل إيفيلين، لكنّها راحت تؤجِّل تلك اللحظة وفاءً منها للأب بينيتو وجدَّتها، لأنّ تبديل الكنيسة سيكون في نظرهما عملًا مشينًا.

* * *

يتعرَّض الانسجام بين ساكني تلك البيوت للخطر خلال زيارات دورين المتباعدة، ودورين هذه هي ابنة غاليليو؛ حصيلة غراميّات عابرة في سنوات فتوّته مع مهاجرة من جمهوريّة الدومينيكان، تعيش على التهريب وعلى التنبُّؤ بورق اللعب. ودورين، بحسب رأي مريام، ورثت عن أمّها عبقريّة خداع البلهاء، وهي مدمنة مخدَّرات وتمضي في الدنيا مخلِّفة وراءها سحابةً نتانة. ولهذا، فإنّ كلّ ما تلمسه يتحوَّل إلى براز كلب. لها من العمر ستّة وعشرون عامًا، لكنّها تبدو في الخمسين. لم تشتغل في عمل شريف، ولو يومًا واحدًا في حياتها، ولكنّها تتباهى بأنّها تتصرَّف بأكوام من النقود. لا أحد يجرؤ على سؤالها من أين تأتي بها، لأنّ الجميع يرتابون بأنّها لا تستطيع الاعتراف بأساليبها، لكن يبدو أنّها مثلما تكسب تلك الأموال بسهولة، فإنّها تفقدها بسهولة. عندئذ، تأتي إلى حيث يعيش أبوها، تطلب اقتراض مبلغ من دون أي نيات بإعادته. كانت مريام تكرهها، وكان غاليليو يخافها؛ فهو يزحف أمامها مثل دودة ويعطيها ما يستطيعه، وهو أقلّ ممّا تطلبه دومًا. كانت مريام تصفها بذات الدم الخسيس، من دون أن توضح ما الذي يعنيه ذلك، وتحتقرها لأنّها سوداء، لكنّها لم تكن تجرؤ على

مواجهتها. لم يكن هنالك في ملامح دورين الجسديَّة ما يمكنه ان يفرض الخوف، فهي نحيلة، ولها عينا فأر، وأسنان وأظفار صفر، وهي منحنية القامة بسبب ضعف عظامها، ولكنَّها تشعّ بغيظ رهيب مكبوت، مثل طنجرة ضغط على وشك الانفجار. أمرت مريام ابنتها بالبقاء بعيدة عن رادار تلك المرأة؛ إذ لا يمكن انتظار شيء طيِّب منها.

لم يكن أمر الأمّ ضروريًا، لأنَّ أنفاس إيفيلين كانت تنقطع عند اقتراب دورين منها. فعندما تدنو من المكان تبدأ الكلبة بالنباح في الفناء معلنة عن مجيئها قبل عدَّة دقائق من وصولها، فيكون ذلك تنبيهًا لإيفيلين كي تنسلّ مبتعدة، لكنَّها لا تستطيع الابتعاد في الوقت المناسب دائمًا، فتعترضها دورين عندئذ متوعِّدة: «إلى أين تذهبين مسرعةً هكذا، أيَّتها الصمَّاء البكماء المتخلِّفة؟». إنَّها الوحيدة التي تشتمها، بينما اعتاد الآخرون على فكّ معنى عبارات إيفيلين المتقطِّعة قبل أن تنتهي من نطقها. وكان غاليليو ليون يسارع إلى إعطاء ابنته نقودًا كي تنصرف، ويتوسَّل إليها في كلّ مرَّة أن ترافقه إلى الكنيسة، ولو لمرَّة واحدة. إذ إنَّه يحتفظ بالأمل بأنَّ الروح القدس سيتلطَّف بالنزول إليها لإنقاذها من نفسها، مثلما حدث له هو بالذات.

* * *

مضى ما يزيد على سنتين، من دون أن يصل إلى إيفيلين إشعارُ المحكمة الذي وعدوها به في مركز الاعتقال. كانت مريام تعيش متعلِّقة بالبريد، على الرَّغم من احتمال أن يكون ملفّ ابنتها قد ضاع آنذاك في متاهات إدارات الهجرة، وأنَّه يمكنها أن تعيش بلا وثائق

طوال ما تبقّى من حياتها من دون أن يزعجها أحد. وكانت إيفيلين قد أنهت السنة الأخيرة من المدرسة الثانويّة وتخرَّجت وهي ترتدي ثوب تخرج رومانيًّا وقلنسوة، مثل بقيَّة زملائها، من دون أن يطلب منها أحد ما يُثبت أنَّها موجودة.

كانت الأزمة الاقتصاديَّة، في السنوات الأخيرة، قد زادت في حدَّة الحقد على اللاتينيِّين. فملايين المواطنين الأميركيين الذين احتالت عليهم مؤسَّساتُ التمويل والمصارف، وفقدوا بيوتهم ووظائفهم، وجدوا في المهاجرين كبشَ فداء. «فلنرَ إذا كان أيُّ أميركي ملوَّن سيوافق على العمل في مقابل الأجر البائس الذي يدفعونه إلينا»، قالت مريام محتجةً. فهي تكسب أقلّ من الحدّ الأدنى القانونيّ، وتعمل لساعات أكثر كي تغطِّي النفقات، لأنَّ الأسعار ترتفع، بينما تبقى الأجور مجمَّدة. كانت إيفيلين تذهب وإيَّاها مع امرأتين أُخريين لتنظيف المكاتب في الليل. كنّ يشكِّلن فريقًا مهيبًا، يأتين في سيَّارة هيونداي أكسنت ومعهنّ موادُّ التنظيف ومذياعٌ ببطَّاريَّة لسماع الوعَّاظ الأنغليكانيين والأغاني المكسيكيَّة. كان لديهنّ تقليد العمل معًا، ويحتمين بهذه الطريقة من المخاطر الليليَّة، ابتداءً من هجمات السطو في الشارع حتى المضايقات الجنسيَّة في الأبنية المغلقة، فقد صنعن لأنفسهنَّ سمعة أمازونيَّات بعد ضرب قاسٍ بالمكانس والدلاء وفراشي التنظيف لموظَّف مكتبيّ متأخِّر، حاول أن يتجاوز الحدود مع إيفيلين في أحد الحمَّامات. أمَّا حارس الأمن، وهو لاتيني آخر، فصمَّ أُذنيه عن عمليَّة الضرب تلك لوقت لا بأس به، وعندما تدخَّل أخيرًا، بدا المتودِّد كما لو أنَّ شاحنة قد صدمته، ولكنَّه امتنع من اللجوء إلى الشرطة للشكوى ضدّ المعتديات؛ وفضَّل تحمُّل المهانة بصمت.

كانت مريام وإيڤيلين تعملان جنبًا إلى جنب؛ تتقاسمان المهمّات البيتيّة، وتربية الطفلين، والعناية بالبَبغاء والكلبة، والمشتريات والأمور الأخرى التي لا بدَّ منها، ولكنَّهما تفتقدان الحميميَّة التلقائيَّة البسيطة بين أمٍّ وابنتها. تبدوان، على الدوام، كما لو أنَّ كلاًّ منهما في زيارة للأخرى. لم تعرف مريام كيف تتعامل مع هذه الابنة الصامتة. تتأرجح ما بين تجاهلها أو إظهار حبِّها لها بتقديم الهدايا إليها. كانت إيڤيلين روحًا متفرِّدة: لم تعقد صداقة مع أحد، لا في المدرسة ولا في الكنيسة. وكانت مريام تفكِّر في أنَّه لا يمكن لأيِّ فتاة أن تهتمّ بها، لأنَّها ما زالت تحتفظ بمظهر الذبابة سيِّئة التغذية. فالمهاجرون يأتون بعظام بارزة، ويمضون خلال شهور قليلة على طريق البدانة بحمية الوجبات السريعة والرخيصة، لكن إيڤيلين كانت ضعيفة الشهيَّة، تشمئزّ من الدهون والسكَّر، وتحنُّ إلى فاصوليا جدَّتها. لم تكن مريام تعلم بأنَّ اقتراب أيِّ شخص أقلّ من متر من إيڤيلين يجعلها كما لو أنَّها على جمر؛ فرهاب الاغتصاب كان وسمًا بالنار في ذاكرتها وفي جسدها، فهي تربط التلامس الجسدي بالعنف، بالدم، وبأخيها أندريس الذبيح. كانت أمُّها تعلم بما حدث لها، لكن أحدًا لم يُخبرها بالتفاصيل، ولم تكن إيڤيلين قادرة على الحديث عن ذلك. كانت العزلة مناسبة لها، لأنَّها توفِّر عليها جهد التكلُّم.

لم تكن لدى مريام أيُّ شكوى، فابنتها تنجز واجباتها في الوقت المناسب ولا تقف مكتوفة اليدين أبدًا، منصاعةً بذلك لمبدأ جدَّتها التي ترى أنَّ البطالة هي أمّ الشرور كلّها. لم تكن تسترخي إلَّا مع أخويها، ومع الصغار في الكنيسة، ممَّن لا يحاكمونها. فبينما يكون الآباء في القدَّاس، تتولَّى هي العناية بنحو عشرين طفلًا في صالة مجاورة،

وهكذا كانت تتهرّب من موعظة الكاهن الطويلة، وهو كاهن مكسيكي متحمّس، يتمكّن من السيطرة على عقول الجمهور إلى حدّ الهستيريا. كانت إيفيلين تخترع ألعابًا لإلهاء الأطفال: تغنّي لهم، وتجعلهم يرقصون وهي تنقر لهم على دفّ. وكانت قادرة على أن تروي لهم قصصًا من دون تلعثم، ما دام لا يوجد شهود كبار. نصحها راعي الكنيسة بأن تدرس لتكون معلّمة، فقد كان واضحًا أنّ الربّ قد منحها هذه الموهبة، وتبديدُها سيكون كما لو أنّها تبصق على السماء. ووعدها بأن يساعدها في الحصول على وثائق إقامتها، لكن تأثيره القوي جدًا في المجالات السماويّة، لم يكن يتمتّع بالفعاليّة ذاتها في مكاتب خدمات الهجرة القاحلة.

* * *

كان يمكن للموعد مع القاضي أن يتأجّل بصورة لانهائيّة لولا تدخُّل دورين. فابنة غاليليو ليون تردّدت كثيرًا خلال تلك السنوات القليلة، ولم يكد يبقى شيء يُذكر من عجرفتها. أمّا الغضب فظلّ على حاله. اعتادت على الظهور وقد غطّتها كدمات تشهد على طبعها الفظّ؛ فهي تجد في أيّ استفزاز ذريعة للشجار. لديها ندبة قرصان في ظهرها، هي أثر طعنة خنجر، تعرضُها على الطفلين كما لو أنّها شعار شرف، وتعلن بافتخار أنّهم تركوها تنزف على أنّها ميّتة في زقاق ضيّق، بين دلاء قمامة. لقد تواجهت إيفيلين معها في مناسبات قليلة جدًا، لأنّ إستراتيجيّتها في الهرب كانت تمنحها في العادة نتائج جيّدة. فإذا كانت وحدها مع الطفلين، تخرج بهما هاربة فور بدء الكلبة بالنباح. لكن خطّتها هذه أخفقت في ذلك اليوم، لأنّ الطفلين كانا مصابين بالحمّى القرمزيّة. كانت الحمّى قد بدأت قبل ثلاثة أيّام بآلام

في الحنجرة، وكانت بشرتاهما مغطّاتين بالطفح؛ ومن المحال إخراجهما من الفراش في يوم بارد من بدايات تشرين الأوّل/أكتوبر. دخلت دورين وهي تركل الباب وتهدّد بتسميم الكلبة اللعينة. وتهيّأت إيفيلين لتلقي وابل الشتائم التي ستوجّهها المرأة إليها فور معرفتها أنّ أباها غير موجود، وأنّه لا نقود في البيت.

لم يكن في استطاعة إيفيلين رؤية ما الذي تفعله الأخرى، من غرفة الطفلين الصغيرة، ولكنّها كانت تسمعها تقلب الأشياء وتطلق لعنات تشي بنفادِ الصبر. كانت تخشى ردّ فعلها إذا لم تجد ما تبحث عنه. تسلّحت بشجاعة وتوجّهت إلى المطبخ بنيّة قطع الطريق عليها قبل أن تصل إلى حجرة الطفلين. وفكّرت في إعداد سندويش، من أجل المدارة، لكن دورين لم تمنحها الوقت. اندفعت كثور مصارعة، وقبل أن ترى إيفيلين ما هو آتٍ نحوها، أمسكت الأخرى بها من عنقها بكلتا يديها، وراحت تهزُّها بقوّة الإدمان. «أين هي النقود؟ تكلّمي أيّتها المتخلّفة وإلّا فسأقتلك!» حاولت إيفيلين، من دون جدوى، الإفلاتَ من تلك البراثن القويّة. وأطلّ أخواها خائفين على صرخات دورين، وانفجرا في البكاء في الوقت الذي اندفعت فيه الكلبة، ونادرًا ما كانت تدخل البيت، وأمسكت المعتدية من سترتها وراحت تطلق زمجرات. فدفعت دورين بإيفيلين جانبًا، واستدارت لتركل الكلبة. فقدت البنت توازنها وسقطت إلى الوراء، فارتطم رأسها بمنضدة المطبخ. وراحت دورين توزّع الركلات ما بين الكلبة وإيفيلين، ولكن أنتها ومضة تعقُّل في غمرة لتدرك فظاعة ما أقدمت عليه؛ فخرجت راكضة وهي تطلق سلسلة من الشتائم البذيئة. اجتذب الصخب اهتمام إحدى الجارات، فوجدت إيفيلين ملقاةً على الأرض والطفلين يبكيان بشدَّة. فاتّصلت

المرأة بمريام أوّلًا، ثم بغاليليو ليون، وأخيرًا الشرطة.

وصل غاليليو بعد دقائق من وصول الشرطة ليجد إيفيلين تحاول النهوض بمساعدة امرأة تلبس الزيّ الرسمي. كانت الدنيا تدور بها كدوّامة إعصار، في خضمّ مطر من لطخات سوداء تُغشي بصرها، بينما يشقّ الألم جمجمتها بطريقة تجد صعوبة معها في شرح ما جرى، لكنّ أخويها كانا يردِّدان في خضمّ المخاطر والنحيب اسمَ دورين. لم يستطع غاليليو الحيلولة دون أخذهم إيفيلين في سيّارة إسعاف إلى المستشفى، وكتابة تقرير رسميّ للشرطة بما حدث.

خاطوا جلد رأس إيفيلين في عدَّة مواضع، في مركز خدمة الطوارئ بالمستشفى، وأبقوها تحت المراقبة عدَّة ساعات ثم أرسلوها إلى بيتها مع عبوة حبوب مُسكِّنة للألم وتوصية بأن تستريح، لكنَّ الحادث سيواصل التأثير فيها، بسبب وجود تقرير الشرطة الرسميّ. حضرت الشرطة في اليوم التالي بحثًا عنها، وجرى استجوابها، طوال ساعتين، بشأن علاقتها بدورين قبل أن يُفرجوا عنها، ثم رجعوا بعد يومين من ذلك وأخذوها من جديد، لكنَّ الأسئلة في هذه المرَّة كانت عن دخولها الولايات المتَّحدة، وأسباب تركها بلادها. حاولت إيفيلين بتردُّدٍ خائفٍ أن تروي ما جرى لأسرتها، ولكنَّهم لم يستطيعوا فهمها جيِّدًا، وجرى ذلك على نحو أفقد رجال الشرطة صبرهم. وكان حاضرًا في الغرفة رجلٌ لا يرتدي الزيّ الرسميّ، يسجِّل ملاحظات من دون أن يفتح فمه ولو لذكر اسمه.

ولأنَّ هناك تهمة مخدِّرات وجنحًا أخرى ضدَّ دورين، فقد حضر إلى البيت ثلاثة رجال شرطة ومعهم كلب مدرَّب، وقاموا بالتفتيش حتى

آخر ركن من دون أن يعثروا على أيّ شيء يهمّهم. تدبَّر غاليليو ليون الأمر ليختفي، وكان على مريام أن تتحمَّل عار رؤية كيف ينزعون لينوليوم الأرضيَّة، ويمزّقون أحشاء الفراش بحثًا عن مخدّرات. أطلَّ عدد من الجيران بفضول وظلُّوا يجولون في المكان، بعد ذهاب الشرطيّين وكلبهم، في انتظار الفصل الثاني من الدراما. وفور عودة غاليليو، انقضَّت عليه زوجته غاضبة مثلما توقَّعوا. فكلّ ذلك حدث بسببه وبسبب ابنته العاهرة تلك. كم مرَّة كرَّرت أنَّها لا تريد رؤيتها في بيتها، وأنَّه مجرَّد شيطان بائس، ضعيف الشخصيَّة، والناس محقُّون بعدم احترامهم له. وواصلت على هذا النحو بوتيرة ملحميَّة، بدأت في البيت، وتواصلت في الفناء، ثم في الشارع، وانتهت في الكنيسة، حيث ذهب الزوجان يرافقهما عدد من الشهود لاستشارة الكاهن. وبعد عدَّة ساعات، نفد وقود مريام وبرد غضبها، بعد أن وعد غاليليو، بخوف، بأن يُبقي ابنته بعيدة عن البيت.

* * *

طُرق باب البيت، في ذلك اليوم بالذات، الساعةَ الثامنة ليلًا، بينما كانت مريام لا تزال مُحْمَرَّة الوجه بتأثير النوبة العصبيَّة. وكان الطارق هو الرجل نفسه الذي كان يسجِّل الملاحظات في مركز الشرطة. قال، على سبيل تقديم نفسه، إنَّه آتٍ من جهاز خدمة المهاجرين. تجمَّد الهواء في الجوّ، ولكنَّهم لم يستطيعوا منعه من الدخول. لقد كان الرجل معتادًا على التأثير الذي يسبّبه حضوره، وحاول تخفيف التوتُّر بالتكلُّم بالإسبانيَّة. أخبرهم بأنَّه عاش مع جدِّه المكسيكيين، وأنَّه فخور بأصوله، ويتنقّل بتلقائيَّة كاملة بين الثقافتين. استمعوا إليه غيرَ مصدِّقين، لأنَّ الرجل أبيضُ، شديدُ البياض، وله

عينان زرقاوان كعيني سمكة، ويرطن باللغة الإسبانية بلا هوادة. وعندما رأى أنّه ليس هنالك من يُقدِّر نيّاته الحسنة، انتقل مباشرة إلى الهدف من زيارته. كان يعرف أنَّ لدى مريام وغاليليو تصريحَ إقامة، وأنَّ ابنيهما قد وُلدا في الولايات المتّحدة، لكن وضع إيفيلين أورتيغا ما زال يُنظر فيه. لديه بطاقة مركز الاعتقال مع تاريخ اعتقالها على الحدود. ولعدم وجود شهادة ميلاد، سيُفترض أنها قد أكملت ثمانية عشر عامًا. وبما أنَّها غير شرعيَّة فإنَّها مرشَّحة للإبعاد وإعادتها إلى بلادها.

خيَّم صمتُ قبور نحو دقيقتين، بينما كانت مريام تقدِّر إذا ما كان هذا الرجل قد جاء حاملًا القانون تحت إبطه، أم أنَّه يسعى للحصول على رشوة. وفجأة، نطق غاليليو ليون، المتردِّد عادة، وقال بصوت راسخ لم يسمعه منه أحدٌ من قبل:

ـ هذه الصغيرة لاجئة. لا وجود لأحد غير شرعيٍّ في هذه الحياة، جميعنا لنا الحقّ في أن نعيش في العالم. المال والجريمة لا يحترمان الحدود. وأنا أتساءل أيُّها السيِّد، لماذا يجب علينا نحن البشر أن نفعل ذلك؟

«أنا لا أضع القوانين. وعملي هو تنفيذها»، ردّ عليه الآخر بارتباك.

«انظر إليها جيِّدًا، كم هو عمرها في رأيك؟» قال غاليليو مشيرًا إلى إيفيلين.

ـ تبدو فتيَّة جدًّا، ولكنَّني في حاجة إلى شهادة ميلادها للتأكُّد من الأمر. في بطاقتها يرد أنَّ شهادة ميلادها حملتها المياه عند اجتيازها

النهر. وقد حدث ذلك قبل ثلاث سنوات، وكان يمكن لكم خلال هذا الوقت الحصول على نسخة من شهادة ميلادها.

«من سيفعل ذلك؟ أمّي امرأة عجوز أُمِّيَّة، وهذه المعاملات تتأخّر في غواتيمالا كثيرًا وتكلِّف نقودًا»، تدخَّلت مريام، وقد خرجت من ذهول المفاجأة حين رأت زوجها يعبِّر عن رأيه لرجل قانون.

«ما ترويه البنت عن العصابات وعن مقتل أخويها هو أمر شائع، وقد سمعتُه من قبل. هنالك قصص كثيرة مثل هذه متداولة بين المهاجرين. سمع القضاة أيضًا هذه القصص. بعضهم يصدِّقها وبعضهم لا يصدِّقها. ويعتمد منح اللجوء أو الإبعاد على قرار القاضي الذي سيكون من نصيبها»، قال الموظَّف قبل أن يغادر.

غاليليو ليون، الوديع دومًا، كان يؤيِّد انتظار المسار القانوني الذي يتطلَّب انتظارًا، لكنَّه يصل أخيرًا، على حدّ قوله. أمَّا مريام فترى أنَّه إذا ما وصل القانون، فإنَّه لا يكون دومًا لمصلحة الطرف الضعيف، وبدأت على الفور حملة لإخفاء ابنتها. لم تسأل إيفيلين عن رأيها عندما فعَّلتْ اتِّصالاتها عبر شبكة سرِّيَّة للمهاجرين الذين بلا وثائق، ولا عندما وافقت على إرسالها للعمل في بيت أُناس في بروكلين. لقد حصلت على المعلومة من امرأة أخرى، عضو في الكنيسة نفسها، وتعرف أختها واحدة عملت موظَّفة منزليَّة عند تلك العائلة، وتشهد بأنَّ أفرادها لا يهتمُّون بمسألة التدقيق في الوثائق ولا في الصغائر الأخرى. فما دامت الفتاة تقوم بواجباتها، فلن يسألها أحد عن وضعها القانوني. أرادت إيفيلين أن تعرف ما هي تلك الواجبات، فأوضحوا لها أنَّ الأمر يتعلَّق بالعناية بطفل مريض فحسب.

أرث مريام ابنتها موقع نيويورك على الخريطة، وساعدتها في نوضيب أمتعتها في حقيبة صغيرة، وأعطتها عنوانًا في منهاتن، ووضعتها في حافلة تابعة لشركة غرايهاند. وبعد تسع عشرة ساعة، مثلت إيڤيلين في الكنيسة البروتستانتيّة الخمسينيَّة الأميركيَّة اللاتينيَّة، وهو مبنًى مؤلّف من طابقين ليس فيه من الخارج أيُّ مظهر من وقار المعابد، حيث استقبلتها عضو طيِّبة النيّات من الطائفة. قرأت المرأة رسالة التعريف المرسلة من كاهن شيكاغو، وقدَّمت إليها مأوًى لتلك الليلة في بيتها بالذات، وأوضحت لها في اليوم التالي كيفيَّة الوصول بالمترو إلى كنيسة مظلَّة الحياة الجديدة في بروكلين. وقدَّمت إليها هناك امرأة، تشبه، إلى حدٍّ التطابق تقريبًا، المرأةَ السابقة، شرابًا غازيًّا، ومنشورًا بمواعيد الخدمات الدينيَّة والنشاطات الاجتماعيَّة للمعبد، وتعليمات للوصول إلى عنوان موظَّفيها الجدد.

في الساعة الثالثة من مساء يوم خريفيّ من عام ٢٠١١، في الوقت الذي بدأت فيه الأشجار تتعرَّى وغطَّت الشارع أوراق يابسة سريعة الزوال، قرعت إيڤيلين أورتيغا جرس بيت على الناصية، مؤلَّف من ثلاثة طوابق، في حديقته تماثيل مبتورة الأطراف لأبطال إغريقيِّين. وهناك ستعيش وتعمل في السنوات التالية بسلام، وبوثائق مزيَّفة.

لوثيا وريتشارد

شماليّ نيويورك

ما إن وصلوا إلى البيت الريفيّ عند البحيرة، حتى نام ريتشارد بوماستر خلال لحظات، وقد تحسَّنت حال أحشائه، لكنَّه كان منتهَكًا من تعب يوم الأحد الطويل ذاك، ومتأثِّرًا بمزيج الحبّ المُكتَشَف للتوّ، والشكّ الذي ينهشه. عندئذ قطَّعت لوثيا وإيفيلين منشفة إلى عدَّة قطع، وخرجتا لمحو آثار البصمات عن اللكزس. ووفقًا لتعليمات الإنترنت كما وجدوها على الهاتف الخلويّ، كان يكفي مسح البصمات بخرقة قماشيَّة، لكن لوثيا أصرَّت على استخدام الكحول من أجل ضمانة أكبر، لأنَّ التعرُّف إلى البصمات يظلّ ممكنًا حتى لو غرقت السيَّارة في البحيرة. «كيف سيعرفون ذلك؟»، كان ريتشارد قد سألها قبل أن ينام، فردَّت عليه كما في السابق: «لا تسألني». وعلى بريق الثلج المائل إلى الزرقة، فركتا أجزاء السيَّارة المرئيَّة من الخارج والداخل بصورة منهجيَّة، باستثناء القسم الداخليّ من الصندوق الخلفيّ. رجعتا إلى البيت الريفيّ لنيل قسط من الدفء بفنجان شاي، وتبادلتا الحديث بينما كان ريتشارد يستريح. كان لديهم ثلاث ساعات قبل أن يخيِّم الظلام.

ظلَّت إيفيلين صامتة منذ الليلة السابقة، تشارك فيما يطلباته منها على نحو كأنها غائبة عن الوعي، أو كمن تتحرَّك وهي نائمة. أدركت لوثيا أنَّها مستغرقة في ماضيها، تراجع مأساة حياتها القصيرة. كانت قد تخلَّت عن سعيها لشغل اهتمامها أو تشجيعها، لأنَّها أدركت أنَّ الوضع أشدّ غمًّا للفتاة ممَّا هو لها ولريتشارد. كانت إيفيلين مرعوبة، وتشعر بخطر فرانك ليُروي يتدلَّى فوقها، وهو أشدّ خطورة من اعتقالها وإبعادها، ولكن هناك سببًا آخر كانت لوثيا تجهله منذ خروجهم من بروكلين.

ـ لقد أخبرتِنا كيف مات أخواك في غواتيمالا يا إيفيلين. وكاترين أيضًا ماتت موتًا عنيفًا. أتصوَّر أنَّ ذلك يجلب لك ذكريات سيِّئة.

هزَّت الفتاة رأسها من دون أن ترفع وجهها عن الفنجان الذي يتصاعد منه البخار.

«أخي أيضًا مات مقتولًا»، أضافت لوثيا، وأضافت: كان اسمه إنريكي، وكنت أحبّه كثيرًا. توقَّعنا أنَّه قد أعتُقل، ولكنَّنا لم نعد نعرف شيئًا عنه. لم نستطع دفنه، لأنَّهم لم يعطونا رفاته.

«هـ... هـ... هل... تأكَّدتم من أنَّه قد مات؟»، سألتها إيفيلين متلعثمة أكثر من أيِّ وقت آخر.

ـ أجل، يا إيفيلين. لقد أمضيتُ سنوات في البحث والتقصِّي عن مصير المعتقلين الذين لم يظهروا، مثل إنريكي. كتبتُ كتابين عن الموضوع. لقد ماتوا تحت التعذيب، أو أُعدموا وكانت أجسادهم تُفجَّر بالديناميت، أو يُلقى بها في البحر. لقد عُثر كذلك على قبور جماعيَّة، ولكنَّها قليلة.

تمكَّنت إيفيلين بصعوبة كبيرة، وبكلمات متعثِّرة، من القول إنَّهم

قد تمكّنوا على الأقلّ من دفن أخويها غريغوريو وأندريس بالاحترام اللائق، على الرّغم من أنّ قلّة قليلة من الجيران شاركت في السهر على جثمانيهما، خوفًا من العصابة. وقد أشعلوا في بيت جدّتها شموعًا وأحرقوا أعشابًا عطريّة، وغنّوا لهما، وبكوهما، وشربوا أنخاب روم على ذكراهما، ودفنوهما مع بعض أشيائهما الخاصّة، كيلا يفتقدوها في الحياة الأخرى، وصلّوا من أجلهما طوال تسعة أيّام، كما هي العادة، لأنّ تسعة هي الشهور التي يمضيها الطفل في بطن أمّه قبل ولادته، ولأنّ المتوفّى يحتاج إلى تسعة أيّام كي يولد من جديد في السماء. لأخويها قبران في مقبرة القرية، حيث تذهب جدّتها لتضع لهما زهورًا أيّام الآحاد، وتحمل إليهما طعامًا في عيد الموتى.

«كاترين مثل أخي إنريكي، لن يتوافر لها شيء من هذا...» دمدمت لوثيا متأثّرة.

«الأرواح غير المطمئنّة تأتي لتُرعب الأحياء»، قالت إيفيلين بِنَفَسٍ واحد، وبلا أيّ تلعثم.

ـ أعرف ذلك. يأتون لرؤيتنا في الأحلام. لقد ظهرت لكِ كاترين، أليس كذلك؟

ـ أجل... في الليلة الماضية.

ـ يؤسفني جدًّا أنّنا لا نستطيع وداع كاترين بالطقوس التي يمارسها شعبك يا إيفيلين، ولكنّني سأوصي بأن يُصلّى من أجلها تسعة أيّام. أعدك بأن أفعل.

ـ و... وأمّ... أمّكِ، هل تصلّي من أجل أخـ... أخـ... أخيكِ؟

ـ لقد صلَّتْ من أجله حتى آخر يوم في حياتها يا إيڤيلين.

* * *

بدات لينا ماراث تودِّع الدنيا في العام ٢٠٠٨، بسبب التعب أكثر ممَّا هو بسبب المرض أو الشيخوخة، بعد أن بحثت عن ابنها إنريكي طوال خمسة وثلاثين عامًا. لن تسامح لوثيا نفسها لأنَّها لم تنتبه لمدى ما كانت عليه كآبة أمِّها. وترى لو أنَّها تدخَّلت في وقت مبكر لكان في إمكانها مساعدتها. لم تلحظ ذلك إلَّا في النهاية، لأنَّ لينا تدبَّرت إخفاء الأمر، بينما هي غافلة عنها ومشغولة بأمورها، ولم تنتبه للأعراض التي كانت تظهر عليها. وتحوَّلت إلى مجرَّد عظم وجلد، في الشهور الأخيرة، عندما لم تعد الأمّ قادرة على تصَنُّع اهتمامها بالحياة، وصارت غير مبالية بأيِّ شيء سوى لوثيا وحفيدتها دانييلّا. كانت تتهيَّأ للموت جوعًا، وبالطريقة الأكثر طبيعيَّة، بحسب إيمانها وقانونها. طلبت من الربّ ألَّا يتأخَّر في أخذها، وتوسَّلت إليه أن يُتيح لها الحفاظ على وقارها حتى اللحظة الأخيرة. وبينما كانت أجهزتها وأعضاؤها آخذة بالانغلاق ببطء، كان ذهنها يتمتَّع بحيويَّة أكبر ممَّا كان عليه في أيِّ وقت. وبدا أكثر انفتاحًا وحساسيَّة وحضورًا. تقبَّلت الضعف المتزايد في جسدها بمزاح وسخرية، إلى أن فقدت السيطرة على بعض الوظائف التي كانت تعتبرها خاصَّة بصورة مطلقة؛ عندئذ بكت للمرَّة الأولى. وكانت دانييلّا هي من أقنعها بأنَّ الحفاضات والرعاية الحميميَّة التي تتلقَّاها من لوثيا، ومنها هي نفسها، ومن الممرِّض الذي يزورها مرَّة كلّ أسبوع، ليست عقابًا عن خطايا من الماضي، وإنَّما هي فرصة لكسب السماء. «لا يمكنك الذهاب إلى السماء بكامل كبريائك وغطرستك يا جدَّتي، عليك أن تجرِّبي شيئًا من

التواضع والمذلّة»، كانت تقول لها بنبرة تأنيب حانية. وقد بدا ذلك للينا معقولاً، وأذعنت لعدم الإزعاج. ومع ذلك، سرعان ما لم تعد هنالك طريقة لإجبارها على ابتلاع أيّ شيء أكثر من بضع ملاعق لبن، وبعض رشفات من البابونج المغليّ. تحدَّث الممرِّض عن إمكان تغذيتها بأنبوب مسبار، ولكن ابنتها وحفيدتها رفضتا إخضاعها لمثل ذلك الامتهان المريع: عليهم أن يحترموا قرار لينا الذي لا رجعة فيه.

وكانت لينا، من سريرها، تقدِّر ذلك الجزء من السماء الذي يظهر من نافذتها، وشاكرةً لاستحمامها بليفة مبلَّلة، وتطلب في بعض الأحيان أن يقرأوا لها قصائد، أو أن يضعوا لها الأغنيات الرومانسيَّة التي اعتادت الرقص على نغماتها في أيَّام شبابها. لقد كانت أسيرة ذلك الجسد التالف، ولكنَّها متحرِّرة من الألم العميق على ابنها. فمع مرور الأيَّام، تحوَّل ذاك الذي كان في البدء أشبه بهاجس؛ بظلٍّ متهرِّب؛ بحفيف قبلة على الجبين، وراح يكتسب هيئة تزداد وضوحًا ودقَّة باطّراد. فصارت ترى إنريكي إلى جانبها، ينتظر معها.

لا يمكن لشيء أن يوقف حصار الموت، ولكن لوثيا المذعورة من رؤية أمّها تُستنزف، تحوّلت إلى سجَّانها، فحرمتها السجائر، متعتَها الوحيدة، لاعتقادها أنّها تُفقدها الشهيَّة وتقتلها. أمَّا دانييلّا التي لديها موهبة في معرفة حاجة الغير والتلطُّف بمحاولة تلبيتها، فانتبهت إلى أنَّ المنع هو أسوأ تعذيب لجدَّتها. وكانت قد أنهت المدرسة الثانويَّة في تلك السنة، ولديها خطط للذهاب إلى ميامي في سبتمبر لمواصلة الدراسة، وصارت تتلقَّى في أثناء ذلك دورات مكثَّفة باللغة الإنكليزيَّة. وتمرّ لرؤية جدَّتها لينا، في مساء كلّ يوم، وبهذا تتحرَّر لوثيا بضع ساعات، تتمكَّن خلالها من العمل. كانت دانييلّا في الثامنة عشرة من

عمرها، طويلةَ القامة وجميلة، لها ملامح العبيد الموروثة عن أسلافها القدماء، تلعب السوليتير أو تجلس في سرير جدَّتها لتنجز واجبات دراستها الإنكليزيَّة، بينما تتناوم لينا بخرخرة اللحظات الأخيرة. لم تكن لوثيا تشكّ في أنَّ دانييلًا تزوِّد جدَّتها بالسجائر المحظورة التي تأتي بها مهرَّبة ومخبَّأة في حمَّالة صدرها. وكان لا بدَّ من مرور عدَّة سنوات قبل أن تعترف لها دانييلًا باقترافها تلك الخطايا بدافع الشفقة على الجدَّة.

الطريق البطيء إلى الموت حلَّل غضب لينا المكابر ضدَّ زوجها الذي خانها، واستطاعت التكلُّم عليه مع ابنتها وحفيدتها بنفحة صوت متبقِّية لديها.

ـ لقد سامحه إنريكي، وعليكِ أنت الآن أن تسامحيه يا لوثيا.

ـ لا أشعر نحوه بأيِّ ضغينة يا أمَّاه. فأنا لم أكد أعرفه.

ـ غيابه هذا تحديدًا هو ما يجب أن تسامحيه عليه.

ـ الحقيقة أنَّني لم أشعر قطّ بأنَّني في حاجة إليه يا أمَّاه. أمَّا إنريكي، فكان يريد أبًا، لقد كان يتألَّم، ويشعر بأنَّه مهجور.

ـ كان ذلك وهو صغير. ولكنَّه يتفهَّم الآن أنَّ أباه لم يتصرَّف بخبث، وأنَّه كان مغرمًا بتلك المرأة. لم يعرف مقدار الألم الذي سبَّبه للجميع، لنا ولها ولابنها. يتفهَّم إنريكي ذلك.

ـ أيّ نوع من الرجال كان يمكن لأخي أن يكون عليه الآن، في السابعة والستِّين من العمر؟

ـ إنَّه لا يزال في الثانية والعشرين يا لوثيا، وما زال مثاليًا

وعاطفيًا. لا تنظري إليّ هكذا يا ابنتي. إنّني آخذةٌ بفقدان الحياة، ولكنّني لم أفقد عقلي.

ـ تتكلّمين كما لو أنّ إنريكي موجود هنا.

ـ إنّه موجود.

ـ آي، أمّاه...

ـ أعرف أنّهم قد قتلوه يا لوثيا. يرفض إنريكي أن يُخبرني كيف فعلوا ذلك، يريد أن يقنعني بأنّ الأمر كان سريعًا وأنّه لم يتألّم كثيرًا، لأنّهم عندما اعتقلوه كان جريحًا، وكان ينزف، وقد أنقذه ذلك من التعذيب. يمكن القول إنّه قد مات وهو يقاتل.

ـ أيكلّمك؟

ـ أجل يا ابنتي. إنّه يكلّمني. إنّه معي.

ـ وتستطيعين رؤيته؟

ـ أستطيع الإحساس به. يساعدني عندما أختنق، يرتّب لي الوسادة، يمسح جبهتي، يضع لي مكعّبات ثلج في فمي.

ـ إنّني أنا من أفعل هذا يا أمّاه.

ـ أجل، أنت ودانييلا، ولكن إنريكي يفعل ذلك أيضًا.

ـ تقولين إنّه ما زال شابًا.

«لا أحد يشيخ بعد الموت»، قالت لها.

أدركت لوثيا، في أيّام أمّها الأخيرة تلك، أنّ الموت ليس نهاية، وأنّه ليس غيابًا عن الحياة، وإنّما موجة أقيانوسيّة هائلة القوّة؛ مياهٌ

طازجة ومنيرة، تحمل الحياة إلى بُعد آخر. وقد كانت لينا آخذة بالانفصال عن الأرض الراسخة وتسلِّم نفسها إلى الموجة التي ستحملها، متحرِّرة من ثقل المرساة ومن قوَّة الجاذبيَّة، خفيفةً، سمكةً شبه شفَّافة يدفعها التيَّار. لقد تخلَّت عن الصراع ضدَّ ما هو وشيك واسترخت. وبينما هي جالسة إلى جانب أمِّها تتنفَّس بوعي، ببطء، راحت تجتاحها طمأنينة هائلة، رغبة في الذهاب معها، الاستسلام للانقياد والتحلُّل في ذلك الأقيانوس. أحسَّت لأوَّل مرَّة بروحها مثل ضوء متوهِّج من الداخل، يمسك بها؛ مثل نور سرمديّ لا يتأثَّر بمشاغل الحياة. وجدت نقطة هدوء مطلق في مركز ذاتها. لم يكن هنالك ما يجب عمله، اللهمَّ إلَّا الانتظار؛ إسكات صخب الدنيا. عرفت أنَّ أمَّها تختبر على ذلك النحو اقتراب الموت الوشيك، وعندئذ اختفى الخوف الذي سيطر عليها وهي ترى كيف أنَّ أمّها آخذة بالاستنفاد والانطفاء مثل شمعة.

ماتت لينا ماراث في واحد من صباحات شباط/فبراير التي يعلن فيها صيف تشيلي الخانق عن مجيئه المبكر. كانت قد ظلَّت شبه نائمة عدَّة أيَّام، لا تكاد تتنفَّس سوى لهاث متقطِّع، متشبِّثة بيد إنريكي، بينما تتوسَّل حفيدتها أن يتوقَّف قلبها سريعًا وأن تخرج من مستنقع الاحتضار. أمَّا لوثيا، فكانت تدرك أنَّه لا بدَّ لأمّها من أن تسير المقطع الأخير بخطواتها نفسها، وبلا تسرُّع. لقد أمضت الليل مستلقية إلى جانبها منتظرةً النهايةَ، وكانت دانييلَّا قد اضَّجعت على الكنبة في الصالة. بدت لهما الليلة قصيرة جدًّا. وعند الفجر غسلت لوثيا وجهها بماء بارد، وتناولت فنجان قهوة، ثم أيقظت دانييلَّا وذهبتا معًا لتستقرَّا على جانبي السرير. بدا للحظات أنَّ لينا قد عادت إلى الحياة، فتحت

عينيها وحدّقت في ابنتها وحفيدتها. ودمدمت: «أحبُّكما كثيرًا يا صغيرتَيّ. هلمَّ بنا يا إنريكي»، ثم أطبقت جفنيها، وأحسَّت لوثيا بتراخي يد أمِّها بين يديها.

* * *

كان البرد يتسرَّب إلى البيت الريفيّ على الرَّغم من وجود مدفأتين، وكان على المرأتين أن تتدثَّرا بكلِّ الملابس المتوفِّرة. ولا بُدَّ لهما من تدفئة مارسيلو بسترة بلا كميَّن فضلًا عن الثوب المخصص له، فالشيهواهوا شديد التأثُّر بالبرد. كان ريتشارد هو المتدفِّئ الوحيد، وقد استيقظ في الساعة السابعة متعرِّقًا ومتجدِّدًا. بدأ هطول ثلجٍ كأنَّه ريش خفيف، فأعلن ريتشارد أنَّ الوقت قد حان لإنجاز العمل.

«أين بالضبط ستتخلَّص من السيَّارة؟»، سألته لوثيا.

ـ هنالك جَرف على بعد أقلّ من كيلومتر. البحيرة في تلك الناحية عميقة، يصل عمقها إلى نحو خمسة عشر مترًا. آمل أن يكون الدرب سالكًا، لأنَّه الطريق الوحيد.

ـ أظنّ أنَّ صندوق السيَّارة مغلق جيِّدًا...

ـ السلك الذي يثبِّت الغطاء ما زال صامدًا، ولكن لا يمكن التأكُّد من أنَّه سيظلّ مغلقًا في قاع البحيرة.

ـ أتعرف كيف يمكن تجنُّب طفو الجسد إذا ما انفتح غطاء الصندوق الخلفيّ؟

«أرجو ألَّا نصل إلى ذلك»، قال ريتشارد وهو يرتعش حيال احتمال حدوث ما لم يخطر له.

ـ يجب شقّ بطن الجثّة كي يدخل الماء فيها.

ـ ما الذي تقولينه يا لوثيا!

«هذا ما كانوا يفعلونه بالمعتقلين الذين يلقون بهم إلى البحر»، قالت بصوت مكسور.

ظلّ الثلاثة صامتين، مستغرقين في رعب ما تكشّف لهم للتوّ، ومتأكّدين من أنَّ أيًّا منهم لن يجرؤ على فعل ذلك.

«مسكينة، يا للآنسة كاترين المسكينة...» دمدمت إيڤيلين أخيرًا.

«المعذرة يا ريتشارد، ولكنّنا لا نستطيع أن نواصل قُدُمًا في هذا الأمر»، قالت لوثيا وهي توشك على البكاء مثل إيڤيلين. وأضافت: أعرف أنّها كانت فكرتي، وأنّني جئت بكَ مجبَرًا إلى هنا، ولكنّني أعدتُ التفكير في الأمر. لقد كان كلّ ما فعلناه ارتجالًا، لم نضع خطّة جيّدة، لم نفكّر بعمق. لم يكن هنالك وقت لهذا كلّه بالطبع...

«ما الذي تريدين قوله؟» قاطعها ريتشارد مستنفرًا.

ـ لم تتوقّف إيڤيلين، منذ الليل، عن التفكير في روح كاترين التي تهيم على وجهها حزينة، ولم أتوقّف أنا نفسي عن التفكير في أنّ لهذه التعيسة أسرةً. لا بدّ من أنّ لها أمًّا... لقد أمضتْ أمّي نصف حياتها في البحث عن أخي إنريكي.

ـ أعرف هذا يا لوثيا، ولكنّ الأمر الآن مختلف.

ـ كيف هو مختلف؟ إذا ما واصلنا قُدُمًا، فسوف تكون كاترين براون شخصًا مختفيًا ومغيَّبًا، مثل أخي. لا بدَّ من أنَّ هنالك أناسًا يُحبّونها، وسيبحثون عنها من دون توقُّف. معاناة مثل هذا القلق أسوأ من يقين الموت.

«ماذا سنفعل إذًا؟» سألها ريتشارد بعد لحظة تفكير طويلة.

ـ نستطيع تركها حيث يمكن العثور عليها...

ـ وماذا إذا لم يجدوها؟ أو إذا وجدوها وكان الجسد متفسّخًا إلى حدٍّ لا يمكن التعرُّف إليه؟

ـ بل يمكن التعرُّف إليه دومًا. تكفي الآن قطعة صغيرة من العظم لتحديد هويّة الجثّة.

كان ريتشارد يذرع الصالة بخطوات واسعة، واضعًا يديه على بطنه، شاحبًا، ومفكِّرًا في حلٍّ. إنَّه يتفهَّم مسوّغات لوثيا ويشاركها في هواجسها، فهو لا يريد أيضًا إخضاع أُسرة هذه المرأة لعملية بحث بلا نهاية. كان عليهم التفكير في الأمر قبل وصولهم إلى النقطة التي هم فيها الآن، ولكنَّهم ما زالوا، في أيّ حال، قادرين على تسوية الأمر. فموت كاترين براون يتحمَّل مسؤوليَّته المجرم، ولكن إخفاء جثمانها سيكون مسؤوليَّتهم هم أنفسهم، ولا يمكن لهم تحمُّل مثل هذا الذنب الجديد؛ فلديهم ما يكفي بذنوبهم القديمة. عليهم أن يتركوا الجثمان في مكان بعيد عن البحيرة وعن البيت الريفيّ، حيث يكون في منجًى من الضواري، ويمكن العثور عليه عند ذوبان الثلوج في الربيع، بعد شهرين أو ثلاثة شهور. وهذا سيوفِّر لإيفيلين فرصة الذهاب إلى مكان آمن. سيكون من الصعب جدًّا دفن كاترين. فحفر حفرة في الأرض المتجمِّدة مهمَّة لا يمكنه القيام بها وهو سليم معافًى، فما بالك وهو يعاني آلام القرحة. طرح المشكلة على لوثيا التي قدَّرت ذلك بكلِّ وضوح، وقالت:

ـ يمكننا ترك كاترين في رينبيك.

ـ ولماذا هناك بالذات؟

ـ لستُ أعني في القرية، وإنَّما في معهد أوميغا.

ـ وما هو هذا؟

ـ يمكن القول باختصار إنَّه مركز روحانيّ، ولكنَّه أكثر من هذا بكثير. كنتُ هناك للخلوة ولإلقاء محاضرات. لدى المعهد نحو مئتي أكر من الأحراج الطبيعيَّة العجيبة، في مكان معزول، بالقرب من رينبيك. إنَّهم يُغلقون المعهد في شهور الشتاء.

ـ ولكن... لا بدَّ من وجود عاملي صيانة.

ـ أجل، لصيانة المنشآت، أمَّا الغابات فيغطِّيها الثلج ولا تحتاج إلى عناية خاصَّة. الطريق إلى رينبيك جيِّد، وكذلك محيط المكان، هنالك حركة سير لا بأس بها، ولهذا لن نلفت الانتباه، وما إن ندخل أراضي معهد أوميغا حتى نغيب عن الأنظار ولا يعود هناك من يرانا.

ـ لا يروق لي هذا، فالمجازفة كبيرة.

ـ أمَّا أنا فيروق لي، لأنَّه مكان روحانيّ، وذو طاقة حميدة، وسط غابات مشهديَّة عظيمة. أرغب في أن يُنثر رمادي هناك. وسوف يروق المكان لكاترين أيضًا.

ـ لا أعرف أبدًا إن كنتِ تتكلَّمين بجدٍّ يا لوثيا.

ـ بجدٍّ تمامًا. ولكن إذا كانت لديك فكرة أفضل...

بدأ الثلج، في أثناء ذلك، يهطل من جديد، وأدركا أنَّ ذلك هو الوقت المناسب للتخلُّص من السيَّارة، قبل أن يصبح الطريق هناك غيرَ صالح للمرور. لم يعد ثمَّة مجال لمزيد من الجدال، فقد كانوا متَّفقين

على أنَّه يجب أن يُعثَر على كاترين، ومن أجل ذلك لا بدَّ من نقلها إلى سيَّارة السوبارو.

* * *

أعطاهما ريتشارد قفَّازات صحِّيَّة مع تعليمات بعدم لمس اللكزس إلَّا بالقفَّازات. حرَّك السيَّارة ليضعها إلى جوار السوبارو، ثم قطع على الفور الأسلاك التي تثبت قفل غطاء الصندوق. كانت كاترين قد أمضت هناك يومين أو ثلاثة أيَّام على الأقلّ بلياليها، ولم يكن قد طرأ عليها أيّ تبدُّل يُذكر، تنام تحت البساط. عند لمسها كانت باردة كالجليد، ولكنَّها تبدو أقلّ تصلُّبًا ممَّا كانت عليه عندما حاولت لوثيا تحريكها في بروكلين. أفلتت من ريتشارد إجهاشة لدى رؤيتها؛ فعلى ضوء الثلج النقيّ، بدت الشابَّة متكوِّرة على نفسها أشبهَ بطفل، لها هيئة بيبي المأساويَّة وهشَّة. أغمض عينيه وهو يستنشق دفقات من الهواء الجليديّ كي يتخلَّص من الوميض الذي لا يخمد في الذاكرة، ويجبر نفسه على العودة إلى الزمن الحاضر. لم تكن تلك بيبي، طفلته المعبودة، وإنَّما هي كاترين براون، امرأة مجهولة. وبينما تراقب إيفيلين المشهد مشلولةً وهي ترتِّل صلوات بصوت عالٍ، بدأ ريتشارد ولوثيا مهمَّة إخراج الجسد من صندوق السيَّارة، وتبيَّن أنَّه أثقل ممَّا كان عليه في الحياة بسبب ثِقل موتها المفاجئ. تمكَّنا أخيرًا من قلب جسد كاترين ورأيا وجهها أوَّل مرَّة. كانت عيناها مفتوحتين، مدوَّرتين وزرقاوين، كعينَيْ دمية.

«اذهبي إلى البيت يا إيفيلين. من الأفضل ألَّا تري هذا»، أمرتها لوثيا، ولكنَّ البنت ظلَّت ثابتة في مكانها، ولم تستجب.

كانت كاترين شابَّة نحيلة وقصيرة القامة، ذاتَ شعر قصير له لون الشوكولاتة ومظهر مراهقة، ترتدي ملابس يوغا. وكان هناك ثقب أسود في منتصف جبهتها، واضح جدًّا كما لو أنّه رُسِم، مع قليل من الدم المتخثّر على خدّها وعنقها. تأمَّلاها لدقيقتين تقريبًا بنظرات تحسُّر لامتناهية، متخيِّلين كيف يمكن لها أن تكون لو أنَّها ما زالت حيَّةً. وحتى في وضعها الملتوي الذي هي فيه، تحتفظ بشيء من أناقةِ راقصةٍ تستريح.

أمسكتها لوثيا من ساقيها عند مستوى الركبتين، بينما أمسكها ريتشارد من تحت إبطيها، رفعاها وتمكّنا بمشقَّةٍ من نقلها إلى السوبارو. بذلا جهدًا لوضعها في الصندوق، وتغطيتها بالبساط نفسه، ووضعا فوقه غطاءً قطعة مشمَّع بلاستيكيّ. ومع وجود الأمتعة في الصندوق نفسه، لن يثير الأمر أيَّ ريبة.

«ماتت برصاصة مسدَّس من عيار صغير»، قالت لوثيا، وأضافت: ظلَّت الرصاصة مستقرَّة في الجمجمة، لا يوجد ثقب خروج. لقد ماتت فورًا. لا بدَّ من أنَّ القاتل جيِّد التصويب.

كان ريتشارد لا يزال متأثِّرًا بالذكرى المعيشة للَّحظة التي فقد فيها ابنته بيبي، قبل عشرين سنة ونيِّفٍ، يبكي من دون أن يشعر بالدموع التي تتجمَّد على خدَّيه.

«من المؤكَّد أنَّ كاترين كانت تعرف القاتل»، أضافت لوثيا. وقالت: كانا وجهًا لوجه، ربَّما كانا يتبادلان الحديث. لم تكن هذه المرأة تنتظر الرصاصة، كانت ملامحها متحدِّية، يبدو أنَّها لم تكن تشعر بالخوف.

إيفيلين التي تمكّنت من تجاوز حالة الجمود وبدأت تمسح الآثار عن صندوق سيّارة اللكزس، نادتهما:

«انظرا»، قالت مشيرة إلى مسدّس في أقصى الصندوق.

«هل هو لليرُوي؟» سألها ريتشارد وهو يمسك المسدّس من سبطانته ويرفعه بحذر.

ـ يشبه مسدّسه.

دخل ريتشارد البيت حاملًا السلاح بين السبّابة والإبهام، ووضعه فوق المنضدة الوحيدة. وبافتراض أنّ الرصاصة خرجت من مسدّس فرانك ليرُوي هذا، فإنّ مسؤوليّة جديدة غير مرغوب فيها قد أُلقيت عليهم: فتسليم المسدّس إلى الشرطة أو عدم تسليمه، سيعني تستُّرًا على مذنب، أو ربّما تجريم شخص بريء.

«ماذا سنفعل بالمسدّس؟» سألت لوثيا عند اجتماعهم داخل البيت الريفيّ.

ـ أنا أؤيّد تركه في اللكزس. لماذا نزيد الأمور تعقيدًا، لدينا ما يكفي من المشاكل.

«إنّه أهمّ دليل ضدّ القاتل، لا يمكننا أن نُلقي به إلى البحيرة»، اعترض ريتشارد.

ـ لا بأس، سوف نرى. الأمر المُستعجل الآن هو التخلُّص من السيّارة. ألديك ما يكفي من القوّة لعمل ذلك يا ريتشارد؟

ـ أشعر بأنّني أفضل حالًا بكثير. فلنستغلّ الضياء، لأنّ الظلام سيحلّ باكرًا.

* * *

الدرب غير المعبَّد، وهو الطريق الوحيد إلى الجرف، كان غير مرئيّ تقريبًا بسبب ذلك الزبد الأبيض الذي يجعل الدنيا كلّها متشابهة. وكانت خطّة ريتشارد تتلخّص في الذهاب إلى البحيرة بالسيّارتين، ودهورة اللكزس من هناك والعودة في السيّارة الأخرى. لو أنَّ الظروف عاديّة، لكان في الإمكان اجتيازُ المسافة القصيرة مشيًا على الأقدام في عشرين دقيقة. يشكِّل الثلج عائقًا، ولكنّه يوفِّر فرصة تغطية الآثار خلال ساعات قليلة. قرَّر أن يقود سيّارة اللكزس في المقدِّمة، لأنّها مزوَّدة برفش، وتتبعه لوثيا عن قرب بالسيّارة الأخرى، فتعلَّلت بأنَّ المنطقيّ أنَّ سيّارة السوبارو هي التي تشقّ الطريق في المقدِّمة، لأنّها تتمتّع بقوّة جرٍّ كبيرة في العجلات الأربع. «اعملي بما أقوله، فأنا أعرف ما الذي أفعله»، ردّ عليها ريتشارد، وهو يقبّلها قبلة مندفعة على قمّة أنفها، فأطلقت لوثيا صرخة وقد بوغتت بالحركة المفاجئة. تركا إيفيلين ومعها الكلب في البيت، مع تعليمات بإبقاء الستائر مسدلة، وإشعال ضوء واحد فقط، إذا كانت هناك حاجة ضروريّة، فكلّما كانت الإنارة أقلّ يكون الوضع أفضل. قدّر ريتشارد أنّهما سيعودان خلال أقلّ من ساعة إذا سار كلّ شيء على ما يرام.

تقدَّم مسترشدًا بالمسافة الفاصلة بين الأشجار ذات الأغصان المثقلة بالثلج والمنحنية حتى تكاد تلامس الأرض، وتوغَّل ببطء عبر الدرب الذي يمكنه وحده أن يتكهَّن بمساره، لأنّه سار عليه من قبل، متلوّيًا خلال الغابة، بينما لوثيا خلفه. كان عليهما أن يتراجعا بضعة أمتار في إحدى المناسبات، عندما فُقد الأثر. وتوقَّفت اللكزس بعد قليل من ذلك وقد غرقت عجلاتها في الثلج. نزل ريتشارد ليُزيح الثلج من حولها بالرفش، ثم وجّه لوثيا بعد ذلك لتدفع سيّارته من الخلف

بالسيَّارة الأخرى، وهي مهمَّة لست سهلة في أيِّ حال، لأنَّ العجلات كانت تنزلق. فهمت عندئذ لماذا يجب أن تكون سيَّارة السوبارو في الخلف؛ لأنَّ الدفع عمليَّة صعبة، ولكنَّ الجرّ سيكون مستحيلًا لو أنَّها في المقدِّمة. أضاعا في هذه المناورة نصف ساعة، وبدأت الظلمة في أثناء ذلك تنتشر ودرجة الحرارة تنخفض.

وجدا أخيرًا نفسيهما قبالة البحيرة، مرآة فضِّيَّة هائلة تعكس السماء بزرقتها الرماديَّة في الهدوء الصارم لذلك المنظر الشتويّ الذي يبدو كأنَّه مرسوم في هولندا. هناك ينتهي الدرب في انقطاع مفاجئ. نزل ريتشارد ليستكشف، ومشى هنا وهناك مراقبًا الجرف المنحدر إلى أن وجد ما كان يبحث عنه، على بُعد نحو ثلاثين مترًا من المكان الذي توقَّفا فيه. شرح للوثيا أنَّ تلك هي البقعة الدقيقة ذات العمق اللازم، وأنَّ عليهما دفعَ اللكزس بالأيدي، لأنَّ محاولة سياقتها إلى هناك أمر شديد الخطورة. وأدركت لوثيا مرَّة أخرى الأسباب التي جعلت ريتشارد يقرِّر أن تكون اللكزس في المقدِّمة، لأنَّهما لن يستطيعا، في هذا الدرب الضيِّق، التقدُّمَ بالسيَّارة الأخرى. تبيَّن لهما أنَّ دفع السيَّارة بالأيدي أمر معقَّد، ذلك بأنَّ جزمتيهما غاصتا في الأرض الطريَّة، وكانت العجلات في بعض الأمكنة تعلق في الثلج.

بدا المنحدر للوثيا من الأعلى، غيرَ مرتفع كثيرًا، لكنَّه انطباع مخادع، على حدِّ قول ريتشارد. فمن ذلك الارتفاع سيؤدِّي ارتطام السيَّارة بسطح البحيرة المتجمِّد إلى كسر الجليد. وبعد جهد جهيد تمكَّنا من وضع السيَّارة بصورة عموديَّة في اتِّجاه البحيرة؛ لقد وضعها ريتشارد في نقطة حرجة، وتعاون الاثنان على دفعها الدفعة الأخيرة. بدأت السيَّارة التقدُّم ببطء، فأطلَّت العجلتان الأماميَّتان على الهاوية،

لكن بقيّة السيّارة علقت على حافّة الجرف بخبطة صمّاء، وظلّت تتأرجح بينما ثلاثة أرباع هيكلها على الأرض وبقيّته معلّقة في الفضاء. عاودا دفعها بقوّة، ولكنّهما لم يتمكّنا من تحريكها.

«هذا ما كان ينقصنا! تعاوني معنا أيّتها الخردة اللعينة!» صاحت لوثيا، موجّهة إليها ركلةً قبل أن تقع على الأرض جالسة ولاهثة.

«كان علينا أن نكتسب سرعة بدفعها من مكان أبعد في الخلف»، أشار ريتشارد.

ـ لقد فات الوقت. ماذا سنفعل الآن؟

حاولا طوال عدّة دقائق أن يستعيدا إيقاع تنفُّسهما، وأن يقدِّرا أبعاد الكارثة من دون أن يخطر لهما أيّ حلّ، بينما الثلج يغطّيهما. كانا في تلك الحال عندما انحنت، فجأة، مقدِّمة السيّارة بضع درجات وانزلقت عدّة بوصات بمشقّة. استنتج ريتشارد أنّ حرارة السيّارة بدأت تُذيب الثلج تحتها. هرعا لمساعدتها، وبعد لحظة كانت اللكزس تهوي مندفعة على المنحدر بثقل خرتيت مُصاب بجرح مميت. ورأياها من فوق، تحطّ بمقدِّمتها فوق سطح البحيرة. بدا لهنيهة أنّها ستظلّ هناك في وضع شاقولي، كعمل نحتيّ معدنيّ غريب، ولكنّهما سمعا عندئذ فرقعة رهيبة، لقد تكسّر سطح البحيرة المتجمِّد، كأنّه الزجاج، وغاصت السيّارة ببطء مع تنهيدة وداع، مثيرة موجة ماء جليدي وقطع جليد ضاربة إلى الزرقة. وكما لو أنّ الذهول والافتتان قد أصابهما بالبُكم، ظلّ ريتشارد ولوثيا يتأمّلانها وهي تغرق، وتبتلعها مياه قاتمة، إلى أن اختفت تمامًا في قاع البحيرة.

«ستتجمَّد، خلال يومين، سطحُ البحيرة من جديد ولن يبقى أيّ

أثر»، قال ريتشارد أخيرًا، بعد أن تلاشت آخر تموُّجات الماء.

ـ حتى الربيع، مع ذوبان الجليد.

«البحيرة هنا عميقة، لا أظنّ أنَّهم سيجدونها. لا أحد يأتي إلى هذه الأنحاء»، قال ريتشارد.

«إن شاء الله»، قالت لونيا.

«أشكُّ في أنَّ الله يوافق على شيء ممَّا فعلناه»، قال مبتسمًا.

ـ ولِمَ لا؟ مساعدة إيفيلين عمل رحمة يا ريتشارد. فلنعتمد على التأييد الإلٰهي. وإذا لم تصدِّقني، اسأل أباك.

ريتشارد

ريو دي جانيرو

صارت الأسابيع والشهور، بعد موت بابلو الصغير، حلمًا خبيثًا، ليس في مقدور آنيتا أو ريتشارد الإفلات منه. أكملت بيبي سنواتها الأربع، واحتفل آل فارينها بالمناسبة في بيت جدَّيها بكثير من المبالغة، كتعويض عن الحزن الذي يُخيِّم على البيت. كانت الطفلة تنتقل من يد إلى يد، ما بين جدَّتها وخالاتها الكثيرات، وقد كانت حكيمة وهادئة وفطنة بالنسبة إلى طفلة في عمرها، مثلما كانت على الدوام.

لكنَّها تبلِّل الفراش في الليل. تستيقظ مبتلَّة، وتخلع عندئذ البيجاما خفيةً وتنسلّ عارية، وعلى رؤوس أصابعها إلى حجرة أبويها. تنام بينهما وفي بعض الأحيان يطلع عليها الصباح ووسادتها مبلَّلة من بكاء أمّها.

التوازن الدقيق الذي حافظت عليه آنيتا في سنوات إجهاضاتها التلقائيَّة، غادرها مع موت الرضيع. ولم يستطع ريتشارد ولا حُبّ آل فارينها اللجوج مساعدتها، ولكنَّهم تمكَّنوا جميعهم من دفعها إلى استشارة معالج نفسانيّ، وصف لها كوكتيل أدوية. وكانت جلسات

العلاج تمرُّ بصمت تقريبًا، فهي لا تتكلّم، وجهود النفسانيّ تصطدم بحداد مريضته العميق.

تمكّنت أخوات آنيتا، كملاذ يائس أخير، من أخذها لاستشارة ماريًا باتيستا، وهي كاهنة إيالوريشا محترمة، وأمُّ قدّيسين من طائفة الكاندومبلي[1]. قامت جميع نساء العائلة، في إحدى اللحظات الحاسمة من حياتهنّ، بالرحلة إلى باهيا لزيارة أرض ماريًا باتيستا. إنّها امرأة ناضجة، ضخمة، لها ابتسامة لا تُمحى من وجهها الذي بلون دِبس قصب السكّر، تلبس الأبيض ابتداء من الخفّ حتى العمامة، وتتزيّن بشلّال من العقود الرمزيّة. لقد حوّلتها الخبرة إلى حكيمة. تتكلّم بصوت خافت، وتنظر إلى عيون من يلجأون إليها، وتداعب أيديهم لاقتيادهم في دروب انعدام اليقين.

تفحّصت قَدَرَ آنيتا بحَدْسها، تساعدها أصداف الوَدَع. لم تقل ما رأته، لأنّ دورها هو منحُ الأمل، وتقديمُ حلول وإعطاء نصائح. أوضحت لها أنّ المعاناة لا تحقّق أيّ هدف، وأنّها غير مجدية، اللهمّ إلّا في استخدامها لتنقية الروح. على آنيتا أن تصلّي وتطلب العون من يمايا، ربّةِ الحياة، من أجل الخروج من سجن الذكريات. وقالت لها: «ابنك في السماء وأنت في الجحيم. عودي إلى الدنيا». ونصحت الأخوات فارينها بأن يمنحن آنيتا وقتًا، ففي لحظة ما، سوف ينفد ما لديها من احتياطيّ البكاء وتشفى روحها، فالحياة مستمرّة. وأضافت: «الدموع جيّدة، إنّها تغسل المرء من الداخل».

(١) كاندومبلي Candomblé: إحدى الديانات الأفروبرازيليّة، لها أتباع في البرازيل، وبصورة أقلّ في بعض البلدان الأخرى المجاورة.

رجعت آنيتا من باهيا حزينة مثلما كانت حالها حين ذهبت. تقوقعت على نفسها، غير مبالية بمظاهر الاهتمام التي تُبديها أسرتها أو زوجها، ومنعزلة عن الجميع، باستثناء بيبي. أخرجت ابنتها من حضانة الأطفال لتبقى تحت نظرها دومًا، محميَّة بمحبَّة جائرة ومرعبة. أمَّا بيبي، المختنقة بذلك الاحتضان المأساويّ، فكانت تتحمَّل وحدها مسؤوليَّة عدم انزلاق أمّها، الذي لا رجعة عنه، إلى الجنون. فهي وحدها القادرة على كفكفة دموعها، وتهدئة حزنها بمداعباتها. تعلَّمت عدم الإتيان على ذكر أخيها، كما لو أنَّها قد نسيت حياته القصيرة، وتتظاهر بالسعادة كي تلهيها. لقد كانت الطفلة وأبوها يتعايشان مع شبح. كانت آنيتا تمضي شطرًا كبيرًا من اليوم نائمةً أو جالسة بلا حراك على أريكة، تحرسها إحدى نساء العائلة، لأنَّ المعالج النفسانيّ حذَّر من إقدامها على الانتحار. وكانت الساعات تمضي متشابهة بالنسبة إليها. وتتوالى أيَّامها ببطء رهيب، وتجد لديها فائضًا من الساعات تمضيها للبكاء على بابلو، وعلى أطفالها الذين لم يولدوا. ربَّما كانت دموعها ستجفّ في نهاية المطاف، مثلما قالت ماريًّا باتيستا، ولكن ذلك يتطلَّب وقتًا طويلًا.

* * *

كان تأثُّر ريتشارد بيأس زوجته عميقًا أكثر من تأثُّره بموت الطفل. لقد رغب في ذلك الابن وأحبّه، ولكن بدرجة أقلّ من حبِّه لآنيتا، كما أنَّه لم يتوصَّل إلى التآلف معه. فبينما كانت الأمّ تربِّيه ملتصقًا بصدرها، تهدهد له ترنيمةَ حبٍّ متواصلة، ومتَّحدةً معه بحبل الغريزة الأموميَّة الذي لا ينقطع، كان ريتشارد قد بدأ بالتعرُّف إليه عندما فَقَدَه. لقد توافرت له أربع سنوات كي يحبّ بيبي ويتعلَّم كيف يكون أباها،

ولكنَّه لم يُمضِ سوى شهر واحد مع بابلو. لقد هزَّه موته المفاجئ، ولكن حزنه على ما أصاب آنيتا وتأثّره به كانا أكبر كثيرًا. عاشا عدَّة سنوات معًا، وكان معتادًا على تبدُّلات مزاج زوجته التي تتحوَّل، خلال دقائق، من الضحك والعاطفة إلى الغضب والحزن. وقد وجد طرائق لتصريف حالات آنيتا المعنويَّة التي لا يمكن التنبُّؤ بها من دون أن يضطرب، فكان ينسب ذلك إلى مزاجها التروبيكالي، مثلما كان يصنِّفه من دون أن يقول لها ذلك، لأنَّها ستتَّهمه بالعنصريَّة. ومع ذلك، لم يكن في إمكانه مساعدتها في مسألة الحداد على بابلو، لأنَّها ترفض المساعدة، فهي التي لا تكاد تتسامح مع عائلتها في هذا الشأن، ستكون أقلّ تسامحًا معه بالذات. كانت بيبي الصغيرة هي سلواها الوحيدة.

كانت شواطئ تلك المدينة الإيروتيكيَّة وشوارعها تضجُّ بالحياة في أثناء ذلك، في شباط/فبراير، أشدّ الشهور حرارة، حيث يمضي الناس شبه عراة، الرجال ببنطلونات قصيرة وبلا قمصان في الغالب، والنساء بأثواب خفيفة، تكشف عن صدور وسيقان. أجساد فتيَّة، جميلة، برونزيَّة، متعرِّقة؛ أجساد ومزيد من الأجساد تُستعرض متحدِّية، يراها ريتشارد في كلِّ مكان. أمَّا باره المفضَّل، حيث يتوجَّه بصورة آليَّة في المساء ليتبرَّد بزجاجة بيرة أو ليدوخ بشراب الكاتشازا، فكان واحة إجباريَّة للشباب. فعند نحو الثامنة، يبدأ البار بالامتلاء، وفي العاشرة يكون الصخب فيه كضجيج قطار منطلق، ويمكن لرائحة الجنس والعرق والكحول والعطور أن تصير ملموسة كالقطن. وفي ركن منعزل يجري تداول الكوكايين ومخدِّرات أخرى. ولأنَّ ريتشارد كان قد تحوَّل إلى زبون مألوف، فإنَّه لم يكن في حاجة إلى أن يطلب شرابه، إذ يسارع

النادل إلى تقديمه إليه فور اقترابه من منضدة الكونتوار. كان قد عقد صداقة مع عدد من زبائن المحلّ الأوفياء مثله، وقد عرَّفه هؤلاء بدورهم إلى آخرين. يشرب الرجال هناك ويتجادلون بأصوات صارخة تعلو على الضجيج، ويشاهدون كرة القدم على الشاشة، ويناقشون تسجيل الأهداف أو يتحدَّثون في السياسة، ويتجاوزون في بعض الأحيان إلى التعارك بالأيدي وإشاعة أجواء الغضب. يتدخّل عندئذ النادل ويطردهم خارجًا. وتنقسم الفتيات إلى صنفين، من لا يمكن المسّ بهنّ، لأنّهنّ يمضين تتأبّط واحدتهنَّ ذراع رجل، واللاتي يأتين في جماعة ويمارسن فنّ الإغواء. وإذا ما ظهرت امرأة وحيدة، فإنَّها تكون عادة في سنّ تسمح لها بالاستخفاف بألسنة السوء، وتجد على الدوام من يغازلها تلطُّفًا، بذلك اللطف الرجوليّ المعروف لدى البرازيليين والذي يعجز ريتشارد عن محاكاته، لأنّه يخلط بينه وبين المضايقة الجنسيَّة. أمَّا هو من جهته، فكان الهدف السهل للفتيات اللاتي يمضين بحثًا عن المشاكل. يتقبَّلن دعوته إلى كؤوس شراب، يمزحن معه، ويداعبنه في حميميَّة الجموع المتراصَّة في المحلّ إلى أن يُجبرنه على التجاوب. ينسى ريتشارد آنيتا في تلك اللحظات. لقد كانت ألعابًا بريئة، لا تمثّل أدنى خطر على زواجه، مثلما كان سيحدث لو أنَّ آنيتا أباحت لنفسها مثل تلك الحرّيَّات.

* * *

الفتاة التي لن ينساها ريتشارد ليست من أكثرهنَّ جمالًا في ليالي تناول كؤوس الكايبرينها تلك، ولكنَّها جريئة، ذات ضحكة صافية ورغبة في تجريب كلّ ما يُعرَض عليها. تحوَّلت إلى رفيقة في العربدة، ولكن ريتشارد أبقاها على هامش حياته، كما لو أنَّها دمية مانيكان لا

تكتسب الحياة إلّا بوجوده، من أجل مرافقته في البار بتناول الكحول والكوكايين. كانت تعني القليل جدًّا في حياته، هذا ما كان يظنُّه، ومن أجل التبسيط كان يدعوها غاروتا، وهي التسمية العامَّة التي تُطلَق على الفتيات الجميلات، والتي أقرَّها حيّ إبانيما من أغنية فينيشوس دي مورايس القديمة. وكانت هي مَن أدخلته ركن المخدِّرات، ومَن أجلسته إلى مائدة البوكر في الحجرة الخلفيَّة، حيث يقامرون بمبالغ بسيطة ويمكن الخسارة من دون تأثيرات ونتائج جدِّيَّة. لم تكن تعرف الكلل، وتمضي الليل كلَّه وهي تشرب وترقص، وتذهب في اليوم التالي مباشرة إلى عملها الإداري في عيادة طبّ أسنان. كانت تروي لريتشارد قصَّة حياتها المختلقة، في نسخة مختلفة في كلّ مرَّة، وببرتغاليَّة مندفعة بصورة جنونيَّة ومتشابكة، تبدو له أشبه بموسيقى. ويبدأ مع الكأس الثانية بالتحسُّر على حياته المنزليَّة الكئيبة، ويشرع بعد الكأس الثالثة في البكاء على كتفها. فكانت غاروتا تجلس على ركبتيه، وتقبِّله إلى حدّ الاختناق وتفركه بحركات تكدّر وحزن شديدة الإثارة، فيعود إلى بيته وبنطاله ملوَّث بلطخات وبقع، وبشعور قلق لا يصل إلى حدود الندم. كان ريتشارد يضع مخطَّطه اليومي على قاعدة اللقاء بهذه الفتاة التي تُضفي لونًا ومذاقًا على حياته. لقد كانت غاروتا السعيدة المؤبّدة والمتأهِّبة دومًا، تُذكِّره بآنيتا السابقة، التي وقع في حبِّها في أكاديميَّة الرقص، والآخذة بالتبخُّر سريعًا في غمامة نكبتها. فمع غاروتا يعود ليكون شابًّا مستهترًا؛ بينما يشعر وهو مع آنيتا بأنَّه ثقيل الظلّ وهرم ومتَّهَم.

كان قصيرًا الطريقُ ما بين البار وبيت غاروتا، وقد اجتازه ريتشارد في المرَّات الأولى بصحبة أحد ما. ففي الثالثة فجرًا، عندما يطردون

من المحلّ آخر الزبائن، يذهب بعضهم للنوم سكرانَ على الشاطئ أو لمواصلة الحفلة في بيت واحد منهم. وقد كان بيت غارونا هو الأكثر ملاءمة، إذ إنّه على بُعْد أقلّ من خمسة شوارع. وكان ريتشارد يستيقظ في مناسبات عديدة في مكان يبدو له مجهولًا لثوان قصيرة، فينهض دائخًا ومشوَّشًا، من دون أن يتذكَّر من هم الرجال والنساء المبعثرون على الأرض أو على الآرائك.

فاجأته الساعةَ السابعة من صباح يوم سبت وهو في سرير غارونا، بملابسه وحذائه. كانت هي عارية، منفرجة الساقين ومفتوحة الذراعين، ورأسها متدلٍّ، وفمها مفتوح، وخيط دم جافٌ على ذقنها، وجفناها مطبقان. لم تكن لدى ريتشارد أيُّ فكرة عمَّا حدث، ولا لماذا هو موجود هناك. كانت الساعات السابقة ظلمة مطبقة، والشيء الوحيد الذي يتذكَّره هو مائدة البوكر وسط سحابة من دخان السجائر. أمَّا كيفيَّة وصوله إلى ذلك السرير، فهي سرّ غامض. لقد حدث في عدَّة مناسبات سابقة أن خانه الكحول، إذ يضيع عقله بينما يعمل جسده بصورة آليَّة؛ وفكَّر في أنّه لا بدَّ من وجود تسمية وبرهان علميّ لهذا الوضع. تعرَّف بعد دقيقتين تقريبًا إلى المرأة، ولكنَّه لم يستطع تفسير وجود الدم. ما الذي فعله؟ ولخشيته من الأسوأ، هزَّها، صرخ بها من دون أن يتذكَّر اسمها، إلى أن أبدت إشارات تدلّ على الحياة. أحسّ عندئذ بالراحة، ووضع رأسه في المغسلة تحت دفق ماء بارد حتى فَقَدَ القدرة على التنفُّس واستعاد شيئًا من توازنه. خرج مندفعًا ووصل إلى بيته وهو يشعر بطعنات تثقب صدغيه، وبعظامه مطحونة، وبحموضة معويَّة لا تهدأ، تحرقه من الداخل. اختلق عذرًا متعجِّلًا ليقوله لأنيتا: قامت الشرطة باعتقاله مع آخرين بسبب شجار في الشارع، وقد أمضى

الليل في الحبس، ولم يسمحوا له بمخابرة بيته هاتفيًا.

لم تكن ثمّة حاجة إلى الكذب، لأنّه وجد آنيتا غارقة في نوم عميق بتأثير مهدّئاتها، بينما كانت بيبي تلعب صامتة بدُماها. «إنّني جائعة يا بابا»، قالت له وهي تحتضن ساقيه. حضّر لها ريتشارد كاكاو وطبق حبوب وهو يشعر بأنّه ملوّث وقذر، وغيرُ جدير بحبّ هذه الطفلة. ولم يتجرّأ على لمسها قبل أن يستحمّ. أجلسها بعد ذلك على ركبتيه ودسّ أنفه في شعرها الملائكيّ، يشمّ رائحتها التي كرائحة الحليب الخاثر والعَرَق البريء، وأقسم بينه وبين نفسه بأنّ أسرته ستكون منذ الآن أولويّته المطلقة، وأنّه سيكرّس نفسه جسدًا وروحًا لإخراج زوجته من البئر التي غطست فيها، وأن يعوّض بيبي عن شهور الإهمال.

استمرّت نيّاته سبع عشرة ساعة، وصار الهروب ليلًا أكثر تواترًا، وأطول زمنًا، وأكثر زخمًا. «إنّك آخذ في الوقوع في حبّي!» بيّنت له غاروتا، فوافقها على ذلك كيلا يُخيِّب أملها، على الرّغم من أنّه لم يكن للحبّ أيُّ علاقة بتصرّفه. فما هي إلّا واحدة عابرة، يمكن استبدالها بعشرات الأخريات المشابهات، المستهترات، المتعطّشات إلى اجتذاب الاهتمام بهنّ، الخائفات من الوحدة.

استيقظ يوم السبت التالي الساعة التاسعة صباحًا تقريبًا في سريره. أضاع بضع دقائق في البحث عن ملابسه في فوضى الشقّة، من دون أن يتعجّل، لأنّه توقّع أنّ آنيتا ستكون شبه غائبة عن الوعي بفعل الحبوب المهدّئة؛ وأنّها تستيقظ عند منتصف النهار تقريبًا. ولم يقلق على بيبي كذلك، لأنّ العاملة المنزليّة ستكون قد وصلت إلى البيت في هذا الوقت وستتكفّل بها. كان إحساسه الغامض بالذنب آخذًا في

التحوّل إلى شيء غير منظور. لقد كانت غاروتا محقّة، فالضحيّة الوحيدة في هذا الوضع هي نفسُه فقط، لأنَّه مُقيَّد بزوجة مريضة ذهنيًا. وإذا ما أبدى أدنى مؤشّر قلق من خداعه لآنيتا، تقول له الفتاة: عينان لا نريان، قلب لا يحزن. فآنيتا لا تعلم، أو تتظاهر بأنَّها لا تعرف شيئًا عن خروجه ليلًا، وهو له الحقّ في أن يستمتع. لقد كانت غاروتا متعة عابرة، ليست أكثر من أثر في الرمال، هذا ما كان يفكّر فيه ريتشارد، من دون أن يتخيَّل أنَّ ذلك سيكون جرحًا لا يندمل في ذاكرته. كانت الخيانة تزعجه أقلّ ممَّا تزعجه نتائج شرب الكحول. فبعد ليلة من الشرب، يجد مشقَّة في التعافي، إذ يمكن له أن يمضي اليوم كلّه بمعدة متأجّجة وجسد مضعضع، ويكون عاجزًا عن التفكير بوضوح، وبمشاعر هاجعة، يمشي بتثاقل فرس نهر.

تأخَّر بعض الوقت في العثور على سيَّارته التي ركنها في شارع جانبيّ، وتأخَّر كذلك في إدخال المفتاح في المُشغِّل وإدارة المحرِّك؛ كما لو أنَّ مؤامرة سرِّيَّة تعرقل قدراته، وتجعله يتحرَّك كما في كاميرا بطيئة. كانت حركة المرور خفيفة في تلك الساعة، وعلى الرَّغم ممّا يشبه ضربة بالهراوة في دماغه، تمكّن من تذكُّر الطريق إلى بيته. كانت قد انقضت خمس وعشرون دقيقة منذ أن استيقظ ووجد نفسه إلى جانب غاروتا، وكان يشعر بأنَّه في حاجة ماسَّة إلى فنجان قهوة وحمَّام، مع اقترابه من كراجه.

سيبحث فيما بعد عن ألف تفسير للحادث، ولن يكون أيٌّ منها كافيًا لاستبدال الصورة الواضحة التي ستظلّ ثابتة في حدقتي عينيه إلى الأبد.

* * *

كانت ابنته تنتظره عند الباب، وحين رأت ظهور سيَّارته عند الناصية هرعت لتحيَّته، مثلما تفعل دائمًا وهي في البيت عند وصوله. لم يَرَها ريتشارد. أحسّ بارتطامه بشيء ما من دون أن يدري أنَّه قد مرّ بسيَّارته فوق بيبي. كبح الفرامل فورًا وسمع عندئذ صرخات العاملة المنزليَّة المحتدَّة. توقَّع أنَّه قد صدم كلبًا، لأنَّ وعورة تلافيف ذهنه كانت لا تُطاق. قفز من المقعد، يدفعه رعب مهيب محا في ضربة فرشاة واحدة آثار السُّكر، وحين لم يَرَ سبب الصدمة تمكَّن من الإحساس للحظة بالراحة. ولكنَّه انحنى عندئذ.

كان عليه هو نفسه أن يسحب ابنته من تحت السيَّارة. لم تكن الصدمة قد أفسدت أيّ شيء: البيجاما المزيَّنة برسوم دببة كانت نظيفة، واليد تمسك دمية قماشيَّة، والعينان مفتوحتان بملامح سعادة لا تُقاوَم مثلما تكونان عند استقباله دومًا. رفعها في منتهى الحذر، مجنونًا بالأمل، وشدَّها إلى صدره، يقبِّلها ويناديها، بينما من بعيد جدًا، من كون آخر، تصله صرخاتُ العاملة المنزليَّة والجيران، ونفيرُ حركة المرور المتوقِّفة، وبعد ذلك صفَّاراتُ سيَّارات الشرطة وسيَّارة الإسعاف. عندما أدرك حجم نكبته، راح يتساءل أين هي آنيتا في تلك اللحظة، لماذا لم يسمعها ولم يَرَها وسط الحشد المضطرب الملتفّ حوله. عرف، بعد وقت طويل من ذلك، أنَّها حين سمعت فرملة السيَّارة والصخب، أطلَّت من نافذة الطابق الثاني. ومن الأعلى، بينما هي مشلولة، شهدت كلّ ما حدث، منذ أوَّل حركة قام بها زوجها وهو يجثو على ركبتيه إلى جانب السيَّارة، حتى انطلاق سيَّارة الإسعاف وهي تختفي في الشارع الصاعد بصفيرها الذئبيّ وضوئها الأحمر نذير الشؤم. عرفت آنيتا فاريهنا، ومن خلال النافذة من دون أدنى شكّ، أنَّ

بيبي لا تتنفّس، وتلقّت طعنة القدر النهائيّة تلك مثلما هي حقًا: الحكم بإعدامها هي بالذات.

تحوّلت آنيتا إلى فُتات. كانت تردّد كلمات غير متماسكة في مونولوج متواصل، وعندما توقّفت كان الأمر قد انتهى بعظامها في مصحّ نفسيّ يُديره ألمان. وضعوا إلى جانبها ممرّضة نهاريّة وأخرى ليليّة، متشابهتين في مظهرهما الحاسم وسلطتهما المهيبة، كأنّهما توأمان متحدّران من صلب كولونيل بروسيّ. تولّت هاتان المرأتان المهيبتان تغذيتها خلال أسبوعين، عبر أنبوب يصل إلى المعدة، بسائل كثيف له رائحة الوَنيلة، وكانتا تُلبسانها على الرَّغم من إرادتها، وتأخذانها، شبه محمولة عمليًا، للتنزُّه في فناء المجانين. تلك النزهات وغيرها من الأنشطة الإجباريّة، مثل مشاهدة أفلام وثائقيّة عن الدلافين ودببة الباندا، مخصّصةٍ لمكافحة الأفكار الهدّامة، لم تُعطِ أيّ مفعول يستحقّ الذكر معها. عندئذ، اقترح مدير المصحّ العلاجَ بالصدمات الكهربائيّة، وهو أسلوب فعّال وضئيل المجازفة، لتخليصها من عدم المبالاة، على حدّ قوله. كان العلاج يجري تحت التخدير، بحيث لم تكن المريضة تعلم شيئًا بشأنه، والتأثير الوحيد الضئيل غير الملائم هو الفقدان الموقّت للذاكرة، وهو ما يُعتبر نعمة في حالة آنيتا.

استمع ريتشارد إلى الشروح وقرّر الانتظار، لأنّه غير قادر على إخضاع زوجته لعدّة جلسات صدمات كهربائيّة، وفي هذه المرّة اتّفق أفراد عائلة فاريهنا على عدم تمديد مدّة وجودها في تلك المؤسّسة الألمانيّة أكثر ممّا هو ضروريّ. وما إن صار في الإمكان انتزاع أنبوب التغذية ذاك وإعطاؤها أوّل عصيدة مغذّية بالملعقة، حتى نقلوا المريضة إلى بيت أمّها. وإذا كانت الأخوات قد اقترحن التناوب على العناية

بها، فإنَّهنَّ بعد حادث بيبي لم يعدن يتركنها وحدها، ولو لحظةً واحدة.

وجد ريتشارد، من جديد، نفسه مستبعَدًا من العالم النسويّ الذي كانت زوجته تذوي فيه. لم يستطع مجرَّد الاقتراب لمحاولة أن يشرح ما حدث والمطالبة بالتماس العذر له، على الرَّغم من أنَّه لم يكن هنالك متَّسع لأيِّ عذر. لقد عُومل كقاتل، من دون أن يذكر أحد أمامه هذه الكلمة. وهذا هو بالضبط ما كان يشعر به. فهو يعيش في بيته، بينما آل فاريهنا يحتفظون بزوجته. لقد اختطفوها، كان يقول ذلك بالهاتف لصديقه هوراسيو الذي يتَّصل به من نيويورك. ولكنَّه لم يكن يُخبر أباه، الذي يتَّصل به منها أيضًا بانتظام، بأيِّ شيء عن كارثة حياته، بل يُطمئنه برواية متفائلة عن أنَّه هو وآنيتا، ببعض المساعدة النفسيَّة ومساعدة الأسرة، سيتجاوزان مسألة الحداد. وكان جوزيف يعلم بأنَّ بيبي قد ماتت بصدم سيَّارة لها، ولكنَّه لم يكن يعرف أنَّ ريتشارد هو من كان يقود السيَّارة.

العاملة المنزليَّة التي كانت تأتي للعناية بالصغيرة بيبي وتنظيف البيت، ذهبت في يوم الحادث بالضبط ولم ترجع حتى من أجل قبض أجرها. وقد تبخَّرت كذلك غاروتا نفسها، لأنَّ ريتشارد لم يعد قادرًا على دفع ثمن شرابها، وكذلك بسبب مخاوف تتعلَّق بالشعوذة: فهي تخشى أن تتسبَّب لها مصائب ريتشارد بلعنة ما، فهذا النوع من اللعنة يكون قابلًا، في العادة، للانتقال بالعدوى. كانت الفوضى تتزايد حول ريتشارد، تتطاول صفوف القوارير على الأرض، بينما تتخمَّر في الثلَّاجة منتوجات يغطِّيها زغب أخضر، فقدت طبيعتها الأصليَّة. وكانت الملابس المتَّسخة تتكاثر تلقائيًّا كما في خدعة بصريَّة. بدأ مظهر

بُخيف تلاميذ دروسه، فراحوا يختفون سريعًا، ووجد نفسه بلا أرصدة لأوّل مرّة، فقد خُصِّصت آخر مدَّخرات آنيتا لدفع تكاليف العيادة. بدأ يشرب نوعًا رخيصًا من الروم الذي يُباع بالكأس بلا تعبئة، ويظلّ وحيدًا في البيت، لأنَّه مَدين بنقود للبار. يمضي الوقت مستلقيًا أمام التلفزيون ليتجنَّب الصمت والظلام، حيث يطفو الحضور الشفّاف لطفليه. كان في الخامسة والثلاثين من العمر، ويعتبر نفسه نصف ميْت، لأنَّه عاش نصف حياة. والنصف الآخر لم يعد يهمّه.

* * *

تولّى صديق ريتشارد، هوراسيو آمادو ـ كاسترو منصب مدير مركز دراسات أميركا اللاتينيَّة والكاريبي في جامعة نيويورك، في فترة نكبة ريتشارد تلك، وقرَّر أن يكرِّس اهتمامًا أكبر بالبرازيل، وفكَّر في أنَّه يستطيع من خلال ذلك تقديم فرصة لريتشارد. لقد كانا رفيقين منذ أيَّام العزوبيَّة، عندما بدأ الأخير مسيرته الأكاديميَّة وكان يحضِّر أطروحته للدكتوراه. وقد ذهب هوراسيو في تلك السنوات لزيارته في ريو دي جانيرو، واستقبله صديقه بكرم ضيافة استثنائي، على الرَّغم من ميزانيَّته الشحيحة كطالب، وظلَّ معه شهرين، ذهبا خلالهما معًا، كلّ منهما بجعبة على ظهره، إلى ماتو غروسو، لاستكشاف الأدغال الأمازونيَّة، فرسَّخا واحدة من تلك الصداقات الرجوليَّة التي لا أثر فيها للمشاعر، والعصيَّة على البعاد والزمن. سافر هوراسيو إلى ريو دي جانيرو مرَّة أخرى فيما بعد، ليكون شاهدًا على زواج ريتشارد وآنيتا. ولم يلتقيا في السنوات التالية إلّا مرَّات قليلة جدًّا، لكنَّ المودَّة ظلَّت محفوظة في ركن آمن من الذاكرة؛ وكان كلٌّ منهما يعرف أنَّه يستطيع الاعتماد على الآخر. منذ أن عرف هوراسيو بما حدث لبابلو وبيبي، صار يتَّصل

بصديقه مرّتين كلّ أسبوع في محاولة لرفع معنويّاته. لم يكن ممكنًا التعرُّف إلى صوت ريتشارد في الهاتف، فهو يكرّ الكلمات ويكرّرها بتثاقل المخمورين غير المتماسك. وقد أدرك هوراسيو أنّ ريتشارد في حاجة إلى المساعدة بقدر حاجة آنيتا إليها.

وهو نفسه من أخبر ريتشارد بوجود وظيفة شاغرة في الجامعة، ونصحه بأن يتقدَّم إليها فورًا. ستكون المنافسة على الوظيفة قويّة ولا يستطيع هو مساعدته في هذا الأمر، ولكنّه إذا ما تمكّن من اجتياز الاختبارات اللازمة، وواتاه الحظّ، فسوف يكون على رأس القائمة. أطروحته للدكتوراه ما زالت تُدرَّس، وهذه نقطة لمصلحته، ومقالاته المنشورة هي نقطة ثانية، ولكن زمنًا أكثر ممّا هو مناسب قد انقضى منذ ذلك الحين؛ فقد أضاع ريتشارد سنوات من مسيرته المهنيّة في التكاسل على الشاطئ وشرب الكايبرينها. ومن أجل إرضاء صديقه، أرسل ريتشارد طلبه من دون آمال كبيرة. وكانت مفاجأته الهائلة حين وصله، بعد أسبوعين من ذلك، ردٌّ يدعوه إلى الحضور من أجل إجراء مقابلة. وكان على هوراسيو أن يُرسل إليه نقودًا من أجل حجز تذكرة الطائرة إلى نيويورك. قام ريتشارد بالتحضير للرحلة من دون أن يقدِّم تفسيرًا لآنيتا التي كانت آنذاك في مشفى الألمان. وأقنع نفسه بأنّه لا يتصرَّف بأنانيّة؛ فإذا حصل على الوظيفة، فستجد آنيتا عناية أكبر بكثير في الولايات المتّحدة، حيث ستعتمد على التأمين الصحّي الذي تقدّمه الجامعة لتغطية النفقات. كما أنّها الطريقة الوحيدة لاستعادتها كزوجة بانتزاعها من براثن آل فارينها.

جرى التعاقد مع ريتشارد، ابتداء من شهر آب/أغسطس، بعد مقابلات مطوّلة وشاملة. كانوا في شهر نيسان/أبريل، فقدّر أنّ هنالك

ما يكفي من الوقت لتستردّ آنيتا عافيتها، ولترتيب مسألة الانتقال. واضطرّ في أثناء ذلك إلى طلب قرض آخر من هوراسيو من أجل النفقات التي لا بدّ منها، بنيَّة تسديد الدين من ثمن بيع البيت إذا سمحت آنيتا بذلك، لأنَّ الملكيَّة لها.

لم يكن هوراسيو آمادور ـ كاسترو يفتقد النقود قطّ، بفضل الثروة العائليَّة. فأبوه البالغ من العمر السادسة والسبعين، ما زال يمارس طغيانه كبطريرك من الأرجنتين، بطبعه الفولاذيّ الدائم، واستسلامه لتعاسة أنَّ أحد أبنائه قد تزوَّج من يانكيَّة بروتستانتيَّة، وأنَّ اثنين من أحفاده لا يتكلَّمون الإسبانيَّة. كان يزورهم عدَّة مرَّات كلّ عام من أجل إنعاش ذاكرته الثقافيَّة الواسعة عن المتاحف والكونشرتات والمسرح، ومن أجل مراقبة استثماراته في مصارف نيويورك. كانت كنّته تكرهه، ولكنَّها تعامله بالنفاق نفسه الذي يعاملها به. منذ سنوات والعجوز يتطلَّع إلى شراء بيت مناسب لهوراسيو. فالشقَّة الضيِّقة في منهاتن، حيث تعيش هذه الأسرة، في طابق عاشر من مجمَّع مؤلَّف من عشرين عمارة متماثلة من الآجرّ الأحمر، ما هي إلَّا جُحر لا يليق بابن له. سيرث هوراسيو الجزء الذي يخصّه من الثروة فور ذهابه هو إلى القبر، ولكنَّهم جميعهم في الأسرة يعيشون حياة طويلة، وهو ينوي أن يعيش قرنًا كاملًا؛ وستكون حماقة من هوراسيو أن ينتظر إلى ذلك الحين كي يعيش حياة مريحة، بينما هو قادر على تحقيق ذلك من دون انتظار. كان الأب الثريّ يحدث نفسه بذلك ما بين النحنحات وأخذ أنفاس من سيجاره الكوبيّ. ولكن كنَّته اليانكيَّة البروتستانتيَّة كانت مصمِّمة: «لا أريد أن أكون مَدينة لأحد، وخصوصًا لأبيك، لأنَّه مستبدّ ويكرهني». ولم يتجرَّأ هوراسيو على معارضتها. ووجد العجوز أخيرًا الطريقة

لإقناع تلك الكنَّة العنيدة. فقد جاء ذات يوم ومعه كلبة بديعة للحفيدين، أشبه بكرة فرو وعينين عذبتين. سمّوها فيفا من دون أن يتخيَّلوا أنَّ هذا الاسم سيكون صغيرًا عليها. إنَّها كلبة أسكيمو كنديّة، وهذا صنف من كلاب الزحفات، يمكن لوزنه أن يصل إلى ثمانية وأربعين كيلوغرامًا. وحيال استحالة انتزاع الكلبة من الطفلين، تنازلت الكنَّة، وكتب الجدّ عندئذ لابنه شيكًا دسمًا. بحث هوراسيو عن بيت له فناء في محيط منهاتن، وانتهى به الأمر إلى شراء بناية في بروكلين قبل قليل من مجيء صديقه ريتشارد بروماستير للعمل في الكلّيّة.

* * *

قبل ريتشارد الوظيفة في نيويورك من دون أن يسأل امرأته عن ذلك، لأنَّه ظنَّ أنَّها ليست في حالة تُتيح لها تفهُّم الوضع. كان يحاول أفضل ما هو مناسب لها. لم يكن قادرًا على رمي الأشياء التي كانت تخصّ بيبي أو ملابس بابلو، عبَّأها كلّها في ثلاثة صناديق وأودعها قبل السفر بقليل عند حماته. وأعدَّ حقائب آنيتّا بلا وساوس، لأنَّه يعرف أنَّها لم تعد تهتمّ بأيِّ شيء؛ فمنذ زمن لا بأس به صارت ترتدي ملابس رياضيَّة وتقصّ شعرها بمقصّ المطبخ.

واجهت الفشلَ خطَّتُه لإنقاذ زوجته بعذر ما والخروج من المدينة من دون ميلودراما، لأنَّ أمّ آنيتّا وأخواتها عرفن نيَّاته، وما إن ذهب إليهنَّ بالصناديق الثلاثة لحفظها عندهنَّ، وتقصَّين عن بقيَّة الأمر بحاسَّة شمّ كلاب صيد، حتى عملن على منع السفر. جعلنه يرى ضعف آنيتّا وهشاشتها، فكيف ستتمكَّن من العيش في تلك المدينة القاسية، والتكلُّم بلغة عويصة، من دون عائلتها وصديقاتها. وإذا كانت مكتئبة

وهي بين أهلها، فكيف ستكون حالها بين أميركيين مجهولين. رفض ريتشارد سماع تلك الأسباب، وكان قراره حاسمًا لا رجعة عنه. وعلى الرّغم من أنَّه لم يقل ذلك، لتجنُّب الإساءة، فإنّه كان يرى أنّ الوقت قد حان ليفكِّر في مستقبله، والتخلّي عن كلّ تلك التأمُّلات الكثيرة مع هذه الزوجة الهستيريَّة. أمَّا آنيتَّا فأظهرت من جهتها عدم مبالاة تامَّة بمصيرها. فلا فرق لديها بين هذا وذاك، وبين هنا وهناك.

اقتاد ريتشارد زوجته إلى الطائرة، مزوّدًا بكيس بلاستيكيّ مملوء بالأدوية. تقدَّمت آنيتَّا بوداعة من دون أن تنظر إلى الخلف، وبلا أيّ إيماءة وداع لأسرتها التي كان جميع أفرادها يبكون وهم يرونها تغادر، ويفصلهم عنها حاجزٌ زجاجيّ في المطار. ظلَّت طوال ساعات الرحلة العشر مستيقظة، من دون أن تأكل أو تسأل إلى أين يذهبان. وفي مطار نيويورك كان في انتظارهما هوراسيو وزوجته.

لم يتعرَّف هوراسيو إلى زوجة صديقه، فهو يتذكَّرها جميلة وحسِّيَّة، كلّها تكوُّرات وابتسامتها لا تفارق ثغرها. لكنَّ مَن ظهرت أمام عينيه قد هرمت عشر سنوات، تجرّ خفَّيها وتتلفَّت من جهة إلى أخرى بحركة لاإراديَّة، كما لو أنَّها تخشى التعرُّض لهجوم. لم تردّ على التحيَّات ولم تسمح لامرأة هوراسيو بأن ترافقها إلى الحمَّام. فليرحمنا الربّ، هذه الحال أسوأ بكثير ممَّا ظننته، دمدم هوراسيو. وحتى صديقه لم يكن يبدو في حالة جيِّدة. كان ريتشارد قد شرب كثيرًا خلال الرحلة، مستغلًا تقديم الشراب المجَّانيّ، وأتى بلحية لم تُحلق منذ ثلاثة أيَّام، وملابس متحوِّلة إلى خِرَق، تعبق برائحة عرق سكِير. ولولا مساعدة هوراسيو لظلّ واقفًا مع آنيتَّا في المطار.

استقرَّ الزوجان بوماستير في شقَّة للجامعة مخصَّصة لأعضاء الكلِّيَّة، حصل لهما عليها هوراسيو، لقد كانت شقَّة «لَقطَة»، لأنَّها في وسط المدينة، وإيجارها رخيص، وهنالك قائمة انتظار للحصول عليها. انفرد هوراسيو بصديقه في إحدى الغرف ليلقِّنه ما عليه فعله، بعد وضع الحقائب عند المدخل وتسليمه المفاتيح. هنالك مئات، وحتى آلاف المتقدِّمين لكلِّ وظيفة أكاديميَّة شاغرة في الولايات المتَّحدة، قال له. وفرصة التدريس في جامعة نيويورك لا تتوافر مرَّتين، ولا بدَّ من انتهازها. لا بدَّ له من التحكُّم في المشروب، وتركِ انطباعٍ جيِّد منذ البداية. لا يمكنه تقديم نفسه في حالة القذارة والإهمالِ اللذين يبدو عليهما.

ـ أنا من رشَّحتك يا ريتشارد، فلا تضعْني في موقف سيِّئ.

ـ كيف يمكن أن يخطر لك أمرٌ كهذا؟ إنَّني شبه ميِّت بسبب الرحلة والخروج من ريو، أو الهروب بكلمة أدقّ. لماذا سأروي لك تراجيديا آل فاريهنا بسبب مجيئنا. كن مطمئنًّا، ستجدني خلال يومين بلا أيِّ شائبة في الجامعة.

ـ وماذا عن آنيتَّا؟

ـ ما الذي تعنيه؟

ـ إنَّها متعَبة جدًّا، لا يمكن لها البقاء وحدها يا ريتشارد.

ـ عليها أن تعتاد، مثل الجميع. فهنا لا يمكنها الاعتماد على أسرتها لتدلِّلها. عليها الاعتماد عليّ فقط.

«لا تخذلْها، إذًا، يا أخي»، قال له هوراسيو وهو يودِّعه.

إيفيلين

بروكلين

بدأت إيفلين أورتيغا عملها عند آل ليرُوي عام ٢٠١٢. «بيت التماثيل»، هكذا اعتادت أن تُسمِّي منزل تلك الأسرة، كان البيت مُلكًا لأحد رجال المافيا، في الخمسينيَّات، يعيش فيه مع أسرته كبيرة العدد، بمن في ذلك خالتان عازبتان وجدَّةٌ لأمّه صقيليَّة، رفضت الخروج من غرفتها عندما استقرَّت في الحديقة تماثيل أولئك الإغريق العراة. مات رجل المافيا وفق قانونه، وتوارث البيت من بعده آخرون قبل أن يشتريه فرانك ليرُوي الذي وجد متعة وظُرفًا في ماضي العقار المضطرب، وفي التماثيل المتردِّية بسبب الظروف الجوِّيَّة وبراز الحمائم. أضف إلى ذلك أنَّ موقع البيت جيِّد في شارع منزوٍ، وفي حيٍّ تحوَّل إلى حيٍّ لائق. كانت زوجته شيريل تفضِّل شقَّة حديثة بدلًا هذه الدار الكبيرة المتباهية، غير أنَّ القرارات الكبيرة والصغيرة كانت من مسؤوليَّته هو، ولا تخضع للنقاش أبدًا. وقد كان لبيت التماثيل عدَّة فوائد إضافيَّة أنشأها رجل المافيا من أجل راحة أسرته: مدخل لكرسيٍّ ذي عجلات، ومصعد داخليٍّ، ومرأب لسيَّارتين.

كان يكفي شيريل ليرُوي خمس دقائق من الحديث مع إيفيلين أورتيغا، كي توافق على منحها الوظيفة. إنَّها في حاجة إلى مربِّية بأقصى سرعة، وليس لديها متَّسع من الوقت للتدقيق في التفاصيل. فالمربِّية السابقة غادرت منذ خمسة أيَّام ولم ترجع. وقالت: من المؤكَّد أنَّها قد أُبعدت من البلاد؛ فهذا ما يحدث بسبب توظيف من هنّ بلا وثائق. كان زوجها هو من يتولَّى التعاقد مع عاملات الخدمة عادة، ومن يدفع إليهنَّ رواتبهنَّ ومن يصرفهنَّ من العمل. ومن خلال مكتبه، كانت له اتِّصالات للحصول على مهاجرين لاتينيين وآسيويين مستعدِّين للعمل في مقابل لا شيء، ولكنَّه اعتاد ألَّا يخلط بين العمل والأسرة. فجهات الاتِّصال تلك ليست مُجدية في مسألة الحصول على مربِّية موثوقة، وقد مرُّوا في تجارب مؤسفة. ولأنَّ هذا الأمر هو إحدى النقاط التي يتَّفق الزوجان بشأنها، فإنَّ شيريل تبحث عن مربِّية مناسبة عبر الكنيسة البروتستانتيَّة الخمسينيَّة التي لديها، على الدوام، قائمةُ نساء طيِّبات يبحثن عن عمل. لا بدَّ من أنَّ الفتاة الغواتيماليَّة بلا وثائق أيضًا، ولكنَّ السيِّدة تفضِّل تجاهل ذلك حاليًا، ولسوف تهتمّ بهذا الأمر فيما بعد. لقد راقَ لها وجهُ البنت النزيهُ وتصرُّفاتُها المحترمة، وأحسَّت بأنَّها قد وقعت على جوهرة، مختلفة جدًّا عن المربِّيات اللواتي مررن ببيتها. اقتصرت شكوكها على عمر الفتاة، التي تبدو كمن أدركت للتوّ سنّ البلوغ، وحجمِها! لقد قرأت في مكان ما أنَّ أقصر النساء قامة على كوكب الأرض هنَّ نساء السكَّان الأصليين في غواتيمالا، وها هو الدليل أمام عينيها. وتساءلت إذا كانت هذه الفتاة الضئيلة، بعظامها التي كعظام عصفور، وتلعثمِها، ستتمكَّن من القيام بخدمة ابنها فرانكي الذي يزيد وزنه عن وزنها، ولا يمكن السيطرة عليه عندما يبدأ الركل.

أمّا إيفيلين، فظنّت أنّ السيِّدة ليرُوي ممثّلة في هوليوود: طويلة القامة وشديدة الشقرة. سيكون عليها أن تنظر إليها متطلِّعة إلى أعلى، مثلما تنظر إلى الأشجار. وللمرأة عضلات في ذراعيها وفي ربلتَيْ ساقيها. عيناها زرقاوان كسماء قريتها، ولها ذيل شعر أصفر يتهدَّل كأنّه كيان قائم بذاته. كانت برونزيَّة، مع شيء من اللون البرتقاليّ الذي لم ترَ إيفيلين له مثيلًا من قبل، وتتكلّم بصوت متقطّع، مثل جدَّتها كونثيبثيون، بالرَّغم من أنَّها ليست عجوزًا إلى حدٍّ تفتقد معه الهواء. وتبدو عصبيَّة جدًّا، مثل مهرة مستعدَّة للاندفاع راكضة.

قدَّمتها ربَّة عملها الجديدة إلى بقيَّة العاملين: طاهية وابنتها، مسؤولة تنظيف، تعمل منذ التاسعة حتى الخامسة أيَّام الاثنين والأربعاء والجمعة. وذكرت لها اسم إيفان دانيسكو، وهو ليس من العاملين في البيت، ولكنَّه يقدِّم خدمات، وسوف تراه في يوم آخر، وأوضحت لها أنَّ زوجها، السيِّد ليرُوي، ليست له علاقة إلَّا في أدنى الحدود، وفي حالات لا بدَّ منها، مع العاملين المنزليِّين. اقتادتها بالمصعد إلى الطابق الثالث، وانتهى هذا الصعود إلى إقناع إيفيلين بأنَّها قد حطّت وسط أسرة مليونيريَّة. كان المصعد أشبه بقفص طيور من حديد مشغول بأشكال زهور، وبعرض يسمح بإدخال كرسيٍّ ذي عجلات. وكانت غرفة فرانكي هي الغرفة نفسها التي كانت تشغلها، قبل نصف قرن، الجدَّةُ الصقيليَّة: فسيحة، وسقفها مائل وفيه كوَّة إنارة، فضلًا عن وجود نافذة، والغرفة معتمة بعض الشيء بسبب تشابك أغصان شجرة قيقب في الحديقة. أمّا فرانكي البالغُ الثامنةَ أو التاسعةَ من العمر، فهو شديد الشقرة مثل أمِّه، ويعتري وجهَه شحوبُ مرضى السلِّ، وكان مقيَّدًا بكرسيٍّ بعجلات قبالة التلفزيون. أوضحت أمّه لإيفيلين أنَّ

الأحزمة تحول دون سقوطه أو دون إلحاقه الأذى بنفسه في نوبات تشنُّجاته الاختلاجيَّة. والطفل في حاجة إلى مراقبة دقيقة دائمة، لأنّه يُصاب بحالات اختناق، ولا بدَّ عندئذ من هزِّه والتربيت بحنوٍّ على ظهره كي يستردّ التنفُّس، وهو يستخدم حفاضات، ولا بدَّ من إطعامه، ولكنَّه لا يسبِّب مشاكل. إنَّه أشبه بملاك طيِّب، يُحَبُّ فورًا. يعاني داءَ السكَّريّ، ولكن هذا المرض تحت السيطرة تمامًا، وسوف تتولَّى هي نفسها قياس مستويات السكَّر وإعطاءَه الأنسولين. وتمكَّنت السيِّدة من شرح هذا كلّه وأشياء أخرى بسرعة، قبل أن تودِّعها وتغادر إلى النادي الرياضي، كما قالت.

* * *

توصَّلت شيريل ليرُوي إلى الانصياع لسلطة زوجها الفظَّة، خلال السنوات الخمس عشرة التي أمضياها معًا، ولكنَّها لم تتعلَّم كيف تتفادى هجماته في الوقت المناسب. وهي باقية معه بفعل الاعتياد على التعاسة، والتبعيَّة الاقتصاديَّة، والابن المريض. وقد اعترفت لطبيبتها النفسيَّة بأنَّها تقبَّلت ذلك الوضع أيضًا بسبب إدمانها الترف. فكيف يمكن لها التخلِّي عن ورشات التنمية الروحانيَّة، ونادي القراءة، وعن تمارين البيلاتيس التي تُبقيها على ما يرام، وإن يكن بصورة أقلّ ممَّا ترغب فيه؟ إنَّها في حاجة إلى وقت وموارد من أجل هذا كلّه. وهي تُعاني حين تقارن نفسها بنساء حقَّقن مكانتهنَّ واستقلاليَّتهنَّ، مثل أولئك اللاتي يتجوَّلن عاريات في قاعة الرياضة. أمَّا هي فلا تخلع ملابسها كلّها أبدًا في حجرة تبديل الملابس. إنَّها بارعة جدًّا في استخدام المنشفة عند دخول الدوش والساونا والخروج منهما، من دون الكشف عن كدمات جسدها. فكيفما تفحَّصت حياتها تخرج خاسرة. فقائمة

نقائصها ومحدوديّاتها مؤلمة. لقد أخفقت في طموحات الشباب، وهي تبكي الآن، حين تنظر إلى علامات الزمن.

إنَّها وحيدة جدًّا، ليس لها سوى فرانكي. ماتت أمّها منذ أحد عشر عامًا، وأبوها الذي كانت علاقتها به سيِّئة على الدوام، تزوَّج ثانية. زوجته الجديدة من الصين. تعرَّف إليها من خلال الإنترنت، وأحضرها من دون أن يهتمّ بكونهما لا يتكلَّمان اللغة نفسها ولا يستطيعان التواصل معًا. «هذا أفضل، لقد كانت أمّكِ كثيرة الثرثرة»، كان هذا هو تعليقه عندما أخبر شيريل بزواجه. إنَّه يعيش مع زوجته الصينيَّة في تكساس، لم يدعواها قطّ إلى زيارتهما، ولم يحاولا زيارتها في بروكلين، ولا يسألان أبدًا عن الحفيد المُصاب بشلل دماغيّ. لم ترَ شيرلي امرأة أبيها إلَّا في الصور التي يرسلها إليها في أعياد الميلاد، بحيث يظهران، كلاهما، بقلنسوات سانتا كروز الحمراء. هو بابتسامة زهوّ وهي بملامح مبهَمة.

كلّ شيء له علاقة بشيرلي كان آخذًا في التراخي، على الرَّغم ممَّا نبذله من جهود. ليس جسدها وحده، وإنَّما مصيرها كذلك. فقبل أن تكمل الأربعين من عمرها، كانت الشيخوخة عدوًّا بعيدًا جدًّا، وصارت، في الخامسة والأربعين، تشعر بها متربِّصة وعنيدة ولا مهرب منها. لقد حلمت ذات مرَّة بمسيرة مهنيَّة، وكانت لها أوهام بإنقاذ الحبّ؛ وكانت فخورة بحالتها الجسديَّة وجمالها، ولكنَّ ذلك كلّه صار من الماضي. إنَّها مكسورة، مهزومة. منذ سنوات وهي تتعاطى عقاقير لمقاومة الاكتئاب والقلق وفقدان الشهيَّة والأرق. خزانة الحمَّام ودرج المنضدة الصغيرة المجاورة لسريرها يحتويان على عشرات الأقراص متعدِّدة الألوان، وكثير منها انتهت صلاحيَّته، وأخرى غيرها نسيت

لماذا تُستخدم. ولكن، لا يمكن لأيٍّ منها أن يرمِّم حياة محطَّمة. مُعالجها النفساني، وهو الرجل الوحيد الذي لم يجعلها تتألَّم، والذي يستمع إليها بانتباه، وصف لها عدَّة مهدِّئات في سنوات العلاج النفسيّ، وكانت تطيعه كطفلة طيِّبة، مثلما كانت تطيع أباها بكلِّ وداعة من قبل، ومثلما كانت كذلك مع المتودِّدين الموقَّتين في شبابها، ومثلما تفعل الآن مع زوجها. جولات مشي طويلة؛ تمارين الزن البوذيَّة؛ حميات متنوِّعة؛ جلسات تنويم مغناطيسيّ؛ مَراجع وكتب في المساعدة الذاتيَّة؛ العلاج الجماعيّ... لم يؤدِّ أيّ شيء من ذلك كلّه إلى نتائج دائمة. تبدأ شيئًا، ويبدو لها لبعض الوقت أنَّه العلاج الذي تبحث عنه، لكنَّ الوهم لا يستمرّ طويلًا.

كان المعالج يوافقها الرأي، بأنَّ السبب الأساسيّ لأحزانها ليس الابن المريض بقدر ما هو العلاقة بزوجها. وجعلها ترى أنَّ العنف يتفاقم على الدوام، مثلما اختبرت هي نفسها ذلك خلال سنوات حياتها مع ذلك الرجل. في كلِّ لحظة تُقتل نساء كان يمكن لهنَّ أن يهربن في الوقت المناسب، يقول لها، ولكنَّه لا يستطيع التدخُّل مثلما يرغب كلَّما رآها تصل مع قشرة مكياج ونظَّارة شمسيَّة لإخفاء الكدمات. كان يتلخَّص دوره في منحها الوقت لتتَّخذ قرارها الخاصّ. في إمكانه أن يوفِّر لها أذنًا مصغية ومكانًا آمنًا من أجل غربلة الأسرار. كان خوف شيريل من زوجها كبيرًا إلى حدِّ أنَّ بدنها يقشعرّ حين تسمع صوت وصول سيَّارته إلى المرأب أو وقع خطواته في البيت. وكان من المحال التكهُّن بحالة فرانك ليرُوي المعنويَّة، لأنَّها تتبدَّل خلال لحظة بلا سبب ظاهر. كانت تتوسَّل أن يصل ساهيًا، مشغولًا، أو بصورة عابرة فقط، كي يستبدل ملابسه ويخرج. تعدّ الأيَّام لتراه يغادر في

سفر. لقد اعترفت للمعالج النفسانيّ بأنّها ترغب في أن تكون أرملة،
وهزّ رأسه موافقًا على كلامها من دون أن يُبدي أدنى قدر من
المفاجأة، لأنّه سمع مثل ذلك من مريضات أخريات لديهنّ أسباب أقلّ
ممّا لدى شيريل ليرُوي للتلهُّف إلى موت الزوج، وقد توصّل إلى أنّه
شعور نَسَويّ عاديّ. لقد كانت أجواء عيادته مسكونة بنساء خاضعات
وغاضبات، ولم يعرف أخريات غيرهنّ.

* * *

أحسَّت شيريل بأنَّها غير قادرة على العيش وحدها مع تحمُّل عبء
ابنها. فهي لم تعمل منذ سنوات، وشهادتها كمستشارة أُسَريَّة كانت تُثير
سخرية هائلة، إذ إنَّها لم تنفعها ولو في تدبُّر أمر علاقتها بزوجها.
أخبرها فرانك ليرُوي، قبل الزواج، بأنَّه يُريد زوجة بدوام كامل. لقد
تمرَّدت في البدء، ولكن ثقل الحَبَل وتكاسلها اضطرَّاها إلى التنازل
والرضوخ. وبعد مولد فرانكي تخلَّت عن فكرة العمل، لأنَّ الطفل في
حاجة إلى رعايتها واهتمامها الكاملين. تولَّت الاهتمام به وحدها، ليلًا
ونهارًا، مدَّة سنة؛ إلى أن اضطرتها أزمة عصبيَّة إلى زيارة عيادة
المعالج النفسانيّ، فأوصاها بالحصول على من يساعدها، ما دامت
قادرة على دفع التكاليف. تمكَّنت شيريل، عندئذ، وبالاستعانة بسلسلة
متعاقبة من المربِّيات، من الحصول على الحرِّيَّة لممارسة نشاطاتها
المحدودة. لم يكن فرانك ليرُوي يعرف شيئًا عن معظم تلك
النشاطات، ليس لأنَّها كانت تخفي ذلك عنه، وإنَّما لأنَّه هو نفسه لم
يكن يهتمّ بالأمر، إذ لديه شؤون كثيرة أخرى تشغل تفكيره. ولأنَّ
المربِّيات كُنَّ يتبدَّلن بكثرة ولم يكن لديه الكثير ليقوله لهنّ، قرَّر فرانك
ليرُوي أنَّ لا فائدة من حفظ أسمائهنّ. كان يلبِّي متطلِّبات الأسرة بوفرة

أكبر ممَّا تحتاج إليه بكثير، ويدفع الأجور والحسابات والنفقات الفلكيَّة التي تتطلَّبها رعاية ابنه.

ما إن وُلد فرانكي حتى ظهر أنَّ هنالك ما هو على غير ما يرام، وكان لا بدَّ من مرور عدَّة شهور قبل أن يتمَّ تقدير خطورة وضعه. وكان الاختصاصيُّون، يشرحون للأبوين، بكلِّ حساسيَّة، أنَّ من المحتمل ألَّا يتمكَّن من المشي، ولا من التكلُّم، ولا التحكُّم في جهازه العضليّ أو عضلاته العاصرة. ولكن مع الأدوية الإضافيَّة، وإعادة التأهيل ومداخلة جراحيَّة لتقويم تشوُّه الأطراف، سيتمكَّن الطفل من التقدُّم. رفضت شيريل تقبُّل ذلك التشخيص المشؤوم، ولجأت إلى كلِّ ما يعرضه الطبّ التقليديّ، واندفعت كذلك إلى اقتناص علاجات بديلة وأطبَّاء سَحَرة، بمن في ذلك واحد منهم يعالج بالموجات الذهنيَّة عبر الهاتف من بورتلاند. تعلَّمت تفسير إيماءات ابنها وأصواته، فكانت الوحيدة التي تتقاسم معه نوعًا من اللغة. وهكذا صارت تعرف، إضافة إلى أشياء أخرى، كيف هو سلوك المربِّيات في أثناء غيابها، ولهذا السبب كانت تطردهنّ.

أمَّا فرانك ليرُوي، فكان يعتبر ذلك الطفل عارًا شخصيًّا. ليس هنالك مَنْ يستحقّ مثل هذه النكبة، لماذا أنعشوه وأحيوه عندما وُلد بتلك الزُّرقة، لقد كانت الرحمة أكبر في تركه يمضي، بدلًا من الحكم عليه بحياة المعاناة، والحكم على الأبوين بحياة من الرعاية والخدمة. تجاهلَه، ولم يعد يهتمّ به. فلتتولَّ الأمّ مسؤوليَّته. لم يستطع أحد إقناعه بأنَّ الشلل الدماغي وداء السكَّري كانا طارئين وغير وراثيين. لقد كان متأكِّدًا من أنَّ شيريل هي المذنبة، لأنَّها لم تستجب للتحذيرات بشأن الكحول والتبغ والمنوِّمات خلال الحمل. لقد منحته زوجته ابنًا

خائبًا، ولا يمكن له الحصول على أبناء آخرين، لأنّها بعد عمليّة
الولادة التي أوشكت أن تكلّفها حياتها، أجريت لها عمليّة استئصال
للرحم. كان يرى أنَّ شيريل ما هي إلّا كارثة كزوجة، وعقدةُ أعصاب،
ومهووسةٌ برعاية فرانكي، وباردةٌ وذاتُ شعور مزعج بكونها ضحيَّة.
المرأة التي اجتذبته قبل خمس عشرة سنة، كانت فالكيريا، وهي بطلة
سباحة، قويّة وحازمة. كيف يمكن له أن يرتاب في أنَّ في صدر تلك
الأمازونيّة القويّة ينبض قلب رعديد. لقد كانت تبدو طويلة القامة وقويّة
البنية، مثله تقريبًا، ويمكن لها أن تواجهه، مثلما كان يحدث في
البداية، عندما كانا متنافسين مغرمين، يبدآن بتبادل الضرب وينتهي بهما
المطاف إلى ممارسة الحبّ بعنف، في لعبة خطيرة ومهيِّجة. انطفأت
نيران شيريل بعد العمليّة الجراحيَّة. أمّا فرانك، فكان يرى أنَّ زوجته
قد تحوَّلت إلى أرنب عصابيّ قادر على إخراجه عن طوره. كانت
سلبيَّتها تشكِّل استفزازًا له. لم تكن تتفاعل مع أيّ شيء، وتظلّ تنتظر
متوسِّلة استفزازًا آخر من دون أن تتوصَّل إلّا إلى زيادة غضب فرانك
الذي يفقد رشده، ثم يسيطر عليه القلق بعد ذلك، لأنَّه يمكن للكدمات
أن تُثير الشبهات؛ وهو لا يريد مشاكل. لقد كان مقيّدًا بها بسبب
فرانكي الذي أمله بالحياة ضئيل، كأيّ طفل ضعيف البنية، ولكنَّه قد
يعيش سنوات طويلة. ولم يكن فرانك مقيّدًا بهذا الزواج ثقيل الوطأة
من أجل الابن، بل إنَّ السبب الأساسي في تجنُّبه الطلاق هو أنَّ ذلك
سيكلّفه غاليًا جدًّا. فامرأته تعرف عنه أكثر ممَّا يجب. فعلى الرَّغم ممَّا
تبدو عليه من تفاهة وخضوع، فإنَّ شيريل كانت قد تدبَّرت الأمور
لتتحرَّى عن صفقاته وأعماله، ويمكن لها أن تبتزّه، وأن توصله إلى
الإفلاس، وأن تدمِّره. إنَّها تجهل تفاصيل نشاطاته، وكم يملك في

حساباته السرِّيَّة في جزر الباهاما، ولكنَّها ترتاب. وهي ذكيَّة جدًا في هذه الناحية. ولهذا يمكن لشيريل أن تتجرَّأ على مواجهته. وإذا كان الأمر يتعلَّق بحماية فرانكي أو الدفاع عن حقوقهما، فإنَّها مستعدَّة للصراع بالأظفار والأسنان.

ربَّما أحبَّ كلٌّ منهما الآخر ذات يوم، لكن مجيء فرانكي قتل أيَّ نوع من الوهم الذي يمكن أن يكونا قد احتفظا به. عندما علم فرانك بأنَّه سيكون أبًا لابن ذَكَر، أقام حفلة لا تقل تكاليفها عن حفلة عُرس. لقد كان هو نفسه الذَّكَرَ الوحيد بين عدَّة أخوات؛ الوحيد الذي يمكنه نقل لقبه إلى ذرِّيَّته التالية؛ فهذا الابن هو من سيواصل السلالة على حدِّ قول الجدّ ليرُوي عند تناول الأنخاب في الحفلة. كلمة السلالة كانت مصطلحًا قليل الصلاحيَّة لثلاثة أجيال من عديمي الحياء، قالت شيريل لإيفيلين، حين روت لها ذلك في واحدة من جولات تناولها الكحول والمهدِّئات. فليرُوي الأوَّل، من هذا الفرع في الأسرة، كان فرنسيًّا هاربًا من سجن كاليه عام ١٩٠٣، حيث كان يمضي حكمًا بالسجن بسبب السرقة. وصل إلى الولايات المتَّحدة باستهتاره كرأس مال وحيد، وتمكَّن من الازدهار بالمخيِّلة وبلا مبادئ. وتوصَّل إلى الاستمتاع بحسن حظِّه لعدَّة سنوات، إلى أن أعادوا زجّه في السجن. وكان السبب هذه المرَّة عمليَّة احتيال ضخمة خلَّفت آلاف المتقاعدين المسنِّين في البؤس. وكان ابنه، والد فرانك ليرُوي، يعيش منذ نحو خمس سنوات في بورتو فالارتا، هاربًا من العدالة الأميركيَّة بسبب جرائم مقترفة وغشّ ضريبيّ. وقد كان وجود حَمَوَي شيريل بعيدين عنها وغيرَ قادرين على الرجوع، نعمةً لها.

فلسفة فرانك ليرُوي، حفيدِ ذلك الوغد الفرنسيّ وابنِ آخر مشابه،

كانت بسيطة وواضحة: الغاية تبرِّر الوسيلة إذا ما أدَّت إلى جني منفعة خاصَّة. أيّ صفقة مفيدة له هي صفقة جيِّدة، حتى لو كانت كارثيَّة على آخرين، لأنَّ البعض يكسبون وآخرين يخسرون. هذا هو قانون الغاب، وهو لا يخسر أبدًا. إنَّه يعرف كيف يكسب المال ويخبِّئه. يرتِّب الأمور، بحيث يظهر شبه معوز أمام خدمة الضرائب عن طريق حسابات مبدعة، بينما يتظاهر بأنَّه أكثر ثراءً ممَّا هو عليه في الواقع، حين يكون ذلك مناسبًا له. هكذا يجتذب ثقة زبائنه، وهم رجال آخرون ليسوا شديدي التدقيق مثله. إنَّه يستثير الحسد والتقدير. لقد كان محتالًا مثل أبيه وجدِّه، ولكنَّه خلافًا لهما، يتمتَّع بمكانة مرموقة وبطبع بارد، ولا يبدِّد وقته في الصغائر ويتجنَّب المغامرات غير المحسوبة. الأمان قبل كلّ شيء. وتتلخَّص إستراتيجيَّته في العمل من خلال آخرين يكشفون وجوههم بدلًا منه، ويمكن لهم أن ينتهوا إلى السجن. أمَّا هو، فلا.

* * *

تعاملت إيفيلين مع فرانكي، منذ اللحظة الأولى، على أنَّه شخص عاقل، منطلقة من قاعدة أنَّه، بالرَّغم من المظاهر، شخص ذكيٌّ جدًّا. تعلَّمت كيف تحرِّكه من دون أن تكسر ظهرها، وكيف تحمِّمه، وتُلبسه ونُطعمه من دون تسرُّع، كي تتجنَّب اختناقه بالطعام. وسرعان ما أقنعت فعاليَّتُها ومحبَّتُها له شيريل التي رأت أنَّه يمكن لها أن توكل إلى الفتاة مراقبة السكَّري عند ابنها. فصارت إيفيلين تقيس نسبة السكَّر لديه قبل كلّ وجبة، وتنظم إعطاءه الأنسولين الذي تتولَّى هي نفسها حقنه به عدَّة مرَّات في اليوم. لقد تعلَّمت الكثير من اللغة الإنكليزيَّة في شيكاغو، ولكنَّها كانت تعيش هناك بين لاتينيين، ولا تتوافر لها سوى فرص قليلة لممارسة التكلُّم بالإنكليزيَّة. أمَّا في بيت آل ليرُوي، فقد

أحسَّت في البدء بحاجتها إلى تعلُّم اللغة من أجل التواصل بصورة أفضل مع شيريل، ولكنَّهما سرعان ما طوَّرتا علاقة مودَّة بينهما لا تتطلَّب الكثير من الكلمات من أجل التفاهم. صارت شيريل تعتمد على إيفيلين في كلِّ شيء، وبدا أنَّ الفتاة صارت تعرف ما تفكِّر فيه شيريل. «لا أدري كيف استطعت العيش من دونك يا إيفيلين. عاهديني بأنك لن تغادري أبدًا»، هذا ما اعتادت السيِّدة قوله لها حين تكون مثقلة بالغمِّ أو متضايقة من عنف زوجها.

كانت إيفيلين تحكي لفرانكي حكايات بالإسبانكلش، وكان الطفل يصغي إليها باهتمام. واعتادت أن تقول له: «يجب أن تتعلَّم، وهكذا سنتمكَّن من تبادل الأسرار من دون أن يفهمنا أحد». في البدء، لم يكن يتوصَّل إلى ما هو أكثر من التقاطِ فكرة من هنا وأخرى من هناك، ولكنْ كان يروق له صوت هذه اللغة الشجيَّة وإيقاعُها، وصار بعد قليل يتقنها جيِّدًا. وعلى الرَّغم من أنَّه لا يتمكَّن من صياغة كلمات، فإنَّه كان يردّ على إيفيلين من خلال الحاسوب. عندما تعرَّفت إليه، كان عليها أن تصارع في أحيان كثيرة نوباتِ غضب فرانكي التي كانت تنسبها إلى إحباط إحساسه بالعزلة والملل، تذكَّرت عندئذ الحاسوب الذي كان يلعب به أخواها الصغيران في شيكاغو، وفكَّرت في أنَّه إذا كانا قادرين على استخدامه وهما في تلك السنِّ المبكرة، فإنَّ فرانكي سيكون قادرًا على ذلك، فهو أذكى صبيّ عرفته. كانت معارفها المعلوماتيَّة تقتصر على الحدود الدنيا، وفكرة أن تكون إحدى تلك الآلات السحريَّة تحت تصرُّفها، كانت تبدو أمرًا مستحيلًا، ولكنَّها ما إن اقترحت الأمر حتى ذهبت شيريل طيرانًا لشراء جهاز لابنها. وجاء شابٌّ مهاجر من الهند، جرى التعاقد معه من أجل تعليم إيفيلين

أساسيّات المعلوماتيّة، وبدأت هي بدورها تعليم فرانكي.

تحسّنت حياة الطفل وحماسته بصورة مفاجئة مع التحدّي الفكريّ. وتحوّل هو وإيفيلين إلى مدمنَين على المعلوماتيّة وكلّ أنواع الألعاب. كان فرانكي يستخدم لوحة المفاتيح بصعوبة بالغة، لأنّ يديه لا تتجاوبان معه، ولكنّه يمضي ساعات من الحماسة قبالة الجهاز. تجاوز بسرعة كبيرة الأساسيّات التي قدّمها الشابّ الهنديّ، وسرعان ما صار يعلّم إيفيلين ما يكتشفه بنفسه. تمكّن من التواصل، والقراءة، والتسلية، والبحث عمّا يستثير فضوله. وبفضل هذه الآله ذات الاحتمالات غير المتناهية، استطاع أن يُثبت أنّه يملك، بالفعل، ذكاءً حادًّا، وأنّ دماغه الذي لا يكلّ قد وجد المنافس المناسب لتحدّياته. كان الكون بأسره تحت تصرُّفه. وكلّ موضوع يقود إلى آخر، وهذا بدوره يقود إلى موضوع تالٍ. فهو يبدأ بحرب النجوم، وينتقل بعدها إلى إنسان إسترالوبيتكوس، السَّلَف المباشر للسلالة البشريّة. ثم أنشأ فيما بعد حسابه على الفيسبوك، حيث كان يعيش حياة افتراضيّة مع أصدقاء غير مرئيين.

أمّا إيفيلين، فقد كانت حياة عزلتها تلك وتواصلها المرهف مع فرانكي، أشبهَ ببلسم شافٍ من العنف الذي اختبرته في الماضي. لقد انتهت كوابيسها المستعادة، واستطاعت أن تتذكّر أخويها وهما حيّان، كما حدث لها في الرؤيا الأخيرة وهي عند التشامانا في بيتين. توصّل فرانكي إلى أن يكون أهمّ شيء في حياتها، بقدر ما كانت كذلك جدّتها البعيدة. صار كلّ دليل على تقدُّم الطفل انتصارًا شخصيًّا لها. فالمحبّة الغيورة التي كانت تتلقّاها منه، والثقة التي تبديها شيريل نحوها، كانتا كافيتين لإشعارها بالسعادة. لم تكن في حاجة إلى ما هو

أكثر من ذلك. كانت تتصل بمريام هاتفيًا، وتراها أحيانًا على الفيس تايم، وترى كيف كان أخواها يكبران، ولكنَّ الوقت لم يسمح لها خلال تلك السنوات بالذهاب لزيارتها في شيكاغو. «لا يمكنني ترك فرانكي يا أمَّاه، إنَّه في حاجة إليّ»، كان هذا هو تفسيرها. ولم يكن لدى مريام كذلك فضول لزيارة ابنتها التي بدت غريبة بالنسبة إليها في الحقيقة. كانتا تتبادلان إرسال الصور والهدايا بمناسبة عيد الميلاد، وكذلك بمناسبة عيدَي ميلاديهما، لكن أيًّا منهما لم تبذل أيّ جهد لتحسين علاقة بينهما لم تتعزَّز قطّ. كانت مريام تخشى في البدء أن تعاني ابنتها وهي وحيدة في مدينة باردة، وبين أُناس غير معروفين، وكان يبدو لها كذلك أنَّهم يدفعون إليها قليلًا جدًّا في مقابل كلّ العمل الذي تؤدِّيه، على الرَّغم من أنَّ إيفيلين لم تكن تشكو من ذلك. وتوصَّلت مريام أخيرًا إلى القناعة بأنَّ إيفيلين تعيش عند آل ليرُوي في بروكلين أفضل من العيش مع أسرتها في شيكاغو. لقد نضجت ابنتها وهي مَن خسرتها.

* * *

كان لا بدَّ من مرور الوقت قبل أن تتحسَّس إيفيلين ديناميكيَّة البيت الغريبة. فالسيِّد ليرُوي، مثلما يدعوه الجميع، بمن فيهم زوجته حين تتحدَّث عنه، هو رجل لا غنًى عنه، يفرض نفسه من دون أن يرفع الصوت. والواقع أنَّه كلَّما كان صوته أكثر انخفاضًا، يبدو مخيفًا أكثر. ينام في الطابق الأوَّل، في غرفة فتح لها بابًا يؤدِّي إلى الحديقة من أجل الدخول والخروج من دون المرور بالبيت. وكان ذلك يُبقي زوجته والخُدَّام كما لو أنَّهم على الجمر، لأنَّه يظهر فجأة من العدم، مثل خدعةِ وهم بصريٍّ، ويختفي بالطريقة نفسها. قطعة الأثاث الأكثر أهمِّيَّة

في حجرته هي الخزانة المقفلة التي تضمّ أسلحته، وهي مُلمَّعةٌ ومُذخَّرة جيّدًا. لم تكن إيفيلين تعرف أيّ شيء عن الأسلحة، فالمشاجرات في قريتها تدور بالسكاكين أو بمناجل المَتشيتي، وأفرادُ العصابات يستخدمون مسدَّسات مُهرَّبَة، بعضها بدائيّ جدًّا ينفجر بين أيديهم. ولكنَّها شاهدت الكثير من أفلام العنف، بحيث يمكنها التعرُّف إلى ترسانة ربّ عملها الحربيَّة. لقد لمحت تلك الأسلحة في مناسبتين اثنتين، عندما كان السيِّد ليرُوي مع إيفان دانيسكو، رجله الثقة، ينظِّفانها على منضدة المطبخ. وكان ليرُوي يحتفظ بمسدَّس محشوٍّ في حقيبة سيَّارة اللكزس، ولكن ليس في سيَّارة زوجته الفيات أو السيَّارة الكبيرة المزوَّدة بمصعد من أجل الكرسيّ ذي العجلات، وهي التي تستخدمها إيفيلين للتنقُّل بفرانكي. ويقول السيِّد ليرُوي إنَّ على المرء أن يظلّ مستعدًّا على الدوام: إذا ما تسلَّحنا جميعنا فسوف تقلّ أعداد المجانين والإرهابيِّين في الأماكن العامَّة، لأنَّهم ما إن يطلُّوا برؤوسهم حتى يخرج لهم من يقضي عليهم. أبرياء كثيرون يموتون بينما هم ينتظرون مجيء الشرطة.

الطاهية وابنتُها حذَّرتا إيفيلين من مغبَّة الخطأ في دسّ أنفها في شؤون الزوجين ليرُوي، لأنَّهما طردا أكثر من مُستخدمة جاولت التقصِّي. لقد أمضتا ثلاث سنوات في هذا البيت من دون أن تهتمَّا بما يعمله صاحبه. ربَّما لا يعمل شيئًا، يمكن له أن يكون بكلِّ بساطة ثريًّا فحسب. إنَّهما تعرفان فقط أنَّه يأتي ببضاعة من المكسيك وينقلها من ولاية إلى أخرى. أمَّا نوع البضاعة فهو سرٌّ غامض. لا يمكن استخراج كلمة واحدة من إيفان دانيسكو. إنَّه متجهِّمٌ دائمًا، ولكنَّه الرجل الثقة لدى السيِّد ليروي، ويستدعي الحذرُ البقاءَ بعيدًا عنه. يستيقظ السيِّد

باكرًا، يتناول فنجان قهوة وهو واقف في المطبخ، ثم يذهب ليلعب التنس مدَّة ساعة واحدة. ويستحمّ عند عودته ويختفي حتى الليل أو لعدَّة أيَّام. وإذا ما تذكَّر ابنه فإنَّه يمرّ لإلقاء نظرة على فرانكي من الباب، قبل أن يغادر. تعلَّمت إيفيلين تجنُّبه والامتناع من ذكر الطفل أمامه.

أمَّا شيريل ليرُوي، فتستيقظ متأخِّرة، لأنَّها تنام بصورة سيِّئة. تمضي النهار في دروسها، وتتناول العشاء على صينيَّة في غرفة فرانكي، اللهمَّ إلَّا في الأيَّام التي يكون فيها زوجها مسافرًا. تستغلّ عندئذ الفرصة للخروج. لها صديق وحيد، وليس لها عمليًا أيُّ أسرة. ونشاطاتها الوحيدة خارج البيت هي الدروس المتنوِّعة، والتردُّد على أطبَّائها ومعالجها النفسانيّ. تبدأ الشرب في وقت مبكر من المساء، وما إن يحلّ الغروب حتى يحوِّلها الخمر إلى الطفلة البكَّاءة التي كانت عليها في الطفولة، وعندئذ تطلب من إيفيلين مرافقتها. لا يمكنها الاعتماد على أحد سواها، فتلك الفتاة البائسة هي دعامتها الوحيدة، ومستقرّ بوحها ونجواها. وهكذا علمت إيفيلين بتفاصيل العلاقة المتعفِّنة بين ربَّيّ عملها. علمت بالضرب، وكيف اعترض فرانك ليرُوي منذ البدء على صداقات امرأته، وكيف منعها من استقبال زيارات في البيت، ليس بسبب الغيرة كما كان يدَّعي، وإنَّما ليحمي خصوصيَّته. كانت أعماله شديدة الحساسيَّة والسرِّيَّة، وكلّ الحذر والاحتياطات فيها تبدو قليلة. «بعد ولادة فرانكي صار أكثر صرامة. لم يعد يسمح لأحد بالمجيء، لأنَّه يشعر بالعار إذا ما رأوا الطفل»، قالت شيريل لإيفيلين. وخروجها في الليل، عندما يغيب زوجها عن البيت، يكون دومًا إلى المكان نفسه: مطعم إيطاليّ متواضع في بروكلين، على طاولاته

شراشف ذات مربَّعات ومناديل ورقيَّة، حيث صار العاملون يعرفونها، لأنها تتردَّد منذ سنوات على المكان ذاته. كانت إيڤيلين تعرف أنها لا تأكل وحدها هناك، لأنَّها قبل خروجها من البيت تتَّصل هاتفيًا لتحديد موعد. «إنَّه صديقي الوحيد، باستثنائك أنتِ يا إيڤيلين»، قالت لها. إنَّه رسَّام أكبر منها بأربعين سنة، فقير وكحوليّ ولطيف، تتقاسم شيريل معه معكرونة تحضِّرها لهما «الطاهية» في المطبخ، وأضلاعَ بقر ونبيذًا عاديًا. يعرف كلٌّ منهما الآخر منذ زمن بعيد. يعرفها منذ ما قبل زواجها، وكانت هي موضوع عدد من لوحاته، وربَّة إلهامه في إحدى الفترات. «لقد رآني في مباراة بطولة بالسباحة، وطلب منّي أن يرسمني على أنَّني جونو من أجل جداريَّة رمزيَّة. أتدرين ما الذي أعنيه يا إيڤيلين؟ جونو كانت ربَّة رومانيَّة للطاقة الحيويَّة؛ قوَّة الشباب الأبديّ. كانت إلهة محاربة وحامية. وهو ما زال يراني على هذا النحو، لا يلتفت إلى التغيير الذي طرأ عليّ». لا جدوى من محاولة الشرح لزوجها ما الذي يعنيه لها ذلك التأثُّر الأفلاطونيّ لدى الفنَّان الهرم، وكيف أنَّ تلك اللقاءات في المطعم هي اللحظات الوحيدة التي تشعر بها بأنَّها تلقى الإعجاب والمحبَّة.

* * *

كان إيڤان دانيسكو شخصًا خبيث المظهر وذا عادات أشدّ خبثًا، لا يقلّ غموضًا عن ربّ عمله. دوره في التراتبيَّة المنزليَّة لم يكن محدَّدًا. وكانت الشكوك تخامر إيڤيلين بأنَّ ربّ عملها يخاف من دانيسكو كخوفه من بقيَّة العاملين في البيت، لأنها رأت هذا الرجل وهو يكلِّمه بصوت مرتفع وبنبرة متحدِّية، بينما يتحمَّل فرانك ليرُوي صامتًا. لا بدَّ من أنَّهما شريكان أو متواطئان. ولأنَّ أحدًا لم يكن

يولي اهتمامًا للمربِّية الغواتيماليَّة، التافهة والمتلعثمة، فإنَّها كانت تتجوَّل كجِنِّيّ، تخترق الجدارن وتعرف أشدّ الأسرار تكتُّمًا. كانوا يفترضون أنَّها تكاد لا تعرف الإنكليزيَّة، وأنَّها لا تفهم ما نسمعه أو تراه. لم يكن دانيسكو يتواصل إلَّا مع السيِّد ليرُوي، يدخل ويخرج من دون تقديم أيِّ تفسيرات، وإذا ما التقى السيِّدة شيريل يتفحَّصها بوقاحة، من دون أن يتلفَّظ بكلمة واحدة، ولكنَّه يُحيِّي في بعض الأحيان إيفيلين بإيماءة غامضة. كانت شيريل تتوخَّى عدم استفزازه، لأنَّها في المرَّتين اللتين تجرَّأت فيهما على الشكوى منه، صفعها زوجها. لقد كان دانيسكو أكثر أهمِّيَّة منها في البيت.

لم تلتقِ إيفيلين هذا الرجل إلَّا في مرَّات نادرة. فبعد مرور سنة على عملها في المنزل، عندما كانت شيريل واثقة بأنَّ المربِّية لن تغادر، وأنَّ فرانكي يحبّها كثيرًا إلى حدٍّ تشعر هي نفسها بالغيرة منها، عرضت عليها أن تتعلَّم السياقة كي تستخدم بنفسها السيَّارة الكبيرة والمزوَّدة بمصعد. وفي إيماءة لطف غير متوقَّعة، عرض عليها إيڤان أن يعلِّمها ذلك. وبينما هي معه على انفراد في السيَّارة، تبيَّن لها أنَّ ذلك الغول، كما تسمِّيه العاملات الأخريات في المنزل، هو شخص صبور وطويل الأناةِ كمدرِّب، بل يمكن له أن يبتسم أيضًا، وهو يضبط لها وضع المقعد كي تصل قدماها إلى الدوَّاسات، على الرَّغم من أنَّ تلك الابتسامات كانت تبدو أشبه بتكشيرة، وكما لو أنَّ فمه تنقصه بعض الأسنان. تكشَّفت إيفيلين عن تلميذة جيِّدة، فقد حفظت قوانين السير عن ظهر قلب، وبعد أسبوع كانت تسيطر على السيَّارة وتتحكَّم فيها. التقط لها عندئذ إيڤان صورة وهي تقف مستندة إلى جدار المطبخ الأبيض. وجاءها بعد أيَّام قليلة برخصة سياقة باسم المدعوَّة هازيل

شيفليكا. «هذه بطاقة قبليَّة، أنت تنتمين الآن إلى قبيلة هنود أميركيين»، قال لها باقتضاب.

كانت إيفيلين تستخدم السيَّارة في البدء من أجل أخذ فرانكي لقصّ شعره، أو إلى مسبح شتويٍّ أو إلى مركز التأهيل، ولكنَّهما صارا يذهبان بعد ذلك لتناول المثلَّجات، وللقيام بنزهات أو الذهاب إلى السينما. كان الطفل يشاهد في التلفزيون أفلام عنف واغتيالات وتعذيب، وانفجارات وتبادل إطلاق نار، أمَّا في السينما، وبينما هو يجلس وراء الصفّ الأخير على مقعده ذي العجلات، كان يستمتع مثل مربِّيته بالقصص العاطفيَّة عن الحبِّ والخيبة. وفي بعض الأحيان ينتهي بهما الأمر وكلٌّ منهما يمسك يد الآخر، ويبكي. كانت الموسيقى الكلاسيكيَّة تهدِّئه والإيقاعات اللاتينيَّة تُصيبه بجنون السعادة. وكانت إيفيلين تضع بين يديه دفًّا أو ماراكا، وبينما هو يهزّ الآلة الموسيقيَّة، تأخذ هي بالرقص مثل دمية ماريونيت مخلَّعة المفاصل، مستثيرةً في الطفل نوبات ضحك صاخبة.

لم يعد أحدهما يبتعد عن الآخر. صارت إيفيلين تتخلَّى بانتظام عن الخروج في الأيَّام المخصَّصة لراحتها، ولم يخطر لها قطّ أن تطلب إجازة، لأنَّها تعرف أنَّ فرانكي سيشتاق إليها. أمَّا شيريل فاستطاعت الشعور بالطمأنينة للمرَّة الأولى منذ ولادة ابنها. وفي أحد الأيَّام، من خلال الكمبيوتر، وبلغة المداعبات والإيماءات والأصوات الخاصَّة التي يتقاسمانها، طلب فرانكي من إيفيلين أن تتزوَّجه. «عليكَ أن تكبر أوَّلًا يا فرخ البطّ الصغير، وبعد ذلك سنرى»، ردّت عليه متأثِّرة.

* * *

إذا كانت الطاهية وابنتها تعرفان ما الذي يحدث بين السيِّد ليرُوي وامرأته، فإنَّهما لم تعلِّقا على ذلك الأمر قطّ. ولم يكن في إمكان إيڤيلين كذلك أن تتكلَّم في هذا الموضوع، ولكنَّها لم تكن قادرة على التظاهر بأنَّها لا تعرف شيئًا، لأنَّها منغمسة في الأسر، وقريبة جدًّا من شيريل. كان الضرب يحدث دومًا وراء أبواب مغلقة، لكنّ جدران هذا البيت القديم رقيقة جدًّا. كانت إيڤيلين ترفع صوت التلفاز كي تجتنب اهتمام فرانكي الذي يعاني نوبات قلق حين يسمعُ أبويه يتشاجران، وكثيرًا ما ينتهي به الأمر إلى انتزاع خصل من شعره. في تلك المشاجرات، كان يُسمع دومًا اسم فرانكي. وعلى الرَّغم من أنَّ أباه كان يفعل كلّ ما يمكنه كي يتجاوزه، إلَّا أنَّ هذا الابن كان شديد الحضور، وكانت رغبة الأب في موته والانتهاء منه بالغة الوضوح، ولم يكن يتورَّع عن قذف رغبته هذه في وجه امرأته. فليَمُتِ الاثنان، هي ومسخها، ابن الزنا ذاك الذي ليس فيه جينة واحدة من جينات آل ليرُوي، لأن لا وجود لمتخلِّفين في عائلته. الاثنان لا يستحقَّان الحياة، إنَّهما زائدان عن الحاجة. وكانت إيڤيلين تسمع وقع ضربات الحزام الرهيبة. بينما شيريل المرتعبة من أن يسمع ابنها صراخ تألُّمها، تحاول تعويض كراهية الأب بحبِّها الهاجسيّ كأمّ.

تمضي شيريل، بعد ذلك الضرب، عدَّةَ أيَّام من دون أن تغادر البيت. تظلّ متوارية وخاضعة بصمت لعناية إيڤيلين، ومواساتها لها بحنان ابنة مُحِبَّة، تعالج رضوضها بزهرة العُطاس، وتساعدها على الاغتسال، وتسرِّح لها شعرها، وترافقها في مشاهدة مسلسلات التلفزيون، وتستمع إلى اعترافاتها من دون أن تُبدي رأيها. كانت شيريل تستغلّ فترات العزلة تلك لتمضيها مع فرانكي: تقرأ له، تروي

في حكايات، تثبت ريشة بين أصابعه كي يرسم. كان يمكن لزخم ذلك الاهتمام الأموميّ أن يتحوَّل أحيانًا إلى إزعاج للطفل، فيبدأ بإظهار الضيق، ويكتب على الكومبيوتر طالبًا من إيفيلين وأمّه أن تتركاه وحيدًا، ويكتب ذلك بالإسبانيَّة، كيلا يُغضب أمّه. وينتهي الأسبوع بفقدان الطفل السيطرة على نفسه، وبأمّه تبتلع أقراصًا مضادَّة للجزع والاكتئاب، وبمزيد من العمل لإيفيلين التي لا تشكو أبدًا، لأنَّها ترى أنَّ حياتها سهلة جدًّا بالمقارنة مع حياة ربَّة عملها.

كانت تُشفق من أعماق روحها على السيِّدة وتتمنَّى حمايتها، ولكن لا أحد يستطيع التدخُّل. لقد كان ذلك الزوج الفظّ من نصيب شيريل، وعليها أن تتقبَّل العقاب إلى اليوم الذي لا تعود فيه قادرة على تحمُّل المزيد، وعندئذ ستكون هي إلى جانبها لتهرب مع فرانكي بعيدًا عن السيِّد ليرُوي. لقد عرفت إيفيلين حالات مماثلة، رأتها في قريتها. الرجل يسكر، يتشاجر مع آخرين، يُهينونه في العمل، يخسر رهانًا، وباختصار، يمكن لأيِّ سبب أن يؤدِّي به إلى ضرب المرأة والأطفال. ليس الذنب ذنبه، فهكذا هم الرجال، وهكذا هو قانون الحياة، هذا ما نفكِّر فيه الجموع. ومن المؤكَّد أنَّ أسباب السيِّد ليرُوي لممارسة كلّ ذلك الشرّ ضدَّ زوجته مختلفة، ولكنَّ النتائج هي نفسها. الضرب يأتي فجأة، من دون سابق إنذار، وبعد ذلك يغادر البيت صافقًا الباب، وتنزوي شيريل في حجرتها لتبكي حتى التعب. بينما تقدِّر إيفيلين اللحظة المناسبة للظهور على رؤوس أصابعها ولتقول إنَّ فرانكي على ما يرام، وتطلب منها أن تحاول الراحة، كي تقدِّم إليها شيئًا تأكله، وأقراص دوائها المعالجة للأعصاب، ومهدِّئاتها، وبعض كمَّادات الثلج. «أعطيني الويسكي يا إيفيلين، وظلِّي برهة معي»، تقول لها

شيريل وهي تتشبَّث بيدها وتنفجر بالبكاء.

كان التكتُّم إجباريًا في بيت آل ليرُوي من أجل الحفاظ على التعايش، مثلما نبَّه العاملون الآخرون إيفيلين. وعلى الرَّغم من الخوف الذي يوحي إليها به السيِّد ليرُوي، فإنَّها تريد الحفاظ على وظيفتها. فهي تشعر في بيت التماثيل هذا بالأمان كما في طفولتها مع جدَّتها، ولديها فيه وسائل راحة لم تحلم بمثلها قطّ، وكلّ المثلَّجات التي ترغب فيها، وتلفزيون، وفراش وثير في حجرة فرانكي. صحيح أنَّها تتقاضى راتب الحدّ الأدنى، ولكن لا نفقات لديها، ويمكنها إرسال نقود إلى جدَّتها التي كانت تستبدل شيئًا فشيئًا جدران الطين والقصب في كوخها بأخرى من الآجرّ والإسمنت.

* * *

لم تأتِ الطاهية وابنتها إلى العمل يوم الجمعة في شهر كانون الثاني/يناير، الذي شُلَّت فيه الحياة في نيويورك. ظلَّت شيريل وإيفيلين وفرانكي محبوسين في البيت. كانت وسائل الاتِّصال تُعلن عن العاصفة منذ اليوم السابق، وحين وصلت كانت أسوأ من كلّ التوقُّعات. بدأت العاصفة بسقوط بَرَد ثقيل كأنَّه حبَّات حمّص، تقذف به الريح إلى النوافذ بصورة تهدِّد بكسر الزجاج. أغلقت إيفيلين ستائر الحماية الخشبيَّة والستائر القماشيَّة الداخليَّة من أجل توفير أفضل حماية لفرانكي من الصخب، وحاولت أن تشغله بمشاهدة التلفزيون، لكن هذه الإجراءات لم تُجدِ نفعًا، لأنَّ وابل البرَد ودويّ الرعد كانا يرعبانه. عندما تمكَّنت أخيرًا من تهدئته، وضعته في الفراش كي ينام؛ ولم يكن في إمكانها في أثناء ذلك أن تُلهيه بالتلفزيون، لأنَّ استقبال

البنّ كان سيّئًا جدًّا. وجهّزت مصباحًا يدويًّا وشموعًا، استعدادًا لأيّ انقطاع ممكن للكهرباء، ووضعت الحساء في حافظة حرارة ليظلّ ساخنًا. كان فرانك ليرُوي قد خرج في سيّارة أجرة عند الفجر. وسافر إلى نادي غولف في فلوريدا، كي يبتعد ويتفادى العاصفة التي جرى الإعلان عنها. أمّا شيريل فأمضت اليوم في الفراش مريضة وباكية.

نهضت شيريل يوم السبت متأخّرة، ومضطربة جدًّا، وجالت عيناها بنظرة عته كما في الأيّام السيّئة، ولكنّها خلافًا لمناسبات أخرى كانت صامتة جدًّا، الأمر الذي جعل إيڤيلين تُصاب بالذعر. وعند منتصف النهار تقريبًا، بعد أن جاء البستانيّ لإزالة الثلج من المدخل، ذهبت باللكزس إلى موعد مع المعالج النفسانيّ، كما قالت. ورجعت بعد نحو ساعتين من ذلك، وكانت مضطربة جدًّا. فتحت لها إيڤيلين قوارير المهدِّئات، وأحصت أقراص الدواء، وقدّمت إليها مقدارًا جيِّدًا من الويسكي، لأنَّ السيِّدة لم تكن قادرة على التحكُّم في ارتعاش يديها. تناولت شيريل أقراص الدواء مع ثلاث جرعات طويلة. قالت إنَّها واجهت يومًا سيِّئًا جدًّا، وإنَّها تشعر بانقباض نفسي، وإنَّ رأسها سينفجر، ولا تريد رؤية أحد، وخصوصًا زوجها، ومن الأفضل لذلك القاسي ألّا يعود إلى الأبد، وأن يختفي، وأن يسقط برأسه إلى الجحيم، وهو يستحقّ ذلك بجدارة لأنّه يمضي في المسار الذي هو فيه، فلم يعد يهمّها مصيره أبدًا، وكذلك مصير ابن الكلبة دانيسكو، هذا العدوّ الذي يوجد في بيتها بالذات. اللعنة على الاثنين، كليهما معًا، قالت مغمغمة وهي تبتلع هواء، بغضب محموم.

- إنّهما في قبضتي يا إيڤيلين، لأنّه إذا أغضبني فسوف أتكلّم، وعندئذ لن يجدا أين يختبئان. إنّهما مجرمان، قاتلان. أتعرفين بماذا

يعملان؟ إنّهما يتاجران بالبشر، يشحنان بشرًا ويبيعانهم. يأتيان بهم بالخداع من أمكنة أخرى، ويستخدمانهم كعبيد. لا تقولي لي إنّك لم تسمعي عن بيع البشر!

«سمعت بعض الشيء...» وافقت الفتاة مذعورة من مظهر ربّة عملها.

ـ يجعلونهم يعملون كحيوانات، ولا يدفعون إليهم، ويهدّدونهم ويقتلونهم. هناك كثيرون متورّطون في هذا الأمر يا إيڤيلين، وكلاء وناقلون وشرطيّون وحرّاس حدود، وحتى قضاة فاسدون. ولا ينقصهم زبائن لتجارتهم. هنالك أموال كثيرة متداوَلة في هذه التجارة، أتفهمين؟

ـ أجل، يا سيّدتي.

ـ أنت محظوظة لأنّهم لم يمسكوا بك. كنت ستنتهين في ماخور. أنت تظنّين أنّني مجنونة، أليس كذلك يا إيڤيلين؟

ـ لا، يا سيّدتي.

ـ كاترين براون عاهرة. تأتي إلى هذا البيت للتجسُّس علينا؛ فرانكي ليس سوى ذريعة. جاء بها زوجي إلى هنا. وهو ينام معها، أتعرفين. لا! وكيف ستعرفين أيّتها الصغيرة. المفتاح الذي وجدته في جيبه هو مفتاح بيت تلك العاهرة. لماذا تظنّين أنّ لديه مفتاح بيتها؟

ـ سيّدتي، أرجوك... كيف يمكنك معرفة من أين هو هذا المفتاح؟

ـ ومن أيّ مكان يمكن له أن يكون؟ أتعلمين ماذا هنالك أيضًا يا إيڤيلين؟ يريد زوجي التخلُّص منّي ومن فرانكي... يريد التخلُّص من

ابنها يريد قتلنا! هذا ما يسعى إليه، ولا بدَّ من أنَّ براون متواطئة معه، لكنّني أراقب بحرص. لم أخفِّف حذري أبدًا، دائمًا أراقب، وأراقب...

وعند أقصى حدود تحمُّلها، مع تشوُّشها وبلبلتها بتأثير الكحول والأدوية، وبينما هي مستندة إلى الجدران، استسلمت المرأة لاقتيادها إلى حجرتها. ساعدتها إيفيلين على استبدال ملابسها والاستلقاء في الفراش. لم تكن الفتاة تتخيَّل أنَّ شيريل تعرف شيئًا عن علاقة ليرُوي بالمعالجة الفيزيائيَّة. أمَّا هي فتحمل السرَّ في داخلها منذ شهور، مثل وَرَم خبيث، من دون أن تستطيع إخراجه إلى الضوء. ففي ميلها إلى التخفِّي كانت تسمع وتراقب، وتخرج بنتائج. لقد فاجأتهما عدَّة مرَّات وهما يتهامسان في الممرِّ، أو يتبادلان رسائل نصِّيَّة من أحد طرفي البيت إلى الطرف الآخر. وسمعتهما يخطِّطان لإجازة معًا، ورأتهما ينزويان في إحدى الحجرات الشاغرة. لم يكن ليرُوي يأتي إلى غرفة فرانكي إلَّا في أثناء إشراف كاترين على تمارينه البدنيَّة، عندئذ يرسلان إيفيلين خارجًا بأيِّ ذريعة. ما كانا يهتمَّان بإبداء أيِّ حذر أمام الطفل، على الرَّغم من معرفتهما أنَّه يفهم كلَّ شيء، كما لو أنَّهما راغبان في أن تكتشف شيريل علاقتهما. لقد قالت إيفيلين لفرانكي إنَّ ذلك سرٌّ يجب أن تقتصر معرفته عليهما، وإنَّه لا يمكن لأحد الاطِّلاع عليه. كانت تفترض أنَّ ليرُوي مغرم بكاترين، لأنَّه يبحث عن ذرائع ليكون معها، وعندما تكون موجودة تتبدَّل نبرة صوته وملامح وجهه، ولكنَّها كانت تجد صعوبة في فهم مسوِّغات كاترين للتورُّط مع رجل خبيث القلب، وأكبر منها سنًّا بكثير، ومتزوِّج ولديه ابن مريض، اللهمَّ إلَّا إذا كانت تشعر بإغراء أموال يُفترض أنَّه يملكها.

أمّا شيريل، فكانت تعتبر أنّه يمكن لزوجها ألّا يُقاوَم إذا نوى ذلك؛ وهذا ما حدث عندما تودَّد إليها هي نفسها، وأنَّ فرانك ليُروي. إذا ما وضع أمرًا في رأسه، فليس هنالك ما يوقفه. لقد تعارفا في بار ريتز الأنيق، حيث كانت قد ذهبت للاستمتاع مع صديقتين، بينما كان هو هناك لإبرام صفقة. روت شيريل لكاترين أنّهما تبادلا نظرتين، تفحَّص بهما كلٌّ منهما الآخر عن بُعد، وكان ذلك كافيًا كي يقترب منها بكأسَيْ مارتيني وتصميم حاسم. «منذ تلك اللحظة لم يتركني بسلام. لم أستطع الهرب، لقد أطبق عليّ مثلما تفعل عنكبوت بذبابة. كنت أعلم منذ البدء بأنّه سيُسيء معاملتي، لأنَّ ذلك بدأ قبل زواجنا، لكنَّ الأمر بدا أشبه بلعبة. لم أظنّ أنَّ الأمور ستمضي من سيّئ إلى أسوأ، وفي كلّ مرَّة بصورة أكبر...». وعلى الرَّغم من الخوف والحقد اللذين يوحي هو نفسه بهما، فإنَّ شيريل تُقرّ بأنَّه كان رجلًا يجتذب الاهتمام بمظهره الجيِّد وملابسه العصريَّة، وميله إلى التسلُّط والغموض. ولم تكن إيڤيلين قادرة على الإعجاب بتلك الصفات.

وصلت إلى إيڤيلين الرائحةُ من الغرفة المجاورة لتنبِّهها إلى وجوب تغيير حفاضة فرانكي، بينما كانت تستمع في مساء يوم السبت ذاك إلى حسرات شيريل غير المترابطة. كانت حاسَّة شمِّها قد ازدادت رهافة، فضلًا عن حاسَّة السمع وملَكة الحَدْس. كانت شيريل قد وعدت بشراء الحفاضات، لكنَّها نسيت ذلك وهي في الحالة التي رجعت بها. وقدَّرت إيڤيلين أنَّه يمكن للطفل المتناوم أن ينتظر بينما تذهب هي مسرعة إلى الصيدليَّة. لبست سترة ومعطفًا، وانتعلت جزمة مطّاطيَّة، ودَست يديها في قفّازين، ثم خرجت مستعدَّة لتحدِّي الثلج، لكنّها فوجئت بأنَّ إحدى عجلات السيَّارة الكبيرة مفرغة من الهواء. بينما

سيَّارة شيريل الفيات ٥٠٠ في ورشة التصليح. ولم تكن هنالك جدوى من الاتِّصال بسيَّارة أجرة، لأنَّها ستتأخَّر بالمجيء في ذلك الجوّ، كما أنَّ إيقاظ السيِّدة لن يكون حلًا مناسبًا، لأنها ستكون في شبه غيبوبة. وكانت على وشك التخلِّي عن الذهاب لشراء الحفاضات، وحلّ المشكلة باستخدام منشفة عاديَّة، عندئذ رأت فوق قطعة الأثاث التي عند المدخل مفاتيح اللكزس، حيث تُترك دومًا. إنَّها سيَّارة فرانك لِبْروي، وهي لم تَقُدْها من قبل قطّ، ولكنَّها افترضت أنَّ قيادتها ستكون أسهل من قيادة سيَّارتها الكبيرة؛ كما أنَّ الطريق إلى الصيدليَّة، ذهابًا وإيابًا، لن يستغرق إلَّا أقلّ من نصف ساعة. السيِّدة نائمة ولن تفتقد السيَّارة، وهكذا يمكنها أن تحلّ المشكلة. تأكَّدت من أنَّ فرانكي ينام بهدوء، قبَّلته من جبينه وهمست إليه بأنَّها سترجع سريعًا. وأخرجت السيَّارة بحذر شديد من المرأب.

لوثيا

تشيلي

تسبَّب موت أمّ لوثيا في سنة ٢٠٠٨ لابنتها ماراث بإحساس بعدم الأمان لا سبيل إلى تفسيره، ذلك بأنَّها كانت قد استقلَّت عن والدتها منذ خروجها إلى المنفى قبل تسعة عشر عامًا. وكان على لوثيا، في علاقتهما، أن تؤدِّي دور الحامية الوجدانيَّة، وأن تقوم في السنوات الأخيرة، بدور المموِّلة أيضًا، لأنَّ التضخُّم أدَّى إلى اختزال معاش لينا التقاعدي. ومع ذلك، عندما وجدت نفسها من دون أمّها، كان إحساسها بالهشاشة والضعف قويًّا، مثل حزنها على فقدانها. كان أبوها قد تبخَّر من حياتها مبكرًا جدًّا، فكانت أمّها وأخوها إنريكي كلَّ أسرتها. وعندما غاب كلاهما عنها أدركت أنَّه لم يعد لها سوى ابنتها دانييلًا. كان كارلوس يعيش معها في البيت نفسه، لكنَّه غائب على الدوام حين يتعلَّق الأمر بالعواطف. وقد شعرت لوثيا آنذاك أيضًا، لأوَّل مرَّة، بوطأة التقدُّم في العمر، فقد دخلت منذ بعض الوقت في العقد الخامس من عمرها، لكنَّها تشعر كما لو أنَّها في الثلاثين. لقد كان الموت والشيخوخة أفكارًا مجرَّدة حتى تلك اللحظة، وأشياء تحدث لآخرين.

ذهبت مع دانييلًا لتنثر رماد لينا في البحر، مثلما كانت قد طلبت منها ذلك هي نفسها، من دون أن تقدِّم أيَّ مسوِّغات، لكن لوثيا استنتجت أنَّ أمّها ترغب في أن تنتهي في مياه المحيط الهادي نفسها التي انتهى إليها ابنها. فمثل كثيرين آخرين، من المحتمل أن يكون جسد إنريكي قد أُلقي في البحر مربوطًا بكتلة حديديَّة، ولكن روحه التي زارت لينا في أيّامها الأخيرة لم تؤكِّد ذلك. تعاقدتا مع صيَّاد سمك كي يحملهما إلى ما وراء الصخور الأخيرة، حيث يتحوَّل الأطلسي إلى لون بتروليّ، وحيث لا تصل النوارس. وبينما هما تقفان في الزورق، مستحمَّتين بالدموع، ارتجلتا وداعًا لتلك الجدَّة التي عانت، وكذلك لإنريكي الذي لم تتجرَّآ قطُّ على أن تقولا له وداعًا، لأنَّ لينا رفضت أن تتقبَّل موته بصوت عالٍ، مع أنَّها قد تكون فعلت ذلك منذ سنوات طويلة في أعماق قلبها السرِّيَّة. نُشر كتاب لوثيا الأوَّل عام ١٩٩٤، وتضمَّن تفاصيل الاغتيالات، ولم يُكذِّب أحدٌ ما تضمَّنه من معلومات. وقد قرأته لينا، ورافقتها كذلك عندما أدلت لوثيا بشهادة أمام قاضٍ في التحقيقات بشأن طائرات الهليوكبتر العسكريَّة. لا بدَّ من أنَّه كانت لدى لينا فكرة واضحة بما يكفي عن المصير الذي لقيه ابنها، لكنَّ الاعتراف بذلك يعادل التخلِّي عن المهمَّة التي استحوذت على اهتمامها طوال أكثر من ثلاثة عقود. كان يمكن لإنريكي أن يبقى إلى الأبد في غمامة عدم اليقين الكثيفة، غير حيّ وغير ميِّت، لولا أعجوبة معجبة في نهاية الأمر لمرافقة أمِّه واقتيادها إلى الحياة الأخرى.

وفي الزورق، بينما كانت دانييلًا تحمل الإناء الخزفيّ، راحت لوثيا تُلقي حفنات من الرماد مع ترديد صلوات لأمِّها وأخيها وذلك الشابّ المجهول الذي ما زال جثمانه يقبع في كوَّة آل ماراث في

المقبرة. لم يتعرَّف أحد إلى صورة الشابّ في أرشيف النيابة الأسقفيَّة، خلال تلك السنوات كلّها، ووصل الأمر بلينا إلى اعتباره فردًا آخر من أسرتها. أبقت هبَّاتُ النسيم الرمادَ طافيًا في الهواء كغبار نجميّ، ليسقط بعد ذلك طافيًا من دون تسرُّع في البحر. أدركت عندئذ لوثيا أنَّ عليها الحلولَ محلَّ أمّها؛ لأنَّها الأكبر سنًّا في أسرتها الصغيرة. وفي تلك اللحظة، سقط النضوج عليها، بينما هي تجمع خسائرها وتتأهَّب بدورها لمواجهة الموت.

* * *

تجنَّبت لوثيا اللهجة ذات النبرة الرماديَّة الغائمة، حين روت لريتشارد بوماستير عن تلك المرحلة من حياتها، وركَّزت في أشدِّ الأمور وضوحًا وأشدِّها قتامة. وما سوى ذلك كان يشغل حيِّزًا ضئيلًا جدًّا في ذاكرتها، ولكنّ ريتشارد أراد أن يعرف المزيد عنها. كان قد قرأ كتابَي لوثيا، إذ شكَّلت قصَّة إنريكي نقطة انطلاق، ومنحت أحد الكتابين نبرة شخصيَّة. وقد أوضحت له لوثيا أنَّ زواجها من كارلوس أورثوا لم يقم قطّ على علاقة حميمة حقيقيَّة، غير أنَّ ميولها الرومانسيَّة أو مجرَّد حالة العطالة قد منعتها من اتِّخاذ قرار حاسم. لقد كانا كائنين تائهين في الفضاء نفسه، مختلفين جدًّا، أحدهما عن الآخر، لكنَّهما يتعايشان معًا، لأنَّ الشجار يتطلَّب تقاربًا أكثر. وقد جاءت إصابتها بالسرطان لتضع حدًّا لعلاقتهما الزوجيَّة، ولكن تلك النهاية تطلَّبت سنوات من المخاض.

ذهبت دانييلًا إلى جامعة ميامي في كورال غيبلز، بعد موت جدَّتها، وبدأت لوثيا مراسلات جامحة معها، مثل تلك التي تبادلتها مع أمّها عندما كانت تعيش في كندا. كانت ابنتها سعيدة بحياتها الجديدة،

ومفتونة بالمخلوقات البحريَّة، ومتلهِّفة إلى استكشاف تقلُّبات الأقيانوس، ولديها محبُّون كثر من الجنسين وحرِّيَّةٌ من المحال الحصول عليها في تشيلي، حيث تحمَّلت المراقبة الصارمة لمجتمع بالغ التشدُّد. وفي أحد الأيَّام، أخبرت أبويها هاتفيًّا بأنَّها لا تصنِّف نفسها كامرأة ولا كرجل، وأنَّها تمارس علاقات غراميَّة متعدِّدة. فسألها كارلوس إن كانت تعني الثنائيَّة الجنسيَّة المختلطة، ونبَّهها إلى أنَّ من الأفضل الامتناعَ من إخبار أحد بذلك في تشيلي، حيث لن يتفهَّمها سوى قلَّة من الناس. وبعد أن أغلق الهاتف، شخَّص الحالة للوثيا قائلًا: «أرى أنَّهم قد استبدلوا تسمية الحبِّ الحرّ. لقد أخفق هذا التوجُّه على الدوام، ولن يؤدِّي إلى نتيجة أفضل الآن».

قطعت دانييلًا دراستها وتجاربها الجنسيَّة عندما مرضت أمّها. لقد كان عام ٢٠١٠ عامَ فقدان وانفصال بالنسبة إلى لوثيا، وسنةَ مستشفيات ومخاوف وإنهاك طويلة. تركها كارلوس لأنَّه لم يجد الشجاعة ليكون شاهدًا على تردِّيها، قال لها ذلك بخجل، ولكن بتصميم في الوقت نفسه. رفض رؤية الجروح التي تقطع صدرها. كان يشعر بنفور متأصِّل من الكائن المدمَّر الذي راحت تتحوَّل إليه، وفوَّض ابنته بمسؤوليَّة العناية بها. ولغيظها من سلوك أبيها، واجهته دانييلًا بفظاظة سافرة وغير متوقَّعة، وكانت هي نفسها أوَّل من تكلَّمت على الطلاق كمخرج وحيد محترم لزوجين لا يحبّ أحدهما الآخر. كان كارلوس يعبد ابنته، لكن رعبه من حالة لوثيا البدنيَّة كان أقوى من خشيته من خيبة أمل ابنته به. أعلن أنَّه سيذهب موقَّتًا إلى فندق ليستعيد هدوءه، لأنَّ التوتّر في البيت يؤثِّر فيه كثيرًا ويمنعه من العمل. كان قد بلغ من العمر ما يفيض كثيرًا عن سنِّ التقاعد، لكنَّه قرَّر أنَّه لن يخرج من مكتبه إلّا

للتوجُّه مباشرة إلى المقبرة. تبادلت لوثيا وكارلوس الوداع بالفتور المهذَّب الذي ميَّز سنوات تعايشهما، بلا مظاهر عداء، ومن دون توضيح أيّ شيء. وقبل مرور أسبوع، استأجر كارلوس شقَّة، وساعدته دانييلًا على الاستقرار فيها.

أحسَّت لوثيا، في أوَّل الأمر، بالانفصال كفراغ. لقد كانت معتادة على الغياب العاطفيّ، ولكن حين ذهب كارلوس كلّيًّا صار لديها فائض من الوقت، وأصبح البيت هائل الاتِّساع، وكانت هناك أصداء في الحجرات الخاوية. تسمع في الليل وقع خطوات كارلوس تجوب المكان، والماء يتدفَّق في الحمَّام. وسبَّب لها انقطاعُ العادات والطقوس اليوميَّة الصغيرة إحساسًا عظيمًا بالهجران، إضافة إلى قلق تلك الشهور التي خضعت فيها لمساوئ الإكثار من تناول الأدوية من أجل التغلُّب على المرض. كانت تشعر بالمهانة، بالهشاشة، بالعري. فكانت دانييلًا تظنّ أنَّ العلاج قد قوَّض مناعتها الجسديَّة والروحيَّة. واعتادت أن تقول لها: «لا تضعي قائمة بما تفتقرين إليه يا أمَّاه، وإنَّما بما تملكينه»، إذ إنَّها كانت ترى أنَّ تلك فرصة فريدة لشفاء الجسد وشفاء الذهن، بالتخلُّص من الحمولة غير الضروريَّة، والتطهُّر من الضغائن، والعقد، والذكريات السيِّئة، والرغبات المستحيلة، وأنواع كثيرة أخرى من القمامة. «من أين تأتين بهذه الحكمة يا ابنتي؟»، تسألها لوثيا. فتجيبها دانييلًا: «من الإنترنت».

غاب كارلوس بصورة جذريَّة كما لو أنَّه قد انتقل إلى أقاصي قارَّة أخرى، مع أنَّه كان يعيش على بُعد بضعة شوارع من لوثيا. ولم يسأل، ولو مرَّة واحدة، عن حالتها الصحِّيَّة.

* * *

وصلت لوثيا إلى بروكلين في شهر أيلول/سبتمبر ٢٠١٥، على أمل أن يكون تغيير الأجواء مشجِّعًا لها. كانت متعبَة من الروتين، وترى أنَّ الوقت قد حان لإعادة خلط أوراق قَدَرها، ولترى إن كان سيخرج لها ما هو أفضل. كانت تأمل أن تكون نيويورك المقطع الأوّل من مرحلة طويلة. وصارت تخطط للبحث عن فرص أخرى والسفر عبر العالم ما دامت قواها ومواردها المحدودة تسمح لها بذلك. تريد أن تخلّف وراءها الخسائر وآلام السنوات الأخيرة. أصعب ما واجهته كان موت أمّها، وقد أثَّر فيها أكثر من الطلاق ومن السرطان. لقد شعرت في البدء بهجران زوجها كطعنة بسيف غدر، ولكنَّها سرعان ما رأت في ذلك هديَّةَ حرّيَّة وسلام. ولقد مضت على ذلك سنواتٌ عديدة، وتوافر لها ما يكفي من الوقت لتتصالح مع الماضي.

لكنَّها تكلَّفت ما هو أكثر من ذلك كي تتعافى من المرض الذي كان السبب في هروب كارلوس في نهاية الأمر. عمليَّة استئصال الثديين وشهور العلاج الكيميائي والأشعَّة خلَّفتها نحيلة، حليقة، بلا رموش وبلا حاجبين، مع تقرُّحات وهالات زرقاء حول العينين، ولكنَّها معافاة مع توقُّعات متفائلة. رمَّموا لها ثدييها بعمليَّات زرع، وراحا ينتفخان ببطء، بقدر ما تُتيح لهما العضلات والجلد ذلك، لقد أُجريت لها عمليَّة مؤلمة تحمّلتها، من دون شكوى، مستندة إلى اعتدادها بنفسها. فتحمل أيّ شيء كان يبدو لها أفضل من ذلك الصدر الأملس والذي تخترقه طعنات. تجربة تلك السنة من المرض بثَّت فيها رغبة متأجّجة في العيش، كما لو أنَّ جائزة تحمُّلها المعاناة هي اكتشافها حجرَ الفلاسفة، مادَّة الخيميائيين المحفّزة والقادرة على تحويل الرصاص إلى ذهب، واستعادة الشباب. كانت قد فقدت الخوف من الموت في وقت

سابق، عندما شهدت انتقال أمّها الأنيق من الحياة إلى الموت. وعادت تشعر بصفاء مبهر، كما في ذلك الحين، بحضور الروح المؤكَّد، ذلك الجوهر الأصليّ الذي لا يمكن للسرطان أو أيّ شيء آخر أن يؤثّر فيه. ومهما يكن ما يحدث، فإنَّ الروح هي التي تغلب وتتفوَّق. كانت تتخيَّل موتها المحتمل على أنَّه عتبة، ولكنَّها ما دامت موجودة في الدنيا فإنَّها ترغب في أن تعيش الحياة بكلّ أبعادها، من دون الحذر من أيّ شيء، وبغلبة لا تُهزَم.

انتهى العلاج الطبّيّ في أواخر سنة ٢٠١٠. وظلَّت طوال شهور تتجنَّب النظر في المرآة. كانت تضع قبَّعة صيَّاد سمك فوق جبهتها، ألقت بها دانييلًا إلى القمامة. كانت الفتاة قد أكملت للتوّ عشرين عامًا عندما أطلعوها على نتائج التشخيص، فتركت دراستها من دون أن تتردَّد وعادت إلى تشيلي لترافق أمّها. توسَّلت إليها لوثيا ألَّا تفعل ذلك، لكنَّها ستدرك فيما بعد أن حضور ابنتها في تلك الفترة الحرجة كان أمرًا لا مفرَّ منه. حين رأتها تصل، لم تكد تتعرَّف إليها. كانت دانييلًا قد ذهبت في الشتاء، صبيَّةً شاحبة ترتدي ملابس كثيرة، ورجعت ببشرة بلون الكراميلًا، ونصفُ رأسها حليق والنصفُ الآخر فيه خصل شعر خضراء، وببنطال قصير، وساقين شعريَّتين وبجزمة جنديّ، وكانت مستعدَّة لرعاية أمّها وتسلية مرضى المستشفى الآخرين. كانت تظهر في القاعة، وتحيّي بالقبلات مَن تجدهم مستريحين على أسرَّتهم ومتَّصلين بأجهزة تنقيط الأدوية، وتوزِّع عليهم بطّانيّات وعصائر فاكهة ومجلّات.

لم تكن قد أمضت سنة كاملة بعدُ في الجامعة، ولكنَّها صارت تتكلَّم كما لو أنَّها قد جابت البحار مع جاك إيف كوستو وسط

حوريَّات بحر زرقاوات وسفن شراعيَّة غارقة. بدأت مع المرضى بمصطلح LGBT: سحاقيَّات، غيي، بيسكسوال وترانسيكسوال. وكان عليها أن تشرح بتفصيل مسهب الفوارق الطفيفة بين كلّ واحدة من هذه الحالات. كان ذلك أمرًا مستجدًّا بين شبَّان الولايات المتَّحدة؛ بينما لم يكن هنالك في تشيلي من يخطر في باله شيء من ذلك، وأقلّ من الجميع مرضى قاعة الأورام تلك. أخبرتهم بأنَّها من جنس محايد أو مائع، لأنَّه لا إكراه في قبول تصنيف رجل أو امرأة، الذي يفرضه الجهاز التناسليّ، وإنَّما يمكن للمرء أن يحدِّد نفسه مثلما يحلو له، وتبديل رأيه إذا ما تبيَّن له أنَّه يشعر براحة أكبر بانتمائه إلى جنس آخر. «مثلما هي حال السكَّان الأصليين في بعض القبائل، ممَّن يستبدلون أسماءهم في مراحل مختلفة من حياتهم، لأنَّ الاسم الذي تلقَّوه عند الولادة لم يعد يمثِّلهم»، أضافت على سبيل التوضيح، مساهِمةً بذلك في مزيد من البلبلة العامَّة.

ظلَّت دانييلا إلى جانب أمّها طوال فترة النقاهة العلاجيَّة بعد العمل الجراحيّ، ورافقتها خلال الساعات البطيئة والمزعجة لكلّ علاج، وخلال قضيَّة الطلاق. كانت تنام إلى جانبها، مستعدَّة للقفز من السرير لمساعدتها إن كانت في حاجة إليها. كانت تدعمها بمحبَّتها الفظَّة، بمزاحها، بأصناف حسائها الشافية، وفعاليَّتها بالإبحار في بيروقراطيَّة سُوء الصحَّة. أخذتها جرًّا لشراء ملابس جديدة، وفرضت عليها حِمْيَةً عقلانيَّة. وعندما تركت أباها بوضع مريح في حياته الجديدة كعازب، وأمّها قادرة على الوقوف على ساقيها، ودَّعتهما من دون تفاخر وسافرت سعيدة مثلما جاءت.

كانت لوثيا، قبل مرضها، تعيش حياةً تُعرِّفها هي نفسها بأنَّها

بوهيميَّة، بينما تصنِّفها دانييلًا بأنَّها غير صحّيَّة. فقد دخَّنت طوال سنوات، ولم تكن تمارس تمارين رياضيَّةً، وتتعشَّى يوميًا مع شرب كأسَي نبيذ، ومثلَّجات كتحليةٍ. وكانت لديها عدَّة كيلوغرامات زائدة وآلام في ركبتيها. وعندما كانت متزوِّجة، اعتادت السخرية بأسلوب زوجها في الحياة. كانت تبدأ يومها متكاسلة في الفراش مع فنجان قهوة بالحليب وقطعتي كرواسان. تقرأ الجريدة، بينما هو يتناول سائلًا أخضر كثيفًا مع غبار طلع النحل ثم ينطلق راكضًا كهارب إلى مكتبه، حيث تنتظره لولا، سكرتيرته الوفيَّة، بملابس نظيفة. ففي سِنّه تلك، كان كارلوس أورثوا يحافظ على مظهره، ويمشي منتصبًا كرمح. وقد بدأت هي بمحاكاته من دون رغبة، بفضل سلطة دانييلًا الحديديَّة، وسرعان ما تبيَّن لها الفرق في ميزان الحمّام، وفي حيويَّة لم تعرفها منذ أيَّام المراهقة.

عادت لوثيا وكارلوس إلى اللقاء بعد سنة ونصف السنة، عندما وقَّعا أوراق الطلاق الذي صار، قبل وقت قصير، شرعيًا في تشيلي. وكان الوقت لا يزال مبكرًا على إمكانيَّة إعلان لوثيا أنَّها قد شُفيت تمامًا من الداء، لكنَّها كانت قد استعادت قواها، وقد رمَّموا ثدييها. ونبت لها شعر أبيض، قرّرت أن تبقيه قصيرًا، غير مرتَّب، وبلونه الطبيعيّ باستثناء خصل متغطرسة صبغتها لها دانييلًا قبل سفرها إلى ميامي. جفل كارلوس عندما رآها في يوم الطلاق وقد نقص وزنها عشرة كيلوغرامات، وصار لها صدر صبيَّة متكوّر تحت قميص ذي فتحة عنق واسعة، وشعر يلمع متألِّقًا. لقد خُيِّل إلى لوثيا أيضًا أنَّه يبدو أكثر وسامة من أيِّ وقت مضى، وأحسَّت بومضة أسًى على الحبِّ الضائع، لكنَّها ومضة ما لبثت أن انطفأت على الفور. لم تكن لديها في الحقيقة

أيُّ مشاعر تجاهه، بل مجرَّد امتنان لكونه والد دانييلا. فكَّرت في أنَّه لا بأس في التسبُّب له ببعض الغضب، وأنَّ الأمر سيكون صحِّيًا، لكنَّها لم تستطع فعل ذلك. فمن الحبِّ المتأجِّج الذي شعرت به نحوه لسنوات طويلة، لم يبقَ أيّ بصيص من خيبة الأمل. لقد كان شفاؤها من الداء قاسيًا، لكنَّه شفاء تامّ مثلما هو الطلاق، وبعد سنوات قليلة من ذلك، في بروكلين، نادرًا ما ستتذكَّر هذه المرحلة من حياتها.

* * *

وصل خوليان إلى حياتها في أوائل العام ٢٠١٥، عندما كانت لوثيا قد استسلمت منذ سنوات لغياب الحبِّ، وكانت تظنُّ أنَّ تخيُّلاتها الرومانسيَّة قد جفَّت على أريكة العلاج الكيميائيّ. لقد أثبت لها خوليان أنَّ الفضول والشهوة موردان طبيعيَّان متجدِّدان. لو أنَّ لينا، أمّها، لا تزال حيَّة، لحذَّرت لوثيا من مسخرة غرور امرأة في مثل سنِّها، وربَّما ستكون محقَّة، لأنَّ فرص الحبِّ تأخذ بالتناقص مع كلِّ يوم يمرُّ بينما تتزايد فرص التحوُّل إلى مسخرة، ولكنَّها ليست محقَّة بالكامل، لأنَّ خوليان قد ظهر ليبقى عندما لم تكن تتوقَّع شيئًا من ذلك. وبالرَّغم من أنَّ هذا الحبَّ قد انتهى بالسرعة التي بدأ بها تقريبًا، فإنَّه أفادها في معرفة أنَّه ما زالت لديها جمرات داخليَّة قادرة على الاشتعال، وليس هنالك ما تندم عليه. فما عاشته واستمتعت به كان ممتعًا حقًّا.

أوَّل ما لاحظته في خوليان هو مظهره؛ فمع أنَّه لم يكن قبيحًا تمامًا، إلَّا أنَّه ضئيل الجاذبيَّة بحسب رأيها. فجميع عشَّاقها، وخصوصًا زوجها، كانوا وسيمين، ليس باختيارها، وإنَّما بالصدفة

المحض. كان خوليان أفضل دليل على عدم وجود أحكام مسبقة لديها ضدَّ الرجال القبيحين، مثلما أخبرت دانييلًا فيما بعد. كان يبدو للوهلة الأولى تشيليًا عاديًا، بمظهر سيِّئ، قليل الرشاقة، كما لو أنَّه يتحرَّك بملابس مستعارة، ببنطال مخمل مشوَّه وسترة صوفيَّة مُحاكة لجدٍّ عجوز. له بشرة كئيبة ضاربة إلى الصفرة كإسباني من الجنوب، مثل أسلافه، وشعر رماديّ، ولحية من اللون نفسه، ويدان ناعمتان كمن لم يستخدمهما في أيِّ عمل قطّ. ولكن تحت مظهره كرجل مهزوم، كان يوجد شخص ذو ذكاء استثنائيّ، وعاشق مندفع.

كانت القبلة الأولى وما تلاها في تلك الليلة كافيين لأن تستسلم لوثيا لنزوة شبابيَّة، كافأها خوليان بكلِّ ما لديه؛ لبعض الوقت على الأقلّ. وتلقَّت لوثيا خلال الشهور الأولى ملء يديها ما كانت تفتقده في زواجها. لقد جعلها هذا العشيق تشعر بأنَّها محبوبة ومرغوب فيها، وعادت معه إلى شباب مضطرب. قدَّر خوليان في البدء، حسّيتها ومزاحها أيضًا، ولكن سرعان ما أفزعه الالتزام العاطفيّ. صار ينسى المواعيد، ويصل متأخِّرًا أو يتَّصل في اللحظة الأخيرة معتذرًا. يتناول كأس نبيذ كبيرة ويغلبه النوم وهو في منتصف جملة أو بين مداعبتين. كان يشكو من قلَّة الوقت للقراءة، ومن الطريقة التي اختُزلت بها حياته الاجتماعيَّة، ويمتعض من الاهتمام الذي يوليه للوثيا. يظلّ عشيقًا حريصًا، يهتمّ بمنح اللذَّة أكثر من اهتمامه بتلقِّيها، ولكنَّها لاحظت تردُّده. لم يعد يستسلم حبًّا، صار يخرِّب العلاقة. وكانت لوثيا في تلك الأثناء قد تعلَّمت التعرُّف إلى خيبة الأمل الغراميَّة فور بدء ظهورها، وتتحمَّلها على أمل أن يتبدَّل شيء ما، مثلما فعلت خلال سنوات زواجها العشرين. وقد صارت لديها خبرة أكبر، ولم يعد لديها

ونت تضيّعه. أدركت أنَّ عليها أنْ تودّعه قبل أن يفعل خوليان ذلك، على الرَّغم من أنَّها ستشعر بحنين كبير إلى سخريَّته، وتلاعبه بالكلمات، وإلى متعة الاستيقاظ متعبة إلى جانبه وهي تعلم بأنَّه يكفي أن تهمس بكلمة واحدة أو القيام بمداعبة ساهية كي يعود إلى معانقتها. لقد كانت قطيعة بلا دراما، وظلَّا صديقين.

«قرَّرتُ أن أمنح نَفَسًا لقلبي المكسور» قالت لدانييلّا عبر الهاتف بنبرة لم تخرج ساخرة، مثلما أرادت لها، وإنَّما شاكية.

«يا للتكلُّف يا أمَّاه. القلب لا يُكسَر مثل بيضة. وحتى لو كان مثل بيضة، أليس من الأفضل كسره كي تنسكب منه المشاعر؟ إنَّه الثمن في مقابل عيش حياة جيِّدة»، ردَّت عليها ابنتها بتمادٍ لا رحمة فيه.

كانت لا تزال تداهم لوثيا، بعد شهور من ذلك، في بروكلين، بين حين وآخر، نفحاتُ حنين إلى خوليان، ولكنَّها لم تكن أكثر من حكَّة خفيفة في الجلد لا تسبِّب لها أيّ إزعاج. أيمكن الحصول على حبٍّ آخر؟ ليس في الولايات المتَّحدة، فكَّرتْ، فهي ليست من النوع الذي يجتذب الأميركيين، والدليل الأكبر يتمثَّل في عدم مبالاة ريتشارد بوماستير بها. لا يمكنها تخيُّل الإغواء بلا سخرية، ولكنَّ السخرية التشيليَّة غير قابلة للترجمة، وهي تبدو للأميركيين الشماليِّين، بكلِّ صراحة، مسيئة. ولها بالإنكليزيَّة معدَّل ذكاء الشمبانزي، على حدّ قول دانييلّا.

تبدَّى غمُّ قطيعتها مع خوليان على شكل تورُّم في الوركين. أمضت عدَّة شهور وهي تتناول مُسكِّنات وتمشي مثل بطَّة، ولكنَّها رفضت الذهاب إلى الطبيب، لأنَّ الداء سيختفي بكلِّ تأكيد حين تُشفى

من الغيظ. وهذا ما حدث. لقد وصلت إلى مطار نيويورك وهي تعرج.
كان ريتشارد بوماستير ينتظر الزميلة النشيطة والمَرِحَة التي تعرَّف إليها سابقًا، لكنَّه استقبل امرأة غريبة تنتعل حذاءً طبيًّا وتستند على عكّاز، وتصدر منها أصوات مُفصَّلة باب صدئة وهي تنهض عن كرسيٍّ ذي عجلات. ومع ذلك، رآها بعد أسابيع قليلة بلا عكّاز وبحذاء يُجاري الموضة. لم يكن في إمكانه أن يحزر أنَّ سبب الأعجوبة هو ظهور قصير لخوليان.

حضر خوليان إلى نيويورك لإلقاء محاضرة، في تشرين الأوَّل/أكتوبر، بعد شهر من استقرار لوثيا في القبو، واستطاعا أن يمضيا معًا يوم أحد ممتعًا. تناولا الفطور في مطعم «لِبان كوتيديا»، وقاما بنزهة في السنترال بارك، ببطء، لأنَّها كانت تجرّ قدميها؛ وذهبا، وكلٌّ منهما يمسك بيد الآخر، إلى استعراض موسيقيّ في برودوي، ثم تناولا العشاء بعد ذلك في مطعم إيطاليّ صغير مع زجاجة من أفضل نبيذ تشيانتي، وشربا نخب الصداقة. كان التواطؤ لا يزال طازجًا مثلما كان في اليوم الأوَّل، فاستعادا من دون مشقَّة لغة الرموز والإيحاءات مزدوجة المعاني، والتي لا يفهمها أحد سواهما. اعتذر خوليان لأنَّه تسبَّب لها بمعاناة، فردَّت عليه بأنَّها لا تكاد تتذكَّر شيئًا من ذلك. وفي الصباح، عندما التقيا قبالة فنجانَي قهوتهما الكبيرين مع الحليب وقطع خبزٍ طازج، استثار بابلو حركة تودُّد احتفاليَّة، رغبةً في شمّ شعرها، وترتيبِ ياقة سترتها واقترح عليها لها أن تشتري بنطالًا على مقاسها. لا شيء أكثر. وهناك، في المطعم الإيطالي، تركتْ عكّازها.

ريتشارد ولوثيا

شمالي نيويورك

كان ريتشارد ولوثيا متعبَين ومتَّسخَين بالوحل والثلج، عندما اجتمعا مع إيفيلين في الساعة الخامسة مساء، في البيت الريفيّ، بعد أن أغرقا السيَّارة فى البحيرة، بينما راح ظلام الشتاء يُخيِّم باكرًا، متلوِّنًا ببريق القمر. كانت عودتهما أبطأ ممَّا قدَّراه لأنَّ السوبارو تعثَّرت طويلًا، وعلقت في كومة من الثلج. فكان عليهما اللجوء مجدَّدًا إلى استخدام الرفش لإزاحة الثلج من حول العجلات، ثم انتزعا بعد ذلك بعض أغصان الصنوبر ووضعاها على الأرض. أدار ريتشارد المحرِّك للسير إلى الخلف، وتحرَّكت السيَّارة مع المحاولة الثانية مطلقة حشرجة. والتصقت العجلات بالأغصان وتمكَّنا من الخروج من تلك الورطة.

داهمهما في أثناء ذلك الليلُ، وكانت الآثار غير واضحة على الدرب، فكان عليهما التقدُّم مخمِّنين الطريق. فقدا الاتِّجاه مرَّتين، ولحسن الحظِّ أنَّ إيفيلين لم تنصَع لتوجيهاتهما، ووضعت مصباح كيروسين عند مدخل البيت، فكان ضوؤه المتذبذب وسيلةً تُرشدهما في

المقطع الأخير من الطريق.

بدا لهما داخل البيت مضيافًا ومريحًا مثل عشّ بعد تلك المغامرة، على الرّغم من أنَّ المدفأتين لم تكونا قادرتين على التخفيف كثيرًا من البرد الذي يتسرَّب من شقوق ألواح الخشب القديمة. كان ريتشارد يعرف أنَّه المسؤول عن الوضع السيِّئ الذى وصل إليه ذلك البيت البدائيّ؛ ففي السنتين اللتين ظلَّ خلالهما مغلقًا، أصابه من التردِّي ما يُعادل حصيلة قرن من الإهمال. فقرَّر أن يعود إليه في كلّ موسم لتهويته وإجراء إصلاحات فيه، كيلا يتَّهمه هوراسيو بالتقصير حين يعود. التقصير! لهذه الكلمة القدرةُ على زعزعة كيانه.

قرَّروا استبعاد الخطَّة الأصليَّة بالذهاب إلى فندق، بسبب كثافة الثلج وشدَّة الظلام، كما بدا لهم أنَّ من غير المناسب التجوُّلَ أكثر ممَّا هو ضروريّ ومعهم كاترين براون في صندوق السوبارو. أعدُّوا العدَّة لقضاء ليل ذلك الاثنين متدثِّرين بأفضل ما يمكن، ومطمئنين بشأن الجثمان الذي سيظلّ متجمِّدًا. لقد مرُّوا بتوتُّرات كثيرة في ذلك اليوم، فاختاروا تأجيل مشكلة كاترين، والتسلية خلال المساء بلعبة مونوبولي تركها هناك أبناء هوراسيو. علّم ريتشارد المرأتين قواعد اللعبة، فلم تستطع إيفيلين استيعاب مبدأ اقتناء ممتلكات وبيعها، ورأت في احتكار الموارد، والسيطرة على السوق ودفع المنافسين إلى الإفلاس، تصرُّفاتٍ غيرَ مفهومة بالمطلق. وتبيَّن أنَّ لوثيا كلاعبة أسوأ من إيفيلين، وقد خسرتا، كلتاهما، بطريقة بائسة جدًّا، وصار ريتشارد في نهاية اللعبة مليونيرًا، ولكنَّه كان انتصارًا بائسًا، جعله يشعر بأنَّه قد ارتكب عمليَّة احتيال.

تدبَّروا الأمر ليعدُّوا عشاءً من بقايا ما سمُّوه «طعام الحمار».

ملأوا المدفأتين بالوقود، ورتَّبوا وضع أكياس النوم على الأسرَّة الثلاثة في حجرة الأطفال، سينامون جميعهم في غرفة واحدة كي يستغلُّوا المدفأتين. لم تكن لديهم ملاءات، وكانت الأغطية تعبق برائحة الرطوبة. سجَّل ريتشارد ملاحظة أنَّ عليه في الزيارة القادمة أنْ يستبدل أغطية الأسرَّة التي يمكن أن تكون فيها حشرات البقّ وربَّما أعشاش نوارض أيضًا. خلعوا أحذيتهم واستلقوا في الفراش بملابسهم.

ستكون ليلة طويلة وباردة. نامت إيڤيلين فورًا وكذلك الكلب مارسيلو، بينما ظلَّت لوثيا تتبادل الحديث مع ريتشارد إلى ما بعد منتصف الليل. لديهما الكثير ليقولاه في هذه المرحلة الحسَّاسة من تلمُّس الطريق إلى ما هو حميميّ. تبادلا رواية الأسرار، وكلٌّ منهما يتخيَّل ملامح الآخر في الظلمة، بينما هو حبيس شرنقته، في السريرين المتجاورين المتقاربين إلى حدٍّ يمكن معه لأيّ حركة خفيفة أن تكون كافية للتوصُّل إلى تبادل قبلات.

الحبّ، الحبّ. حتى يوم أمس كان ريتشارد يمضي محاولًا اختلاقَ حوارات خرقاء مع لوثيا، وها هي تتوارد الآن الأشعارُ العاطفيَّة التي ما كان ليتجرَّأ قطّ على كتابتها. يقول لها، مثلًا، كيف يحبّها، وكيف يحمد الله بسبب ظهورها في حياته. لقد وصلت خفيفة من بعيد، تحملها ريح الحظّ الطيِّب. وها هي أمامه، حاضرة وقريبة في الجليد والثلج، مع وعد في عينيها العربيَّتين. وجدته لوثيا مضرَّجًا بجراح غير مرئيَّة، وكان هو بدوره يحدس بوضوح الجراح المرهفة التي وسمتها بها الحياة. «الحبّ كان يُمنَح لي دومًا بصورة وسيطيَّة»، كانت قد اعترفت له في إحدى المناسبات. لقد انتهى ذلك. سوف يحبّها بلا

حدود، بالمطلق. يرغب في حمايتها وإسعادها كيلا تذهب أبدًا. سيمضيان معًا هذا الشتاء، والربيع، والصيف، وإلى الأبد، وسيتواطأ معها، ويتقاسم ما هو أشدُّ خصوصيَّة وحميميَّة وسرِّيَّة، ويضمّها إلى حياته وروحه. الحقيقة أنَّه يعرف القليل جدًا عن لوثيا وأقلّ من ذاك عن نفسه، ولكن لا أهمّيَّة لشيء من ذلك إذا ما استجابت هي لحبِّه، وسيكون لديهما في هذه الحالة ما تبقَّى من الحياة ليكتشفا نفسيهما معًا، وبالتناوب، وليكبرا ويهرما معًا.

لم يتصوَّر قطّ أنَّ حبًّا جارفًا، كحبِّه ذاك الذي عاشه مع آنيتا في شبابه، يمكن أن يداهمه من جديد. لم يعد الرجلَ الذي أحبّ آنيتا. صار يشعر كما لو أنَّ حراشف تمساح قد نَمَتْ له، تظهر مرئيَّة في المرآة، ثقيلة كدرع. أحسَّ بالخجل لأنَّه عاش محتميًا من خيبة الأمل، من الهجران والخيانة، خائفًا من المعاناة مثلما جعلته آنيتًا يُعاني، مرتعبًا من الحياة نفسها، مغلقًا مغامرة الحبِّ المهيبة. «لا أريد أن أواصل في هذا النوع من نصف الحياة، لا أريد أن أكون هذا الرجل الجبان، أريدك أن تحبِّيني يا لوثيا»، اعترف لها في تلك الليلة الاستثنائيَّة.

* * *

عندما حضر ريتشارد بوماستير عام ١٩٩٢ من أجل وظيفته الجديدة في جامعة نيويورك. فوجئ هوراسيو آمادور ـ كاسترو بالتبدُّل الذي طرأ على مظهره. فقبل أيَّام كان قد استقبل في المطار رجلًا مخمورًا، مهملَ الهندام وغير متماسك، وقد شعر بالندم لأنَّه أصرَّ على المجيء به إلى كلِّيَّته. كان يقدِّره عندما كانا طالبين وشابَّين مهنيِّين،

ولكن سنوات قد مضت على ذلك. وكان ريتشارد، في تلك الأثناء، قد انحدر كثيرًا جدًّا نحو الأسفل. وجرح موت ابنيه روحَه، مثلما حدث لآنيتًا. وقد خمَّن أنَّهما سينفصلان، فموت ابن يدمِّر علاقة الزوجين. وقلَّة هم من يتجاوزون مثل هذه التجربة. كما أنَّهما فقدا ابنين وليس ابنًا واحدًا. يُضاف إلى هذه المأساة، أنَّ ريتشارد هو من تسبَّب بموت ابنته بيبي. كان من المحال عليه أن يتصوَّر، مجرَّدَ تصوُّر، ذلك الإحساس بالذنب؛ ولو أنَّ شيئًا مماثلًا حدث لأحد أبنائه فإنَّه سيفضِّل الموت. خشي ألَّا يتمكَّن صديقه من تولِّي منصبه الأكاديميّ. لكن ريتشارد وصل إلى الجامعة بلا أيِّ شائبة، حليقَ الذقن، وبشعر مقصوص للتوّ، وببدلة رماديَّة صيفيَّة مع ربطة عنق مناسبة. كانت لأنفاسه رائحةُ كحول، لكن مفعول الشراب لا يُلحَظ في سلوكه أو أفكاره.

استقرَّ الزوجان في إحدى الشقق المخصَّصة لأعضاء الكلِّيَّة، في واشنطن سكوير بارك، الطابق الحادي عشر. كانت الشقَّة صغيرة، لكنَّها مناسبة. الأثاث عمليّ، والوضع ملائم جدًّا، على بعد عشر دقائق مشيًا عن مكتب ريتشارد. اجتازت آنيتًا عند الوصول العتبةَ بالمزاج الآليّ نفسه الذي كانت فيه منذ شهور، وجلست قبالة النافذة لتنظر إلى قطعة ضئيلة من السماء بين الأبنية الشاهقة المحيطة، بينما راح زوجها يُفرغ الأمتعة، ويفتح الحزم، ويُعدّ قائمة المؤن كي يذهب للشراء. كان هذا هو الطابع الذي وسم تعايشهما القصير في نيويورك.

- لقد نبَّهوني يا لوثيا. نبَّهتني أسرة آنيتًا، ونبَّهني طبيبها النفسانيّ في البرازيل. حالتها شديدة الهشاشة. كيف أمكن لي عدم الانصياع لرأيهم؟ لقد دمَّرها موت الطفلين.

ـ إنّه حادث يا ريتشارد.

ـ لا، كنتُ قد أمضيت الليل في الشرب والعربدة. ووصلتُ دائخًا من الجنس والكوكايين والكحول. لم يكن حادثًا، كانت جريمة. وآنيتًا تعرف ذلك. صارت تكرهني. لم تعد تسمح لي بلمسها. عندما جئت بها إلى نيويورك، فصلتها عن أسرتها، عن بلادها، وكانت هنا منقادة، لا تعرف أحدًا ولا تتكلّم اللغة، نائية عنّي تمامًا، مع أنّني الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتها. لقد خذلتها بكلّ المعاني. لم أفكّر فيها، وإنّما في نفسي فقط. كنت أريد مغادرة البرازيل، والهروبَ من آل فارينها، وبدءَ حياة مهنيّة أجّلتها طويلًا. السنّ التي كنت فيها آنذاك كانت تؤهّلني لأن أكون أستاذًا مشاركًا. لقد بدأتُ متأخّرًا جدًّا وقرّرتُ أن أعوّض ما فاتني، أن أَدْرُسَ وأُدَرِّس، وأن أنشر بصورة خاصّة. لقد علمت منذ البدء بأنّني قد وقعت في المكان المناسب لي تمامًا، ولكنّني بينما كنت أتنقّل مختالًا في قاعات الجامعة وأروقتها، كانت آنيتًا تمضي اليوم كلّه بصمت قبالة النافذة.

«أكانت تتلقّى رعاية نفسيّة؟» سألته لوثيا.

ـ كان ذلك متوفّرًا، وعرضتْ عليها زوجة هوراسيو أن ترافقها وتساعدها في إجراءات التأمين البيروقراطيّة، ولكن آنيتًا رفضت.

ـ وماذا فعلتَ أنت؟

ـ لا شيء. واصلتُ الاهتمام بما يخصُّني، بل إنّني صرت ألعب الإسكواش للحفاظ على لياقتي، بينما ظلّت آنيتًا معتكفة في الشقّة. لا أدري ما الذي كانت تفعله طوال اليوم. أعتقد أنّها كانت تنام. حتى إنّها لم تكن تردّ على الهاتف. كان أبي يذهب لزيارتها، يحمل إليها

حلوَى، ويحاول الخروج برفقتها للتنزُّه، ولكنَّها لم تكن تنظر إليه. أظن أنها كانت تكرهه لأنَّه أبي. وجئتُ مع هوراسيو في نهاية أحد الأسابيع، إلى هذا البيت الريفيِّ نفسه، وتركتها وحدها في نيويورك.

«وكنتَ تشرب كثيرًا في تلك المرحلة» استنتجت لوثيا.

«كثيرًا جدًّا. كنت أمضي الأماسي في البارات. أخبِّئ زجاجة شراب في درج مكتبي. لم يكن هناك من يرتاب في أنَّ ما في كأسي هو جنّ أو فودكا وليس ماءً. وكنت أمصّ أقراصًا بطعم النعناع من أجل النَّفَس. كنت أظنّ أنَّه لا يظهر عليَّ أيّ شيء، وأنَّ لي قدرة بغل على تحمُّل الشراب. جميع الكحوليّين يخدعون أنفسهم بالطريقة نفسها يا لوثيا. كان الوقت خريفًا، وكانت الساحة الصغيرة قبالة البناية مغطَّاة بأوراق صفراء...» قال ريتشارد بهمس، وبصوت متقطِّع.

ـ وما الذي حدث يا ريتشارد؟

ـ جاء شرطيّ لإخبارنا، لأنَّه لم يكن هنالك هاتف في البيت الريفيّ.

انتظرت لوثيا طويلًا من دون أن تقاطع بكاء ريتشارد المخنوق، ومن دون أن تُخرج يدها من كيس النوم لتلمسه، ومن دون أن تحاول مواساته، لأنَّها أدركت أنَّ لا وجود لمواساة نافعة لهذه الذاكرة. كانت تعرف الخطوط العريضة لما حدث لآنيتًا، من خلال همسات الزملاء في الجامعة وتعليقاتهم، وتكهَّنت بأنَّها المرَّة الأولى التي يتكلَّم فيها ريتشارد على هذا الأمر. تأثَّرت بعمق لكونها من تلقَّت تلك المصارحة المؤثِّرة، ولأنَّها الشاهد على ذلك البكاء المُطَهِّر. كانت تعرف القدرة العلاجيَّة الغريبة للكلمات، ولتقاسم الألم والتأكُّد من أنَّ آخرين لديهم

نصيبهم منه، لأنَّها جرَّبت ذلك عندما كتبت وتكلَّمت بشأن مصير أخيها إنريكي، فالحيوات تتشابه والمشاعر هي نفسها.

لقد غامرتْ مع ريتشارد إلى ما هو أبعد من الميدان المعروف والآمن، مضطرَّين كليهما، بسبب عاثرة الحظّ كاترين براون، وبينما هما يفعلان ذلك، راحا يكشفان حقيقتيهما. وفي تشكُّكهما كانا يبدآن في حميميَّةٍ حقيقيَّة. أغمضت لونيا عينيها وحاولت متابعة ريتشارد بذهنها. كرَّست طاقتها لاجتياز السنتيمترات القليلة التي تفصل بينهما وتدثُّره بعطفها، مثلما فعلت مرَّات كثيرة مع أمّها في الأسابيع الأخيرة من احتضارها، لتخفيف غمّ والدتها وغمّها هي نفسها.

في الليلة السابقة، عندما كانا في النُزل، اندسَّت في سرير ريتشارد لتتحرَّى كيف تشعر وهي إلى جانبه. كانت في حاجة إلى ملامسته، شمِّه، الإحساس بطاقتِه. فعند النوم مع أحدهم، بحسب رأي دانييلًا، تتوافق الطاقتان، ويمكن لذلك أن يكون إغناءً لكليهما، أو أن يكون سلبيًّا جدًّا لأضعفِهما. «الحسن الحظّ أنَّك ما كنتِ تنامين في الفراش نفسه مع أبي، لأنَّ هالتك كانت ستحترق وتُعذَّب» استنتجت دانييلًا. أمَّا النوم مع ريتشارد، على الرَّغم من حدوثه عندما كان مريضًا، وفي سرير تجوبه البراغيث، فقد أراحها حتى أعمق أعماقها. أيقنت أنَّ هذا الرجل لها، كانت قد استشفَّت ذلك منذ بعض الوقت، ربَّما قبل وصولها إلى نيويورك، ولهذا السبب وافقت على دعوته، ولكنَّها شُلَّت بسبب برودته الظاهريَّة. لقد كان ريتشارد عقدة تناقضات، وسيكون عاجزًا عن الإقدام على الخطوة الأولى. لا بدَّ لها هي نفسها من الانقضاض عليه. من الممكن أن يصدَّها، ولكن ذلك لن يكون أمرًا خطيرًا، فقد تجاوزت آلامًا أكبر؛ والأمر جدير

بالمحاولة. لم تبق لها سوى بضع سنوات في الحياة، وربَّما ستتمكّن من إقناعة بأن يستمتعا بها معًا. هنالك ظلال سرطان جوَّال تحوم حولها؛ وليس لديها ما تعتمد عليه سوى حضوره الثمين والعابر. تريد ان تستغلّ كلَّ يوم، لأنَّ أيَّامها معدودة، وهي أقلّ بالتأكيد ممَّا تأمله. لا وقت لديها لإضاعته.

ـ سقطت إلى جانب منحوتة بيكاسو ـ قال ريتشارد ـ. في أوج الظهيرة رآها الناس تقف بكامل قامتها عند النافذة؛ رأوها تقفز، رأوها ترتطم ببلاط الساحة بين الأوراق اليابسة. أنا قتلتُ آنيتًا، مثلما قتلت بيبي. إنَّني مذنب لأنِّي سكِّير، لأنِّي مهمِل، لأنَّني أحببتهما أقلّ كثيرًا ممَّا تستحقَّان.

ـ لقد حان الوقت كي تسامح نفسك يا ريتشارد، مضى زمن طويل وأنت تكفِّر عن هذه الخطيئة.

ـ أكثر من خمسة وعشرين عامًا وما زلت أشعر بقبلتي الأخيرة لآنيتًا قَبل أن أتركها وحيدة مع همِّها؛ قُبلة لم تكد تلمسها، لأنَّها أزاحت وجهها.

ـ إنَّها سنوات كثيرة بروحٍ شتائيَّة وقلب مغلق يا ريتشارد. هذه لبست حياة. والرجل الحذر في هذه السنوات كلّها ليس أنت. ففي هذه الأيَّام الأخيرة، عندما خرجتَ من طمأنينتك التي كنت مستقرًّا فيها، تمكَّنتَ من اكتشاف مَن أنت حقًّا. قد يكون هنالك ألم في هذا، ولكن أيّ شيء أفضل من أن تكون مخدَّرًا.

في ممارسة التأمُّل التي أبقته متَّزنًا وقنوعًا لسنوات، حاول ريتشارد أن يتعلَّم أسس الزن؛ أن يكون مهتمًّا باللحظة الراهنة؛ أن يبدأ

من جديد مع كلّ تنفُّس، ولكن مهارة الوصول إلى الصفاء الذهنيّ كانت تجافيه. لم تكن حياته أحداث لحظات منفصلة بعضها عن بعض، بل قصَّة متشابكة، صنعة نسيج متبدِّلة، فوضويَّة، غير متقنة، راحت تُنسَج يومًا فيومًا. لم يكن حاضرهُ شاشة نظيفة، بل هو مترع بصور، بأحلام، بذكريات، بخجل، بذنْب، بوحدة، بألم، بواقعه البغيض، كما قال للوثيا هامسًا تلك الليلة.

ـ ولكنَّك تأتين أنت وتمنحينني إذنًا لأحزن على خسائري، وأضحك من خراقتي، وأبكي مثل طفل مخاطيّ.

ـ لقد حان الوقت يا ريتشارد. يكفيك تمرُّغًا في أحزان الماضي. العلاج الوحيد لكلّ هذه النكبات هو الحبّ. ليست الجاذبيَّة هي التي تُبقي الكون متوازنًا، وإنَّما قوَّة الحبّ الالتصاقيَّة.

ـ كيف أمكن لي أن أعيش كلّ هذه السنوات وحيدًا وبلا تواصل؟ إنَّني أتساءل منذ عدَّة أيَّام.

«لشدَّة ما أنت أبلَه. انظر إلى الطريقة التي تضيِّع بها الوقت والحياة! هل انتبهت إلى أنَّني أحبّك. لا؟» وضحكتْ.

ـ لا أفهم كيف يمكن لك أن تحبِّيني يا لوثيا. إنَّني شخص عاديّ، سوف تضجرين معي. كما أنَّني أحمل على كاهلي الثقل المُنهك لأخطائي وإهمالي، إنَّه ثقل كيس أحجار.

ـ ليست لديَّ أيّ مشكلة. لديَّ عضلات تكفي لحمل أيّ كيس على كاهلي، والإلقاء به إلى البحيرة المتجمِّدة، وجعله يختفي إلى الأبد مع اللكزس.

ـ لماذا عشتُ يا لوثيا؟ قبل أن أموت أريد أن أتحرَّى عن سبب

وجودي في هذا العالم. ما تقولينه صحيح، لقد كنتُ مخدَّرًا لوقت طويل، لم أكن أعرف من أين أبدأ لأحيا من جديد.

ـ إذا ما سمحت لي، فسوف أساعدك.

ـ كيف؟

ـ الأمر يبدأ بالجسد. أقترح عليك أن نضمّ كيسَيْ نومنا، أحدهما إلى الآخر، وننام متعانقين. أنا في حاجة إلى ذلك بقدر ما أنت في حاجة إليه يا ريتشارد. أريد أن تعانقني، أن أشعر بالأمان والدفء. إلى متى سنظلّ نمضي متلمِّسين في العماء، خائفين، ينتظر كلٌ منَّا أن يُقدم الآخر على الخطوة الأولى؟ لقد صرنا عجوزين من أجل عمل هذا، ولكنَّنا ربَّما ما زلنا شابَّين من أجل الحبِّ.

ـ أانتِ متأكِّدة يا لوثيا؟ لا أستطيع تحمُّل أن. . .

ـ متأكِّدة؟ لستُ متأكِّدة من أيِّ شيء يا ريتشارد! ـ قاطعته ـ ولكنَّنا نستطيع المحاولة. ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لنا؟ المعاناة؟ أن نعجز عن عمل ذلك؟

ـ لا حاجة إلى أن نضع نفسينا في هذا الموقف، لا يمكنني المقاومة.

ـ لقد أخفتُكَ. . . متأسِّفة.

ـ لا! بالعكس، اعذريني لأنِّي لم أُبادر أنا وأخبرك أوَّلًا بما أشعر به. إنَّه أمر جديد، غير متوقَّع، لا أدري ماذا أفعل، ولكنَّك أقوى وأوضح منِّي بكثير. تعالَي، انتقلي إلى هذا السرير، ولنمارسِ الحبّ.

ـ إيڤيلين على بُعد نصف متر عنّا، وأنا فضائحيَّة. علينا أن نؤجِّل الأمر، لكنَّنا نستطيع أن نتكوَّر أحدنا على الآخر.

ـ أتعلمين بأنَّني أمضي الوقت في التكلُّم إليك سرًّا كمن به مسٌّ من الجنون؟ وأنَّني في كلِّ لحظة أتخيَّلك بين ذراعَيّ؟ إنَّني أشتهيكِ منذ زمن طويل...

«لا أصدِّقك أبدًا. أنت لم تنتبه إليّ إلّا في الليلة الماضية، عندما اندسستُ بكلِّ جرأة في فراشك. قبل ذلك كنت تتجاهلني»، قالت ضاحكة.

«يسعدني جدًّا أنَّك قد فعلتِ ذلك أيَّتها التشيليَّة الجريئة»، قال لها وهو يجتاز المسافة القصيرة الفاصلة بينهما ويقبِّلها.

جمعا كيسَي النوم على أحد السريرين بفتح سحَّابيهما الجانبيين، وتعانقا وهما بملابسهما، مثلما كانا، بيأس غير متوقَّع. هذا هو كلّ ما سيتذكَّره ريتشارد بوضوح فيما بعد. أمَّا بقيَّة تلك الليلة السحريَّة فستُحفظ إلى الأبد في غشاوة متقنة. لكنَّ لوثيا أكَّدت له، في المقابل، أنَّها تتذكَّر كلّ شيء بأدقِّ التفاصيل. وكانت تضحك في الأيَّام والسنوات التالية، وهي تروي ما حدث قليلًا قليلًا، برواية مختلفة دومًا، وفي كلِّ مرَّة بجرأة أكثر تماديًا، بل غير معقولة، لأنَّه لا يمكن لهما أن يكونا قد قاما بكلِّ تلك الحركات الأكروباتيَّة، مثلما تؤكِّد هي، من دون أن يوقظا إيڤيلين. «هذا ما جرى، حتى لو لم تصدِّقه. ويمكن أن تكون إيڤيلين قد استيقظت، وتظاهرت بأنَّها نائمة بينما هي تتجسَّس علينا»، هذا ما كانت تؤكِّده. وافترض ريتشارد أن يكونا قد تبادلا الكثير من القبلات، ولوقت طويل، وأنَّهما راحا يتخلَّصان من

ملابسهما متشابكين في كيسي النوم الضيِّقين، وبدأ كلٌ منهما يستكشف الآخر كيفما استطاعا، كلاهما، من دون إحداث أدنى ضجَّة، وبتكتُّم وإثارة مثل يافعين يمارسان الحبّ سرًا في ركن مظلم. إنَّه يتذكَّر، أجل، أنَّها امتطته، وأنَّه استطاع أن يجوبها بكلتا يديه، متفاجئًا بتلك البشرة الناعمة والساخنة، وبذلك الجسد الذي لا يكاد يراه على ضوء لهب الشمعة المرتعش، وهو جسد أشد نحولًا ووداعة وفتوَّة ممَّا يبدو عليه وهي في ملابسها. «نهدا مغنِّية الكورال هذان لي يا ريتشارد، لقد كلَّفاني غاليًا جدًّا»، همست لوثيا في أذنه، مختنقة بالضحك. وكان ذلك هو أفضل ما فيها، تلك الضحكة الشبيهة بالماء الصافي، والذي تغسله من الداخل وتحمل الشكوك أبعد فأبعد.

* * *

استيقظت لوثيا وكذلك ريتشارد في يوم الثلاثاء ذاك مع ضوء الفجر الخجول، في دفء كيسَيْ النوم، حيث ظلَّا مدفونين طوال الليل في تشابك أذرعهما وسيقانهما، وكانا متلاصقين بطريقة لا يُعرف معها أين يبدأ أحدهما وأين ينتهي الآخر، يتنفَّسان بإيقاع منتظم، وبراحة تامَّة، في الحبِّ الذي بدآ باكتشافه. القناعات والدفاعات التي كانت تسندهما حتى ذلك الحين انهارت أمام روعة الحميميَّة الحقيقيَّة. ما إن أطلَّا برأسيهما حتى صفعتهما برودة البيت الريفيّ. كانت المدفأتان قد انطفأتا. وكان ريتشارد هو أوَّل من استجمع شجاعته لينفصل عن جسد لوثيا ويواجه النهار الجديد. تأكَّد من أنَّ إيفيلين والكلب لا يزالان نائمين، وقبل أن ينهض استغلَّ تلك الدقائق لتقبيل لوثيا التي كانت تخرخر إلى جانبه. ارتدى ثيابه بعد ذلك، ثم ملأ المدفأتين بالوقود، ووضع ماء لتسخينه على الموقد،

وأعدّ شايًا وحمله إلى المرأتين اللتين شربتاه متكئتين، بينما راح هو يُصفِّر لا أخرج مارسيلو للتهوية.

بدا اليوم مشرقًا، وتحوَّلت العاصفة إلى ذكرى سيِّئة. كان الثلج قد غطَّى الدنيا بما يشبه الكريما البيضاء، والهواءُ الجليدي يجلب معه رائحة غاردينيا مستحيلة. انجلت السماء أخيرًا مع طلوع الشمس، مكتسبة لون زرقة أزهار أذن الفأر. «يوم جميل من أجل مأتم كاترين»، دمدم ريتشارد. كان سعيدًا، ومفعمًا بالحيويَّة، مثل جرو. لقد كانت هذه السعادة جديدة، لا اسم لها. يستطلعها بحذر، يلمسها قليلًا ويتراجع متلمِّسًا ميدان قلبه البكر. أتراه تخيَّل مصارحات منتصف الليل. وعيني لوثيا السوداوين القريبتين من عينيه؟ ربَّما يكون قد اختلق جسدها بين يديه، والشفاه المتلاصقة، واللذَّةَ والوَلَه والإنهاك في الفراش الزوجي المكوَّن من كيسي نوم. كانا متعانقين، وهذا لا شكَّ لديه فيه، لأنَّه هكذا فقط استطاع أن يلتقط أنفاسها الهاجعة، ودفأها المتحدِّي، وصورَ أحلامها. تساءل من جديد إذا ما كان هذا حبًّا، فلماذا هو مختلف عن حبِّ آنيتًا الحارق كالجمر. كان هذا الشعور أشبه برمل ساخن على شاطئ تحت الشمس. أتكون هذه المتعة المرهفة والصائبة جوهر الحبّ الناضج؟ سيتحرَّى عن الأمر، هنالك وقت من أجل ذلك. رجع إلى البيت الريفيّ حاملًا مارسيلو بين ذراعيه وهو يصفِّر ويصفِّر.

تقلَّصت المؤن إلى بعض الفضلات المثيرة للشفقة، فاقترح ريتشارد أن يذهبوا إلى أقرب قرية لتناول الفطور، ومواصلة الرحلة من هناك إلى رينيبيك. لم يعد يتذكَّر القرحة. أوضحت لهما لوثيا أنَّ لدى معهد أوميغا موظَّفي صيانة خلال أيَّام الأسبوع، ولكن قد يحالفهم

الحظ، ولا يكون هناك أحد في يوم الثلاثاء هذا بسبب سوء الأحوال الجوّيّة في الفترة الأخيرة. وسيكون الطريق خاويًا وسيجتازونه خلال ثلاث ساعات أو أربع. ليسوا مستعجلين في الوصول. خرجت لوثيا وإيڤلين تجرّان جسديهما من كيسي نومهما، وهما تحتجّان على البرد، وساعدنا ريتشارد على إعادة ترتيب البيت الريفيّ وإغلاقه.

إيفيلين، ريتشارد، لوثيا

رينيبيك

أخبر ريتشارد بوماستير المرأتين، وهم في سيَّارة السوبارو، من دون تدفئة، وبنافذتين نصف مفتوحتين، ومتدثِّرين بملابس سميكة مثل مستكشفي القطب الشماليّ، بأنَّه قبل بضعة شهور، دعا خبيرين بمسألة تهريب عمَّال مجهولي الهويَّة، إلى إلقاء محاضرة في كلِّيَّته. وهذه هي التجارة التي يعمل فيها فرانك ليرُوي وإيڤان دانيسكو، بحسب ما شرحت لهما إيڤيلين. لا شيء جديدًا، قال ريتشارد، فمسألة العرض والطلب موجودة منذ إلغاء العبوديَّة رسميًّا، ولكن هذه التجارة لم تكن مربحة قطّ مثلما هي الآن؛ إنَّها منجم ذهب لا يعادله إلَّا تجارة المخدَّرات والسلاح. فكلَّما كانت القوانين أشدَّ صرامة والرقابة الحدوديَّة أشدَّ ضبطًا، يكون التنظيم أكثر فاعليَّة وقسوة، وتكون أرباح الوكلاء أكبر. والوكلاء هي التسمية التي تُطلق على المهرِّبين. ويتوقَّع ريتشارد أنَّ فرانك ليرُوي يتولَّى تنسيق التواصل بين المهرِّبين وزبائن من الولايات المتَّحدة. فالأشخاص الذين مثله لا يلوِّثون أيديهم، ولا يعرفون الوجوه والقصص للمهاجرين الذين ينتهي بهم المطاف للعمل

عبيدًا في الزراعة والورش والصناعة والمواخير. إنّهم بالنسبة إليه أرقام؛ حمولة مجهولة لا بدَّ من شحنها، وأقلّ قيمة من المواشي.

يحافظ ليرُوي على مظهر رجل أعمال محترم كواجهة. ويقوم وسط جادَّة ليكسينغتون أفينو، كما أخبرتهما إيفيلين، مكتبُه في منهاتن، ومن هناك يُدير أعماله مع زبائن مستعدِّين لاستخدام عبيد، ويعقد صداقات مع سياسيِّين وسلطات متواطئة، ويغسل أموالًا ويحلّ المشاكل القانونيَّة التي تواجهه. ومثلما حصل على بطاقة قبليَّة لإيفيلين أورتيغا، يستطيع الحصول على وثائق هويَّة شخصيَّة مزيَّفة بالسعر المناسب، ولكن ضحايا الإتجار بالبشر لا يحتاجون إلى الوثائق، فهم غير موجودين تحت الرادار. إنَّهم مجهولون، صامتون، مغيَّبون في ظلام عالم بلا قانون. لا بدَّ من أنَّ عمولته عالية، ولكن من يحرّكون شحنات على مستوى كبير يدفعون تلك العمولة ليتحرَّكوا بأمان.

«أتظنّين أنَّ فرانك ليرُوي يحاول حقًّا قتل زوجته وابنه، مثلما قالت لك شيريل؟ أم أنَّه مجرَّد تهديد؟» سأل ريتشارد إيفيلين.

- السيِّدة تخاف منه. تعتقد أنَّه لن يتورَّع عن حقن فرانكي بجرعة زائدة من الأنسولين أو خنقه.

«لا بدَّ من أن يكون هذا الرجل مسخًا إذا كانت امرأته تفكّر فيه هذا التفكير!» صاحت لوثيا.

- وهي تعتقد أنَّ الآنسة كاترين تفكّر في مساعدته.

- أيبدو لك هذا ممكنًا يا إيفيلين؟

- لا.

«أيّ مسوغ يمكن أن يدفع فرانك ليرُوي إلى قتل كاترين؟» سأل ريتشارد.

«أن تكون كاترين قد تحرَّت بعض الأشياء عنه، وحاولت ابتزازه...» توقَّعت لوثيا.

«لقد كانت الآنسة حبلى في الشهر الثالث»، قاطعتهما إيفيلين.

ـ ما هذا! إنَّها مفاجأة رهيبة يا إيفيلين. لماذا لم تخبرينا بهذا من قبل؟

ـ أنا أحاول عدم نقل الكلام والتقوُّلات.

ـ أكانت حبلى من ليرُوي؟

ـ أجل. هذا ما قالته لي الآنسة كاترين. ولم تكن السيِّدة ليرُوي تعرف ذلك.

«يمكن أن يكون فرانك ليرُوي قد قتلها لأنَّها كانت تضغط عليه، مع أنَّ هذا المبرِّر يبدو ضعيفًا جدًّا. ربَّما كان حادثًا...» ألمحت لوثيا.

ـ لا بدَّ من أنَّ موتها قد حدث يوم الخميس ليلًا أو يوم الجمعة صباحًا، قبل ذهابه إلى فلوريدا ـ قال ريتشارد ـ. هذا يعني أنَّ كاترين ماتت منذ أربعة أيَّام. ولم يظهر ذلك بسبب انخفاض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر...

* * *

وصلوا إلى معهد أوميغا عند الساعة الثانية بعد الظهر تقريبًا. كانت لوثيا قد وصفت لهم طبيعة تفيض بالحيويَّة، وغابة شجيرات

منوبريَّة وأشجار معمَّرة، ولكنّ كثيرًا من تلك الأشجار فقدت أوراقها، وبدا المشهد أقلّ كثافة ممَّا هو متوقَّع. وإذا كانت هناك حراسة أو عمّال صيانة فسوف يكونون مكشوفين لهم بسهولة، ومع ذلك قرَّروا المجازفة.

«هذه المُلكيَّة فسيحة جدًّا. إنَّني متأكِّدة من أنَّنا سنجد مكانًا مناسبًا نترك فيه كاترين»، قالت لوثيا.

«هل توجد كاميرات أمن؟» سألها ريتشارد.

ـ لا. لماذا سيضعون كاميرات أمن في مثل هذا المكان؟ لا يوجد هنا ما يمكن سرقته.

ـ يُسعدني هذا. وماذا سنفعل بعد ذلك بكِ أنت يا إيڤيلين؟ ـ سألها ريتشارد بالنبرة الأبويَّة التي يستخدمها معها منذ يومين ـ. علينا أن نضعك في منجًى من ليرُوي ومن الشرطة.

«لقد وعدت جدَّتي بأنَّني مثلما ذهبت سوف أعود»، قالت الفتاة.

«ولكنَّك خرجتِ هاربة من عصابة سلڤاتروتشا. كيف ستعودين إلى غواتيمالا؟» قالت لوثيا.

ـ كان ذلك قبل ثمانية أعوام. ولكنَّ الوعد هو الوعد.

ـ الرجال الذين قتلوا أخويك سيكونون قد ماتوا أو سُجنوا. لا أحد يعيش طويلًا في ذلك الكابوس، ولكن ما زال هناك الكثير من العنف في بلادك يا إيڤيلين. وحتى لو لم يعد هناك من يتذكَّر شيئًا عن الانتقام من أسرتك، فإنَّ فتاة شابَّة وجميلة مثلك ستكون في وضع حرج جدًّا. أنت تفهمينني، أليس كذلك؟

«ستكون إيفيلين عرضة للخطر هنا أيضًا»، تدخَّل ريتشارد.

«لا أظنّ أنَّهم سيعتقلونها لأنَّها بلا وثائق. هنالك أحد عشر مليون مهاجر في هذا الوضع نفسه في هذه البلاد»، قالت لوثيا.

ـ عاجلًا أو آجلًا سيجدون جسد كاترين وسوف تتوالى تحقيقات معمَّقة لها صلة بآل ليرُوي. سيجدون عند تشريح الجثَّة أنَّها حبلى، وبفحص تحليل الـ DNA قد يثبت أنَّ الحمل من فرانك ليرُوي. وستُعرف مسألة اختفاء السيَّارة وإيفيلين.

ـ لهذا يجب أن تذهب إيفيلين أبعد ما يمكن يا ريتشارد ـ قالت لوثيا ـ. إذا ما وجدوها فسيتَّهمونها بسرقة السيَّارة، ويمكن أن يربطوا بينها وبين موت كاترين.

ـ سنكون في هذه الحالة نحن الثلاثة متورِّطين. إنَّنا شركاء في إخفاء أدلَّة؛ ليس أقلّ من إخفاء جثَّة.

«سوف نحتاج إلى مُحامٍ جيِّد»، أشارت لوثيا.

ـ لا يمكن لأيِّ محام، مهما كان عبقريًّا، أن يُخرجنا من ورطة كهذه. فلنرَ يا لوثيا، اعترفي. إنَّني واثق بأنَّ لديك خطَّة.

ـ إنَّها مجرَّد فكرة يا ريتشارد. . . الأمر الأهمّ هو وضع إيفيلين في مكان آمن، حيث لا يمكن لليرُوي ولا للشرطة العثور عليها. اتَّصلتُ أمس بابنتي، وقد خطر لها أنَّه يمكن لإيفيلين أن تختفي في ميامي، حيث يوجد ملايين اللاتينيِّين، وحيث هنالك فائض في إمكانيَّات العثور على عمل لها. يمكن لها أن تبقى هناك إلى أن تركد المياه، وعندما نتأكَّد من أنَّ أحدًا لم يعد يبحث عنها، تستطيع أن

ترجع إلى حيث أمُّها في شيكاغو. وعرضت دانييلًا أن تُؤويها في شقَّتها في أثناء ذلك.

«أراك تريدين أن تورِّطي دانييلًا في المشكلة!» صاح ريتشارد مستنفرًا.

ـ ولِمَ لا؟ دانييلًا مغرَمة بالمغامرة، وحين علمت بالمشكلة التي دخلنا فيها تحسَّرت لأنَّها ليست هنا كي تمدّ إلينا يد المساعدة. وأنا واثقة بأنَّ أباكَ سيفعل الشيء نفسه.

ـ هل رددتِ على دانييلًا هاتفيًا؟

ـ عبر الواتساب. اطمئنّ يا رجل، لا أحد يرتابُ بنا، لا وجود لمسوّغ يدفعهم إلى مراقبة هواتفنا الخلويَّة. كما أنَّه لا وجود لمشكلة في الواتساب. عندما ننتهي من وضع كاترين، سوف نضع إيفِلين في طائرة إلى ميامي. وستكون دانييلًا في انتظارها.

ـ طائرة؟

ـ يمكنها الطيران داخل البلاد ببطاقتها القبليَّة، أمَّا إذا كان ثمَّة مجازفة، فسوف نرسلها في حافلة. الرحلة طويلة، تستمرّ يومًا وليلة على ما أعتقد.

دخلوا معهد أوميغا عبر لايك دريف، ومرُّوا قبالة أبنية الإدارة في مشهد يسوده بياضُ الثلج وأيضًا بياضُ صمتٍ ووحدة مطلقين. لم يكن هناك أحد منذ بدء العاصفة. لم يجرِ تنظيف الطريق بآلات، ولكنَّ الشمس كانت قد أذابت قسمًا لا بأس به من الثلج الذي بدأ يسيل في جداول متَّسخة. لم تكن هنالك آثار مرور سيَّارات حديثة. قادتهم لوثيا

إلى الملعب الرياضيّ، لأنّها تذكّرت وجود صندوق هناك لحفظ الكرات، حجمه مناسب لوضع الجسد فيه، وسيكون هناك في منجًى من ذئاب القيوط والعوامل الطبيعيّة الأخرى. أمّا إيفيلين فرأت أنّ وضع كاترين في صندوق كرات سيكون نوعًا من تدنيس حرمة الموت.

واصلوا التقدُّم نحو ضفّة بحيرة ضيّقة وطويلة، كانت لوثيا قد اجتازت امتدادها في زورق تجديف في أثناء زياراتها للمعهد. وجدوا البحيرة متجمّدة ولم يجرؤوا على المشي فوقها. فريتشارد يعرف مدى صعوبة تقدير سماكة الجليد بالعين المجرَّدة. كان هناك على الضفّة مستودع وزوارقُ ومرسًى. اقترح ريتشارد أن يربطوا أحد زوارق التجديف الخفيفة بسيَّارة السوبارو، وقيادتها على الطريق الضيِّق المحاذي للبحيرة بحثًا عن مكان منعزل. يمكنهم ترك كاترين في الزورق على الضفَّة المقابلة، مغطّاة بقطعة مشمّع. وخلال بضعة أسابيع، مع ذوبان الجليد، سيطفو الزورق في البحيرة إلى أن يجدوه. سيكون المأتم المائيّ شاعريًّا. ثم أضاف: مثل طقوس الفايكنغ.

كان ريتشارد ولوثيا يحاولان فكّ سلسلة أحد الزوارق، عندما أوقفتهما إيفيلين بإطلاق صرخة وهي تُشير إلى مجموعة أشجار قريبة.

«ماذا هناك؟» سألها ريتشارد معتقدًا وجود حارس.

«يوجد فهد!» صاحت إيفيلين بوجه ممتقع.

- غير ممكن يا إيفيلين. لا وجود هنا لهذه الحيوانات.

«أنا لم أرَ شيئًا» قالت لوثيا.

«فهد!» كرَّرت الفتاة.

بدا لهما، عندئذ، أنَّهما يلمحان في بياض الغابة شبحَ حيوان ضخم، أصفر، استدار واختفى قافزًا في اتِّجاه الحدائق. أكَّد لهما رينشارد أنَّه لا يمكن أن يكون سوى وعل أو ذئب قيوط؛ ففي هذه المنطقة لا توجد فهود قطّ، وإذا كانت قد وجدت بعض السُّنوريّات كبيرة الحجم مثل الفهد أو الوشق، فإنَّها أبيدت منذ أكثر من قرن. لقد كانت رؤيا عابرة، شكَّك كلاهما في وجودها، ولكن إيفيلين، وقد تغيَّرت هيئتها، راحت تمشي في أثر خطى الفهد المزعوم كما لو أنَّها تطفو من دون أن تلامس الأرض، خفيفة، أثيريَّة، ضئيلة. لم يتجرَّآ على مناداتها، خشية أن يسمعهما أحد، ولحقا بها، يمشيان كطائري بطريق لتفادي الانزلاق على طبقة الثلج الرقيقة.

* * *

مرَّت إيفيلين طافية بجناح ملاك عبر الطريق المقابل للمكاتب الإداريَّة، والمتجر، ومستودع الكتب، والكافيتريا، وواصلت سيرها إلى أن حاذت المكتبة وقاعة المحاضرات، وخلَّفت وراءها قاعات الطعام الفسيحة. كانت لوثيا تتذكَّر المعهد في أوج الموسم: أخضرَ تملأه الأزهارُ، وطيورٌ ملوَّنة الصدور، وسناجبُ ذهبيَّة، بينما الزائرون يتحرَّكون بحركة كاميرا بطيئة كما في رقصة تايشي بالحديقة، وآخرون يتجوَّلون ما بين الدروس والمحاضرات بتنانير هنديَّة وصنادل كهنة، والموظَّفون حديثو الخروج من سنِّ المراهقة، تفوح منهم رائحة الماريجوانا، في سيَّاراتهم الكهربائيَّة الممتلئة بأكياس وعلب. كان مشهد الشتاء البانورامي الفسيح حزينًا وبديعًا، ويساهم البياض الشبحيّ في إضفاء انطباع بالاتِّساع الهائل. كانت المباني مغلقة والنوافذ مغطَّاة بألواح خشبيَّة، ولا وجود لعلامات حياة، كما لو أنَّ أحدًا لم يدخل

المكان منذ خمسين عامًا. كان الثلج يمتصّ أصوات الطبيعة وصرير الأحذية السميكة، وكانا يمضيان وراء إيڤيلين التي تبدو كأنّها تمشي في الأحلام، بلا ضجّة. كان النهار صافيًا ولا يزال الوقت مبكرًا، ولكنّهم يشعرون كأنّهم محاطون بغمامة مسرحيّة. مرّت إيڤيلين عرضًا من منطقة الكبائن وانحرفت إلى اليسار عبر درب ينتهي بدرج حجريّ شبه منتصب. صعدت الأدراج من دون تردُّد وغير عابئة بالثلج، كما لو أنّها تعرف بالضبط إلى أين هي ذاهبة، ولحق بها الآخران بمشقّة. اجتازوا بركة متجمّدة وتمثالًا حجريًا لبوذا، ووجدوا أنفسهم في أعلى رابية أمام معبد، بناء خشبي على الطراز الياباني، مربّع، محاط بشرفات مسقوفة، إنّه القلب الروحيّ للطائفة.

أدركا أنّه المكان الذي اختارته كاترين. لم يكن في إمكان إيڤيلين أورتيغا أن تعلم بوجود المعبد هناك، ولم يكن يوجد على الثلج أيّ أثر للحيوان الذي كانت هي وحدها تراه. لم تكن هنالك جدوى من البحث عن تفسير. وكما في لحظات كثيرة أخرى، استسلمت لوثيا لذلك السرّ الغامض. خامر الشكّ ريتشارد في عقله للحظات، قبل أن يهزّ كتفيه ويستسلم أيضًا. لقد فَقَدَ في اليومين الأخيرين الثقة بكلّ ما يعتقد أنّه يعرفه، وبوهم كونه يتحكّم في أموره كلّها. لقد تقبّل أنّه يعرف القليل جدًا ويتحكّم فيما هو أقلّ بكثير، ولكن هذا اليقين لم يعد يخيفه. كانت لوثيا قد قالت له في ليلة بوحهما إنّ الحياة تتجلّى دومًا، ولكنّها تتجلّى بصورة أفضل إذا ما تلقّيناها بلا مقاومة. كانت إيڤيلين منقادة بحدس مؤكّد لا يقبل الاستئناف، أو بشبح فهد هارب من غابة خفيّة، اقتادها مباشرة إلى المكان المقدّس الذي سترقد فيه كاترين مطمئنّة، تحميها أرواح طيّبة، إلى أن تصير جاهزة لمواصلة رحلتها الأخيرة.

انتظرت إيفيلين ولوثيا تحت سقف الشرفة، جالستين على مقعد بالقرب من بركتين متجمّدتين، تضمّان في الصيف أسماكًا تروبيكاليّة وأزهار لوتس، بينما ذهب ريتشارد لإحضار السيّارة. كان هناك طريق صاعد لمرور سيّارات الصيانة والحدائق، تمكّنت السوبارو من صعوده لأنّها مزوّدة بعجلات للثلج وقوّة شدّ في العجلات الأربع.

أخرجوا كاترين بحذر من السيّارة، ومدّدوها فوق قطعة المشمّع، ثم حملوها عليها إلى المعبد. ولأنّ قاعة التأمُّل كانت مقفلة بمفتاح، اختاروا الجسر بين البركتين من أجل تهيئة الجسد الذي ما زال متيبّسًا بوضعه الجنينيّ، وبعينيه الزرقاوين الواسعتين المفتوحتين على اتّساعهما بدهشة. خلعت إيفيلين قلادة حجر إسشيل، الربّة الفهدة التي أعطتها إيّاها مُداويةُ قرية بيتين قبل ثمانية أعوام، تميمةَ حمايتها القديمة، كي تعلّقها حول رقبة كاترين. أراد ريتشارد منعها من ذلك، لأنّ في ترك القلادة هناك مجازفة بترك دليل، ولكنّه تخلّى عن ذلك حين أدرك أنّه سيكون من شبه المستحيل الربط بين تلك التميمة وصاحبتها، لأنّ إيفيلين ستكون قد صارت بعيدة جدًّا. واكتفى بتنظيفها بمنديل ورقيّ مبلّل بخمر التكيلا.

وبتعليمات من الفتاة التي تولّت بكلّ تلقائيّة دور الكاهن، ارتجلوا بعض الطقوس المأتميّة البدائيّة. انغلقت في تلك اللحظات دائرة لإيفيلين التي لم تتمكّن من النطق بكلمة عند دفن أخيها غريغوريو، وكانت غائبة عند دفن أندريس، فأحسّت بأنّها بوداعها الوقور لكاترين إنّما تكرّم أخويها كذلك. فاحتضار مريض ووفاته في قريتها يواجهان بلا تكلُّف، لأنّ الموت عتبة، مثلما هي الولادة. وهم يدعمون الشخص كي يعبر إلى الجانب الآخر بلا خوف، ويسلّم روحه إلى

الربّ. أمّا في حالة الموت العنيف، بجريمة أو حادث، فهنالك طقوس أخرى من أجل إقناع الضحيَّة بما جرى، وجعله ينصرف ولا يعود إلى إخافة الأحياء. لم تحظَ كاترين والطفل الذي تحمله في داخلها حتى بأبسط سهر على جثمانيهما، وربَّما لم يعلما بأنَّهما ميّتان. فلا أحد غسل كاترين وعطَّرها وألبسها أفضل ملابسها، لا أحد غنَّى لها؛ ولم يرتدِ أحدٌ ملابس الحداد من أجلها، ولم يقدِّموا قهوة، ولم يشعلوا شموعًا أو يحضروا أزهارًا، ولم يوجد كذلك صليب ورقيّ أسود يشير إلى عنف مغادرتها. «تحزنني كثيرًا السيِّدةُ كاترين، فليس لديها ولو مجرَّدُ تابوت أو مكان في المقبرة؛ ومسكين ذلك الجنين الذي لم يولد، وليست لديه دمية للسماء»، قالت إيڤيلين.

بلَّلت لوثيا منديلًا ومسحت الدم الجافّ عن وجه كاترين، بينما كانت إيڤيلين تصلّي بصوت عالٍ. وقطع ريتشارد بعض الأغصان ووضعها بين يديها بسبب عدم وجود أزهار. أصرَّت إيڤيلين على أن يتركوا لها كذلك زجاجة التيكيلا، لأنَّ الخمر يكون موجودًا على الدوام عند السهر على الموتى. مسحوا آثار البصمات عن المسدَّس وتركوه إلى جانب كاترين. ربَّما يكون هذا هو الدليل الحاسم ضدَّ فرانك ليرُوي. جسد كاترين سيتمّ التعرُّف إليه على أنَّه جسد عشيقته، والمسدَّس الذي خرجت منه الرصاصة مسجَّل باسمه، ويمكنهم أن يُثبتوا كذلك أنَّه أبو الجنين. كلّ شيء ضدَّه، ولكن لا يُدينه، لأنَّ لدى المتَّهم ما يثبت عدم وجوده في مكان الجريمة: لأنَّه كان في فلوريدا.

غطُّوا كاترين بالبساط، ثم جمعوا أطراف المشمَّع الأربعة ولفُّوها به بحذر، وربطوا الحزمة بحبال كانت في سيَّارة ريتشارد. ومثل جميع أبنية المعهد، كان المعبد يخلو من الأساسات، لأنَّه يقوم على أوتاد

مغروسة في الأرض، وبينها فراغات يمكن دسّ كاترين فيها. أمضوا وقتًا لا بأس به وهم يجمعون حجارة كي يغلقوا المدخل. لا بدَّ من أنَّ الجسد سيبدأ بالتفسُّخ عند ذوبان الجليد في الربيع، وستكشف الرائحة وجوده.

«فلنصلِّ يا ريتشارد، ولنرافق إيفيلين في وداع كاترين» طلبت منه لوثيا.

ـ لا أعرف كيف أصلّي يا لوثيا.

ـ كلّ شخص يصلّي على طريقته. فالصلاة بالنسبة إليّ هي أن أسترخي وأثق بسرِّ الوجود.

ـ أهذا هو الربّ في نظرك؟

ـ سَمِّه ما شئت يا ريتشارد، ولكن أمسك بيدي وبيد إيفيلين ولنشكِّل حلقة. سوف نساعد كاترين وصغيرها على الصعود إلى السماء.

علَّم ريتشارد كلًّا من لوثيا وإيفيلين بعد ذلك طريقة صنع كرات ثلج ووضعها واحدة فوق أخرى من أجل صنع هرم في منتصفه شمعة مشتعلة، مثلما رأى أطفال هوراسيو يصنعون في عيد الميلاد. إنَّه مصباح هشّ، من شعلة لهب متذبذبة وماء متجمِّد، يعكس ضوءًا ذهبيًّا بين دوائر زرقاء. ولن يبقى له أيّ أثر بعد ساعات قليلة، عندما تُستنفد الشمعة ويذوب الثلج.

خاتمة

بروكلين

قام ريتشارد بوماستير ولوثيا ماراث بأرشفة واعية لكلٍّ ما نُشر عن قضيَّة كاترين براون، منذ ظهور جسدها في شهر آذار، وحتى شهرين بعد ذلك، عندما تمكَّنا من إغلاق تلك المغامرة التي غيَّرت حياتيهما. أثار اكتشاف الجثَّة في رينيبيك تأمُّلات ونظريَّات عن احتمال أن يكون الأمر طقوس تقديم قربان بشري اقترفها أعضاء ديانة مهاجرين في ولاية نيويورك. وكانت قد بدأت تُلمَس في الأجواء مشاعرُ كراهيَّة للأجانب اللاتينيين، أبرزتها الحملة الرئاسيَّة البغيضة لدونالد ترامب. وعلى الرَّغم من أنَّ قلَّة كانوا يأخذونه على محمل الجدّ كمرشَّح، فإنَّ تبجُّحه ببناء سور كسور الصين لإغلاق الحدود مع المكسيك وإبعاد أحد عشر مليون مقيم غير شرعي، بدأ يترسَّخ في المخيِّلة الشعبيَّة. كان من السهل تقديم تفسير طقوسيّ مخيف للجريمة. فتفاصيل كثيرة فيما عُثر عليه تُشير إلى نظريَّة طقوس التديُّن: كُفِّنت

الضحيَّة متكوِّرة في وضع جنينيّ، مثلما هي المومياءات في الثقافات الأميركيَّة اللاتينيَّة القديمة، وملفوفة ببساط مكسيكيّ ملوَّث بالدم، مع منحوتة تمثِّل الشيطان معلَّقة كقلادة حول عنق الضحيَّة، وقارورة تحمل رسم جمجمة على بطاقة ملصقة بها. الرصاصة التي أُطلقت عن قرب على الجبهة تبدو كأنَّها عمليَّة إعدام. وقد وُضعت الجثَّة في معبد معهد أوميغا كسخرية من الروحانيَّة، مثلما قالت بعض الصحف الميَّالة إلى الفضائح.

أصدرت عدَّة كنائس مسيحيَّة ناطقة بالإسپانيَّة بيانات نفي قاطع تُنكر فيها وجود ممارسات لطقوس شيطانيَّة بين جالياتها. ومع ذلك، سرعان ما تبيَّن أنَّ الأضحية العذراء، كما سمَّتها صحافة الإثارة، قد تمَّ التعرُّف إليها، وأنَّها المدعوَّة كاترين براون، معالجة فيزيائيَّة من بروكلين، في الثامنة والعشرين، عزباء وحبلى. لا شيء من العذريَّة، إذًا. وعُرف كذلك أنَّ المنحوتة الحجريَّة الصغيرة لا تمثِّل الشيطان، وإنَّما هي إلٰهة أنثويَّة من ميثولوجيا المايا، وأنَّ الجمجمة على القارورة هي شكل شائع على قوارير خمرة التيكيلا الرخيصة. انخفض عندئذ اهتمام الجمهور والصحافة إلى أن اختفى تمامًا، وصار من الصعب على ريتشارد ولوثيا متابعة القضيَّة.

خبر «النيويورك تايمز» الذي نُشر في الأسبوع الأخير من شهر أيَّار/مايو، وتأكَّد منه ريتشارد بوماستير في مصادر أخرى، لم تكن له علاقة تذكر بكاترين براون. فهو يركِّز في شبكة

تهريب بشر تشمل المكسيك وعدَّة بلدان من أميركا الوسطى وهايتي. ويُذكر اسم فرانك ليرُوي في الريبورتاج بين متواطئين آخرين، ولم يستحقّ خبر موتها سوى أقلّ من سطرين. تولّى مكتب التحقيقات الفيدرالي قضيَّة كاترين براون، وإن كانت من اختصاص إدارة الشرطة، لعلاقة الشابَّة بفرانك ليرُوي الذي جرى اعتقاله موقَّتًا، على أنَّه المشتبه فيه الرئيسيّ في الجريمة، وأُطلق سراحه بكفالة. وكان مكتب التحقيقات الفيدرالي يجمع خيوطًا منذ سنوات في تحقيق موسَّع عن الإتجار بالبشر، ويهمّه القبض على ليرُوي لهذا السبب أكثر ممَّا هو بسبب مصير عشيقته عاثرة الحظّ. كانوا يعرفون مشاركة فرانك ليرُوي في تلك التجارة، ولكنَّ الأدلَّة لم تكن كافية لإلقاء القبض عليه، فالرجل يحمي نفسه جيِّدًا من هذا الاحتمال. ويربطه بمقتل كاترين براون أمكن لهم تفتيش مكتبه وبيته ومصادرة موادّ كافية لإدانته وحبسه.

هرب ليرُوي إلى المكسيك، حيث له علاقات، وحيث عاش أبوه باطمئنان لسنوات كهارب من العدالة. وكان يمكن أن يكون مصيره مشابهًا أيضًا، لولا وجودُ عميل خاصّ لمكتب التحقيقات الفيدرالي مخترق للشبكة. هذا الرجل هو إيفان دانيسكو. وبفضله، أكثر من أيِّ شخص آخر، أُتيح تفكيك شبكة الإجرام في الولايات المتَّحدة وتوابعها في المكسيك. وما كان لاسمه أن يُكشَف للجمهور لو أنَّه ما زال حيًّا، لكنَّه مات في الهجوم على مزرعة في غيريرو، هي أحد مراكز احتجاز ضحايا

الإتجار بالبشر، حيث كان يجتمع عدَّة زعماء. رافق إيفان دانيسكو العسكريين المكسيكيين في عمليَّة بطوليَّة، على حدّ قول الصحافة، من أجل تحرير سجناء، ينتظرون دورهم لشحنهم وبيعهم.

قرأ ريتشارد رواية أخرى بين السطور، لأنَّه درس طريقة عمل كارتيلات الجريمة والسلطات. فإذا ما اعتُقل أحد زعماء العصابات، فإنَّه غالبًا ما يُهرَّب من السجن بسهولة مرعبة. ويجري التلاعب بالقانون بصورة دائمة، لأنَّ الجميع، من الشرطة حتى القضاة، يرضخون عن طريق التهديد أو الفساد، والذي يصمد منهم ينتهي الأمر باغتياله. نادرًا ما يتمّ تسليم المذنبين الذين يعملون في الولايات المتَّحدة بلا عقاب.

«أؤكِّد لكِ أنَّ العسكريين قد دخلوا المزرعة ليَقتلوا، بتغطية من مكتب التحقيقات الفيدرالي. هذا ما يفعلونه في العمليَّات ضدَّ تجَّار المخدَّرات، ولا أرى سببًا في أن يكون الأمر مختلفًا في هذه الحالة. لا بدَّ من أنَّ خطَّتهم قد أخفقت فجأة، وجرت معركة إطلاق نار. هذا ما يفسِّر موت إيفان دانيسكو من جهة وفرانك ليرُوي من جهة أخرى»، قال ريتشارد للوثيا.

* * *

اتَّصلا بإيفيلين في ميامي، ولم تكن قد علمت بالأخبار. اتَّفقوا على أن تسافر إلى بروكلين، لأنَّها كانت مهووسة بفكرة العودة لرؤية فرانكي. ولم تكن قد تجرَّأت، حتى ذلك الوقت،

على الاتِّصال بشيريل. كان على لوثيا أن تقنع ريتشارد بأنّه لم يعد ثمّة خطر على إيفيلين بعد موت فرانك ليرُوي، وأنَّ الفتاة وشيريل تستحقّان الحصول على خاتمة لما حدث لهما. عرضت أن تقوم بالاتِّصال الأوَّل، ووفاء منها لنظريَّتها بأنَّ من الأفضل التوجُّهَ دومًا إلى جوهر المسألة، اتَّصلت على الفور هاتفيًّا بشيريل وطلبت منها موعدًا، لأنَّ لديها شيئًا مهمًّا تخبرها به. فأغلقت تلك الهاتف مذعورة. تركت لها لوثيا ملاحظة في صندوق البريد بمنزل التماثيل: «أنا صديقة إيفيلين أورتيغا، وهي تثق بي. أرجوكِ أن توافقي على استقبالي، لديَّ لكِ أخبار منها». وأضافت رقم هاتفها الخلوي، ووضعت في المغلف مفتاح سيَّارة اللكزس ومفتاح بيت كاترين براون. في تلك الليلة بالذات اتَّصلت بها شيريل.

ذهبت لوثيا للقائها بعد ساعة من ذلك، بينما ظلّ ريتشارد ينتظرها في السيَّارة بقرحته التي استثارتها عصبيَّته. كانا قد قرَّرا أنَّ من الأفضل ألَّا يحضر هو اللقاء، لأنَّ شيريل ستشعر بطمأنينة أكبر حين تلتقي على انفراد امرأة أخرى. تأكَّدت لوثيا من أنَّ شيريل مثلما وصفتها إيفيلين، طويلة القامة، شقراء، وذات مظهر شبه رجوليّ، ولكنَّها أكثر تقدُّمًا في السنّ ممَّا توقَّعته. يوحي مظهرها بسنوات أكثر بكثير من عمرها. كانت مضطربة، خائفة، متأهِّبة، وقد ارتجفت وهي تدعوها إلى الصالة.

«أخبريني مباشرة كم تريدين، ولننتهِ من هذا الأمر فورًا»، قالت لها بصوت متقطّع، وهي واقفة، وبذراعين متقاطعتين.

احتاجت لوثيا إلى نصف دقيقة كي تفهم ما سمعته.

ـ بالله عليكِ يا شيريل، لا أدري ما الذي تفكّرين فيه. لم آتِ لابتزازك، كيف يخطر لك هذا. إنّني أعرف إيڤيلين أورتيغا وأعرف ما الذي جرى لسيّارتك. وأنا أعرف، بكلّ تأكيد، أكثر منك عن سيّارة اللكزس. تريد إيڤيلين المجيء بنفسها كي توضح لك كلّ شيء، ولكنّها تريد أوّلًا وقبل كلّ شيء أن ترى فرانكي، إنّها مشتاقة إليه، وهي تحبّ ابنك.

رأت لوثيا عندئذ تحوُّلًا مذهلًا في المرأة التي أمامها. بدا كما لو أنّ القشرة التي تحميها قد تساقطت فتاتًا وتحوّلت خلال ثوان قليلة إلى كائن بلا هيكل عظمي، بلا شيء يسندها من الداخل؛ إلى امرأة من ألم وخوف متراكم، شديدة الضعف والهشاشة، حتى إنّ لوثيا وجدت مشقّة في منع نفسها من الاندفاع إلى معانقتها. شقّ نحيب راحة صدر شيريل وتهاوت جالسة على الكنبة ووجهها بين يديها، تبكي كطفل.

ـ أرجوك يا شيريل، اهدئي، كلّ شيء على ما يرام. كلّ ما كانت تريده إيڤيلين هو مساعدتك أنت وفرانكي.

ـ أعرف ذلك، أعرفه. إيڤيلين هي صديقتي الوحيدة، وكنتُ أخبرها بكلّ شيء. ولكنّها ذهبتْ حين كنت في أمسّ الحاجة

إليها، اختفت مع السيَّارة من دون أن تقول لي كلمة واحدة.

ـ أظنّ أنّك لا تعرفين القصَّة كلّها. لا تعرفين ما كان يوجد في صندوق السيَّارة...

«وكيف لن أعرف ذلك» ردَّت شيريل.

* * *

يوم الأربعاء السابق لعاصفة كانون الثاني/يناير، بينما كانت شيريل تتفحَّص قمصان زوجها المتَّسخة من أجل غسلها، رأت لطخة زيت على ياقة سترته. وقبل أن تضمَّها إلى كومة الملابس، نَبَّشت جيوبها بصورة روتينيَّة واكتشفت وجود مفتاح معلَّق بحلقة مذهَّبة. تنبَّأت لها سوسة الغيرة بأنَّه مفتاح بيت كاترين براون، وأكَّد ذلك شكوكها في زوجها وعلاقته بتلك المرأة.

في اليوم التالي صباحًا، بينما كانت كاترين تُجري التمارين الرياضيَّة لفرانكي، تعرَّض الطفل لنوبة انخفاض السكَّر في الدم وأُغمي عليه. أنعشته شيريل بحقنة، وسرعان ما انتظم معدَّل السكَّر. لم يكن هنالك مذنب فيما حدث، ولكن مسألة المفتاح جعلتها تشعر بالتحامل على كاترين. اتَّهمتها بإساءة معاملة ابنها وطردتها من العمل فورًا. «لا يمكنك طردي. فمن تعاقد معي هو فرانك. وهو وحده من يستطيع طردي، وأشكّ في أن يفعل ذلك»، ردَّت عليها الشابَّة بغطرسة، ولكنَّها جمعت أشياءها وانصرفت.

أمضت شيريل بقيّة يوم الخميس منتظرة زوجَها وهي تشعر بتشنُّج في معدتها، وعندما جاء لم تجد ضرورة لإخباره بأيّ شيء، لأنّه كان يعرف ما جرى. فقد اتّصلت به كاترين وأخبرته. أمسك فرانك زوجته من شعرها، جرَّها إلى غرفة النوم، وأغلق الباب بخبطة قويّة جعلت الجدران تهتزّ، ثم وجَّه لكمة إلى صدرها قطعت عنها الهواء. وحين رآها تجاهد لالتقاط أنفاسها، خشي أن يكون قد تجاوز الحدود، فوجَّه إليها ركلة وذهب غاضبًا إلى حجرته، مصطدمًا في طريقه بإيڤيلين التي كانت تقف مرتجفة في انتظار الفرصة لإسعاف شيريل. دفعها جانبًا وواصل طريقه. ركضت إيڤيلين إلى الغرفة وساعدت شيريل على الاستلقاء في السرير، وأسندتها بوسائد، وقدَّمت إليها مهدِّئات، ووضعت لها كمَّادات ثلج على صدرها، لخشيتها من أن تكون هنالك كسور في أضلاعها، مثلما حدث لها هي نفسها عندما تعرَّضت لهجوم أعضاء العصابة.

خرج فرانك ليرُوي يوم الجمعة باكرًا بسيَّارة أجرة، قبل أن يستيقظ بقيَّة مَن هم في البيت، كي يستقلّ الطائرة إلى فلوريدا. لم يكن المطار قد أُغلق بعد، وهو ما سيحدث بعد ساعتين من ذلك بسبب العاصفة. ظلَّت شيريل طوال اليوم في الفراش، مسترخية وفاقدة الشعور نتيجة تناولها المهدِّئات تحت رعاية إيڤيلين، ممدَّدة في السرير في صمت ماكر، وبلا دموع. اتَّخذت القرار بالتصرُّف في تلك الساعات. إنَّها تمقت زوجها، وسيكون

ذهابه مع براون رحمة لها، ولكن ذلك سيحدث بطريقة طبيعيَّة. الجزء الأكبر من أموال فرانك ليرُوي موجود في حسابات خارج البلاد لا يمكن لها الوصول إليها أبدًا، أمَّا الأموال الموجودة في الولايات المتَّحدة فهي باسمها. وهذا ما كان قد قرَّره هو نفسه من أجل حماية نفسه في حالة الوقوع في مشاكل قانونيَّة. أفضل مخرج لفرانك هو تصفيتها، وإذا كان لم يفعل ذلك حتى الآن، فلعدم توافر دافع مباشر. وسيكون عليه التخلُّص من فرانكي كذلك، لأنَّه لا يريد تحمُّل مسؤوليَّته. لقد وقع في حبّ كاترين براون وصار يتعجَّل، فجأة، الحصول على حرّيَّته. لم تكن شيريل تعرف بعد أنَّ هنالك سببًا أقوى. فالعشيقة حبلى. وهذا ما اكتشفته مع نتائج تشريح الجثَّة في شهر آذار/مارس.

فكَّرت في أنَّ عليها مواجهة منافستها، لأنَّ لا جدوى من محاولة التوصُّل إلى اتِّفاق مع زوجها؛ فهما لا يتواصلان إلَّا في أمور تافهة، وحتى هذه الأمور تؤدِّي إلى العنف، ولكن كاترين براون ستكون أكثر عقلانيَّة حين تُدرك فوائد ما ستقدِّمه إليها. فسوف تعرض عليها أن تتنازل لها عن زوجها، وأن تمنحه الطلاق، وتضمن لهما الصمت في مقابل ضمانات ماديَّة لفرانكي.

* * *

خرجت يوم السبت عند حدّ منتصف النهار. آلام اللكمة على صدرها وإكليل الشوك الذي تشعر به في صدغيها منذ

الضرب الذي تلقَّته يوم الخميس كانت قد تضاعفت. وكان قد استقرَّ في معدتها كأسا ليكور وجرعةٌ عالية من المنشِّطات. قالت لإيفيلين إنَّها ذاهبة إلى جلسة علاجها النفسيّ. «إنَّهم ينظِّفون الشوارع يا سيِّدتي، من الأفضل أن تبقي هادئة هنا»، قالت لها الفتاة. فردَّت عليها: «لم أكن أكثر هدوءًا قطّ ممَّا أنا عليه الآن»، وذهبت بسيَّارة اللكزس. كانت تعرف أين تسكن كاترين براون.

اكتشفت عند وصولها أنَّ سيَّارة تلك المرأة موجودة في الشارع، وهذا يُشير إلى أنَّها تفكِّر في الخروج عمَّا قريب، وإلَّا لكانت ركنتها في المرأب لحمايتها من الثلج. وبحركة مندفعة غير واعية، تناولت شيريل مسدَّس فرانك من محفظة السيَّارة، وهو مسدَّس بريتا صغير، نصف آلي، عيار ٣٢، ودسَّته في جيبها. ومثلما توقَّعتْ، كان المفتاح لباب البيت فعلًا، وهكذا تمكَّنت من الدخول من دون إحداث ضجَّة.

كانت كاترين براون على وشك الخروج، تتدلَّى من كتفها حقيبة من قماش سميك، وترتدي ملابس الذهاب إلى النادي الرياضيّ. مفاجأة وجودها فجأة وجهًا لوجه مع شيريل جعلتها تطلق صرخة. «أريد أن أتكلَّم معك فقط»، قالت لها شيريل، ولكنَّ الأخرى دفعتها في اتِّجاه الباب وهي تشتمها. لا شيء يمضي مثلما خطَّطت. أخرجت المسدَّس من جيب سترتها ووجَّهته نحو كاترين بنيَّة إجبارها على الاستماع، ولكنَّ الشابَّة

بدلًا من أن تتراجع، تحدَّتها وهي تتقدَّم ضاحكة. رفعت شيريل مسمار أمان المسدَّس وأمسكت به بكلتا يديها.

«أيَّتها الساحرة البلهاء! أتظنِّين أنَّك قادرة على إخافتي بهذا المسدَّس اللعين؟ سوف ترين عندما أُخبر فرانك بهذا!» صرخت بها كاترين.

خرجت الطلقة من تلقاء نفسها. لم تدرِ شيريل متى ضغطت على الزناد، مثلما أكَّدت للوثيا ماراث حين روت لها ما حدث، بل إنَّها لم تصوِّب السلاح. «أصابتها الرصاصة في منتصف جبهتها بالصدفة، لأنَّ ذلك مكتوب، لأنَّ تلك هي الكارما الخاصَّة بي وبكاترينا براون»، قالت لها. حدث ذلك بصورة تلقائيَّة. حدثٌ بالغ البساطة والنظافة، حتى إنَّ شيريل لم تسمع دويّ الطلقة ولا ارتداد السلاح بين يديها، ولم تستطع أن تفهم لماذا سقطت المرأة إلى الوراء، ولا ما يعنيه الثقب الأسود في وجهها. احتاجت إلى أكثر من دقيقة كي تنتبه وتُدرك أنَّ كاترين لا تتحرَّك، وأن تنحني نحوها وتتبيَّن أنَّها قد قتلتها.

كلّ حركة منها بعد ذلك كانت بما يشبه الغيبوبة. أوضحت للوثيا أنَّها لا تتذكَّر بالتفصيل ما الذي فعلته، على الرَّغم من أنَّها لم تتوقَّف عن التفكير فيما حدث في يوم السبت المشؤوم ذاك. «الأمر المُلحّ في تلك اللحظة هو اتِّخاذ القرار بشأن ما سأفعله بكاترين، لأنَّ الأمر سيكون رهيبًا عندما يكتشف فرانك ما جرى»، قالت لها. الجرح نزف قليلًا جدًّا وظلَّت بقع الدم

على البساط. فتحت مرآب البيت وأدخلت فيه اللكزس. وبفضل حياتها الرياضيَّة وممارستها التمارين، وبفضل ضآلة حجم منافستها، تمكَّنت من سحب الجسد على البساط، حيث سقط، وإدخاله بالقوَّة في صندوق السيَّارة، ومعه المسدَّس. ثم وضعت مفتاح بيت كاترين في محفظة السيَّارة. إنَّها بحاجة إلى وقت كي تهرب، ولديها ثمانٍ وأربعون ساعة قبل أن يرجع زوجها. منذ أكثر من سنة كانت ترد إلى ذهنها تخيُّلات اللجوء إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي لتقديم شكوى في مقابل توفير الحماية لها. إذا كانت المسلسلات التلفزيونيَّة تتضمَّن شيئًا من الحقيقة، فسوف يمنحونها هويَّة جديدة باسم مختلف، ويتيحون لها الاختفاء مع ابنها. يجب عليها أوَّلًا وقبل كلِّ شيء أن تهدأ، فقلبها يوشك على الانفجار. توجَّهت إلى البيت.

خلال التحرِّيات عن موت كاترين براون، في شهر آذار/ مارس، قاموا باستجواب شيريل ليرُوي بصورة سطحيَّة سريعة. فالمشتبه فيه الوحيد هو زوجها، وحجَّة غيابه بأنَّه كان يلعب الغولف في فلوريدا لم تكن مجدية، لأنَّ حالة الجثَّة لم تكن تسمح بتحديد لحظة الموت بدقَّة. ربَّما كانت شيريل، المضطربة بشعورها بالذنب، ستكشف نفسها بنفسها لو أنَّ استجوابًا لها قد جرى في الأيَّام التالية لموت الشابَّة، ولكن ذلك لم يحدث إلَّا بعد شهرين، عندما عُثر على الجسد في معهد أوميغا، وعُرفت علاقة الضحيَّة بآل ليرُوي. وخلال فترة الشهرين تلك، توصَّلت

شيريل إلى المصالحة مع ضميرها. لقد استلقت لتستريح ذات يوم سبت، في أواخر شهر كانون الثاني/يناير، وهي تشعر بآلام في الرأس تُفقدها صوابها، واستيقظت بعد ساعات من ذلك بإحساس مرعب بأنَّها قد اقترفت جريمة. كان البيت مظلمًا، فرانكي نائم وإيفيلين غير موجودة في أيِّ مكان، وهو ما لم يحدث من قبل قطّ. كادت تُصاب بالجنون وهي تتخيَّل التفسيرات المحتملة لذلك الاختفاء الخياليّ لإيفيلين والسيَّارة وجثّة كاترين براون.

رجع فرانك ليرُوي يوم الاثنين. وكانت هي قد أمضت اليومين السابقين في حالة رعب مطلق، ولولا واجبها ومسؤوليّتها تجاه ابنها لابتلعت كلّ المهدِّئات التي لديها وانتهت مرَّة وإلى الأبد من هذه الحياة البائسة، مثلما اعترفت للوثيا. قدَّم زوجها إبلاغًا عن اختفاء اللكزس كي يتقاضى قيمة التأمين واتَّهم المربّية بسرقتها. لم يجد عشيقته، وتخيَّل أسبابًا عديدة لذلك، باستثناء أن تكون قد قُتلت؛ وسيعرف ذلك فيما بعد، عندما عُثر على جسدها واتُّهم هو نفسه بالجريمة.

«أظنُّ أنَّ إيفيلين هي من أخفت الأدلَّة، كي تحمي فرانكي وتحميني»، قالت شيريل للوثيا.

- لا يا شيريل. فإيفيلين كانت تظنّ أنَّ زوجك هو من قتل كاترين يوم الجمعة ثم سافر إلى فلوريدا لإثبات غيابه عن مكان الجريمة، من دون أن يخطر له أنَّ أحدًا سيستخدم اللكزس. لقد

حفظت البرودة الشديدةُ الجثمانَ حتى يوم الاثنين، حين رجع هو من فلوريدا.

ـ كيف؟ ألم تكن إيفيلين تعلم بأنّني أنا؟ لماذا إذًا...

ـ إيفيلين أخرجت اللكزس كي تذهب إلى الصيدليّة حين كنتِ أنت نائمة. صديقي ريتشارد بوماستير صدمها. وهكذا انتهينا أنا وهو إلى التورُّط في هذا الأمر. فكَّرتْ إيفيلين في أنَّ زوجك، عندما يرجع، سيعرف أنَّها استخدمت سيَّارته، وأنَّها رأت ما يحويه صندوقها. كانت مرتعبة من زوجك.

«هذا يعني... أنَّك أنت أيضًا كنتِ تعرفين ما الذي حدث»، تلعثمت شيريل وقد شحب وجهها.

ـ لا، لقد كانت لديَّ رواية إيفيلين. وكانت هي تظنّ أنَّ فرانك ليرُوي سوف يصفِّيها، لأنَّ عليه أن يُسكتها. وكانت خائفة عليك أيضًا وعلى فرانكي.

«وماذا سيحدث الآن لي؟»، تساءلت شيريل، وقد أرعبها ما اعترفت به.

ـ لا شيء يا شيريل. سيَّارة اللكزس في قعر إحدى البحيرات، ولن يعرف أحد الحقيقة. ما تحدَّثنا به سيبقى بيننا. سوف أخبر ريتشارد، لأنَّه يستحقّ أن يعرف، ولكنَّني لا أرى حاجة إلى أن يعرف الأمر أيُّ شخص آخر. لقد سبَّب لكِ

فرانك ليرُوي ما يكفي من الأذى.

* * *

كان ريتشارد ولوثيا في السرير، في الساعة التاسعة صباحًا من يوم الأحد ذاك في شهر أيّار/مايو، يتناولان القهوة مع مارسيلو ودويس، الهرَّة الوحيدة من قطط ريتشارد الأربع التي صادقها الكلب. كان الوقت مبكرًا بالنسبة إلى لوثيا، فما هي الحاجة إلى الاستيقاظ باكرًا في يوم أحد، أمَّا بالنسبة إلى ريتشارد فهذا جزء من انحطاط العيش مع شريك. كان يومًا ربيعيًا مشرقًا، وسيذهبان بعد قليل بحثًا عن جوزيف بوماستير لاصطحابه إلى الغداء؛ وسيذهبون في المساء هم الثلاثة معًا لانتظار إيفيلين في محطَّة الحافلات، لأنَّ العجوز يُصرّ على التعرُّف إليها. لم يغفر لابنه أنَّه لم يدعُه إلى المشاركة في أوديسة كانون الثاني/يناير. «لا أدري كيف كنَّا سنرتِّب الأمور وأنت معنا على كرسيّك ذي العجلات يا أبتاه»، هذا ما كان يردِّده ريتشارد في كلِّ مرَّة، ولكن هذا العذر في نظر جوزيف غير مقبول، فما داموا قد اصطحبوا معهم كلب شيهواهوا، فإنَّه كان في إمكانهم أن يأخذوه هو أيضًا.

كانت إيفيلين قد خرجت منذ اثنتين وثلاثين ساعة من ميامي، حيث بدأت تعيش حياة شبه طبيعيَّة خلال الشهور التي أمضتها هناك. وكانت لا تزال تعيش مع دانييلًا، ولكنَّها تفكِّر في الاستقلال عنها قريبًا؛ فهي تعمل في رعاية أطفال في دار

حضانة، وتخدم المناضد في أحد المطاعم ليلًا. وكان ريتشارد يساعدها، لأنَّه لا بدَّ، كما تقول لوثيا، من إنفاق النقود على شيء ما قبل الذهاب إلى المقبرة. وكانت الجدَّة كونثيبثيون مونتويا في غواتيمالا قد استخدمت على أحسن وجه الحوالات الماليَّة التي ترسلها إيفيلين بانتظام، من بروكلين أوَّلًا ثم من ميامي بعد ذلك. فقد حوّلت كوخها إلى بيت من الآجرّ مع غرفة إضافيَّة تبيع فيها ملابس مستعملة ترسلها إليها ابنتها مريام من شيكاغو. ولم تعد تذهب لبيع التامال في السوق، وإنَّما تذهب إليه لشراء المؤن وتبادل الأحاديث مع صديقاتها. تقدِّر إيفيلين عمر جدَّتها بستِّين عامًا، لكنَّها لا تستطيع إثبات ذلك، كما أنَّها قد هرمت كثيرًا خلال السنوات الثماني الأخيرة، منذ موت حفيديها وغياب إيفيلين، وهذا ما يمكن رؤيته في صورتين التقطهما لها الأب بينيتو، تظهر فيهما بملابس أنيقة، وهي الملابس نفسها التي استخدمتها طوال ثلاثين سنة، وستواصل استخدامها حتى موتها: التنُّورة السميكة الزرقاء والسوداء المنسوجة على نول يدويّ، وبلوزة الهويبيل المطرَّزة بألوان ضيعتها، والحزام الأحمر والبرتقالي حول خصرها، والقلنسوة التي تتوازن على رأسها.

الجدَّة، بحسب قول الأب بينيتو، ما زالت نشيطة جدًّا، ولكنَّها تضاءلت وجفَّت وتجعَّدت، صارت تبدو أشبه بقرد صغير. ولأنَّها تتجوَّل دومًا وهي تتمتم بأدعية وصلوات بصوت

خافت، فقد صاروا يظنُّون أنَّها مجنونة. وهذا مناسب لها، لأنَّ أحدًا لم يعد يطلب منها دفع أيِّ رسوم. إنَّهم يتركونها بسلام. وتتكلَّم كونثيبثيون مرَّة كلّ أسبوعين مع حفيدتها بهاتف الأب بنيتو الخلوي، لأنَّها ترفض امتلاك هاتف خاصّ، مثلما عرضت عليها إيفيلين. إنَّه جهاز خطر، يعمل من دون وصله بأسلاك وبلا بطَّاريَّات ويسبِّب السرطان. «تعالي إلى العيش معي يا جدَّتي»، تتوسَّل إليها إيفيلين، ولكن هذه فكرة خبيثة في نظر كونثيبثيون، فما الذي ستفعله في الشمال، ومَنْ سيُطعم في أثناء ذلك دجاجاتها ويسقي نباتاتها، ويمكن أن يأتي غرباء ويحتلُّوا بيتها، لا يمكن لإحدانا أن تسهو وتهمل. أجل، تحبّ أن تزور حفيدتها، ولكنَّها سترى متى يمكنها ذلك. وكانت إيفيلين تعرف أنَّ ذلك لن يحدث أبدًا وتأمل أن يسمح لها وضعها هي نفسها، ذات يوم، بالعودة إلى مونخا بلانكا دل بايي، ولو لبضعة أيَّام فقط.

«سيكون علينا أن نُخبر إيفيلين بحقيقة ما جرى لكاترين»، قال ريتشارد للوثيا.

- ولماذا تعقيد الأمور؟ معرفتنا أنا وأنت بما حدث تكفي. ثم إنَّ ذلك لم تعد له أيُّ أهمِّيَّة.

- كيف لم يعد مهمًّا؟ لقد قتلت شيريل ليرُوي تلك المرأة.

- أفترض أنَّك لا تفكِّر في أنَّه يجب عليها أن تدفع ثمن

هذه الجريمة يا ريتشارد. لقد كان حادثًا.

«إنَّكِ مؤثِّرة رهيبة في حياتي يا لوثيا. قبل أن أعرفك كنتُ رجلًا نزيهًا، جدِّيًا، وأكاديميًا لا تشوبه شائبة...» وتنهَّد.

ـ أنت ثقيل ومملٌّ يا ريتشارد، ولكن انظر كيف وقعتُ في حبّك على الرَّغم من ذلك.

ـ لم أفكِّر قطّ في أن ينتهي بي الأمر إلى عرقلة سير العدالة.

ـ القانون قاسٍ والعدالة عمياء. والشيء الوحيد الذي فعلناه بكاترين براون هو حرف الميزان قليلًا نحو العدالة الطبيعيَّة، لأنَّنا كنَّا نحمي إيفيلين، وعلينا الآن عمل الشيء نفسه مع شيريل. كان فرانك ليرُوي مجرمًا وقد دفع ثمن خطاياه.

«المهزلة هي أنَّهم لم يتمكَّنوا من الإمساك به بسبب الجرائم التي اقترفها، وكان عليه أن يعترف بجريمة لم يرتكبها»، قال ريتشارد.

ـ أترى؟ هذا ما أعنيه بالعدالة الطبيعيَّة ـ قالت لوثيا وهي تقبِّله بخفَّة على شفتيه ـ أتحبّني يا ريتشارد؟

ـ ما رأيكِ أنت؟

ـ إنَّك تعبدني ولا تجد تفسيرًا كيف أمكن لك أن تعيش كلّ تلك السنوات الطويلة من دوني، ضَجِرًا وبقلب في حالة سُبات شتويّ.

ـ وأدركتُ أخيرًا، في وسط الشتاء، أنّ في داخلي صيفًا في حالة سبات شتويّ.

ـ أهذا ما خطر لك؟

ـ لا، إنَّه لألبير كامو.

شكر

وُلدت فكرة هذه الرواية يوم عيد الميلاد، في بيت من آجرّ قاتم في بروكلين، حيث التقينا كجماعة صغيرة لتناول فنجان القهوة الصباحيّ الأوّل: ابني نيكولاس، وكنّتي لوري، وأختها كريستين بارّا، ووَرد شوماكير وفيڤيانا فليشر. سألني أحدهم عمّا سأكتبه في الثامن من كانون الثاني/يناير الآخذ في الاقتراب، وهو اليوم الذي بدأت فيه كتابة جميع كتبي على امتداد خمسة وثلاثين عامًا. ولأنّني لم أكن قد فكّرت في أيّ شيء، بدأوا بإلقاء أفكار، وهكذا راح يتشكّل هيكل هذا الكتاب.

ساعدني في الأبحاث سارا كيسليلا، كالعادة، وشاندرا راميريث، وسوسان سيبويّا وخوان آييندي وبياتريس مانز.

وكان روجر كوكراس مصدر إلهام قصّة حبّ لوثيا وريتشارد الناضجين.

أوائل قرّائي الناقدين كانوا ابني نيكولاس، وناشرتي جوهانا كاستيّو ونوريا تيي، ووكلائي لويس ميغيل بالوماريس وغلوريا

غوتيريث، وقارئ وكالة بالثيس الصارم خورخي مانثانيا، وأخي خوان، وصديقتاي الرائعتان إليزابيث سويركاسياو ودليا بيرغاس. وكذلك بالطبع: باتشيتا يونا؛ أمّي التي لم تفلت، وهي في السادسة والتسعين، القلمَ الأحمر الذي صحّحت به كتبي كلّها.

إليهم جميعًا وعدد آخر من الأشخاص الذين دعموني عاطفيًّا في الحياة وفي الكتابة خلال هذه السنوات الأخيرة التي لم تكن سهلة بالنسبة إليّ، أدين بهذه الصفحات.



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm